مدونة ابو عبدو

المُعتقَل

سميرة أحمد

نوفل

المُعتَقَل

سميرة أحمد

نقله من الإنكليزية أدونيس سالم

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2021 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2021
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

اقتباس تصميم الغلاف: داليا ضاهر
تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
تحرير ومتابعة نشر: رنا حايك
طباعة: المطبعة العربية

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-764-1
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-765-8

Original title:
Internment
Copyright © 2019 by Samira Ahmed
Cover art copyright © 2019 by Dana Ledl.
Cover design by Karina Granda.
Cover copyright © 2019 by Hachette Book Group, Inc.

إلى توماس، لينا، ونوا فلذات كبدي، وأساس كلّ شيء...

ومن أجل كلّ الذين يناضلون لتحقيق الحريّة والعدالة للجميع بدون استثناء، لكي لا تزول عن وجه الأرض هذه الأمّة، أمّة الشعب، من الشعب وإلى الشعب.

وإن كتمتَ صوتي، سأتكلّم.

وإن قصصتَ جناحيّ وحبستَني في قفص، سأطير.

وإن أوسعتَ جسدي ضربًا، وأمرتني بأن أركع أمامك، سأقاوم.

علي أمين

الفصل 1

أنصتُّ جيّدًا لعلّي أسمع وقع جزمات على الرصيف تسحقه بخطًى ثقيلة، تسير بإيقاعٍ عسكريٍّ ثابت.

لكن لا شيء. فقط صرير الجنادب المألوف، أو هدير محرّك سيّارة يأتي من البعيد بين الحين والآخر، ثمّ لا يلبث أن يتلاشى، أو صفير واهن جدًّا لم أدرِ هل هو صوت الريح أم لهاثي القلق. لكنّ المشهد لا يزال كما كان دائمًا: عشب ساحة سنتر سكواير المشذّب بعناية فائقة، وفي وسط الساحة الخيمة المفتوحة بأنوارها الوامضة، والضوء الأصفر المنبعث من اللمبات المتدلّية فوق أبواب المنازل.

رأيت في البعيد خيطًا من الدخان يرتفع في الهواء.

معظم أهالي البلدة ذهبوا لمشاهدة إحراق الكتب، إذن المفروض أنني في أمان.

أو على الأقلّ، في أمان أكبر.

لم أعد أقيس الزمن بواسطة الرزنامة التقليديّة. لا أنظر إلى التواريخ. لا يوجد سوى «حينذاك» و«الآن». لا يوجد سوى ما كنّا عليه يومًا، وما أصبحنا عليه الآن.

عامان ونصف العام مرّت منذ الانتخابات الأخيرة.

عامان منذ مسيرة النازيّين إلى العاصمة واشنطن.

ثمانية عشر شهرًا منذ صدور قرار الحظر بحقّ المسلمين.

عام منذ أن أدرجتنا أجوبتنا على الاستفتاء في سجلّ الحظر.

تسعة أشهر منذ أوّل إحراق للكتب.

ستّة أشهر منذ إقرار قوانين الإبعاد.

خمسة أشهر منذ اعتبار المدّعي العامّ أنّ وضع الأميركيّين من أصل يابانيّ قيد الاعتقال خلال الحرب العالميّة الثانية يشكّل سابقة قضائيّة تجيز إجبار المواطنين على تغيير أماكن سكنهم في زمن الحرب.

ثلاثة أشهر منذ البدء بطرد المسلمين من وظائف القطاع العامّ.

شهران منذ تعيين أحد أعنف كارهي الإسلام وزيرًا للحرب، وهو منصب لم يعد له وجود منذ الحرب العالمية الثانية.

شهر منذ الخطاب المتلفز للرئيس الأميركيّ أمام الكونغرس، والذي قال فيه: «المسلمون يشكّلون تهديدًا لأميركا».

ظننت أنّ بلدتنا الليبراليّة الصغيرة، المشهورة بجامعتها، قد تقاوم هذه الموجة فترة أطول، وتصمد. الواقع أنّ البعض صمد. لكنّ المرء يفاجَأ بقدرة الجنود المسلّحين، المزوّدين بالرذاذ المحرق للعيون، على تفريق التظاهرات الصادقة للّيبراليّين في البلدات الصغيرة، المزدانة بالأشجار والزهور. حركات الاحتجاج هذه، التي تتحوّل إلى أعمال شغب، لم تنتهِ حتّى الآن، برغم أنّ وسائل الإعلام الرئيسيّة ترفض أن تغطّيها. يقول البعض إنّ المقاومة لا تزال حيّة، ولكنّها ليست كذلك في بلدتي، ولا في نشرات الأخبار الليليّة.

منع التجوال يبدأ بعد ثلاثين دقيقة، وما أقوم به مجازفة حمقاء. لا شكّ في أنّ والديّ سيصابان بالهلع إذا عرفا أنّني لست في غرفتي، أطالع. لكن عليّ أن أرى دايفيد.

أرغمت نفسي على السير بهدوء، وعلى النظر إلى الأمام برأس مرفوع، وكأن ليس عندي ما أخفيه، على الرغم من أنّ كلّ عضلة في جسدي كانت تحثّني على الركض عائدة من حيث أتيت. تقنيًا، أنا لا أرتكب أيّ خطأ، حتّى الآن. ولكن إذا أوقفني عناصر من الشرطة... حسنًا، لنقل إنّ لديهم تلك القدرة الفظيعة على جعل التفاصيل التقنيّة تختفي تمامًا.

تنفّسي.

تمهّلي في سيرك.

إذا سرت مسرعة من ظلّ إلى ظلّ، فسألفت الانتباه إليّ، وخصوصًا انتباه كاميرات المراقبة الجديدة التي تستشعر الحركة، والمركّبة على أعمدة مصابيح الطرق. لم يحن موعد منع التجوال بعد، ويحقّ لي أن أكون خارج المنزل في هذه اللحظة، لكنّ الظلام قد حلّ. وحتّى في هذا المكان، حيث الجميع تقريبًا يعرفونني ويعرفون والديّ – وربّما لهذا السبب تحديدًا – تتسارع خفقات قلبي كلّما خرجت من المنزل. انتظرت إشارة مرور المشاة الخضراء لأعبر الشارع، برغم أنّه خالٍ من السيارات.

لمحت إعلانًا عن إحراق الكتب، ملصقًا على عمود المصباح عند منعطف الطريق، كُتب عليه: «انضمّوا إلى جيرانكم». كُتبت العبارة على صورة كومة من الكتب المحظورة، الخطيرة. شعرت بانقباض في معدتي، لكنّني تابعت سيري، بدون أن تفارق عيناي الملصق، فاصطدمت بامرأة كانت تسير مسرعة بعكس اتّجاهي. تعثّرت المرأة وأوقعت حقيبة يدها، لتسقط منها الكتب والملصقات على الأرض.

انحنيتُ لأساعدها على لمّ أشيائها، وقلت لها: «آسفة، لم أكن أنظر إلى حيث أسير». حاولتُ أن أكون مؤدّبة، وأراعي مشاعرها. قلت لنفسي: «ابقي هادئة. لم يبدأ منع التجوال بعد. لا تتصرّفي كمَن تشعر

بالذنب. لستِ مذنبة في شيء». لكنّ الشعور بالذّنب بات أمرًا تلقائيًا في هذه الأيّام.

لم تلتفت المرأة إليّ، ورفضت أن تلتقي نظرتانا، بل لمّت الكتب والأوراق ودفعتها دفعًا في حقيبة يدها. أخذت كتابين وألقيت نظرة خاطفة على عنوانيهما قبل أن تنتزعهما من بين أصابعي. «بين القصرين» لنجيب محفوظ، و«قدّيسون بلا أسماء» لعلي أمين، والدي.

نظرتْ المرأة في عينيّ لبرهة. انقطع نفسي، وقلت: «سيّدة براون... آسفة...» لكنّ صوتي تلاشى.

تملك السيّدة براون مخبزًا للحلويات يدعى «سويت سبوت» في شارع جفرسون. وقد سبق لها أن أعدّت لمناسبة عيد مولدي الخامس أشهى كعكة تذوّقتها في حياتي، كانت مكسوّة بالكريما الخضراء، وفوقها دمية «تينكر بل».

خلال تلك النظرة الخاطفة، ضاقت عينا السيّدة براون، وفتحت فمها لتتكلّم، لكنّها سرعان ما أغلقته. ثمّ خفضت بصرها وابتعدت عنّي مسرعة. لم تلفظ اسمي حتّى. وطار ملصق إحراق الكتب الذي كانت تحمله، وأخذ يتشقلب بعيدًا في الهواء. انقبضتُ أكثر. أصبحت دائمة الخوف. أخاف أن يشي بي الغرباء أو الأشخاص الذين أعرفهم، أخاف أن يستوقفني أفراد الشرطة ويطرحوا عليّ أسئلة لا أجوبة عنها.

أسرعت الخطى لأعبر ساحة البلدة، ونظرت أمامي، أحاول أن أمحو الخوف عن وجهي، وأقاوم الدموع التي ترقرقت على أطراف عينيّ. لم أتحمّل النظر إلى مبنى إدارة الجامعة ذي الواجهة الزجاجيّة اللمّاعة، بخطوطه الهندسيّة المستقيمة وأطرافه القاطعة كحدّ السيف. والدة دايفيد أستاذة كيمياء في الجامعة. وأبي يعلّم الشعر والكتابة الأدبيّة. أو بالأحرى، «كان يعلّم»، حتّى طُرد، بعدما اعتُبر – لسبب غامض – أنّه

ليس أهلًا لحمل لقب بروفسور جامعيّ، رغم مرور عشر سنوات على نيله إيّاه. أضيف إلى لائحة الـ«حينذاك»: شهران منذ خسارة أبي عمله.

لم تفارق السيّدة براون ذهني: إنّها تعرفني، وقد رأتني. لن يلبث منع التجوال أن يبدأ، وبعد دقائق سأكون قد خالفته. من البديهي أنّني لا أذهب إلى تجمّع إحراق الكتب. يجب أن أكون في المنزل. اشتدّ الانقباض في معدتي.

تذكّرت درسًا تلقّيته في صفّ علم النفس حول اختبار يُطلب فيه إلى متطوّعين تعذيب أشخاص موجودين في غرفة ثانية، بالضغط على زرّ يُفترض أنّه يُطلق صدمة كهربائيّة. لم يكن ذلك يحدث فعلًا، لكنّ المتطوّعين لم يعلموا. كانوا فقط يسمعون صراخًا. في البدء قاوم بعضهم، لكنّ معظمهم أخذوا بعد ذلك يضغطون الزرّ حتّى حين علا الصراخ.

كان دايفيد ينتظرني في الغرفة التابعة لحوض السباحة في حديقة منزل جيرانه. وكان هؤلاء يقضون إجازة في هاواي. إجازة. لا أستطيع حتّى أن أتخيّل السفر في إجازة في الوقت الراهن، بدون القلق من أن يستوقفني جهاز الأمن التابع لإدارة النقل لإخضاعي لتفتيش ثانٍ، قد يؤدّي إلى تقييد يديّ بالأصفاد إلى جدار طوال ساعات، أو إلى ما هو أسوأ.

كان دايفيد يجازف أيضًا، برغم أنّ كلينا يعرف أنّ الأمر مختلف بالنسبة إليه. لعلّه أسمر – يكاد يكون أكثر سمرة منّي – ويهوديّ. لكن حاليًا، ديانتي أنا هي المستهدَفة.

طُردنا من المدرسة ليومين لأنّنا تبادلنا قبلة في الردهة، أمام عيون الجميع. من الناحية القانونيّة، لم نكن نرتكب أيّ مخالفة. لكنّني أظنّ أنّ المدير لم يشأ أن يبدو كأنّه يشجّع على نشوء علاقات «بيننا» و«بينهم». يبدو أنّ المجاهرة بالعواطف تخالف القوانين المدرسيّة، لكنّني لم أسمع قطّ بأنّ أيّ طالب طُرد من المدرسة بسببها. الأسوأ من ذلك أنّه، برغم أنّ دايفيد طُرد مثلي، كان والداي فقط هما مَن استُدعيا إلى المدرسة

لسماع محاضرة عن وجوب أن أعرف مكانتي، وأبقي رأسي منخفضًا، وأشعر بالامتنان لأنّني أنال امتياز ارتياد تلك المدرسة. شعرت بالذهول. أمّا أبي، فقد هزّ رأسه موافقًا وتقبّل الأمر. كذلك فعلت أمّي برغم أنّ العبوس لم يفارق وجهها طوال مكوثنا في ذلك المكتب. وحين شرعتُ بفتح فمي، محاولة أن أقول شيئًا، هزّت أمّي برأسها تنهاني عن ذلك. وكأنّ عليّ أن أشعر بالامتنان لأنّني أرتاد المدرسة الحكوميّة التي ارتدتها منذ طفولتي، في البلدة التي وُلدت ونشأتُ فيها.

لماذا لزما هذا القدر من الصمت؟ وخصوصًا أمّي؟ إنّها تكاد لا تصمت أبدًا.

غادرت المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم، وخشي والداي أن يسمحا لي بالعودة إليها.

كان باب غرفة حوض السباحة نصف مفتوح. حبست أنفاسي لبرهة قبل أن أدخل.

«ليلى»، همس لي دايفيد وهو يلامس خدّي بأصابعه. ورث دايفيد عن أبيه عينيه اللتين يمتزج فيهما اللونان الأزرق والرماديّ، وعن أمّه بشرتها السمراء كالذهب الغامق. وكان ذا قلب يفيض لطفًا.

على المنضدة الصغيرة شمعة وحيدة مضاءة. كان دايفيد قد أسدل الستائر في تلك الغرفة الصغيرة، التي تحتوي كنبة بيضاء يعلوها عدد من الوسائد الكحليّة، يحمل بعضها رسوم مرساة، ومقعدين بذراعين، بدَوا لي ضخمين جدًّا، وأوعية زجاجية كثيرة ملأى بالأصداف البحريّة الورديّة أو العاجيّة اللون. وعلى الجدار ملصق في إطار كُتب عليه «الحياة بحر غدّار» على خلفيّة رمل أبيض وبحر وسماء أزرقين.

كنّا وحدنا. خُيّل إليّ أنّ هذا ما كان يحدث منذ عقود، قبل أن تأتي الأضواء الباردة لشاشات الحواسيب والألواح الإلكترونيّة والهواتف وتزيل نهائيًا سكينة الظلمة من حياتنا. لم أتفوّه بكلمة واحدة، بل سرت

إلى ذراعَي دايفيد وقبّلته. تظاهرت بأنّ العالم خلف تلك الستائر غير موجود. وجودي بين ذراعيه هو الشيء الوحيد الذي شعرت بأنّه حقيقيّ في تلك اللحظة. إنّه المكان الوحيد حيث يمكنني أن أتظاهر لهنيهة بأنّنا لا نزال نعيش في الـ«حينذاك»، حيث كانت الأشياء... وكما كانت، بأنّني ودايفيد نضع خططًا لقضاء الصيف، وبأنّنا سنلعب التنس في الصباح، ونذهب إلى السينما، بأنّني سأتخرّج بعد أشهر قليلة، وأذهب إلى الجامعة كأصدقائي، بأنّني سأتبادل ودايفيد كنزتينا المدرسيتين، بأنّ العلاقات العاطفيّة التي تبدأ في المدرسة الثانويّة تستمرّ في الجامعة. وفوق كلّ شيء، بأنّ هذه الساعة السحريّة هي بداية لشيء ما، لا النهاية.

غرقنا في الكنبة. فيما كنّا نتبادل القبلات، مرّت رؤوس أصابعه على ترقوتي. تلك اللمسة الخفيفة كالهمس تجعلني أرتعش. غاص وجهي في عنقه. أشمّ في دايفيد دائمًا مزيجًا يدغدغ أنفي من مسحوق الغسيل برائحة الزهور الذي تشتريه أمّه والصابون برائحة النعناع الذي يستخدمه هو. أعرف أنّ والدته ما زالت تغسل له ملابسه، وتعامله كطفل. وأنا أغيظه في هذا الأمر، وأقول له إنّ كلّ ملابسه البيضاء سيتحوّل لونها إلى الورديّ في الجامعة لأنّه سينسى أن يفصل بينها وبين تلك الملوّنة. تنهّدت. قرّبتُ خدّي من خدّه، وأحسست بشعيرات لحيته غير المكتملة بعد. تعانقنا. وتعانقنا أكثر.

كان يمكن لتلك اللحظة أن تكون لحظة مثاليّة لتجميد مسار الزمن، وحبسه في صورة صغيرة أسكنها إلى الأبد. لكنّني لا أستطيع أن أفعل.

ألقيت ذقني على صدر دايفيد، وقلت له:

– ليتني أستطيع البقاء هنا إلى الأبد. هل من باب سحريّ ينقلنا إلى بُعد آخر؟ هل من سيّد للزمن؟

– كان عليّ أن أسرق آلة الزمن حين أتيحت لي الفرصة.

ألحّ علينا أبي لمشاهدة مسلسل «دكتور هو»، بدْءًا بحلقاته القديمة، فتعلّقنا به. وبين الفترة والأخرى كانت الرغبة في مشاهدته تستبدّ بنا، فنتسمّر أيّامًا أمام الشاشة. وبرغم رداءة الصوت والإضاءة والمؤثّرات أحيانًا، كانت وحوش المسلسل مرعبة. «دكتور هو» هو أحد طقوسنا معًا.

ابتسمتُ ابتسامة صغيرة لدايفيد. لطالما كان قادرًا على إضحاكي، لكنّ الفكاهة مؤلمة الآن. أشتاق إلى الدعابات الغبيّة، أشتاق إلى الضحك الذي لا يجعلني أشعر بالذنب. أشتاق إلى الضحك النابع من بهجةٍ بسيطة.

كلّ ما يحدث أثناء وجودي مع دايفيد يبدو فطريًّا. كابتسامة السعادة المحتالة المرسومة على وجهه الآن. كأوقات الهناء التي يمكننا أن نقضيها في صمت. كقدرة كلّ منّا على أن يكون مع الآخر، بكلّ بساطة. عرف أحدنا الآخر منذ كنّا في الابتدائيّة، لكنّنا لم نتبادل القبلة الأولى إلّا في العام الماضي، خلال سهرة النار التي يجتمع فيها الطلّاب القدامى في الثانويّة. في تلك الليلة، جلس دايفيد بجانبي وأمسك يدي، شابكًا أصابعه بأصابعي. شعرت آنذاك بأنّني أستيقظ في صباح مشرق. كان كلّ مَن حولنا، فتيانًا وفتيات، يشربون الكحول، ويستعيدون ساخرين أغنية الفِرق الرياضيّة في المدرسة، ويتداعبون... أمّا نحن فاكتفينا بالجلوس هناك، وكلّ منّا يمسك يد الآخر. حين بدأت جمرات نار الموقد تنطفئ، والجمع ينفرط، التفتّ لأنظر إلى دايفيد. وحين مسحت لطخة رماد عن جبينه، أخذ يدي إلى شفتيه وقبّل أناملي. اقتربت منه وقبّلته، ونبضي يتردّد في كلّ خليّة من جسدي.

حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، أجدني قد انجذبت إلى دايفيد لأنّه كان مثلي، مختلفًا. فعائلة أبيه من اليهود الأشكيناز، أمّا عائلة أمّه فمن

اللاجئين اليهود من اليمن. لعلّ السياسة والحدود يُفترض بها أن تفصل بيننا، لكنّني ودايفيد بنينا مكانًا آمنًا لنا، عشًا جمعتنا فيه اختلافاتنا.

نظرت إلى عيني دايفيد وشددت على يده. كان كلانا يعرف أنّ عليّ أن أذهب، وأنّ هذه الأمسية لا يمكنها أن تدوم. نهضنا عن الكنبة بدون أن نقول كلمة واحدة. أقفلت سحّاب كنزتي. طوّق دايفيد خصري بذراعيه، ونثر قبلاته الرقيقة فوق وجهي. تردّد صدى خفقات قلبي في أذنيّ. كان يمكنني أن أعيش في تلك اللحظة إلى الأبد، وأدع الوقت يتلاشى إلى أن نستيقظ على المقلب الآخر من هذا الجنون.

– ليت لدينا مزيدًا من الوقت، قال دايفيد.

أعرف أنّ ما يعنيه هو وقت أطول هذا المساء. لكن لا يمكنني إلّا أن أعتبر أنّه يقصد بكلماته شيئًا أكثر. لقد أصبح للوقت ثقل خاصّ به، مزاجٌ ما، من ذلك النوع الذي ينذر عادةً بالشؤم.

– لا مكان لنا في هذا العالم، لا اليوم ولا غدًا. قلت لدايفيد ثمّ قبّلته في خدّه.

عقد دايفيد حاجبيه، مرتبكًا بعض الشيء.

– إنّه بيت من قصيدة قديمة جدًّا للشاعر ووردسوورث، طلب منّي أبي أن أقرأها، وتعني أنّ النزعة الاستهلاكيّة تقضي علينا، ولا تترك لنا وقتًا لما هو مهمّ حقًّا. لكنّني أحيانًا أفهم من هذا البيت أنّ العالم تعمّه الفوضى...

دوّت إشارة صوتيّة من هاتفينا في الوقت عينه. نظرت إلى شاشتي، فوجدتها تومض بإنذار عاجل:

«شعب واحد، أمّة واحدة. تابعوا عند التاسعة من هذا المساء خطاب الرئيس عن الأمن القوميّ، الذي سيُبثّ على كلّ القنوات التلفزيونية».

إنّه تذكير بموعد الخطاب الأسبوعيّ هذا المساء. منذ أسبوعين أصبحت مشاهدة خطابات الرئيس أمرًا لا مهرب منه. فما إن يبدأ الخطاب حتى تتوقّف كلّ البرامج التلفزيونيّة والإذاعيّة لبثّه، ويُرسَل نصّه إلى الهواتف، ويُقطع الإنترنت. من الناحية القانونيّة، أفترض أنّه يمكننا أن نطفئ جهاز التلفزيون. لكنّ والديّ لا يطفئانه، بل يتركانه مفتوحًا ويخفضان الصوت. فقد أصبحا يخافان كثيرًا من أن يرتكبا أيّ خطأ.

– أمّا هذا الهراء! يُفترض بالإنذارات أن تكون من أجل الأطفال المفقودين أو ما شابه، لا من أجل خطابات المتعصّبين. قال دايفيد وهو يهزّ برأسه ويشدّ على يدي بقوّة.

– عليّ أن أعود. قلت له. سهرة النار ستنتهي قريبًا، والناس سيعودون إلى منازلهم. ثمّ أضفت وأنا أفكّر في ارتطامي بالسيّدة براون وفي عينيها اللتين ضاقتا: أمّي ستموت إذا قبضوا عليّ.

تراجع دايفيد خطوة. وانقبض فكّه قبل أن يتكلّم ويقول:

– «سهرة النار»؟ دعينا من التعابير الملطّفة. إنّهم يحرقون الكتب في موقف سيّارات المدرسة. إنّهم يحرقون الكتب، السّفلة! أمّي أستاذة جامعية لعينة، وهي تشارك في الأمر، وأبي كذلك...

– أعرف، قلت له هامسة. إنّها كتب أبي، وقصائده. ثمّ خانني صوتي، وانسكبت الدموع على خدّيّ، فمسحتها بظاهر يدي، وأضفت: إنّهم يحرقون قصائده. وهو يتظاهر بأنّ ذلك لا يحدث. لكنّ تلك الكلمات هي أبي. وهو يحاول إخفاء الأمر، لكنّني أعرف أنّه يؤلمه. يؤلم والديّ كليهما ويؤلمنا كلّنا. هل هكذا تكون بداية النهايات؟

– هذه ليست نهاية أيّ شيء، قال. وخصوصًا ليست نهايتنا، أنتِ وأنا.

– طبعًا. صحيح. وكأنّ والديك لم يمنعاك من رؤيتي.

– أبي هو مَن منعني. يتصرّف بنذالة، وأميّ تجاريه. أظنّها تخشى التعبير عن رأيها.

خطر ببالي أن أقول شيئًا، كأن أخبر دايفيد أنّ والديه ليسا بهذا السوء. لكنّني لن أفعل. لن أقول ذلك. فهما يلزمان الصمت، ويختبئان خلف صمتهما وامتيازاتهما.

– سنقاوم ما يجري. الشعب سيقاومه. إنّه الآن يقاوم، قال دايفيد محاولًا أن يطمئنني.

أدركت ما يفكّر فيه. إنّه يحتاج إلى أن يكون قويًا، ليبدو كأنّه يصدّق كلماته، لكنّني لا أظنّه يصدّقها. أعرف ذلك لأنّ أطراف شفتيه تتدلّى حتى حين يبتسم. أعرف ذلك لأنّه يضمّ كفّ يده اليسرى على شكل قبضة مشدودة برغم أنّ ذراعه اليمنى تطوّقني. هززت برأسي وابتسمت له ابتسامة باهتة. أعتقد أنّنا نقبل الأكاذيب التي يقولها كلّ منّا للآخر ولنفسه. إنّها إحدى الوسائل لكي نتجاوز الجحيم الذي نعيشه كلّ يوم بدون أن نصاب بالجنون.

على الأقلّ، ما يحدث بيننا ليس كذبًا ولا ادّعاءً. ألقيت برأسي على صدره، فقبّلني في شعري.

حين بدأت علاقتنا، استغربت فكرة أن أواعد صديقًا لي يعرفني منذ زمن بعيد. حين سرنا لأوّل مرّة عبر أبواب المدرسة وفي الردهة وكلّ منّا يمسك يد الآخر، كان العرق يتصبّب من كفّي بغزارة، ما جعل يدي تنزلق من يده أكثر من مرّة. لكنّه أمسكها بقوة، وشبك أصابعه بأصابعي. وقبّل جبيني حين أوصلني إلى خزانة كتبي. بكلّ بساطة، وطبيعيّة، ولطف. وكأنّه كان يعرف دومًا أنّنا سنكون معًا.

سمعنا ضجيجًا خارج النافذة، فرفعنا رأسينا. مرّ شعاع ضوء على عشب الحديقة جيئة وذهابًا. وضع دايفيد إصبعه على شفتيه. لم أتحرّك. لا أستطيع أن أتحرّك. كان قلبي يخفق بشدّة في صدري.

بعد فترة بدت دهرًا، انطفأ الضوء.

– يجب أن تعودي إلى المنزل، همس لي دايفيد. سأرافقك.

– لا، تلك مخاطرة كبيرة.

– الخطر عليكِ أكبر.

نظرتُ إلى ساعتي. سبع عشرة دقيقة انقضت على بدء سريان منع التجوال. ما هذا الذي فعلته؟

أمسك كلّ منّا بيد الآخر، سرنا بحذر إلى الباب، وفتحناه ببطء. مدّ دايفيد رأسه إلى الخارج، ثمّ همس لي:

– لا بأس. لا أحد هنا.

أخذت نفسًا عميقًا، وخرجت. كان الخطر قريبًا، قريبًا جدًّا. ما فعلناه كان جنونيًا. رائع، لكن أحمق.

اجتزنا الحديقة ركضًا. هواء الليل محمّلٌ برائحة حريق نفّاذة. ظهر الدخان المتصاعد فوق سقوف المنازل والمباني، وكان أعلى من ذي قبل. باقات سوداء من الكلمات والأفكار والأرواح. قربان محترق يرتفع تضرّعًا إلى السماء. لم أدرِ ما إن كانت الدموع في عينيّ تسيل بسبب الدخان أم الحزن.

«توقّفا!» صاح صوت حادّ خلفنا، وامتلأت الظلمة بنور متوحّش، فأطلقنا ساقينا للريح.

– اذهبي! صاح بي دايفيد، وهو يخفّف سرعته ليستدير، ويسحب يده من يدي.

توقّفت، فكدت أتعثّر، ثمّ قلت له:

– لا يمكنني أن أتركك.

دفعني دايفيد إلى الظلمة وقال لي:

– لست أنا مَن يسعون إليه. اركضي!

الفصل 2

كنت أركض عائدة إلى المنزل والدموع تعمي بصري. ومع اقترابي من حديقتنا، أدركت أنّني ربّما أكون اليوم أسرع من الشخص الذي طاردني، وأنجو، لكن مهما بلغت سرعتي، فلن تمكّنني أبدًا من الهروب من الواقع الجديد، واقع منع التجوال واللقاءات السريّة والرماد المتطاير في الهواء.

فتحت باب المنزل الأماميّ، تسلّلت إلى الداخل، وسارعت إلى إقفاله ورائي. كنت ألهث تعبًا، وقلبي يخفق بسرعة، أمسح الدموع عن وجهي بكمّ كنزتي، والرعب يتملّكني من احتمال أنّ الشخص الذي راح يلوّح بالضوء الكهربائيّ في الظلمة قد قبض على دايفيد. لكنّ رائحة البصل المقليّ وعجينة الثوم والزنجبيل فاجأتني. فاختلطت لديّ رائحة المنزل برائحة اليأس والعرق وانقطاع الأنفاس، كما بطعم الصدأ في فمي.

هرع والداي خارجين من المطبخ. ما إن رأتني أمّي حتّى انفتح فمها ذهولًا، ثمّ شحب لونها، وراحت تفرك عينيها بيديها. من الواضح أنّها أرادت أن تمحو تلك اللحظة. أسندت نفسها إلى الكونسول المصنوع

من خشب القيقب في ردهة المدخل، والذي كان أوّل ما اشترياه معًا هي وأبي من سوق البرغوث، بعد تعارفهما، وذلك قبل ولادتي بسنوات.

أبي أفضل تجسيد لصورة البروفسور الجامعيّ: نحيل من غير أن يكون بارز العضلات، ذو شعر مموّج يبدو دائمًا متلبّدًا قليلًا، تشوب لونه الكستنائيّ الغامق خيوط شيب متفرّقة، ويضع نظّارة ذات إطار بلاستيكيّ أسود يفضّلها على العدسات اللاصقة. وكما يفعل دائمًا، كلّما كان يفكّر في شيء عميق أو يساوره القلق، نزع النظّارة وفرك بأصابعه الأثرين الأحمرين الصغيرين اللذين تتركهما على جانبي أنفه.

– ليلى، قال لي. هل بإمكانك أن تشرحي لنا لمَ كنت خارج المنزل؟ الآن؟ ليلًا؟

كان صوته حازمًا لكنّه لم يصرخ. ليس من عادة أبي الصراخ. وهو بالكاد يرفع صوته في وجهي، حتّى حين أستحقّ ذلك. ومن الواضح أنّني كنت أستحقّ ذلك في تلك اللحظة.

لكنّ صوت أمّي، كالعادة، كان أقلّ انضباطًا من صوت أبي. فقالت حتى بدون أن تنتظر ردّي:

– كان يجب أن تكوني في غرفتك. بدأ سريان منع التجوال. لا أصدّق أنّك ارتكبتِ حماقة كهذه. هل تعرفين ما كان ممكنًا حدوثه؟ ألا تفكّرين في العواقب؟

هزّت رأسها، وكزّت على أسنانها، فيما التمعت نظرات الغضب والخوف في عينيها. عينا أمّي ليستا بنّيتين غامقتين بقدر عينيّ، بل تخالطهما بقع جوزيّة اللون وخضراء، وهو برأيها ما يؤكّد أصولها البشتونيّة البعيدة.

اضطرب صوت والدتي، لأنّنا كلّنا نعرف ما كان ممكنًا حدوثه. فثمّة أحاديث تدور همسًا حول مسلمين فُقدوا. مسلمون مثلنا، أجابوا بصدق عن السؤال المتعلّق بديانتهم في الاستفتاء، مسلمون رفضوا أن يختبئوا.

حملقتُ في حذائي الـ«كونفرس أول ستارز»، وحاولتُ أن أزيل الغبار عن إحدى الفردتين، بالفردة الأخرى.

– ليلى، أجيبي عن أسئلة أمّك، قال أبي.

«أمّك». لعلّ أبي لا يصرخ، لكنّه يستخدم الألقاب الرسميّة حين يكون في قمّة غضبه.

– كنت مع دايفيد، أجبت بصوت يكاد لا يُسمع.

– دايفيد؟ هل خالفت منع التجوال لتقابلي دايفيد؟ أنت مجنونة؟

أدارت أمّي لي ظهرها، وتريّثت قليلًا قبل أن تدخل إلى الغرفة الكبرى في منزلنا، وهي غرفة جلوس تنتهي بقاعة زجاجيّة متّصلة يغمرها ضوء الشمس. جلست متهالكة في أريكة وثيرة بلون القشدة، مزيّنة بشرّابات قماشيّة ملوّنة، وراحت تحملق في المدفأة. أمّي تشبهني، عرفت أنّها كانت في تلك اللحظة تغلي غضبًا، لكنّها امرأة أمضت سنوات تمارس التأمّل. تقول إنّها الطريقة الوحيدة التي تهدّئها... لم تتفوّه بكلمة واحدة، بل رفعت يدها إلى مؤخّرة عنقها، وأرخت شعرها الذي اعتادت لفّه على شكل كعكة حين تطهو. انسدل شعرها الأسود، الملوّح ببعض خيوط الشيب حول وجهها، فحجبه عنّي. رأيت حبّات سبحة الصلاة المصنوعة من خشب الورد تكرج بين أصابعها. لم أكن بحاجة إلى أن أرى فمها لأدرك أنّها كانت تتمتم بالصلاة.

– بيتا، قال لي أبي (كلمة «بيتا» تعني «يا بُنَيّة» بلغة الأوردو. وإن كانت كلمتا «أمّ» و«أب» تدلّان على غضبه، فكلمة «بيتا» هي الدلالة الأوضح على حبّه). أعرف أنّ هذا صعب بالنسبة إليك. لكنّ عليك أن تفهمي أنّ دايفيد لن يواجه العواقب التي ستواجهينها أنت. لا يمكنك المخاطرة بنفسك هكذا. أمّك وأنا خائفان عليك.

– أعرف، أنا أيضًا خائفة. لكنّ دايفيد هو الشيء الوحيد الطبيعيّ الذي بقي لي. رجاءً، لا تجعلاني أخسره.

أجفل أبي قليلًا، وكأنّ كلماتي أصابته في الصميم. خفض بصره ونظر إلى الخفّين الجلديّين الهنديّين اللذين ينتعلهما في المنزل عادة، وكأنّهما يتفحصهما، أو كأنّه ينتعلهما للمرّة الأولى، وليس للمرّة المليون. برغم انقطاعه عن العمل، ظلّ يرتدي ثياب التعليم، أي كنزة بياقة على شكل V وسروال جينز.

– بيتا، لا يمكنك أن تغادري المنزل قُبيل منع التجوال. هذه مخاطرة كبيرة. أعرف أنّك تشعرين في المنزل وكأنّك في سجن، لكنّ بقاءك فيه أفضل لسلامتك. الأمر غير قابل للنقاش.

يفتخر أبي بالمحافظة على اتّزانه حتّى حين يكون غاضبًا. نظرت إليه يحملق بي، وكأنّني أنظر إلى عينيّ البنّيتين الواسعتين في المرآة.

هززت رأسي وتظاهرت بأنّني موافقة. الواقع أنّني لم أكن كذلك، لكنّني بحاجة ماسّة إلى إنهاء هذه المحادثة، لأبعث برسالة نصّية إلى دايفيد وأعرف ما إن كان بخير. لم أكن واثقة بأنّ أبي صدّقني، لكنّه اعتبر هزّة رأسي علامة قبول. مزيد من التظاهر، مزيد من الأكاذيب التي نقولها لأنفسنا لأنّ الحقيقة أصعب من أن نتحمّلها دفعة واحدة. ابتسم لي ابتسامة كئيبة وسار نحو أمّي.

اتّجهت إلى أسفل الدرج وجلست على أولى درجاته، ثمّ أخرجت هاتفي من جيبي. يجب أن أخبر دايفيد أنّني وصلت إلى المنزل بأمان. لعلّه قلق جدًّا لأجلي، كما أنا قلقة لأجله.

ما لا يمكن إدراجه تحت عنوان التظاهر، هو مسألة المراقبة. قد أرتكب حماقات، وأجازف بأن أُعتقل بعد سريان منع التجوال كي أرى حبيبي، لكنّني لست من الغباء لكي ألجأ إلى خدمة الرسائل النصيّة العاديّة. بل كنّا نستخدم تطبيق «سيغنال» لتبقى رسائلنا مشفّرة.

أنا: أنا في المنزل. أنت بخير؟

دايفيد: نعم. كان ذلك جيم.

أنا: جارك في الشارع؟ ما الذي دهاه؟

دايفيد: إنّه في مجموعة «تحالف الوطنيّين».

أنا: ما هي هذه المجموعة؟

دايفيد: أظنّها مبادرة جديدة لإبقائنا «في أمان».

أنا: صحيح، «في أمان» من أشخاص مثلي. مهلًا. أليسوا هم مَن يستخدمون تطبيق «وطنيّون» للوشاية بجيرانهم؟ الأنذال!

دايفيد: لم يرَك. قلت له إنّها آشلي، وإنّنا هربنا لأنّ الضوء أثار هلعنا، وخشينا أن يكون قاتلًا متسلسلًا. أظنّه صدّقني. ربّت ظهري بطريقته الفظّة.

أنا: هل ستؤكّد آشلي أقوالك؟

دايفيد: الأفضل لها أن تفعل. إنّها الآن شريكتي في صفّ المختبر. إن لم تؤكّد أقوالي، فسأفسد كلّ التجارب العلميّة التي نقوم بها.

أحسست بالنار تشتعل في صدري. طبعًا وجد شريكة جديدة في صفّ المختبر، بعدما غادرتُ المدرسة، وطبعًا واصل حياته. استبدّت بي الغيرة لأنّ آشلي، آشلي الدمثة الأخلاق واللطيفة، ستجلس بجانب دايفيد ساعة كاملة في المدرسة، بدون أن يكون في ما تفعله أيّ مجازفة. أردت أن أرمي هاتفي أرضًا، وأطأه، وأسحقه لأحوّله إلى شظايا من الزجاج والمعدن. ولكن، ما جدوى التذمّر من ظلم الحياة؟ لطالما كانت الحياة ظالمة بحقّ شخص ما، في مكان ما. وأظنّ أنّ دوري حان.

دايفيد: ليلى؟

أنا: أنا هنا.

دايفيد: أحبّك.

أنا: أعرف. ❤

دايفيد: سآتي بعد انتهاء المدرسة غدًا إذا استطعت. أحلامًا سعيدة. ⬤⬤⬤

أنا: 😐❤❤

ولكنّ العلامة التي أردت إرسالها كانت: 💔

رفعت بصري عن الهاتف، فرأيت أنّ والديّ دخلا المطبخ. وسمعتهما يخرجان الأطباق من الخزانة ويعدّان المائدة. أسرعت بالصعود إلى غرفتي لأضع فيها هاتفي. ففي منزل عائلة أمين، لا يُسمح بوجود الهواتف على مائدة العشاء.

أسرعت بالنزول، لأرى والديّ قد جلسا إلى الطاولة. جلست في كرسيّي المعتاد، ذي قماش التويد الرماديّ، والذي يتناسب تمامًا مع شكل جسدي. لم يتفوّه أحد بكلمة واحدة. التقت عيناي بعيني أبي لبرهة، لكنّ أمّي لم ترفع بصرها. ففتيل غضبها أسرع اشتعالًا، وإخماد نيرانه يتطلّب وقتًا أطول ممّا في حال أبي. صحيح أنّ لديهما اختلافاتهما، لكنّهما يتّحدان دائمًا تقريبًا في جبهة واحدة. تعلّمت ذلك في طفولتي حين كنت أحاول التلاعب بواحدهما ضدّ الآخر لأحقّق ما أريد فأفشل في كلّ مرّة.

– أتريدين السبانخ؟ سألتني أمّي بصوت لم تغب عنه الحدّة تمامًا، لكنّني لاحظت أنّها تحاول تخفيف نبرتها.

– لا، شكرًا، أجبتها.

عرضت بعض السبانخ على أبي، الذي أجابها:

– حسنًا، بشرط ألّا يكون مذاق الثوم حادًّا فيها.

– بعد عشرين عامًا من الزواج، أظنّني بتّ أعرف كيف تحبّ السبانخ، ردّت أمّي بابتسامة، وهي تناوله طبقًا من السبانخ باللحم، يتصاعد منه البخار.

نظرت إليهما جالسين قبالتي على الطاولة. أمسكت بأطراف كنزتي ولويت قماشها بيديّ. قبل دقائق كنت أدخل باب المنزل راكضة، خائفة من مطاردة أحد العملاء الحكوميّين، الذي لم يكن سوى طبيب الأسنان

المتوسّط العمر، الذي يسكن قريبًا من دايفيد، فاستقبلني والداي وعلى وجهيهما نظرات الرعب. وها هما الآن يتبادلان غزلًا زوجيًا بشأن السبانخ.

– لا أفهم كيف تتصرّفان بطريقة طبيعيّة تمامًا، قلت لهما. قبل قليل كنتما هلعين ووبّختماني لأنّني عدت إلى المنزل بعد سريان منع التجوال، والآن تتحدّثان عن الثوم؟ إنّهم يحرقون كتبًا... كتب أبي!

– ماذا تتوقّعين منّا أن نفعل يا ليلى؟ سألني أبي بصوت رقيق. كيف تقترحين عليّ أن أوقف عصابة من المجرمين؟

كان أبي يستخدم ذلك الصوت الرقيق كلّما أراد أن يهدّئ من روعي ويجعلني أشعر بالأمان. لكنّي الآن، شعرت بأنّه يشي بالضعف.

– أعرف أنّكما تخافان كثيرًا قول أيّ شيء أو فعل أيّ شيء، لكنّ صمتكما لا يحمينا من الكراهية.

اقتربت منّي أمّي ووضعت ذراعها حول كتفيّ. جزء منّي كان يريد الاستسلام لعناقها، لكنّ جزءًا آخر منّي كان يشعر بالغضب كذلك، فتصلّب جسدي حين لامستني. ابتعدتُ وأخذت نفسًا عميقًا ثمّ قالت:

– نريد طبعًا أن نقول شيئًا ما وأن نفعل شيئًا ما. لكنّنا سنُسجن إذا ما عبّرنا عن رأينا. حينئذ مَن سيهتمّ بك؟

اعتراني الخجل لبرهة لأنّني جعلتهما يشعران بالذنب. لكنّني أبعدتُ عنّي هذا الخجل، فكلّما فكّرت في الأمر أكثر، تدفّق الغضب أكثر كالنار في عروقي.

– لا يمكننا تجاهل ما تفعله الحكومة، وما ترغم الجميع على فعله. أبي طُرد من عمله، وفُرض علينا منع التجوال، قلت وأنا أهزّ رأسي. لكنّكما مشغولان بالحديث عن السبانخ والثوم، لدرجة أنّكما لا تجدان الوقت لتقولا شيئًا، أو تفعلا شيئًا. أيّ شيء!

– بيتا، قال أبي، نحن لا نتجاهل واقع حياتنا، ولسنا نختبئ. لم ننكر هويّتنا حين أتيحت لنا الفرصة، صحيح؟ أتذكّر جيّدًا يوم تردّدتُ،

وتساءلت عمّا إن كان يجب أن أكذب، فاعترضتما، أمّك وأنت، بحزم. وكنتما على حقّ. أجبنا عن أسئلة الاستفتاء بصدق. نحن مسلمون. نحن أميركيّون. وسنواصل عيش حياتنا مدركين أنّ هاتين الهويّتين لا تتنافيان.

– ربّما كان يجب أن نكذب في ذلك الاستفتاء السخيف. لعلّ من الحماقة أن يتمسّك المرء بمبادئه إن كانت معتقداته ستورّطه في مشاكل، قلت لهما. هناك آخرون كذبوا. ساره وأيدان في لندن الآن، بمنأى عن كلّ هذه المشاكل لأنّهما ملآ خانة «لا دين لي» بدلًا من خانة «مسلم». الأمر سهل.

تبادل والداي النظرات، ثمّ وضعت أمّي يديها فوق يدي وقالت:

– أعرف أنّنا تجادلنا في الأمر من قبل. لكنّني وأباك مقتنعان بهذا الآن أكثر من أيّ وقت مضى. لن ننكر مَن نحن. لن نكذب بشأن كوننا مسلمين. المسلمون موجودون في أميركا منذ أن بدأ استقدام العبيد إلى هنا. هل تتخيّلين ما عانوه من أجل أن يحافظوا على إسلامهم؟

ملأت الدموع عينَي أمّي، فالتفتَ إلى أبي وسألته:

– هل تتذكّر ما قلتَه من قبل بشأن مبدأ التقيّة؟ وضرورة أن يبقى المرء حيًّا كي يستطيع ممارسة العبادة لاحقًا؟ لعلّك كنت على حقّ.

– بيتا، قال أبي متنهّدًا وهو يهزّ برأسه. قلت ذلك بدافع الخوف، بدافع غريزيّ لحمايتك وحماية أمّك. أنا حقًّا أريد حمايتكما، لكنّني أشعر بالخجل لأنّني سمحت لنفسي بالتفكير، ولو لدقيقة واحدة، في أنّ إخفاء هويّتنا هو الموقف الصحيح. اللجوء إلى التقيّة، أي كتمان المرء ديانته، أمر قابل للمسامحة، ولكن فقط في حالات الاضطهاد الشديد، بهدف النجاة من الموت. ولا يمكننا القول إنّ الاستفتاء شكّل خطرًا على حياتنا. انظري إلى سميّة بنت خُبّاط. ما دامت هي لم تُخفِ إيمانها، فلا يجوز لنا أن نخفيه.

- لقد تعرّضتْ سميّة للتعذيب وطُعنت بحربة! أليس هذا اضطهادًا؟

قلت ذلك ثمّ تريّثت، في انتظار أن يخالفني والداي الرأي. لكنّهما اكتفيا بتبادل نظرات الحزن. فتابعتُ:

- أفهم ما تقولانه. لا يمكننا أن نمحو أنفسنا. ولكن انظرا إلى ما حلّ بنابرا، وبالطلّاب المسلمين في تشابل هيل، وذلك النيويوركيّ السبعينيّ الذي ضربوه حتى كاد يموت بعدما سأله رجلان عمّا إن كان مسلمًا. وتلك المساجد التي أُحرقت في تكساس وسياتل؟ أتتذكّران مناشير «عاقب مسلمًا اليوم» التي بدأت تظهر بشكل غامض في أنحاء شيكاغو وديترويت؟ ألا تظنّان أنّه كان يجدر بنا حماية أنفسنا آنذاك؟ انظرا إلى حالنا الآن، أشعر بأنّنا عاجزون حتّى عن التنفّس.

شعرت بكلماتي خناجر تطعن والديّ. فقد ارتخى وجه أبي وسارت أمّي عائدة إلى كرسيّها وقبضتاها مشدودتان على جانبيها. ثمّ قالت لي:

- ليلى، لقد اتّخذنا خيارًا، وكان الصحيح. ماذا تجنين من إعادة الحديث في الأمر الآن؟ ما مضى قد مضى.

- بيتا، سنبذل كلّ ما بوسعنا لحمايتك، قال لي أبي، وهو يمسك برفق يد أمّي، التي انفتحت قبضتها لتلاقي يده. وتابع يقول: لكنّنا لا نستطيع أن نعيش كذبة. وعدا عن أنّ كلّ مَن في البلدة والجامعة يعرفون مَن نحن، ففي نهاية الأمر، نحن من نقيم حفل الإفطار السنوي للقاء الديانات...

- كنّا نقيمه، قاطعتُ أبي. أصبح ذلك بصيغة الماضي. فقد انتهى كلّ شيء بعد الانتخابات، أليس كذلك؟

- واجبنا المعنوي والأخلاقيّ هو أن نقول الحقيقة، تابع أبي يقول بلا تردّد.

كثيرٌ من قصائد أبي تتحدّث عن البحث عن الحقيقة في الأشياء الصغيرة. وهو طبعًا يؤمن بذلك. وأمّي كذلك. فمهنة تقويم العظام

بالمعالجة اليدويّة التي تمارسها تعتمد على مقاربة صحيّة شموليّة للحياة. صحيح أنّ أبي يلقّبها بقاذفة اللهب، وأنّها صلبة. لكنّ حبّها قويّ أيضًا، والكذب والخداع ليسا في قاموسها. كلاهما، كلٌّ بأسلوبه، يسعى باستماتة لرؤية الخير في الأشخاص وفي العالم.

خلال الانتخابات، ومع تعاظم مشاعر الريبة وكره الإسلام والانعزاليّة، تمسّك والداي بهذا الأمل. وخلال المناظرات التمهيدية للانتخابات، حين قال المرشّح، الذي بات اليوم رئيسًا، على شاشات التلفزيون الوطنية، إنّ إنشاء سجلّ خاصّ بالمسلمين مبرّر، وله سابقة، لم يأخذ والداي الأمر على محمل الجدّ، واعتبراه وسيلة لإشاعة الخوف، ومجرّد خطاب سياسيّ عالي النبرة يهدف الرئيس منه إلى شدّ عصب محازبيه. كذلك تمسّكا بإيمانهما بالمُثل الأميركيّة المتعلّقة بالمساواة وحريّة المعتقد حين سمعا قادتنا يقولون إنّ الرجال المتجمّعين حول تماثيل الحقبة الكونفدرالية رافعين أذرعهم بالتحيّة النازيّة هم «أشخاص رائعون». وحين استغلّ بعض السياسيّين هجومًا على ملهىً ليليّ فرنسيّ ليحذّروا من خطر زحف الشريعة الإسلاميّة والخلايا النائمة إلى الأراضي الأميركيّة، وبدأت استطلاعات الرأي بتأييد الحظر على المسلمين، وإنشاء سجلّ خاصّ بهم، قال كثيرون منّا: «هذا الأمر لا يمكن حدوثه هنا».

المسألة ليست وكأنّ نصف هذه البلاد أصبحت فجأة كارهة للإسلام بسبب حدثٍ ما منفصل. لكنّ الأكاذيب والأدبيات التي وصفت اللاجئين بالمغتصبين والمجرمين، والأخبار الملفّقة، والإحصائيّات المزوّرة، كلّ ذلك منح الأشخاص الطيّبين الذين يزعمون أنّهم غير مترمّتين دينيًا، ذريعة للتصويت لرجل دأب كلّ يوم تقريبًا على الإفصاح في تغريداته عن كراهيته لنا. ووسط التحريض السياسيّ، ونزع الحجاب عن رؤوس المحجّبات بالقوّة، وتشويه المساجد برسوم الصليب النازيّ، وفقدان

مسلمين في ظروفٍ غامضة... وسط ذلك كلّه واصل والـداي الصلاة، واعتقدا أنّ الأمور ستتحسّن. بدا أنّ بداخلهما شعلة أمل لا تنطفئ أبدًا.

لكنّني لست مثلهما.

وقفت وأخذت طبقي إلى المطبخ. لم أعد أشعر بالجوع. وتركت والديّ لآمالهما وصلواتهما.

الفصل 3

كانت نبرة صوت الرئيس التي تخدش الآذان تصل إلى غرفتي. لم يكن الصوت مرتفعًا بما يكفي لأسمعه، لكنّه، كما في كلّ خطبه المتعلّقة بالأمن القوميّ، يستعيد المفردات عينها. أميركا أوّلًا. الكثير من التلميحات وصيغ التفضيل المستخدَمة في غير مكانها، بالإضافة إلى بثّ الخوف، والحاجة إلى إقفال الحدود وتقييد الهجرة وطرد المهاجرين غير الشرعيين. وكيف أنّه، هو، سيجعل أميركا بلدًا عظيمًا من جديد.

أبقى والداي التلفزيون شغّالًا في غرفة الجلوس برغم أنّهما نزلا إلى الطابق السفليّ، لمشاهدة «بريتي إن بينك» على جهاز دي.في.دي نقّال قديم. إنّه أحد الأفلام المفضّلة لدى أمّي والتي تثير لديها الحنين إلى سنواتها في المدرسة الثانويّة. شاهدتُه عشرات المرّات. وبصراحة لا أصدّق كيف أنّ أسطوانته لم تنكسر بعد. لو كان ما أشعر به حينذاك مجرّد ملل، لرحّبت بأن يلهيني سحر داكي وسخافة ستيف، طالب السنة الثانويّة الأخيرة الذي يجلس بقميص قطنيّ مفكوك الأزرار حتّى بطنه. لكنّني كنت أشعر بالغثيان، وبأنّ جسدي يضيق بي. جرعات العاطفة المفرطة في الفيلم لن توقف شعوري بالعجز والخوف.

رقـدت على سريري بالعرض، أقلّب بـدون تركيز صفحات من المختارات الشعريّة التي طلب منّي أبي قراءتها. كانت مربّيتي قد صنعت غطاء سريري بنفسها وأهدته إلى أمّي عندما وُلدتُ. أعتقد أنّها كانت هديّة لي أنا. خاطته مربّيتي من أثواب الساري القطنيّة القديمة التي كانت تلبسها، وأضافت إليها بعضًا من أثواب والدة جدّتي. بهت ذلك القماش المتعدّد الألوان الآن بفعل الزمن وضوء الشمس، لكن لا شيء في العالم يضاهيه في ليونته ورقّته، وفي ما يغمرني به من شعور بالراحة. تُوفّيت مربّيتي قبل عامين. ولكنّني حين ألتفّ به، أشعر بذراعيها تدنوان منّي لمعانقتي حين تعرف أنّني بأمسّ الحاجة إلى ذلك.

كنت أقرأ «ماكبث» لصفّ الأدب الإنكليزيّ الذي توقّفت عن ارتياده. لكنّ أبي يدرّسني في المنزل، ويصرّ على متابعة البرنامج الدراسيّ كاملًا. كان يحبّ أيضًا أن يُغْني ذلك البرنامج بإضافاته الشعريّة، وهي حاليًّا قصائد ووردسوورث وإميلي ديكنسون وفايز أحمد فايز. أخرجني والداي من المدرسة لأنّهما خشيا ما قد يحدث لي، وزاد من شعورهما بالرعب احتمال أن يؤدّي طردي إلى ما هو أسوأ بكثير. خضت معهما شجارًا عنيفًا، لكنّ جزءًا منّي كان يشعر بالخوف أيضًا.

غير أنّ الدروس في المنزل لا تعني التقاعس. ليس بالنسبة إلى والديّ. كنت أتابع دراسة كلّ موادّ صفّي، ودايفيد يأتيني بالفروض المدرسيّة. وبما أنّ والدي قد خسر وظيفته، فقد التزم بتعليمي بكثير من الجدّية. برأيي، إنّ هذه المهمّة شغلته عن قلق البحث عن عمل. إلّا أنّه أصلًا لن يجد عملًا. أقلّه ليس في جامعة تتلقّى تمويلًا حكوميًّا.

لم يذكر والداي لي شيئًا عن المال، لكنّي أعرف أنّهما قلقان بهذا الشأن. لا تزال أمّي تعالج المرضى في عيادتها، وهي تعرف بعضهم منذ سنوات. لكنّني لاحظت في الأسابيع الأخيرة أنّها تعود باكرًا إلى المنزل. ويوم الجمعة الماضي، لم تذهب أصلًا إلى العمل.

أخذت كتاب المختارات الشعريّة وفتحته على قصيدة لإميلي ديكنسون، وقرأت عنوانها بصوت مرتفع: «الأمل عصفور».

اشتدّت سرعة الريح وأخذت تصفر، وراحت أوراق شجرة البلّوط العجوز تحتكّ بزجاج نافذتي، وتشتّت انتباهي. وضعت الكتاب من يدي. قد لا يكون فيلم مراهقين يعود إلى الثمانينيّات هو ما أحتاج إليه الآن، لكنّني شديدة الاضطراب وغير قادرة على قراءة قصيدة تشبّه الأمل بعصفور. لا أستطيع التركيز. ومشاعري في غاية التخبّط. لست أبدًا في مزاج يسمح لي باستلهام الشعر.

توقّفت سيّارة خارج المنزل. وسمعتُ صوت أحد أبوابها يُغلق. تلاه باب آخر. نهضت من سريري لأقف على السجّادة الهنديّة الزرقاء القديمة جدًّا لدرجة أنّها باتت شبه ملساء تحت قدميّ، واقتربت من النافذة لأرى مَن قد يكون قادمًا في مثل هذه الساعة من الليل.

رأيت تحت نافذتي رجلين ببزّتين غامقتي اللون يسيران نحو باب المنزل. شعرت بانقباض في حلقي، وتسارعت خفقات قلبي. هل أتيا للقبض عليّ؟ لا، هذا غير محتمل، ففتاة تخالف منع التجوال لا تستدعي حضور رجلين ببزّتين. أصلًا، إن كان أحدهم سيأتي للقبض عليّ، ألا يجب أن يكون من الشرطة؟ لم يعد هناك «أصلًا» في الأساس. كلّ القواعد تغيّرت الآن.

أتت شاحنة مقفلة غامقة اللون تحمل على بابها شعارًا مكتوبًا بالأبيض والأسود، وتوقفت خلف سيّارة أمّي. أمعنت النظر لأرى الشعار في ضوء مصابيح الشارع. «هيئة الإبعاد». انفتح باب الشاحنة المقفلة الخلفيّ، وخرج منه أربعة رجال بيض بلباس كاكيّ وساروا على الرصيف المؤدّي إلى منزلنا. ثمّ أوقف قائد الشرطة سيّارته خلف الشاحنة، وخرج منها.

«اهربي»، قلت لنفسي. لكنّني عجزت عن الحراك. حاولت أن أصرخ كي أحذّر والديّ لكنّ صوتي خانني. اهربي. يجب أن تتحرّكي، أن تهربي. رنّ جرس الباب، وتلاه في الحال طرق عنيف. سمعت صوت والديّ. لقد باتا في ردهة المدخل.

اهربي.

اختبئي.

اصرخي.

لكنّني عجزت عن الهرب والاختباء والصراخ. تجمّدتُ ككتلة جليد. التفت أحد العسكريّين (هل هم من الجيش؟) فرآني عند النافذة. سقطت أرضًا. علا صوت أنفاسي، حتى باتت قصيرة وسريعة. زحفت على أرض غرفة نومي، فصرّت الألواح الخشبية تحت السجّادة صريرًا خافتًا. فتحت بابي قليلًا. ثمّ أكثر. لكنّني لم أكن بحاجة إلى ذلك فزعيق صاحب البزّة 1 كان مسموعًا في كلّ المنزل.

«عرّفا عن نفسيكما!»، صاح الصوت. «هل أنتما علي وصوفيا أمين؟».

اللعنة! لا شكّ في أنّ السيّدة براون هي التي وشت بي. أو ربّما لم يصدّق جيم من «تحالف مواطنون» كذبة دايفيد في شأن آشلي. ربّاه. أنا السبب. ماذا فعلتُ؟ وقفتُ، ثمّ انتفض جسدي كلّه في خطوتي الأولى إلى الأمام، ثمّ في الثانية. بعد ذلك هبطت بسرعة البرق. رأيت الرجلين في ردهة المدخل، قبالة والديّ. كان كلاهما، وأعني صاحبَي البزّتين، أبيضَي البشرة، عريضَي الكتفين، ووجهاهما يخلوان من أيّ تعبير. كانت يد أحدهما بجانب وركه. ضيّقت عينيّ. إنّه مسدّس. كانت يده بالقرب من مسدّس.

«توقفوا!» صحتُ. «الخطأ خطئي ولا شأن لوالديّ به».

التفتت أمّي ناحية الدرج بعينين جاحظتين. شهر صاحب البزّة 2 مسدّسًا، وفجأة بدأ الوقت يتباطأ، وكأنّه أصبح لزجًا، وتصبّب العرق من كلّ مسامّ جسدي. لم أعد أشعر بأطرافي، وتشوّش بصري، حتّى لم تعد عيناي تريان سوى المسدّس مصوّبًا نحوي. صرخت أمّي، وصاح أبي باسمي. لكنّ الصوت كان واهيًا، وكأنّهما بعيدان، بعيدان جدًّا، ولا أستطيع الوصول إليهما.

تقدّم أبي محاولًا الوصول إليّ، لكنّ صاحب البزّة 1 أمسك به ورماه أرضًا لاويًا ذراعه خلف ظهره. سقطت نظّارة أبي عن عينيه وانزلقت بعيدًا. سمعتُ مزيدًا من الصراخ، كأصوات حيوانات غير طبيعيّة تمزّق الآذان، وأدركت أنّها صادرة منّي.

بعد ذلك لم يبقَ سوى الصمت، ووزن الهواء في الغرفة يضغط على أجسادنا، وأنفاسي القصيرة وغير العميقة ترغم صدري على أن يعلو ويهبط بسرعة، وتصيبني بالدوار.

أومأ البزّة 1 برأسه إلى البزّة 2 الذي أبعد مسدّسه وأعاده إلى قرابه تحت سترته.

ترك البزّة 1 ذراع أبي وشدّه ليعود للوقوف.

لم يسبق لي قطّ أن رأيت مثل هذه النظرة على وجه أبي. إنّها نظرة رعب أو خوف أو ارتباك. لا. لا شيء من تلك الكلمات مناسب. كنّا حيوانات صغيرة، خائفة وعاجزة، أقدامنا عالقة بين أسنان فخّ فولاذيّ. فهمت. ليست للأمر أيّ علاقة بي. كم أنا غبيّة! المسألة لا تتعلق بمخالفة قرار منع التجوال، بل بأمر أسوأ، أسوأ بكثير.

دفع البزّة 1، الشخص المسؤول على ما هو واضح، أبي باتّجاه أمّي، التي بلّلت الدموع وجهها. مدّت يدها نحو أبي تتلقّفه وذراعاها ترتجفان، بل جسدها كلّه كان يرتجف. تكلّم البزّة 1، بصوت قاسٍ وجافّ، فقال:

– بموجب أوامر هيئة الإبعاد، والسلطات الممنوحة لوزير الحرب وفقًا للقرار الرئاسيّ رقم 1455، نحن هنا للتبليغ بقرار نقلكم إلى مكان سكن جديد وتنفيذه.

مكان سكن جديد؟ ما معنى ذلك؟ التفتّ إلى والديّ فرأيت أمّي تنتحب وقد غطّت وجهها بيديها، وبدا أبي وكأنّ المنزل يحترق من حوله.

– مكان سكن جديد؟ لنا؟ أين؟ لماذا؟ سألتُ.

التفت البزّة 1 ناحية الدرج، ونظر إليّ بعينين ضيّقتين وقال:

– بالقرب من مانزانار. ومن الأفضل لك أن تلزمي الصمت.

أطبقت فمي وعضضت شفتي. نظرت إلى ملامح وجهَي والديّ، فانقضبت معدتي، وخشيت أن أتقيّأ.

التفت البزّة 1 إلى أبي:

– أنت صاحب هذا الكتاب، «قدّيسون بلا أسماء»، صحيح؟ قال له بصوت يوحي بالسوء، وهو يلوّح بالكتاب في يده.

لم يكن البزّة 2 قد تفوّه بأيّ كلمة تقريبًا منذ أن دخلا منزلنا.

– نعم، أجاب أبي ببطء، وبنبرة شكّ.

قصائده... هل يلاحقوننا بسبب الشعر؟ شغّلت عقلي محاوِلة أن أتذكّر أيّة عبارات في تلك القصائد قد تورّطنا. نُشر كتابه الأخير قبل شهرين من الانتخابات. لكنّ قصائد أبي ليست من النوع السياسيّ العنيف، بل تتحدّث عن الأشخاص واللحظات، والحرص على الحقيقة في أصغر التفاصيل.

– وهذه القصيدة؟ «الثورة»؟ سأل البزّة 1 أبي، وهو يريه صفحة في الكتاب.

– نعم، قال أبي بصوت خفيض.

لعلّها كانت أشهر قصيدة لأبي. حين نُشرت في جريدة «نيويوركر»، طلبتُ وأمّي من السيّدة براون أن تعدّ له كعكة حلوى وعليها صورة

غلاف العدد الذي طُبعت فيه قصيدته. السيدة براون نفسها التي رأيتها ذاهبة لإحراق كتب أبي. وذات مرّة أتى أبي إلى المدرسة لإحياء ورشة عمل عن مهنة الكتابة لطلّاب صفّ اللغة الإنكليزيّة، فحفظتها عن ظهر قلب لأتلوها يومذاك.

الثورة
بقلم علي أمين

كلّمني بلسانك فيما لا يزال حرًّا،
وفيما لا يزال جسدك لك.

دع كلماتك تسافر في الهواء،
حرّة
عفويّة
ضروريّة
تخترق سحابات الغبار التي تحجب نور الشمس.

حتّى تصل إلى أذني
وإلى آذان كثيرة، مُراقة على الطاولة، تنتظر.

قل الحقيقة فيما لا تزال حيّة،
وفيما الشفاه، برغم تشققها والدم النازف منها، لا تزال قادرة على الحراك.

الوقت لا ينتظر العشّاق ولا الطغاة.

قل ما عليك قوله.
سوف أصغي.

الفصل 4

عشر دقائق.

هذا هو كلّ الوقت الذي منحونا إيّاه كي نوضّب حيواتنا في حقائب، ونغادر منزلنا، استعدادًا للعيش في مكانٍ جديد. كيف نبدأ حتّى؟ هذا الوقت القصير غير كافٍ حتّى للوداع.

بدأنا صعود الدرج لجمع حاجاتنا، فإذا بصوت البزّة 1 يزعق بنا:

– الحاجات الضروريّة فقط، حقيبة واحدة لكلّ شخص. ثمّ سار مبتعدًا، قبل أن يتوقّف ويصيح ثانية: الحرّاس يقفون أمام المنزل وخلفه.

واصلت ووالديّ صعود الدرج بصمت. لم يعد لدينا كلمات. شعرتُ بأنّني مثل سمكة عالقة بخيط قصبة الصيد، قُذف بها على صخرة. كان ذيلي يتخبّط، وجسدي يترنّح، وأنا على وشك أن تُستخرج أحشائي، وليس بمقدوري سوى أن أنظر إلى السكّين تقترب منّي.

قادنا أبي بصمت إلى غرفتي. جال بصري على تلك الغرفة التي بدت فجأة أنّها ليست لي، ولا هي المكان الذي قضيتُ فيه لياليّ كلّها منذ أكثر من عشر سنوات. الكتاب المفتوح على سريري، الغطاء المنفوش، الشال القطنيّ الأسود الطويل بالورود المطرّزة عليه، هاتفي الموضوع

في الشاحن الليليّ. هاتفي. دايفيد. يجب أن أخبره. اقتربت من الهاتف بحذر.

سمعنا صوت جزمات على الدرج.

– لا، همست أمّي وهي تنتزع هاتفي من يدي.

لم يكن لديّ وقت للاعتراض، فضلًا عن كتابة رسالة نصيّة. نظرت بعينين جاحظتين إلى هاتفي يسقط أرضًا، فيصطدم بالسجّادة محدثًا صوتًا خفيفًا، ثمّ يرتدّ ليسقط مجدّدًا على الأرضية الخشبية العارية تحت سريري. ركعت لآتي به من وسط الغبار المتجمّع.

– سآخذ هواتفكم الآن.

رفعت بصري. إنّه صاحب الجزمة. كان رجل بلباس الجيش الكاكيّ قد دخل غرفتي، ومدّ يده. رأيت فكّه السفليّ ناتئًا بشكل بارز إلى الأمام.

مدّ أبي يده إلى جيبه وأعطى الرجل هاتفه، من دون أن ينظر في عينيه، ولا في عينيّ أو عينَي أمّي.

– هاتفي... قالت أمّي بصوت مضطرب، ثمّ تنحنحت وأكملت: إنّه على الطاولة الصغيرة في ردهة المدخل.

أمسكت يد أبي، واقتربا منّي قليلًا. مدّت أمّي يدها إليّ، فأمسكتها وتركتها تساعدني على الوقوف. أومأت برأسها إليّ. نظرت إلى هاتفي، رأيت غلافه المطاطيّ المزيّن بأحجار لمّاعة، والخدوش على صفحته الزجاجيّة، وحافظة الشاشة، وهي صورة سيلفي لي ولدايفيد، التقطناها خلال نزهة جبليّة في مكان لا يبعد كثيرًا من هنا. كان يحيط كتفيّ بذراعه، فيما صنعت بأصابعي علامة السلام، وعلى وجهينا ابتسامة المراهقين البلهاء. شعرت بضيق في صدري، وببرودة عميقة في عظامي. وكان دمي كالجليد.

التفتت أمّي نحوي وأبعدت بحذر أصابعي المتشبّثة بهاتفي، إصبعًا بعد الآخر. كانت مفاصل أصابعي بيضاء. ثمّ أعطت الحارس هاتفي بدون أن تتفوّه بكلمة واحدة.

– عشر دقائق، زعق بنا الحارس ثمّ استدار وخرج من الباب.

تريّث أبي قليلًا، ثمّ أغلق الباب بهدوء. بقينا نحن الثلاثة وحدنا في غرفتي. انفجرتُ باكية. أحاط بي والداي، وتعانقنا جميعًا. لم أدرِ مَن منهما قبّلني في أعلى رأسي، فيما قبّلني الآخر في جبيني.

لم أعد أعرف شيئًا. لم أعرف حتّى إن كان هذا حقيقيًّا. فقدت الإحساس بجسدي. كنت كأنّني أشاهد كلّ ما يجري من خارج ذاتي. بدا الأمر أشبه بالخيال العلميّ.

– ليس لدينا سوى دقائق قليلة، قال أبي بصوت متهدّج، وهو يبتعد عنّا.

– خذي ما تظنّين أنّك بحاجة إليه يا بيتا، قالت أمّي وهي تبتعد أيضًا.

أحسست بثقل يطبق على قلبي. ما أحتاج إليه؟ أحتاج إلى كلّ ما لا يمكنني الحصول عليه.

أمسك أبي يد أمّي. ثمّ نظرا إليّ بوجهين كالرماد وعيون حمراء. كانا يهمّان بالخروج حين عادت أمّي نحوي وأمسكت يدي، وأشارت إلى أبي بأن يمسك الأخرى. في هذه الحلقة الصغيرة التي وحّدت عائلتنا، التفتت أمّي إليّ، ثمّ إلى أبي، بصمت، وعيناها تلتمعان بالدموع. ثمّ بدأت بتلاوة صلاة.

لم أكن أجيد العربيّة، باستثناء الدعاء الذي حفظته للصلوات اليوميّة. لكنّني كنت أعرف هذه الصلاة لأنّ مربّيتي كانت تتلوها دائمًا. حتّى إنّها كانت تحتفظ في حقيبتها بنسخة من هذه الآية مطبوعة على بطاقة صغيرة مغلّفة بالبلاستيك. آية الكرسيّ، صلاة الحماية. كانت مربّيتي تقول لي إنّها من أقوى آيات القرآن، وإنّ مَن يتلوها يحظى بحماية

الله. أخبرني أبي مرّة عن بنيانها الشعريّ، وقال إنّ على الإنسان أن يتخيّل نفسه يسير بين سطور هذه الآية ويتوقّف عند بلاغة المقابَلة في السطر الأوسط: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». حين يقرأ الأسطر الأربعة التي تسبقه، والأسطر الأربعة التي تليه، يرى أنّها، من ناحية الموضوع، بمثابة دوائر تلتقي عند مركز واحد، وهو ذلك السطر الأوسط.

قد لا أكون أكثر المسلمين إيمانًا، ولعلّي لا أثابر على ممارسة الشعائر الدينيّة، لكنّ هذا الدعاء – وربّما لأنّني أتذكّر مربّيتي وهي تتلوه وكأنّها تخصّني بصلاتها – لطالما أضفى عليّ شعورًا بالسكينة، وبما هو أكثر من ذلك أيضًا. وكأنّ صوت مربّيتي كان يشحن كلًّا من الكلمات بقوّة إيمانها، وكأنّما الكلمات ملموسة. بحثت في تلك اللحظة عن ذلك السلام، وعن تلك القوّة، لكنّني كنت كمن يحاول القبض على الهواء.

– علينا أن نسرع، قال أبي حين أنهت أمّي تلاوة الآية القصيرة.

– أيمكنك أن تفعلي هذا؟ أتريدينني أن أساعدك؟ سألتني أمّي.

أردت أن أقول: لا. لا يمكنني أن أفعل هذا. لن أفعل هذا. قلبي ينفطر، لكنّ بداخلي نار غضب متأجّجة أيضًا. كيف يمكننا أن نفعل هذا؟ كيف يمكننا أن نوافق على هذا؟ أردتُ أن أصرخ بوالديّ.

لكنّني قلت هامسة، بصوت واهٍ:

– لا أفهم كيف يحدث هذا. كيف يمكننا أن نكون خطرين بهذا القدر؟ شاعر، واختصاصيّة تقويم عظام، وطالبة ثانويّة؟

– الأمر لا يتعلّق بالخطر، بل بالخوف. الناس مستعدّون لمقايضة حرّيتهم، ولو حتّى بإحساس زائف بالحماية، قال أبي وهو يهزّ برأسه. وأضاف: «ما من ديمقراطيّة في التاريخ لم تنتحر».

– ما معنى هذا؟ سألته.

خلف الرعب، كنت أشعر بنيران الغضب تشتعل، وبلهيبها يتصاعد. كيف يمكننا أن نذعن لهذا؟

– هذه العبارة لجون أدامس، وتعني أنّ الديمقراطيّة هشّة. لا يمكننا الآن سوى أن نسير مع التيّار. التفت أبي نحو النافذة، ثمّ رفع حاجبيه وأضاف: رجال الشرطة أمام الباب. إن لم نتعاون فسيكون الأمر أسوأ بكثير بالنسبة إلينا كلّنا.

– أسرعي يا بيتا، قالت أمّي وهي تخرج وأبي مسرعين لتوضيب حياتيهما في حقيبتين.

أحسستُ بدوار، وكان صدري يعلو ويهبط بقوّة. لولا ذلك لما عرفتُ أنّني لا أزال أتنفّس وأقف هنا وسط غرفتي. السرير غير مرتّب. لا يمكنني الرحيل بدون ترتيب سريري. مَن يبالي بالسرير اللعين؟ لماذا لم أبعث برسالة نصّية إلى دايفيد؟ هل يعلم؟ كيف أذهب من هنا بدون أن أخبره؟ هل سيظنّني رحلت فجأة واختفيت؟

أخبرنا البزّة 1 إلى أين نحن ذاهبون. إلى مكان سكن جديد، بالقرب من مانزانار.

قال كلمة «مانزانار» وكأنّها معلم معروف، وكأنّها إحدى الكلمات التي نستخدمها في حياتنا اليوميّة مثل «الشمس» و«العشب» و«السماء»، الكلمات التي نستخدمها مليون مرّة بدون تفكير. قالها وكأنّه لا يزال يملك حسّ السخرية، لأنّ عالمنا فقد السخرية تمامًا.

لم يبقَ لي سوى دقائق قليلة، وعليّ أن أقرّر ماذا سآخذ. ولكن حتّامَ؟ أيّامًا قليلة؟ شهرًا؟ بقي الأميركيّون من أصل يابانيّ رهن الاعتقال حتّى نهاية الحرب العالميّة الثانية، أي أعوام. اللعنة. هل سنبقى رهن الاعتقال أعوامًا؟

أخذت أكبر حقيبة أملكها وبدأت أملأها بسراويل جينز، وقمصان تي شيرت، وجوارب، وملابس داخليّة، وثياب نوم. كنزتي السوداء. كنزة صوفيّة ذات سحّابة. كم سيكون المكان باردًا؟ حذاء، أيّ حذاء آخذ؟ قبّعة. قفّازان. إلامَ أحتاج؟ كيف أفعل هذا؟ كتب. نستطيع أن نأخذ

كتبًا، أليس كذلك؟ تناولت عن منضدة سريري كتابين، فسقط إطار صور إلكترونيّ كان يعرض حاليًا صورة لي ولدايفيد في حفلة مدرسيّة. حملت الإطار وضممته إلى صدري. شعرت بأنّني على وشك أن أبكي من جديد. لكنّني لا أستطيع. لا وقت للبكاء. أعدت الإطار الإلكترونيّ إلى مكانه، لست متأكّدة من أنّهم يسمحون بالصور في... المكان الذي يأخذوننا إليه. ماذا لو صادروه؟ أفضّل أن يبقى هنا في المنزل، بأمان. ثمّ أخذت من مكتبي عددًا من الأقلام ودفترًا فارغًا.

سمعت طرقًا على بابي. إنّها أمّي.

– أبوك في الأسفل. يجب أن نذهب.

لم أكن جاهزة. هذا جنون. لا أستطيع الذهاب.

– أمّي... وخانني صوتي.

اقتربت منّي، لكنّني رفعت كفّ يدي في وجهها، فتوقّفت.

– لا تنسي إحضار جوارب وملابس داخليّة، قالت لي بابتسامة صغيرة فاترة.

جوارب وملابس داخليّة. هل كلّ الأمّهات يفعلن هذا؟ هل يحاولن أن يجعلن الأمور المرعبة تبدو طبيعيّة؟ خرجت أمّي من الغرفة. كانت تعلم أنّني بحاجة إلى برهة وحدي.

ألقيت نظرة في أرجاء الغرفة. لا يزال في الحقيبة مكان فارغ، فتناولت بعض لفائف أشرطة التزيين الملوّنة ودفتر مذكّرات خاليًا اشتريته في باريس الصيف الماضي. كانت على غلافه صورة فتاة وكلبها متكوّرين فوق وعاء مربّى أحمر ضخم، وعبارة فرنسيّة تقول: «مربّى الكلمات». نظرت إلى رفّ كتبي، كتب المدرسة السنويّة، وعلبة الأحذية التي أجمع فيها رسائل دايفيد وبطاقاته. احتفظتُ بكلّ كلمة مكتوبة أرسلها إليّ دايفيد في المدرسة. كان يضحك وينعتني بالفتاة الرومنسيّة حين أسأله أن يرسل إليّ كلمات مكتوبة، لا رسائل نصيّة بالهاتف. أحبّ

الكلمات المكتوبة. كلّ منها هديّة صغيرة، ومفاجأة ملموسة لا تستهلك ذاكرة هاتفي. والآن سأتخلى عن هذه الكلمات إلى الأبد؟ لينظر إليها شخص آخر؟ ماذا سيحلّ بمنزلنا؟ هل سيفتّشونه؟ ألا يزال منزلنا؟

أسئلة كثيرة ولا إجابة واحدة. رغبت بشدّة في أن آخذ تلك العلبة معي، ولكن لا مكان لها، ولا وقت لذلك.

سمعت بابًا يُغلق في الأسفل، وصوت أمّي تناديني.

حملت حقيبتي وأطفأت النور. ولكن قبل أن أغلق الباب عدت إلى الداخل ورتّبت غطاء سريري. رأيتُ فلافي، وهي دمية محشوّة على شكل كلبة، تكاد إحدى أذنيها تنفصل، رافقتني إلى الحضانة في يومي الأوّل، وكانت الوسيلة الوحيدة كي أسمح لوالديّ بالذهاب بدوني، لأنّها تُشعرني بالأمان. شعرتُ برغبة في أن آخذها. لكنّني تركتُها على وسادتي، حيث أمضت آلاف الليالي، في مكان كان آمنًا ذات يوم.

نزلت الدرج بخطى ثقيلة. مددت يدي بحركة غريزيّة إلى جيبي أبحث عن هاتفي الذي لم يعد فيها. كوّمت يدي الفارغة حتّى أصبحت قبضة، وسقطت دمعة على أصابعي. ماذا قد أكتب لدايفيد لو تسنّت لي الفرصة؟ «وداعًا»؟ «أحبّك»؟ «ابحث عنّي»؟

وافيتُ والديّ إلى ردهة المدخل.

كان قلبي مفتّتًا، لكنّ ما آلمني حقًّا كان انتزاع هاتفي منّي. لعلّ من الغباء التفكير في الأمر بهذه الطريقة، لكنّه ليس مجرّد هاتف. فيه كلّ صوري، وكلّ ذكرياتي في المدرسة وفي فريق التنس، ومع دايفيد. خنقت شهقاتي. كان الخوف يسيطر عليّ، والغضب أيضًا. هم لم يأخذوا منّي هاتفي فقط، بل أخذوا صوتي، وحقّي في الاختيار.

دفعتنا يد خفيّة خارج الباب. الليالي هادئة جدًّا هنا، وهذا أحد الأمور التي لطالما أحببتها في بلدتنا الصغيرة. الجنادب في الصيف،

حفيف أوراق الأشجار المتمايلة مع النسيم. حتّى إنّ بإمكانك أن ترى النجوم. لكن ليس الليلة. الليلة لا شيء هنا سوى سماء حالكة.

ألقيت نظرة أخيرة داخل المنزل. كان أحد الحرّاس يضع يده على مقبض الباب. بابنا نحن. وسوف يغلقه. ولكن... الأطباق. ألا تزال أطباق الطعام الوسخة في الحوض؟ لا أتذكّر إن كنّا وضعناها في الجلّاية. هل سيجليها أحد ما؟ أمّي لا تحبّ ترك الأطباق المتّسخة في الحوض.

أُغلق الباب خلفنا. والداي لم ينظرا حتّى.

التفتُّ فرأيت سيّارات عند المنعطف، والشاحنة المقفلة التي رأيناها من قبل، ومزيدًا من حرس الإبعاد. البزّتان تتشاوران مع قائد الشرطة. وحولي أشخاص يتحادثون. سمعت كلمات، لكنّ الكلمات لم تكن ذات معنى. وكأنّ الجميع يتحادثون بلغة مشفّرة. أدخلني والداي إلى المقعد الخلفيّ لسيّارة قائد الشرطة وأغلقا الباب. لا هواء. حاولت فتح الباب، لكن يبدو أنّه لا يمكن فتح أبواب المقاعد الخلفيّة لسيّارات الشرطة من الداخل. فنظرت إلى والديّ اللذين كانا يتبادلان بعض الكلمات مع البزّة 1، الذي أعطاهما بعض الأوراق. ثمّ التفتا إلى قائد الشرطة الذي كان لديه أيضًا ما يقوله لهما، ولكن بدا أنّه يجد صعوبة في النظر إلى عيونهما. فنحن على معرفة بقائد الشرطة، منذ أن كنتُ وابنته آيفي معًا في صفّ الحضانة. هزّ أبي رأسه، فيما كانت أمّي تنظر إليه بعينين جامدتين. بعد ذلك فتح لهما القائد باب السيّارة الخلفي، فجلسا بجانبي. ابتعدتُ لأفسح لهما المجال. ولم ينظر أيّ منّا إلى الآخر. وكأنّنا كلّنا في حداد، ولكن من أجل أشياء مختلفة، وكلٌّ على طريقته.

شغّل قائد الشرطة محرّك السيّارة. رأيتُ شيئًا، بل شخصًا يركض في اتّجاهنا. أمعنت النظر في الظلمة. لكنّني لم أستطع أن أتبيّنه.

دايفيد؟ أيمكن أن يكون دايفيد؟ هل عرف؟ هل رآني؟

انطلق قائد الشرطة بالسيّارة مبتعدًا.

صحت باسم دايفيد. لكنّ قائد الشرطة لم يـردّ. وكـأنّ أحـدًا لا يسمعني. حاولت أن أرى، لكنّ الضوء في داخل السيّارة كان مشتعلًا، فلم أرَ إلّا انعكاس صورة فتاة لا تشبهني كثيرًا. حاولت إنزال النافذة، لكنّ ذلك كان متعذّرًا. نظرت إلى الفتاة في النافذة. كان وجهها منتفخًا وأحمر، وبدت في انعكاسها غير الواضح مثل شبح. نظرت إلى والديّ. كانا شبحين أيضًا. لقد تحطّم العالم، ولم يبقَ سوى هذا الكون البديل المليء بأشخاص مكسورين لا يملكون ما يستندون إليه.

الفصل 5

غرقنا في صمتٍ طويل بينما كنّا نعبر وسط البلدة متّجهين إلى الطريق العامّ نحو لوس أنجلس. مرّت بنا أضواء السيّارات مسرعة. حركة السير ناشطة في لوس أنجلس، حتّى في منتصف الليل. سلك قائد الشرطة المسرب الأيمن، ببطء شديد وكأنّه يحاول إطالة الرحلة ليزيد من خوفنا. لكنّ ذلك لم يكن ضروريًّا حتى. فكمّية القلق المخيّم داخل السيّارة كانت كافية كي نشعر بأنّ المقعد الخلفيّ يتقلّص ويسحقنا ليحوّلنا إلى كتلة صغيرة من الفينيل والعرق والخوف.

تنحنح قائد الشرطة ثمّ قال:

– كلّكم تعرفون أنّني آسف لهذا الأمر... الشكليّ. أنا موظّف أقوم بعملي، وأطيع أوامر رؤسائي. لا شكّ عندي في أنّ سبيلكم سيُخلى بسرعة. لا بدّ من أن يرى المسؤولون الكبار أنّكم لا تشكّلون تهديدًا.

كان يحاول أن يكسر الصمت لأنّه يشعر بالانزعاج، لكنّه زاد الأمور سوءًا. لم يرفع أبي بصره عن قدميه. وأمسكت أمّي بيده. أردت أن أقول لهما: «قولا شيئًا ما، نادياه، إنّه يعرفنا. اسألاه كيف يمكنه أن يفعل هذا». نظرت إلى والديّ لكنّهما لم يتفوّها بكلمة واحدة.

نظرتُ إلى كفّيَ، إلى آثار الأقواس الصغيرة التي طبعتها أظافري عليهما لشدّة ما ضغطت. صعدت الكلمات من جوفي إلى حلقي، وكان لها طعم مرّ.

– كيف حال آيفي؟ سألتُ قائد الشرطة.

في الحال، أدار والداي وجهيهما نحوي. وأمسكت أمّي بيدي وعصرتها، إشارة إلى أنّ عليّ أن أتوقّف عن الكلام. لكنّ داخلي كان في تلك اللحظة ساحة صراع عنيف بين الخوف والغضب، ولم أستطع أن أتوقّف. إن لم يكن بإمكاني مغادرة هذه السيّارة، إن كان عليّ أن أصغي إلى قائد الشرطة يتذرّع بإطاعته الأوامر، فأقلّ ما يمكنني عمله، الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله، هو أن أذكّره بأنّه يعرفنا. كان «يواكبنا» في رحلة إبعادنا عن كلّ حياتنا، ولا أظنّ أنّ عليّ تركه يشعر بالارتياح حيال ذلك، ولو وجّهت إليّ أمّي نظرتها المخيفة لإسكاتي.

– هل قرّرتْ أيّ جامعة سترتاد؟

لم أكن أملك الطاقة ولا المهارات التمثيليّة لجعل صوتي يبدو مرحًا، كما كنت أرغب. فخرجت الكلمات من فمي باردة، تتناسب مع مشاعري.

رأيت قائد الشرطة يوجّه نظرة خاطفة إلى مرآة الرؤية الخلفيّة، فتلاقت نظرتانا لبرهة قبل أن يبعد عينيه. وأجاب:

– إنّها بخير. شكرًا لسؤالك. لكنّها لم تقرّر أيّ جامعة بعد.

– نعم، أجبته، أعرف هذا الشعور.

لعلّ أمّي على حقّ حين تقول إنّني عنيدة بدون سبب أحيانًا. أظنّهما لم يقولا شيئًا لأنّهما خشيا حدوث ما هو أسوأ. لم أدرِ ما يمكننا أن نخسره أكثر. ولكنّني بصراحة كنت أشعر بالرعب الكبير لأنّنا على وشك أن نعرف ذلك.

محطّة يونيون في لوس أنجلس هي تحفة في إحياء فنّ الأرت-ديكو، ببلاطها الرخاميّ وسقفها الخشبيّ المعقود، وتجهيزات الإضاءة فيها. تحفة تستحق أن يفتخر بها فرانك لويد رايت، أحد أعظم مهندسي أميركا المعماريّين. سبق لنا أن أتينا إلى هنا. في العادة، كان يمكن أن أغمض عينيّ وأتجاهل أوراق العلكة والمناديل الورقيّة المستهلكة المرميّة على أرض المحطّة الدّبقة، لأتأمّل بدهشة هذه التحفة التي تردّد صدى زمن كان فيه أشخاص بكامل أناقتهم يتناولون العشاء في قطارات تحمل أسماءً مثل «سانست ليمتد» و«باسيفيك سانرايز»، وكان فيه السفر بالقطار أمرًا رومنسيًا يُصوَّر في الأفلام بالأبيض والأسود. أمّا الآن، وفيما أقف خارجًا في سكون الليل الذي يخترقه ضجيج المحطّة، فكان مليون سؤال يتردّد في عقلي دفعة واحدة. طوّقت جسدي بذراعيّ، أحاول حرفيًّا أن أجمّد نفسي، لأنّ الأدرينالين المتدفّق بفعل رغبتي في القتال أو في الهروب بلغ مستوى قياسيًّا، وكنت أجهل إلى أين سيصل بي. ربّما إلى الاثنين معًا.

انتشر الحرّاس في ذلك المكان أيضًا. رجال كالذين أتوا إلى منزلي، ولكن أكثر عددًا، بالعشرات. هذه المرّة، وفي ضوء الكشّافات الإضافيّة الساطعة والمركّبة خارج المحطّة، ركّزت لأراهم بوضوح. جرى تعزيز أعداد عناصر الحماية في الأماكن العامّة كالمطارات ومحطّات القطار، وحتّى مراكز التسوّق. لسبب ما، كانت رؤية جنود ببنادق عملاقة مشدودة إلى صدورهم تجعلني أشعر بخوف أكبر وأمان أقلّ. لعلّها خطّة مدروسة لإخافة الناس أصلًا. لكنّ مظهر هؤلاء الجنود، أي حرس الإبعاد، كان مختلفًا. ملابس كاكيّة جديدة. سترات قماشيّة، وسراويل، وقبّعات، وجزمات، وسترات مقاومة للرصاص كتلك التي يرتديها أفراد الشرطة، ولكنّها أقوى، ومزوّدة بصفائح سوداء لمّاعة على جانبها الأماميّ، من النوع الذي قد يستخدمه الرجل الوطواط. لطالما كان متنوّع الأعراق،

باستثناء هذه الفرقة الجديدة اللمّاعة. يبدو أنّ جميعهم من البيض. وكأنّ في ذلك انتصارًا للعنصريّين الذين يحنّون إلى «الماضي الجميل»، حين كانت وحدات الجيش غير مختلطة، ولكلّ عرق مراحيضه الخاصّة به.

كانت صفوف من الحرس تنتشر على طول الأرصفة المؤدّية إلى المدخل. بعضهم عند المنعطف، وبعضهم الآخر يديرون ظهورهم إلى المبنى الحجريّ. عيونهم يقظة. لم تكن أصابعهم على الزناد، لكنّني شعرت بأنّ الهواء مشحون جدًّا. لاحظت العلم الأميركيّ على أذرع الجنود كلّهم، وتحته رقعة مستطيلة سوداء طُرّزت عليها كلمتا «هيئة الإبعاد» بالقماش الأبيض.

خلف المدخل الرئيسيّ لمحطّة القطارات كانت نقطة التفتيش الأولى، وهي كناية عن سلسلة من المكاتب. هكذا دعاها قائد الشرطة. رأيت صفًّا من نحو عشرين شخصًا، يحمل كلّ منهم حقيبة بيده. بعضهم من جنوب آسيا، وعائلة أفريقيّة أميركيّة، وعدد من الأشخاص من الشرق الأوسط ربّما. تجاوزت الساعة منتصف الليل، وبدا الجميع منهكين، وكأنّهم يعانون آثار اختلاف الوقت الناتج عن السفر. كان المكان هادئًا جدًّا لدرجة أنّ أزيز التيّار الكهربائيّ في المصابيح المستحدثة كان مسموعًا.

– سأترككم هنا.

قال لنا قائد الشرطة ذلك وكأنّه يوصلنا إلى حيث سنسافر في إجازة، وكأنّه لا يرشدنا إلى لافتة تدلّ المُبعدين إلى حيث يصطفّون وفقًا لاسم الشهرة، بجانب لافتة عليها تعليمات مرقّمة حول ما يجب عمله. هذه لوس أنجلس، وقد اعتدت رؤية لافتات في الأماكن العامّة عليها تعليمات بلغات مختلفة. أمّا هنا فلم أرَ سوى تعليمات بالإنكليزيّة. أومأ قائد الشرطة إلينا للذهاب نحو مكتب، بطريقة عاديّة جدًّا. وكأنّ وجود رجال يحملون بنادق ضخمة لإبقائنا هادئين ومجموعين كقطيع

من الحيوانات، أمر عـاديّ. لا، هـذا ليس عـاديًا. لمَ يتصرّف الجميع وكأنّه عاديّ؟

مدّ قائد الشرطة يده نحو أبي، الذي صافحه بـدوره. لكنّني حين نظرت إلى وجـه أبي، وجدته لا يقلّ عنّي شعـورًا بالدهشة لأنّـه قَبِل بمصافحته. لعلّها حركة تلقائيّة عجز عن لجمها.

– حظًا طيّبًا يا علي.

قال قائد الشرطة ذلك ثمّ ابتعد بسرعة، وكأنّه هو الخائف منّا نحن. أمّا أنا، فلم أفقد حسّ السخرية.

– نشكر لك خدماتك، حضرة القائد، قلت بدون أن أخفي تهكّمي.

أمرتني أمّي بالسكوت، برغم أنّ القائد بات على مسافة لا تسمح له بسماعي.

– ليلى، عليك أن تنتبهي إلى نبرة كلامك، همست لي. سخريتك الهائلة ليست في مصلحتك. قد يكون لها وقتها المناسب، لكنّه ليس الآن بالتأكيد.

– أمّي، أظنّ أنّ تحذيري من خطورة نبرة كلامي هو أقلّ مشكلاتنا أهميّة في الوقت الحاضر، أجبتها وأنا أهزّ برأسي.

– ربّما، قال أبي، لكنّ أمّك على حقّ. لا تلفتي الاهتمام إليك. علينا أن نذوب تمامًا في الجموع كي نستطيع تجاوز هذا.

«هـذا؟» لا أظنّ أحـدًا منّا يعرف حتّى الآن ما يجب تسمية هذه التجربة. الحرب العالميّة الأولى لم تُعرف بهذه التسمية حين خاضتها الأمم. أنّى لهم أن يعرفوا اسمها، وهم لم يعرفوا بعد ما سيليها؟ في أيّ حال، لعلّ أحدًا في الوقت الراهن لا يفكّر في اسم قويّ ولافت يطلقه على مأزقنا. كنّا جميعًا مشغولين بالهروب من الواقع وإقناع أنفسنا بأنّه كابوس جماعيّ سنستيقظ في النهاية منه. أظنّه أمرًا سيّئًا جدًّا أن يشعر المرء بأنّ الكابوس الجماعيّ امتياز.

اقتربنا من المكتب المخصّص لأسماء الشهرة من الألف إلى الجيم، وكان مكتبًا صغيرًا يجلس إليه رجل ببزّة سوداء.

– وثائق تغيير مكان السكن، قال لنا.

وقف إلى جانبه أحد رجال حرس الإبعاد، ينظر بعيدًا متجنّبًا الاتّصال البصريّ، شأنه شأن الجميع. تساءلت عمّا إن كان ذلك من أنظمتهم: الاتّصال البصريّ بالمسلمين ممنوع.

ناوله أبي الوثائق التي أعطونا إيّاها في المنزل. المنزل. شعرت بالاضطراب لمجرّد التفكير في ما يحدث هناك. هل تعيث فيه البزّات فسادًا؟ هل يحطّمون أشياءنا؟

أخذ صاحب البزّة السوداء بطاقاتنا من أبي، ووضعها واحدة بعد الأخرى فوق قارئة إلكترونيّة، كتلك الأجهزة التي تستعملها سلطات النقل لمسح جوازات السفر عند العودة من رحلة إلى الخارج. أعاد البطاقات إلينا، وقال لنا:

– اذهبوا إلى الداخل وتوجّهوا إلى الشبّاك رقم 3 لتسجيل هويّاتكم. ستجدونه إلى اليمين بعد دخولكم المبنى.

سرنا عبر محطّة يونيون مع أشخاص آخرين لا أسماء لهم. وقف ما لا يقلّ عن مئة شخص في الصفّ أمام شبابيك التذاكر القديمة، يبحثون عن مكان لا يكون بمثابة تذكير مؤلم بواقعنا الجماعيّ. كانوا كلّهم يحملون في أيديهم حقيبة، وتعلو وجوههم نظرة ذهول. مزّق الصمت صوت بكاء، وشمع نحيب من إحدى المجموعات، ثمّ من مجموعة أخرى. استمرّ صوت النقر على لوحات مفاتيح الحواسيب، فلا الآلات ولا مشغّلوها تؤثّر فيهم الدموع. كان بعض الأولاد الصغار يركضون في الباحة، غير مدركين لما يجري. صرخ أحد الأطفال. قالت لي أمّي ذات مرّة إنّها كانت دائمًا تعرف ما يعنيه بكائي. كلّ بكاء كان يختلف عن الآخر قليلًا: الجوع، القماط المبلّل، طلب الاهتمام... ولكن الصراخ؟ انتفخ حلقي، ووصلت

الدموع إلى عينيّ. أولئك الأولاد، ذلك الطفل، كانوا يجهلون ما هم على وشك أن يخسروه. لكنّني أظنّ أنّ حالي لا تختلف كثيرًا عن حالهم. من يعلم حتّى ما الذي يجري تحديدًا، سوى أنّنا أُخذنا من منازلنا، وأنّنا الآن سنستقلّ قطارًا إلى... مكان ما؟ ضربت بعقب قدمي أرض المحطّة الرخاميّة بقوّة. ثمّ أعدتُ الكرّة بقوّة أكبر. ارتجفت. هذا المكان مقبرة.

بحركة من إصبعه، استدعانا صاحب البزّة عند الشبّاك 3. ناوله أبي بطاقاتنا التي تحمل رموز الاستجابة السريعة. أمسك صاحب البزّة يدي اليسرى وحاول سحبها إليه لكنّني انتزعتها من يده، في ردّ فعل طبيعيّ على لمسته الفظّة. رفع الرجل عينيه للنظر إليّ، وكان فكّاه منقبضين. التفت إلى أبي وبدا كأنّه يهمّ بمناداة أحد الحرّاس. أمسك أبي يدي وقدّمها إلى صاحب البزّة، قائلًا له:

– ستمتثل.

فتحت فمي دهشة. كلمة واحدة. «ستمتثل». سنفعل ما يُطلب منّا فعله. سنذعن. لن نسبّب المتاعب. لا تلحقوا بنا الأذى. هذا ما عناه أبي.

تنحنح الرجل، وهزّ رأسه، وقال:

– علينا أن نختم رقم بطاقة هويّاتكم على معاصمكم من الداخل.

لم أفتح فمي. أدرت يدي لتكون كفّها إلى الأعلى. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أمسك الرجل بها ووضعها في آلة سوداء شبيهة بآلات الإسبرسو.

– لا تتحرّكي، قال لي.

ثمّ هبطت طابعة معدنيّة مستطيلة بطول 5 سنتمترات، وضغطت على اللحم الطريّ لباطن معصمي لثوانٍ قليلة. حين ارتفعت الطابعة، لم أرَ على جلدي شيئًا. لقد استخدموا الأشعّة فوق البنفسجيّة. إنّها كالحبر السريّ. شرح لنا الرجل أنّ هذا الختم دائم. أصبحتُ كإنسان آليّ.

هذا الرجل أيضًا لم ينظر في عينيّ. لم يعد أحد يفعل. ثمّ ختم معصمَي والديّ، وأعطانا أرقام المقاعد التي سنجلس عليها في القطار، محذّرًا إيّانا من الجلوس في مكان آخر. في الطريق إلى الرصيف، أمسكت بمعصمي وكأنّما أحدهم جرحني بسكّين. قرّبته من عينيّ، ثمّ أبعدته وأمعنت النظر. رفعته أمام مصابيح الفلور في القاعة. لم يكن بإمكاني الشعور بالختم، ولا رؤيته. لكنّه على معصمي، وسيبقى إلى الأبد. فركت بشرتي عند باطن معصمي حتّى أصبحت حمراء.

كان رصيف المحطّة مليئًا بالناس، لكنّهم لم يكونوا يتدافعون. قضى الرعب الذي بثّته فينا هيئة الإبعاد حتّى على الشعور بالتململ. علا عبر المذياع صوت رتيب يُصدر إلينا الأوامر التالية: «اتّجهوا مباشرة إلى عربة القطار التي حُدّدت لكم. قدّموا معصمكم الأيسر لمسحه بالسكانر عند دخولكم العربة. اجلسوا في المقاعد المحدّدة لكم. هيئة الإبعاد تشكر لكم تعاونكم».

مع دخولنا العربة المحدّدة لنا، أمسكت أمّي يدي. حاولتُ سحبها، إلّا أنّها شدّت عليها أكثر. نظرت حولي، ثمّ هززت رأسي، وكأنّني بحاجة إلى أن أتأكّد ممّا أراه. عربة قطار عاديّة. ماذا كنت أتوقع؟ رأيت بساطًا مطّاطيًا في الوسط وصفوفًا من ثلاثة مقاعد مكسوّة بالقماش الأزرق عن كلّ جانب. كما رأيت نوافذ يعلوها الغبار ومخدّشة لا يُرى منها رصيف المحطّة الضعيف الإنارة بوضوح. شممت رائحة فانيليا اصطناعيّة في العربة، من النوع الذي يُرشّ للتغطية على روائح الحيوانات الأليفة أو على روائح الطهو الكريهة. إنّه قطار عاديّ تقليديّ، لعلّه وُضع خارج الخدمة حين اعتمدت كاليفورنيا القطارات السريعة. في هذه القطارات مقاعد. وهي ليست عربات لنقل المواشي – كالتي شاهدتها في كتب التاريخ – تنقل الناس إلى موتهم. لكنّنا أُرغمنا على صعودها من دون أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون، ولا ما ينتظرنا عند الوصول. شعرتُ بأنّني

أُسحَق، كما حين قرأنا مسرحيّة «ساحرات مدينة سالم» العام الماضي. لم أتقبّل فكرة سحق جيلز كوري حتّى الموت بوضع الحجارة على صدره، حجرًا بعد الآخر، لإرغامه على الاعتراف بممارسة السحر، وكان يرفض أن يتكلّم إلّا ليقول «أضيفوا وزنًا» حين يحثّونه على الاعتراف. هذا ما يجعلني هواء هذه العربة أشعر به، ولهذا أجد صعوبة في التنفّس تحت وطأة الأشياء التي تسحقنا: الخوف والكراهية والقانون.

الأشخاص العشرة – أو أكثر قليلًا – في هذه العربة، كانوا كلّهم مثلي، يتصرّفون بلا حماسة، يسيرون إلى الأمام، محاولين ألّا يهربوا صارخين من القطار لينتهوا بين أذرع حرس الإبعاد ذوي البنادق الكبيرة. لا أحد يتكلّم. أحسست بأنّ لساني من خشب.

وجدنا مقاعدنا: 18 (أ) و(ب) و(ت). اتّجهتُ نحو المقعد القريب من النافذة، وجلستْ أمّي في الوسط، وأبي في المقعد المحاذي للممرّ. وضع والداي حقيبتيهما على رفّ الحقائب، أمّا حقيبتي فقد وضعتها تحت مقعدي.

تذكّرت قصيدة، فملت نحو أبي وقلت: «كان هناك رجل له لسان خشبيّ/ حاول الغناء...»، وتوقّفت، بانتظار أن يُكمل أبي قصيدة ستيفن كراين. لكنّه اكتفى بأن ربّت ذراعي ونظر في الاتّجاه الآخر. كانت تلك لعبتنا الصغيرة: يقول أحدنا بيتًا من قصيدة، فيردّ عليه اللاعب الثاني ببيت آخر. لعبة شبيهة تقريبًا بسوق عكاظ، حيث كان العرب يلتقون ليتباروا في إلقاء الشعر، فيلقي المتباري الأوّل بيتًا، ويردّ عليه المتباري الثاني ببيت يبدأ بالحرف الأخير من البيت الذي ألقاه خصمه. كان ذلك يبدو مستحيلًا بالنسبة إليّ، فتساهل أبي في القواعد. لكنّه اليوم لم يرغب في اللعب، ولا أعلم ما الذي دفعني لملاعبته أصلًا. هل فكّرتُ في أنّ بيتًا من الشعر سيحسّن ما نمرّ به؟ لكنّني تابعت تلاوة القصيدة لنفسي همسًا.

كان هناك رجل له لسان خشبيّ
حاول الغناء،
والواقع أنّه كان أمرًا مثيرًا للحزن.
لكنّ رجلًا سمع طقطقة ذلك اللسان الخشبيّ
وعرف ما يرغب الرجل في غنائه
فَسُرّ المغنّي بذلك.

لعلّ أبي كان على حقّ في تجاهل تلك القصيدة. فأنا أعتبر دائمًا أنّ دايفيد هو الذي يعرف ما أرغب في غنائه. ولا أستطيع الآن إلّا أن أتخيّله يأتي إلى منزلي، فيرنّ الجرس مرّة بعد مرّة، ويسمع صداه يتردّد في الغرف الفارغة. كتّفت ذراعيّ على صدري، ورحت أحملق خارج النافذة، في الظلام. حملق فيّ انعكاس صورتي في الزجاج، لكنّني كدت لا أعرف نفسي.

اهتزّ القطار، وانطلق مغادرًا المحطّة. خبّأت أمّي وجهها بيديها، وسمعتُ صوت شهقات مكتومة في العربة. طوّق أبي أمّي بذراعيه، وراح يهمس لها مرارًا: «آسف».

وضعت يدي على زجاج النافذة الوسخ، وشاهدتُ بعينين زائغتين المدينة تختفي. حين مررنا بسانتا مونيكا، لمحت المحيط لآخر مرّة، فيما كانت خيوط الفجر تشقّ ستار الظلام، قبل أن يبتعد بنا القطار عن الساحل، ويتّجه شمالًا، فشرقًا، ثمّ شمالًا من جديد. بعدما مررنا بآخر ملاعب الغولف ذات العشب الأخضر الريّان المُشبع بالماء، وصلنا إلى منطقة جرداء من الصخور والأشواك والشجيرات الصحراويّة. عبرنا فاسكيز روكس بسرعة، وانقبض قلبي لبرهة حين تذكّرت دايفيد ونزهاتنا الكثيرة إلى هذا المكان للسير بين الحجارة القديمة والصخور الشاهقة التي تنتهي بقمم حادّة مرسومة على صفحة السماء الزرقاء. ذات مرّة

سلكنا دربًا غير معروف ينحرف من «درب المحيط الهادئ»، وسرنا إلى قمّة حرف جبليّ، لنكتشف هضبة ذهبيّة من زهور دوّار الشمس. أمضينا فترة ما بعد الظهر يومذاك نستمتع بالشعور بالوحدة، ثمّ عدنا للنزول مع اقتراب المغيب، وحول شعري الأسود تاج من البراعم الصفراء التي بدأت تذبل. كان ذلك رائعًا. لم أكن أدري وقتها كم أنّ الذاكرة نعمة ثمينة.

أعادني إلى الحاضر اهتزاز القطار وتباطؤه، قبل أن يستعيد سرعته. ألقت أمّي رأسها على كتف أبي. شاهدتُ جفنيه يتراخيان قبل أن يغمض عينيه تمامًا. لم ننم منذ أمس. لعلّها حال كلّ ركّاب هذا القطار. لم يمضِ على نقلنا من منازلنا سوى ساعات، لكنّ كلّ لحظة مؤلمة مرّت بنا منذ ذلك الوقت بدت أطول بكثير ممّا يجب. وكأنّنا، نحن المسافرين على متن هذا القطار، نشارك في اختبارِ نسبيّة من اختبارات آينشتاين. كان الأميركيّون كلّهم يندفعون في الفضاء بسرعة الضوء إلّا نحن. فنحن تُركنا لنشيخ، مقيّدين إلى الأرض بجاذبيّة شديدة.

كان عليّ أن أغمض عينيّ، وأستريح استعدادًا للعالم المجهول الذي ينتظرني، لكنّني كنت متوتّرة، وبحاجة إلى الحركة. نهضت وتركت والديّ النائمين وسرت في الممرّ نحو المرحاض في العربة الثانية. التفت البعض نحوي، فيما لم يتكلّف آخرون عناء ذلك. لكنّ كلّ مَن عجزوا عن النوم بدت عيونهم كالزجاج، وحمراء الأطراف.

ضغطت على الزرّ الأسود المستطيل الكبير الذي يفتح الباب الداخليّ، وعبرته إلى الممرّ المعدنيّ العريض، ومنه إلى العربة الثانية، التي بدت خالية إلّا من شخصين بدَوا نائمين في المقاعد الأماميّة.

سرت خطوات قليلة أخرى إلى الأمام. فتحرّك أحد الرجلين النائمين، ورأيته.

تبًا. إنّه حارس.

لا وقت للهلع. استدرتُ على عقبيّ بسرعة راجية ألّا يكون رآني، وأن يحسبني حلمًا. فتحت الباب وعدت إلى الممرّ الذي كان يهتزّ، فشعرت بالدوار وبالحاجة إلى الجلوس في الحال. لكنّني شعرت بالغضب كذلك. لماذا استبدّ بي هذا الشعور بالغثيان والهلع، وأنا لا أريد سوى أن أقف وأحرّك ساقيّ، وربّما أن أتبوّل؟

فُتح الباب خلفي، فالتفتّ لأرى حارسًا بدينًا. كان ممتقع الوجه على نحو عدائيّ، ويكاد لونه يكون برتقاليًا. لم يكن في الممرّ المعدنيّ أحد غيرنا، ورأيت الصحراء من خلال النافذة الصغيرة.

– ماذا تفعلين بعيدًا عن مقعدك؟ سألني.

بحركة غريزيّة، خطوت خطوة إلى الوراء، فتعثّرت، ثمّ استعدت توازني وقلت له:

– أنا... أبحث عن المرحاض.

حدّق بي بعينيه البنّيتين، وأطبق فكّيه. ولكنّه بدا كأنّه لا يراني، وكأنّني غير موجودة، وهو ينظر من خلالي إلى شيء ما. ثمّ تكلّم ببطء، متريّثًا بين الكلمة والأخرى، بصوت ينمّ عن امتعاض مكبوت:

– قيل لك أن تبقي في مقعدك.

– آسفة، ظننت...

– ظننتِ ماذا؟ قال لي وهو يقترب خطوة منّي.

تراجعت أكثر، واقتربتُ من الباب عند الطرف الآخر للممرّ المؤدّي إلى عربتي، حيث سأكون في أمان. لكنّني استدركت: في أمان؟ لا أمان بعد اليوم. لاحظت فجأة صِغر هذا المكان، وصخب عجلات القطار على السكك، وتساءلتُ إن كان الناس سيسمعونني إذا صرخت.

من جديد انفتح الباب خلف الحارس، ودخل إلى الممرّ أحد رجال حرس الإبعاد، وكان طويل القامة وعريض الكتفين. ربّاه، باتا اثنين الآن، ولا مهرب أمامي. يداي ترتجفان. لم يكن بإمكاني طلب النجدة لأنّ الذين

يطبّقون القانون على متن هذا القطار هم مَن أخشاهم. شعرت برغبة شديدة في أن أصرخ وأبكي، في أن أضرب الجدران المعدنيّة بقبضتي.

– ماذا يجري هنا؟ سأل الحارس الطويل القامة.

كان ذا شعر أشقر قصير، ويحمل بيديه قبّعته العسكريّة الكاكيّة، ويلويها. وقد رفع كمّي قميصه وظهر على ساعده الأيمن وشم صغير يمثّل سهمين متصالبين، وبين رأسيهما كلمة «شمال». أبعدت نظري حتّى لا يراني أنظر إلى وشمه.

وقف الحارس البدين وقفة تأهّب وأدّى التحيّة. يبدو أنّ لحرس الإبعاد تراتبيّة عسكريّة أيضًا. وقال:

– سيّدي، هذه المعتقلة غادرت مقعدها.

نزلت الكلمة كصفعة على وجهي. المعتقلة؟ هل هذا ما أصبحنا عليه الآن؟

يجب أن أتكلّم. يجب أن أرغم نفسي على أن أقول ما لديّ. إن لم أقل ما لديّ، فلن يفعل ذلك أحد بالنيابة عنّي.

– آسفة، كنت أبحث عن المرحاض.

تفحّصني صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة، مضيّقًا عينيه قليلًا. عضضت شفتي ونظرت إلى حذائي. هل أرتجف؟ شعرت كأنّني أرتجف.

– أيّها الجنديّ، أظنّ أنّ بوسعنا القبول بهذا، قال الحارس الأعلى رتبة بعدما تنحنح.

– سيّدي، أوامر المعتقلين واضحة، وكذلك أوامرنا نحن.

– المراحيض موجودة في هذه العربة لسبب وجيه. لا يمكننا أن نتوقّع منهم إيقاف وظائف أجسادهم، صحيح؟

نظر إليّ الحارس البدين شزرًا، وهو ينقل وزن جسده من قدم إلى قدم، ثمّ أجاب الحارس الآخر:

– صحيح، سيّدي.

في العادة أشعر بكثير من الإحراج عند الحديث عن وظائفي الجسديّة. لكنّني الآن لم أشعر بذلك، بل بالغضب لأنّ دخولي المرحاض بات أمرًا يخضع لأنظمة ويستدعي نقاشًا.

– يمكنك العودة إلى مقعدك أيّها الجنديّ.

– نعم، سيّدي، قال الحارس وعاد إلى عربته.

رأيت باب العربة ينغلق.

– ما زال عليّ دخول المرحاض! قلت بانفعال.

أجهل لما قلتُ ذلك. عليّ العودة إلى عربتي. حتّى إنّني لم أكن بحاجة ماسّة إلى دخول المرحاض. لكنّني شعرت بأنّ عليّ تأكيد حقّي في دخوله. إنّها معركة لعلّ من الغباء خوضها.

هزّ صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة رأسه موافقًا، وقال:

– حسنًا، ولكن أسرعي بالعودة إلى مقعدك، ولازميه.

لم أدرِ إن كانت كلماته تنبيهًا أو تهديدًا.

كنت أحاول عدم النظر مباشرة إلى الحرّاس، ولكنّني حين استدرت لأبتعد، التقت عيناي بعينيه، فلم يُبعد بصره عنّي.

تنبيه؟ أم تهديد؟

الفصل 6

إندبندنس، كاليفورنيا. هذا اسم البلدة التي سنُعتقَل فيها، إندبندنس (أي الاستقلال). سخرية الاسم جعلتني أنفر. وأيضًا نفرتُ من ذلك اليوم المشمس. يجب أن تكون السماء ملبّدة بالغيوم السوداء والطقس عاصفًا. يجب أن يكون الليل دائمًا. لكنّ الأرض والشمس والقمر تتابع سيرها الطبيعيّ غافلة تمامًا عمّا يحلّ بنا.

دوّت مكبّرات الصوت بتعليمات جديدة: «ابقوا مع عائلاتكم. ستركبون حافلات للذهاب إلى مخيّم موبيوس وفقًا لأرقام التعريف الخاصّة بكم. حين تخرجون من المحطّة اكشفوا عن باطن معاصمكم. الزموا الهدوء واخرجوا بطريقة منظّمة».

أيدعونه مخيّم موبيوس؟ لقد أطلقوا عليه اسمًا وكأنّه مخيّم صيفيّ، وليس سجنًا.

– نحن في المجموعة الأولى. لنقف في الصفّ، قال أبي وهو يتقدّم وكأنّه مخدّر.

– كيف يمكنكما أن تكونا على هذا القدر من الهدوء؟ همستُ لوالديّ.

كنت أعرف أنّ الخطأ ليس خطأهما، لكنّني متعبة، ولا شيء يبدو منطقيًّا، وكنت بحاجة ماسّة إلى تفسير ما، أيّ تفسير.

– ليلى، كفى، قالت لي أمّي بصوت خفيض ولكنّه غير رقيق، وهي تمسك بمرفقي. هدوؤنا لا يعني أنّنا نمارس التأمّل. نفعل هذا لكي لا يطلقوا علينا النار. هل تفهمين؟

– لن يطلقوا علينا النار. نحن مواطنون أميركيّون. لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك.

– حكومتنا تسجننا بسبب إيماننا. قال صوت من خلفي. التفتّ لأرى وجه فتاة في مثل سنّي تقريبًا. أضافت: يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون. وهم يفعلون ذلك. هذا عالم جديد. إنّه «عالم جديد شجاع».

– لم نبدأ بدراسة هذا الكتاب بعد، قلت لها. ماذا يحدث فيه؟

– إذا أخبرتك فسأفسد عليك متعة قراءته، ردّت الفتاة بابتسامة ماكرة.

بدأتُ أحبّها.

– أقدّر التزامك بحماية أسرار الأدب الذي يعود تاريخه إلى قرن مضى، تقريبًا.

– أفتخر بأنّني ممّن يحاربون إفساد متعة القراءة.

– إذن لن تخبريني عمّا سيركّز عليه فيلم «ستار وورز» المقبل، حتّى إن كنت تعرفين؟ سألتها وأنا أضحك قليلًا.

– أبدًا. ولكن من البديهيّ أنّه سيكون لاندو.

– للمناسبة، اسمي ليلى.

– وأنا عائشة، المُكنّاة بحامية القصص، وأمّ التنانين، وعمّا قريب المسلمة المعتقَلة.

– إن كنت هنديّة، فقد باتت لدينا صفتان مشتركتان. ولا أعني الأمر المتعلّق بالتنانين.

- إنّها تعابير من رواية «لعبة العروش». ألم تقرئيها؟ ألم تشاهديها؟

هززت رأسي علامة النفي.

- خسارة. وأنا باكستانيّة. ولكن، كما تعرفين، الجنوب آسيوية تبقى جنوب آسيوية.

«اكشفوا عن معاصمكم»، صاح أحد ضبّاط حرس الإبعاد.

تقدّمت في الصف، كاشفة عن باطن معصمي الأيسر. شعرت بأنّني عارية. مرّر الحارس فوقه ضوءًا فوق بنفسجيّ، فظهر رمز مخطّط فوق معصمي وعليه رقم يخصّني وحدي، 0000105. لم يكن المسح الضوئيّ مؤلمًا ومع ذلك شعرت بأنّني وُسمت كحيوان. هزّ الحارس برأسه علامة الرضى، وتوجّهتُ مع والديّ لركوب حافلة. انحشرنا على مقعد واحد في وسط تلك الحافلة المدرسيّة. مرّت بنا عائشة وشقيقها الأصغر ووالداها. هزّت رأسها في اتّجاهي وقالت لي:

- أراكِ حين نصل إلى هناك.

كان الطريق العامّ من إندبندنس إلى المخيّم هادئًا، لم تسلكه سوى القافلة صغيرة من الحافلات المتّجهة نحو الصحراء. كان المنظر الطبيعيّ كئيبًا، ولكن جميل. سماء زرقاء صافية تمامًا تبرز تحتها قمم سييرا نيفادا المكلّلة بالثلوج، وشمس ساطعة أكثر ممّا يجب، تقريبًا. هل يمكن الطبيعة أن تكون ساخرة؟ قد تكون مدمّرة، أجل. ولكنّ القوّة الهائلة للطبيعة هي أمر لا أخلاقيّ. إذا مات أشخاص في عاصفة، يُعدّ موتهم ضررًا جانبيًّا، شأنهم شأن كلّ شيء تجتاحه العاصفة، كمصابيح الشوارع، أو السيّارات، أو المنازل. إنّها الآثار الجانبيّة غير المقصودة للرياح أو الأمواج أو التيّارات. بعكس البشر، لا تضمر الطبيعة رغبة في الثأر. ومع ذلك فإنّ مجرّد جمال السماء والشمس والجبال جعلني أشعر بأنّ الطبيعة متواطئة في خيانة وطني لي.

بعد عشر دقائق قصيرة، مرّت الحافلات بمانزانار، المخيّم القديم حيث اعتُقل الأميركيّون من أصل يابانيّ. كان المكان مهجورًا. أخذتني ارتجافة حين رأيت اللافتة الخشبيّة المهترئة، التي كُتب عليها «مركز مانزانار للسكن المؤقت خلال الحرب». خلال مرورنا بذلك المكان، التفتت رؤوس كلّ الركّاب لتحملق بالمخيّم. أدهشني حجمه الضخم. إنّها الصحراء. لا شيء هنا سوى أرض مقفرة، وما يبدو أنّها آلاف الأمتار المربّعة المحاطة بسياج خشبيّ بسيط. رأيت كذلك بعض العنابر ولافتة تشير إلى مركز الزوّار. أخبرتني أمّي أنّ مانزانار كان موقعًا تاريخيًا تديره مصلحة الحدائق الوطنية، لكنّ تلك المصلحة توقّف تمويلها قبل بضعة أشهر، فأُغلِق المكان. ألقيت نظرة خلفي حين تجاوزناه، ورأيت علمًا أميركيًا ممزّقًا لا يزال يرفرف على سارية منصوبة وسط المخيّم. كان كلّ شيء يبدو باللون الأسمر الباهت الذي يميّز الصور القديمة. كلّ شيء، ما عدا العلم بخطوطه الحمراء الشاحبة ورقعة النجوم الزرقاء.

واصلت الحافلات السير بنا، شغلت بالي تلك العنابر القديمة والمهجورة في مانزانار. هل سنعيش على هذا النحو الآن؟ ترك العرق المتصبّب منّي بقعة رطبة على سروالي الجينز لها شكل كفّ يدي اليمنى. شعرت بأمواج صامتة من الهلع والقلق تصدر من كلّ الركّاب. لا أظنّ أحدًا منّا كان يصدّق فعلًا أنّ هذا الأمر يحدث.

تباطأت الحافلات مع اقترابنا من سياج سلكيّ بدا أنّ ارتفاعه لا يقلّ عن خمسة أمتار، تعلوه أسلاك ملفوفة ذات قواطع حادّة، تمتدّ على طول السياج. كما رأيت أبراج مراقبة عالية، عليها حرّاس مسلّحون يشرفون علينا. إنّه سجن. أغمضت عينيّ، وشعرتُ بأنّ أمّي تضغط على يدي. وسمعتها تتمتم صلاة، فشاركتُها في صلاتها.

تساءلت عمّا إن كان الآخرون عرفوا الشعور نفسه، أعني الأميركيّين من أصل يابانيّ الذين احتُجزوا خلال الحرب العالميّة الثانية. هل شعروا

أيضًا بهذا الانفصال السرياليّ عن التجربة التي عاشوها، وكأنّهم خارج أجسادهم، يشاهدون أنفسهم يدخلون هذا المعتقل، كأشباح، كظلال لأشخاصٍ كانوهم ذات يوم؟ هل تساءلوا كم سيطول بقاؤهم هنا؟ هل تخيّلوا أنّ ذلك قد يطول لسنوات؟ هل حاول بعضهم تجاهل كلّ ما يجري، وتجزئته، وتخيّل أنّ الأمر لن يتجاوز اليوم الواحد؟ لأنّني أنا، حتّى قبل عبورنا هذه البوّابة الإلكترونيّة العملاقة، شعرتُ بأنّ حياتي قد أصبحت فعلًا بعيدة عنّي مليون ميل.

سمح حرس الإبعاد لسائقي الحافلات بالدخول، بعدما أجروا عليها تفتيشًا بصريًّا في الداخل ومن الخارج ومن الأسفل. انفتحت البوّابة، فدخلت الحافلات المخيّم مثيرة سحابة من الغبار عجزتُ معه عن الرؤية.

– ليخرج الجميع! صاح بنا السائق بصوت آمر بعدما توقّفت الحافلة فجأة. ثمّ أضاف مشيرًا إلى مبنى بشع رماديّ اللون في وسط المخيّم: سيروا في صفّ واحد إلى المركز، سجّلوا أسماءكم بحسب الشهرة، لتعرفوا أين ستقيمون.

كأموات خارجين من القبور، ومشدودين بالأرسن، سار المئات منّا مترنّحين نحو أكبر مبنى في المخيّم. تقدّمت العائلات في حلقات ضيّقة، يطوّق أفرادها بعضهم بعضًا بالأذرع. كثير من الوجوه السمراء والسوداء، كالتي قد تراها في أيّ مسجد. كان في ذلك المكان أيضًا مسلمون يمكن اعتبارهم من بيض البشرة، ربّما ينحدرون من أصول عربيّة أو فارسيّة. بيض البشرة، ولكن بدون امتيازات البيض.

ثمّة تفصيل كان من المستحيل ألّا نلاحظه. تمامًا كما في محطّة القطارات، كان كلّ المسلّحين بيض البشرة. ولا أعني ذلك البياض وكأنّهم من البوسنة، بل هم بيض من النوع الذي يظنّ أنّ مخيّمات الاعتقال ستعيد إلى أميركا عظمتها.

يتميّز مبنى المركز بالعلم الأميركيّ الذي يرفرف على ارتفاع أكثر من خمسة عشر مترًا في الهواء، وبكلمة كُتبَت بأحرف بلاستيكيّة سوداء ضخمة فوق بابه: «موبيوس». كان موظّفو هيئة الإبعاد الإداريّون يروحون ويجيئون حاملين هواتفهم، وسط حضور كثيف لحرس الإبعاد المسلّحين. وكان بعض رجال الهيئة يدخلون إلى مبنى رماديّ ملحق بالمركز، أو يخرجون منه. هل كان ذلك مكتبًا؟ أثناء سيرنا نحو المركز، اتّضحت لي شيئًا فشيئًا مساحة المخيّم، وكيف أنّنا أسرى وسط كيلومترات من السياج الشائك والمرتفع والكاميرات المصوّبة نحونا. رأيت أيضًا صفوفًا كثيرة من مقطورات السكن، كنت قد شاهدت مثلها على التلفزيون. إنّها تلك المقطورات التي تضعها الحكومة لإيواء منكوبي الكوارث الطبيعيّة الذين فقدوا منازلهم. أمّا يومذاك، فالكارثة الطبيعيّة كانت أنّنا مسلمون.

تشوّش بصري، وأرغمني الغبار على أن أطرف بعينيّ كثيرًا، كما تراخت ركبتاي. تمسكّتُ بذراع أبي، فأحسست بأنّ كلّ عضلة فيها متشنّجة. سوّى الحقيبة التي يحملها على ظهره. كان يمسك يد أمّي، ورأيتهما يتبادلان نظرة طويلة. كانا منهارين، وضاعف الغبار المتطاير من عمق تجاعيد وجهيهما. بدَوا ضئيلين، بدوا كائنين بشريين ضعيفين. حين يكون المرء طفلًا صغيرًا يظنّ أنّ والديه أقوى من كلّ شيء، وأنّهما يعرفان كلّ شيء. أمّا حين يكبر، فيعرف أنّهما مجرّد كائنين بشريين لهما عيوبهما، يحاولان شقّ طريقهما في العالم بأفضل ما يمكنهما.

بدونا كالنمل ونحن نسير في الغبار إلى فخّ عملاق، حيث ستُسدّ في وجوهنا أبواب الحريّة، أو حيث سيطعموننا سمًّا ينتقل لاإراديًا منّا إلى بقيّة أفراد المجموعة. عضضت شفتي، لكنّني لم أحسّ بها حتّى. ما كانت تلك المقولة التي يردّدها الناس دائمًا عن التاريخ؟ أنّنا، ما لم

نعرف تاريخنا، فمحكوم علينا بتكراره؟ وأنّ علينا ألّا ننساه أبدًا؟ أليست تلك هي الأمثولة؟ لكنّنا دائمًا ننسى. النسيان صفة أميركيّة أصيلة.

دوّى صراخ أمامنا، وبدا أنّ هناك صراعًا دائرًا.

سمعتُ صوت صبيّ يصرخ «لا! لا! لا!»، ثمّ رأيته يركض مبتعدًا عن والدته – أفترض أنّها كذلك – وهي امرأة متوسّطة العمر تضع حجابًا أزرق على هيئة عمامة. كان شعر الصبيّ كستنائيًّا وأجعد، وله من العمر ثماني سنوات أو تسع. ركضت والدته خلفه وأمسكت به، وهي تكلّمه باللغة العربيّة. تفرّق الجمع من حولهما. ثمّ صفعها ابنها على وجهها، وسُمعت شهقات من المحيطين بهما. حين رفعت المرأة يدها إلى خدّها، أفلت منها الصبيّ وركض عائدًا نحو البوّابة الرئيسيّة التي دخلت منها الحافلات، دافعًا بيديه كلّ مَن يقف في طريقه. لكنّه لم يبتعد كثيرًا، فقد شهر ثلاثة من حرّاس الإبعاد أسلحتهم وصوّبوها نحوه. كانوا يصوّبون أسلحتهم نحو طفل! أمسك به حارس رابع ورماه أرضًا ثمّ ثبّته. تجمّدت في مكاني، وعجزت تمامًا عن الحراك. هدأت وتيرة الأحداث. سمعتُ صرخة الوالدة المكتومة، وهي تجري وسط الجمع، تدفعهم بيديها لتفريقهم، فيتعثّر بعضهم ويسقطون ويشتمون، ما زاد الفوضى فوضى.

«أرجوك! لا تؤذه! إنّه لا يفهم»، قالت الأمّ باكية وهي تتشبّث بذراع الحارس الممسك بابنها.

دفعها الحارس بيده، فسقطت على ظهرها. ثمّ أبعد أحد الحرّاس الآخرين سلاحه عن الطفل وصوّبه نحوها. كان الطفل يبكي، ونحيب الأمّ يمزّق الآذان، صداه يتردّد في أنحاء المخيّم، ويصل إلى الجبال البعيدة. آنذاك ظهر صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة الذي شاهدته في القطار. وقال شيئًا لم أسمعه، ثمّ وضع يده على كتف الحارس الذي يثبّت الفتى. هزّ الحارس رأسه علامة الموافقة وأفلت الصغير. فساعد صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة هذا الأخير على النهوض. دفعت الأمّ نفسها

وهي على ركبتيها نحو ابنها، واحتضنته بحنان، محاوِلة حمايته، والابتعاد عن صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة. لكنّ هذا الأخير لم يلمس مسدّسه أو يضربها. بل همس شيئًا في أذنها، ثمّ أمسك بمرفقها وساعدها على النهوض. مسحت المرأة وجهها، ولم تترك كتفي ابنها. كان وجه الصبيّ شاحبًا وخاليًا من أيّ تعبير. عادت به المرأة بصمت إلى مكانهما في الصفّ، فيما تفرّق الناس المتهامسون ليدعوهما يمرّان.

أبعد الحرّاس أسلحتهم، وصاح أحدهم: «انتهى العرض»، فتابعنا طريقنا، مدفوعين كقطيع من الحيوانات، نحو المركز.

«انتهى العرض». يا إلهي! «العرض؟» وكأنّ ألمنا عرض ترفيهيّ.

نظرت إلى الحارس ذي الوشم، وإلى المسدّس على خصره. رآني أنظر إليه، فهزّ رأسه، وابتعد بخطوات طويلة نحو رجل ببزّة سوداء وقف ليشاهد ما يجري من مكان غير بعيد. كان وجه الرجل أحمر ممتقعًا، ولكن لا كمَن لفحته الشمس، بل لأنّ ربطة عنقه كانت مشدودة جدًّا فقطعت عنه الهواء. مَن يرتدي بزّة ويضع ربطة عنق في الصحراء؟

التفتّ إلى والديّ فرأيت الدموع تسيل على وجهيهما. انضممنا إلى الجمع وواصلنا السير، بدون أن يتفوّه أحدنا بكلمة واحدة. صمت كصمت القبور. أخذت نفسًا طويلًا مضطربًا، ثمّ آخر. وتلوتُ في سرّي صلاة مربّيتي المفضّلة. أنا مسرورة جدًّا لأنّها ليست هنا لترى ما يجري. حاولت أن أجد تعزية في ذكراها. ولكنّني أحسست خلال تلاوتي الصلاة بأنّ عضلاتي تتوتّر وبأنّ صوت تنفّسي يرتفع. تلوت الصلاة من جديد. لكنّني لم أشعر بأنّها حملتني كالعادة على التأمّل، ولا أنّها هدّأتني أو لطّفت غضبي.

أفكار وصلوات. ربّاه! كم مرّة سمعت السياسيّين يتلفظّون بهاتين الكلمتين.

أورورا.

أورلاندو.

لاس فيغاس.

ساندي هوك.

أومبكوا.

فرجينيا تك.

سان برناردينو.

ساثرلاند سبرينغز.

باركلاند.

سانتا في.

لم يكن لديّ مقياس لما يجب أن أشعر به أو أفكّر فيه. لكنّ الأفكار والصلوات لم تكن كافية لإنقاذ أيّ من أولئك الأشخاص في أيّ من تلك الأماكن، من إطلاق النار عليهم. لن تكفينا الأفكار والصلوات الآن. الصلوات لا يمكنها أن تصل إلى مكان بعيد. تذكّرت شيئًا آخر كانت مربّيتي تقوله لي: الصلاة مهمّة، لكن لا يكفي أن تصلّي لتنالي ما تريدينه. يجب أن تعملي.

وقفنا صفوفًا أمام المركز بحسب أسماء شهرتنا، وتقدّمنا للتفتيش الأمنيّ حيث كان علينا الخضوع للتصوير بأجهزة السكانر لكامل أجسادنا، وتمرير حقائبنا لتصويرها بالأشعّة وكأنّنا في المطار، لكن في حالتنا، كانت تذكرة السفر إلى المجهول. بعد السكانر، دخلنا قاعة المركز الرئيسيّة، حيث شاهدت عشرات من طاولات التسجيل. غصتُ في ذلك الكابوس الغريب، وسرّحت بصري على المخيّم وما بدا أنّه بوّابة الدخول الوحيدة إليه – والمحاطة بحراسة مشدّدة – وأبراج المراقبة، وسياج الأسلاك الشائكة الحادّة الذي يمتدّ بعيدًا... وعلى الأشخاص. في كلّ مكان، كانوا جميعًا مذهولين مثلي. كان المكان شبيهًا بـ«أمم متّحدة للمعتقلين».

شيبًا وشبّانًا، سودًا وسمرًا، بعضهم بالحجاب والكوفيّات والألبسة التقليديّة لبلدان أجدادهم، والكثيرون بقمصان تي شيرت وسراويل جينز وسراويل قصيرة. لكنّنا جميعنا مواطنون أميركيّون، أُرغمنا على القيام برحلة إلى الصحراء لا عودة منها. أمّا المسلمون غير الأميركيّين فكانت رحلة أطول في انتظارهم: الترحيل. لقد ألغيت بطاقات إقامتهم الدائمة وتأشيرات الدخول بشحطة قلم رئاسيّة. ولعلّهم هم المحظوظون، إن كانت لديهم ديار أخرى يعودون إليها، وتشكّل فرصة حياة جديدة لهم. أمّا نحن الذين وُلدنا هنا، فأميركا هي الديار الوحيدة التي عرفناها طوال حياتنا. وكلّ أولئك الرعاع الغاضبين الذين يهتفون على شاشات التلفزيون «عودوا إلى دياركم»، لا يفهمون أنّ هذه هي ديارنا.

وصل دورنا لتسجيل وصولنا، ومعرفة المسكن الذي سيمنحوننا إيّاه. جلست امرأة ذات شعر كستنائيّ مشدود على هيئة كعكة، وشفتين مزمومتين، إلى مكتب وراحت تقرأ بيانات رموزنا الإلكترونيّة في شاشة حاسوب نقّال أمامها.

– علي، وصوفيا، وليلى أمين، قالت، كمن يؤكّد أمرًا بديهيًّا.

كان من الواضح أنّها تريد جوابًا، لأنّها نظرت إلينا شزرًا حين بقينا صامتين أمامها.

– نعم، أنا علي. وهذه زوجتي صوفيا. وهذه ابنتنا ليلى. قال أبي وهو يضع يده على كتف كلّ منّا، وكأنّه يعرّف بنا في مناسبة اجتماعيّة.

– عُيّن مكان سكنكم في منزل مركوري، الرقم 17، المربّع 2، قالت المرأة. ثمّ أعطتنا ثلاث بطاقات-مفاتيح وأضافت: توجّهوا إلى مسرح المركز عند الساعة 17.00 لاجتماع توجيهي.

– هل عبارة «منزل مركوري» هي الاستعارة الجديدة لكلمة «مقطورة»؟ سألتُها.

نظرت المرأة إليّ بحاجب مرفوع. لكنّ أبي سحبني من مرفقي إلى الخلف.

– أين يقع المربّع 2؟ سألت أمّي.

– إليكم خريطة. يوجد ملفّ بعنوان «الأنظمة» على شاشة التلفزيون في وحدة الإعلام في مسكنكم. اقرؤوه.

مرّرت إصبعي على حلية عقدي الشبيهة برمز اللانهاية، وأنا أفكّر في أنّ هاتفي قد يكون بين يدَي شخص غريب، أو ربّما أُتلِف. كلّ صوري مع دايفيد، وصور السلفي لفريق التنس... ضاعت. انتشر حولنا عسكريّون مسلّحون. كان ذلك أمرًا مثيرًا للرعب، لكنّني شعرت أيضًا بالغضب يعلو في داخلي.

– هل في مقطوراتنا هواتف؟ حتّى السجناء يحقّ لهم إجراء اتّصالات هاتفيّة، قلت.

– ليلى! قال أبي ينهاني عن الكلام بصوت بدا الخوف في نبرته.

– يُسمح لكم بإجراء الاتّصالات بعد الموافقة عليها مسبقًا. ستجدون هواتف في قاعة الاستراحة في المركز، قالت المرأة وهي تشير إلى قاعة عند نهاية الغرفة الكبيرة حيث كنّا. يمكنكم أن تطلبوا إجراء اتّصال هاتفيّ من المركز، وتنتظروا الموافقة على طلبكم. سيشرحون لكم ذلك في اجتماع التوجيه.

– هل يُسمح لنا أيضًا بأن نأكل؟ سألتُ.

كانت معدتي تقرقر منذ نزولنا من الحافلة، وأحسست بالجوع يقترب.

تأفّفت المرأة متذمّرة. كان واضحًا أنّني أستنفد صبرها. وأجابت:

– تنتظركم علب طعام بقرب المخرج.

– وماذا عن الأخبار؟ كيف سنعرف ما يجري في الخارج...

– «مو - بي - وس» قالت المرأة لتذكيرنا باسم المخيّم، وكأنّنا لا نعرف الإنكليزيّة، أو كأنّ تلفّظها بالكلمة ببطء وصوت مرتفع سيُكسبنا فجأة الطلاقة باللغة الإنكليزيّة.

– لمعلوماتك، نحن نجيد الإنكليزيّة، قلت لها.

– ليلى! قالت أمّي عابسة، وأخذت يدي.

نظرت إليّ المرأة بحنق، لكنّها تجاهلتني، واستأنفت كلامها مباشرة من حيث انتهت:

– المدير يقرّر أيّة أخبار تتلقّون في موبيوس، ويسمح لكم بالحصول عليها عبر وحدة الإعلام في مسكنكم. ستعرفون كلّ الإجابات التي تحتاجون إليها في اجتماع التوجيه. ثمّ نظرت المرأة إلى الصفّ خلفي، وقالت بصوت ينمّ بوضوح عن الانزعاج: التالي.

وقفنا هناك لبعض الوقت، ونحن نجهل ما يجب أن نفعله. امتلأت القاعة بارتباك مئات الأشخاص وغضبهم، وأصبح الهواء ثقيلًا وصعبًا تنفّسه.

– التالي! قالت المرأة بصوت مرتفع، يكاد يكون صراخًا.

خرجنا من المركز إلى ضوء النهار الساطع. رفعت بصري، حاجبة بيديّ الشمس عن عينيّ. رأيت طائرة مسيّرة صغيرة تحوم فوقنا في الفضاء. توقّفت وكأنّها تنظر إليّ، ثمّ طارت في اتّجاه الرجل الأحمر الوجه ذي البزّة الذي كان يمسح حاجبيه بمنديل. كانت الطائرة المسيّرة مصنوعة من معدن أحمر لمّاع، ملساء، إهليلجيّة الشكل. ومع اقترابها من الرجل خرجت من جوفها ثلاث قوائم، سمحت لها بالهبوط عموديًّا، كعنكبوت ميكانيكيّة قفزت من الهواء إلى الأرض. ثمّ راحت تسير خلف الرجل كحيوان أليف. كانت الطائرات المسيّرة في كلّ مكان، لكنّني لم أرَ قطّ مثل هذه. فقد بدت كأنّها حيّة.

كانت منازل مركوري مصفوفة لتشكّل مربّعات. وعلى كلّ جانب من جوانب المربّع ثمانية منازل نقّالة، حنطيّة اللون، وحول نوافذها حافات بيضاء. ثلاث درجات من الألمنيوم تقود إلى بابها الذي يحمل رقم المنزل، بالإضافة إلى لوحة معدنيّة صغيرة كُتب عليها «منزل مركوري». ضحكت وأنا أتخيّل أنّ سلطات إدارة الكوارث اشترت هذه المقطورات من شركة كانت تحاول بيعها لفئة الزبائن الأثرياء الهيبيّين المأخوذين بتقليد الماضي. لم تكن المقطورات جميلة ولمّاعة كمقطورات «إيرستريم»، لكنّني تخيّلت بسهولة أنّ من الممكن تجهيز إحداها لتبدو قديمة الطراز، ثمّ عرضها للإيجار على موقع «إير.بي.إن.بي» فتغري أولئك الذين يعيشون بنعومة لكن يرغبون في ادّعاء الخشونة. لا شكّ في أنّ مبيعات هذه المقطورات لم تكن صفقة ناجحة، لأنّها حُوّلت في النهاية إلى سجون. حرّكت والدتي البطاقة المفتاح أمام القفل الإلكترونيّ، ودخلنا.

نظرت من حولي، فأحسست بطعم المرارة في حلقي. أعتقد أنّ منازل مركوري أفضل من الأكواخ التي شاهدناها حين مررنا بمانزانار. هذا منزل متحرّك، لكنّه لا يزال سجنًا. بابه الأماميّ مدخل إلى الغرفة المشتركة التي تشكّل مطبخًا وحجرة طعام وجلوس في آن واحد. وهي ضيّقة، وذات مساحة أصغر من مطبخنا وغرفة طعامنا في المنزل. لذلك أظنّ أنّنا لن نلبث أن نعاني شعورًا قويًّا برهاب الاحتجاز.

وضعت والدتي وجبات غدائنا التي تسلّمناها من المخيّم على الطاولة الصغيرة. ثمّ شمّت الهواء وفركت أنفها. كانت رائحة سائل مطهّر تنبعث بقوّة من كلّ المقطورة. تساءلت عمّا حاولوا إزالته.

تنحنح أبي، وذهب ليفتح إحدى النوافذ المستطيلة فوق أريكة المقطورة المغطّاة بالفينيل الأسمر. ما كاد يفتحها سنتمترات قليلة حتّى

سارع لإغلاقها من جديد بعدما دخل الغبار في عينيه. سارت أمّي إليه وطلبت منه الجلوس لتستطيع أن تتفحّص عينيه، فصرّ الفينيل تحته.

أخذت شطيرة من طعامنا، فكانت خبزًا أبيض دُهن بزبدة الفستق. وطبعًا ابتلعتُها بثلاث لقمات أو أربع.

ثمّ عبرتُ المطبخ الضيّق بخطوات قليلة حتّى بلغت بابين متقابلين، ففتحتهما وصحتُ:

– وجدت غرفة نومي!

لم يكن من داعٍ لأرفع صوتي. فوالداي، برغم أنّهما في نهاية المقطورة، كانا في الواقع على مسافة قريبة جدًّا منّي.

هزّت أمّي برأسها في اتّجاهي. نظرتُ إلى عينَي أبي فرأيت أنّ الغبار زال منهما، ولكنّهما لا تزالان مبلّلتين وخاليتين من أيّ أثر للحياة. وكذلك كانت عينا أمّي. آلمني أن أرى والديّ على هذا النحو. كانا يبدوان عجوزين ومرهقين، وكأنّهما أتيا إلى هنا سيرًا من المنزل. من منزلنا الحقيقيّ، من منزلنا الوحيد. أتذكّر أنّني قرأتُ مقالات عن أشخاص، ليسوا تمامًا في مثل حالنا، ولكنّهم هُجّروا، واقتُلعوا من جذورهم، فحاولوا أن يتدبّروا أمرهم بأفضل ما بوسعهم، لتبقى منازلهم كشعور يحتفظون به في قلوبهم، لا كمكان حسيّ حقيقيّ. لكنّني لم أرد أن أفعل ذلك. لا أستطيع. سأشعر بأنّني أخون حياتي القديمة، ونفسي. لي منزل واحد، ولن يكون هذا المكان منزلًا لي. لعلّ الحكومة تستطيع أن تسرق منّا حياتنا، لكنّها لا تستطيع أن تسرق منّا أفكارنا.

أغمضت عينيّ لبرهة، وأخذت نفسًا متشنّجًا.

ألقيت نظرة بداخل الغرفتين. كان في الغرفة اليسرى سرير مزدوج، وفي اليمنى سريران ضيّقان متراكبان، فقلت لوالديّ وأنا أشير إلى الغرفة اليسرى:

– أظنّ هذه الغرفة لكما، ما لم تريدا السريرين الضيّقين المتراكبين؟

نظر إليّ والداي وعلى وجهيهما ابتسامة قسريّة. لم يتفوّها بكلمة واحدة تقريبًا منذ أن جلسا. تخيّلت أنّهما أرادا أن يقولا شيئًا، لا أعلم، كلامًا من ذاك الذي يقوله الوالدان عادة. لكن لا بدّ من أنّهما يشعران بما أشعر به، بأنّ جسديهما منخوران بالثقوب.

دخلت الغرفة اليمنى.

كان السريران المعدنيّان المتراكبان محشورين ناحية الجدار، وعلى الفراشين والوسادتين أغطية من النايلون. وفي الجدار المقابل، نافذة مربّعة تطلّ على الجبال البعيدة، وتحتها كرسيّ بلاستيكيّ أزرق ومكتب صغير مثبّت بالجدار وقابل للرفع كصواني الطائرات. وبجانب المكتب مغسلة معدنيّة مستديرة صغيرة. وفي الزاوية خزانة ملأى بالرفوف، بابها كناية عن ستارة من النايلون الشفّاف. نظرت حولي وأخذت نفسًا عميقًا. كانت تلك الغرفة بحجم حمّامي القديم تقريبًا.

لم أكن أعلم ما عليّ أن أفعله. عرفت أنّ عليّ أن أشغل نفسي، لأنّني، إذا بقيت واقفة هكذا، فسأذبل ببطء حتّى أتلاشى تمامًا. تساءلتُ هل هذا ما فعله الأميركيّون من أصل يابانيّ الذين أُرسلوا إلى المخيّمات في الحرب العالمية الثانية. لعلّ الرتابة وحدها هي التي أبقتهم على قيد الحياة. الرتابة اليوميّة. يستيقظون. يعدّون الساعات. يجلسون على هامش الزمن. ينامون. تلك كانت خطّتي الفوريّة الآن. أن أنجو. أن أبقى حيّة برغم الجنون. أن أحافظ على يقظتي.

فتحت حقيبتي. أعدتُ طيّ كلّ ملابسي بترتيب ووضعتها على الرفوف. أبقيتُ مكانًا فارغًا لمستلزمات الحمّام، لأنّ المغسلة تكاد لا تتّسع إلّا لكوب صغير ولفرشاة أسناني. كذلك وجدت مكانًا لأضع كتابَي «أعظم القصائد الأميركيّة» و«ماكبث». لا يمكنني القول إنّهما أوّل ما قد أختاره للقراءة في عزلتي، لكن أظنّني وضعتهما في حقيبتي بدون تركيز. بعد ذلك، مزّقت النايلون المحيط بالأغطية والشرشف وأعددتُ

السرير الضيّق السفليّ، وتركتُ الأغطية الأخرى جانبًا. لم أدرِ كيف سيُتاح لنا غسل ملابسنا وشراشفنا، وهو أمر مزعج لأنّني أحبّ ملمس الشراشف النظيفة. لكنّ شراشف هذا المعتقل لا يمكن وصفها بأنّها من القماش الفاخر. عُلّقت فوق المغسلة مرآة بيضويّة الشكل. اقتربت لأغسل يديّ، فلاحظت اتّساخ وجهي بالغبار. غسلت عينيّ بالماء البارد، ونشّفت وجهي حتّى اسمرّ لون المنشفة. غسلتها بالصابونة، ثمّ علّقتها لتجفّ على رفّ المناشف المثبّت في الجدار.

سرت إلى الغرفة الأساسيّة وسألت والديّ:

– أين المرحاض والحمّام؟

نهضت والدتي، ومشت عشر خطوات قصيرة إلى المطبخ، ثمّ فتحت بابين صغيرين ظننتُهما لخزانتين. إحدى الحجرتين كانت حمّامًا، والأخرى مرحاضًا.

– أرى أنّهم لم يوفّروا جهدًا لأسرنا، قلت.

– آسفة جدًّا يا عزيزتي. لم نكن نعلم أبدًا أنّ الأمر سينتهي على هذا النحو، قالت لي أمّي وهي تعانقني بقوّة.

تركتها تعانقني. حين ابتعدت عنّي، رأيت عينيها تلتمعان بالدموع. أردت أن أقول لها شيئًا يهدّئ روعها، ويخفّف عنها هذا الأسى، لكنّني لاحظت وجود كاميرا سوداء صغيرة مثبّتة بسقف الحجرة. انفجرتُ غضبًا من هذا الانتهاك فصحت:

– هل يراقبوننا هنا أيضًا؟ هل يُسمح لنا ببعض الخصوصية لاستخدام المرحاض، أم سيراقبون تأديتنا لوظائفنا الجسديّة كذلك؟!

عليّ الخروج. شعرت بأنّ جدران هذه المقطورة تطبق عليّ وعجزت عن التنفّس.

– سألقي نظرة على المخيّم، قد أجد غرفة الغسيل.

– لا أظنّ أنّ عليك أن تجولي في هذا المكان. لا أعلم إن كان آمنًا.

– رجاءً يا أمّي. في الخارج أشخاص كثيرون. كما أنّ حرس الإبعاد عديدون ولا أظنّني سأتعرّض للاعتداء.

– المسلّحون هم مَن أخشاهم، ردّت أمّي وهي تستدير لتنظر إلى أبي الذي بادرني بابتسامة صغيرة بدا أنّها نتيجة جهد بذله. فأضافت: حسنًا، ولكن عودي بعد ساعة. يجب ألّا نتأخّر عن اجتماع التوجيه.

أخذت بطاقة مفتاح ووضعتها في جيبي الخلفي، قائلة:

– لا تقلقا.

لعلّهما كانتا أسخف كلمتين يمكنني قولهما لوالديّ.

ثمّ خرجت. فأحسست بعينيّ ترمشان لقوّة سطوع الشمس.

سرت بجانب صفوف عدّة من منازل مركوري المتطابقة في المظهر. كان في الخارج صغار يلعبون ويثيرون الغبار حولهم، فيما ذووهم يروحون ويجيئون بوجوه شاحبة، والخوف في عيونهم. لا يعرفون بما عليهم أن يشعروا أو ماذا عليهم أن يفعلوا. رأيت بعضهم يحاولون التخفيف عن الصغار بتوجيه ابتسامات مصطنعة إليهم. تذكّرت ابتسامة أبي قبيل خروجي. يستحيل عليّ أن أفهم ماذا يعني أن تكون أبًا أو أمًّا في هذه الظروف. أن يكون أحد واجباتك المقدّسة حماية أبنائك، وأن تشعر بالفشل والعجز التامّ عن القيام بأيّ شيء.

– ليلى؟ سمعت صوتًا يناديني باسمي من الخلف.

استدرتُ حاجبة الشمس عن عينيّ بيدي، فرأيت الفتاة التي التقيتُها في محطّة القطارات.

– عائشة؟

مرّرت عائشة يدها في شعرها القصير، وابتسمت لي، قائلة:

– أنتِ أيضًا لم تطيقي البقاء في الداخل؟

– المكان أشبه...

– بالقبر، قالت. وتريّثت برهة لتنظر إلى حارس مرّ بنا، ثمّ أضافت: نحن في المربّع عينه. على مسافة ثلاث مقطورات من مقطورتكم.

أشرت إلى صفّ منازل مركوري، وسرنا ببطء معًا. كان الحرّاس المسلحون يقفون بعد كلّ مربّعين. لم تكن أصابعهم على أزندة بنادقهم. لكنّنا شعرنا كأنّها كذلك.

– كيف عرفتِ أين تقع مقطورتنا؟ سألتُ عائشة.

– في وحدة الإعلام الخاصّة بالمقطورة ملفّ، أجابتني، ثمّ جحظت عيناها بنظرة رعب ساخرة وأضافت: أتعنين أنّك لم تقرئي ملفّ الأنظمة بعد؟

– تركت قراءة الأنظمة إلى ما قبل النوم. سمعتُ أنّها مشوّقة جدًّا، أجبتها بابتسامة متكلّفة.

– إنّها مثيرة جدًّا للاهتمام.

– هل يُسمح لنا بالسير حيثما نشاء في المخيّم؟

– أظنّ ذلك. فقط لا تقتربي من السياج وإلّا تعرّضت لصدمة، إنّها مكهربة.

– سأقول لك أمرًا بكلّ شفافية، أجبتها بابتسامة باهتة، لا يمكنني أن أرتبط بصداقة مبنيّة فقط على أساس اللعب بالألفاظ.

– وماذا عن الردود اللاذعة؟

– إذا أضفت إليها تعليقًا ذكيًا، فلك ما تريدين.

أردتُ أن أضحك قليلًا، لكن الضحكات خانتني. شعرت بأنّ الضحك الخفيف والمرح ضاعا منّي، ولم يعودا سوى ذكرى مؤلمة من الماضي السحيق. ومع ذلك أحسست بالامتنان لتلك الرغبة العابرة في الفرح.

مرّ بنا حارسان والتفتا صوبنا، فسلكنا الاتّجاه المعاكس بدون تفكير.

– هل تعرفين أنّ في منازل مركوري كاميرات؟ سألتها بصوت خافت لأنّ وجود الحرّاس في كلّ مكان أثار توتّري. وأضفت: كيف يُفترض بنا أن نستحمّ؟

– الكاميرات موجودة فقط في الحجرة الأساسيّة وليست في الحمّامات أو غرف النوم. يقولون إنّها لا تسجّل الصوت، لكن ربّما علينا الافتراض أنّها تفعل ذلك. فهذا أكثر أمانًا. أظنّك لم تقرئي الأنظمة.

– لا، انشغلتُ باستكشاف مكان اعتقالنا، وفتح حقائبي.

– فتح حقائبك؟ أتعنين قطع الملابس العشر التي شمح لنا بإحضارها؟

– أحضرتُ اثنتي عشرة قطعة. أنا أتقن التوضيب تمامًا.

– متمرّدة. يجب أن تقدّمي برنامجًا متلفزًا من الواقع خاصًّا بك، بعنوان: «توضيب الحقائب للذهاب إلى المجهول».

كانت تلك دعابة. شعرت بأنّ المزاح أمر طبيعيّ وغير مناسب في آن واحد. كهذه المحادثة التي نجريها. حقًّا. كلّ مقطع صوتيّ نتلفّظ به كان غريبًا، وكلّ ردّة فعل، غير مناسبة. لا يبدو أنّ هناك تفسيرًا مناسبًا لوجودنا في هذا المكان. وكأنّنا في رحلة بدون خريطة ولا بوصلة ولا هدف.

– لنذهب إلى هناك. أظنّني رأيت حديقة صغيرة، قالت عائشة وهي تقودني على الطريق الرئيسيّ العريض الذي يقسم المخيّم إلى قسمين، والذي ذكرت الخريطة التي أخذناها أنّ اسمه ميدواي.

– حديقة؟

– الأحرى أنّه نتوء صخريّ صغير تعلوه بعض الشجيرات.

سرنا في ميدواي. كان يمكن أن أسمّيه طريقًا لولا أنّ المخيّم خالٍ من السيّارات. أقلّه من السيّارات التي يُسمح لنا بقيادتها. كان إلى يسار المدخل الرئيسيّ موقف سيّارات صغير. لكنّ سيّاراتنا، مثل كلّ شيء آخر، بقيت في منازلنا. كان عليّ أن أسير في طريق ميدواي نحو

طرف المخيّم الخلفيّ – أي الجهة المقابلة للجبال، لا الطريق الخارجيّ – لأعرف كم كان مخيّم موبيوس كبيرًا. ومع ذلك فقد بدا ضئيلًا بالمقارنة مع الصحراء الشاسعة حولنا. كان فيه ضجيج، ولكنّه ليس ضجيج مدينة. لم أرَ طائرات تطير فوقنا. لم أسمع صفّارات إنذار. وما خلا الأطفال الذين يحاولون أن يتلهّوا بشيء ما، يسيطر على المكان صمتٌ مثيرٌ للقشعريرة. عيون كثيرة تنقّل البصر في كلّ اتّجاه، ولكنّها لا تلبث أن تخفضه حالما يمرّ الحرّاس. وجوه تركت عليها الدموع بقعًا. أطراف ملابس يعلوها الغبار. أشخاص يسيرون على غير هدى، كما نفعل، عائشة وأنا. يبحثون. ينظرون. يتساءلون إن كان ثمّة مخرج من هنا. لكنّنا لا نرى إلّا حرّاسًا وبنادق، وسياجًا الغاية الوحيدة منه هي إبقاؤنا أسرى في ذلك المكان... أو قتلنا.

بدت الحراسة في طرف المخيّم الخلفيّ أقلّ تشدّدًا. صحيح أنّ فيه حرّاسًا مسلّحين يجولون وأبراج مراقبة، ولكنّه كان أكثر هدوءًا. وبين السياج وبيننا، وعلى مسافات متساوية، رأيت حواجز برتقاليّة لضبط الحشود، كتلك التي توضع في الشوارع حيث تُقام الاستعراضات أو في الحفلات الموسيقيّة التي تُقام في الهواء الطلق. الواضح أنّها وُضعت هناك لمنعنا من الاقتراب من السياج والتعرّض لصعقة كهربائيّة، ولكنّ بينها مسافات فارغة يمكن التسلّل عبرها. كما أنّ ارتفاعها يصل إلى وسط الجسم، لا أكثر. وماذا عن الأطفال؟ لا أظنّ أنّ أيّ أب أو أمّ قد يتركان طفلهما يغيب عن نظرهما في هذا المكان. رجوت ألّا يبتعد أيّ طفل عن والديه، أو يظنّ المكان مناسبًا للعبة الغمّيضة. عسى أن تكفي اللافتات التي كُتبت عليها عبارة «خطر – سياج مكهرب» وتحمل رسم صاعقة تخترق جسد إنسان – والمنشورة كلّ ثلاثة أمتار، لمنع الأطفال كما البالغين من الاقتراب.

لقد بنت الحكومة – هيئة الإبعاد – هذا المخيّم بكامله تحت جنح الظلام. أتساءل عمّا بنوه أيضًا. ما الذي يمكنهم فعله بنا حين تكون عيون أميركا غافلة؟

كدنا نصل إلى نهاية المخيّم. لا شيء أمامنا سوى السياج، وخلف السياج، الصحراء. وإلى إحدى النواحي رأيت الحديقة – وهي تسمية مبالغ فيها بلا شكّ – فالمكان مجرّد صخور كبيرة مختلفة الأشكال تحيط بها شجيرات ذات لون أخضر باهت، بلون الأوكاليبتوس، وفيه بعض سيقان جافّة لأزهار صفراء تشبه نبات الخردل. لو كانت هذه الزاوية هي كلّ ما يُرى من المخيّم، لكانت جميلة. بتلات أزهار صفراء، وتراب أسمر، وسماء زرقاء. لو لم نكن مساجين، لأوحى هذا المكان بالسلام والهدوء. لو لم يكن للتاريخ أشباح، لما شعرتُ بالرعب ممّا قد يحدث. جملٌ كثيرة تبدأ بـ«لو» تحتشد في رأسي الآن...

انحنت عائشة وقطفت زهرة بنفسجيّة صغيرة نبتت تحت صخرة وعرة على شكل رأس سهم. جلست وراحت تديرها بين إبهامها وسبّابتها. ذهبتُ إلى صخرة أخرى وركعت أمامها، ورحت أزيل بعض التراب عن وجهها.

– ماذا تفعلين؟

– أظنّ أنّ في الحجر نقشًا ما. لعلّه نقش قديم من حقبة ما قبل التاريخ؟

كسرتُ عودًا صغيرًا وبدأت أزيل التراب عن الأطراف، ثمّ تابعتُ ذلك بإظفري. شعرت بالعطش، وأدركت أنّ عليّ ألّا أبتعد عن المقطورة بدون ماء. مسحت أطراف النقش بكفّ يدي مرّة أخيرة، ثمّ عدت للجلوس أرضًا. وقلت:

– اللعنة. هذا لا يعود إلى ما قبل التاريخ.

ركعت عائشة بقربي، ونظرت من فوق كتفي، وقرأت:

– «س. أ. + ت. ج.» هل كانوا شعوبًا متطوّرة في حقبة ما قبل التاريخ، أو ربّما كائنات فضائيّة؟

– كائنات فضائيّة تنقش قلوبًا صغيرة في الحجر وسط صحراء كاليفورنيا. طبعًا، يجب اعتماد التفسير الذي يحتاج إلى القليل فقط من الافتراضات. إنّها كائنات فضائيّة تحبّ تخريب الأملاك العامّة.

نظرت إلى عائشة التي قابلتني بابتسامة تحوّلت إلى ضحكة. ثمّ بدأت كلتانا بالضحك. لم تكن الدعابة طريفة جدًّا، لكنّ خصريّ آلماني من شدّة الضحك، وسالت الدموع على وجهي. أسندت عائشة ظهرها إلى صخر وراحت تقهقه. ثمّ غطّت وجهها بيديها وشهقت باكية، وارتجفت كتفاها. كانت كلتانا قد توقّفت عن الضحك.

لم أعلم ما أفعل. وضعت يدي على ركبتها، وقلت لها:

– هاي. هاي. سنكون بخير. سنجد طريقة للخروج من هنا.

شهقت عائشة ومسحت أنفها بظاهر يدها، وأجابتني:

– طريقة للخروج؟ كيف؟ المخرج الوحيد هو عبر السياج المكهرب.

– أعرف، قلت لها هامسة، لا تفقدي الأمل من الآن. لم نكد نصل.

– لا تقلقي، ردّت عائشة وهي تشهق، أعرف أنّ الشعور بالخوف قوّة خارقة.

– ماذا؟

– هذا أمر قاله لي أبي ذات مرّة، حين شاركت في مسابقة للتهجئة. قال إنّ خوفي جعلني أكثر تيقّظًا، وإنّ بإمكاني تحويله إلى تركيز.

– هل فزت؟

– لا، حللت في المركز الثاني. لكنّ منافسي كان من جنوب آسيا، وقد فاز ببطولة الولاية، قالت عائشة بابتسامة خفيفة. الجنوب آسيويون بارعون في مسابقات التهجئة. كان أبي على حقّ. فحين أخاف، أشعر دائمًا بأنّ بوسعي القتال بقوّة أكبر.

هززتُ رأسي لعائشة وابتسمت. ثمّ وقفت ومددت يدي لأساعدها على النهوض. حين كنّا ننفض التراب عن ملابسنا، لاحظت انخسافًا صغيرًا في الأرض خلف الحواجز البرتقاليّة، عند السياج. أمعنتُ النظر. وبدا كأنّ شيئًا ما قد حفر التراب. أهو حيوان صغير، أو ربّما...؟

سمعنا صرخة تلاها مزيد من الصراخ. غادرنا الحديقة، ورأينا شابًا يصرخ بأحد الحرّاس. كان صديقان له يحاولان ردعه. اقتربنا لنسمع. ثمّ أتى حارسان مسرعين.

– أيّها النذل الكاره للمسلمين! صاح الشابّ، كنّا معًا في المدرسة المتوسّطة. ماذا دهاك؟

كان الشابّ في مثل سنّنا، أو ربّما أكبر بقليل، وطويل القامة ونحيلًا. كان صديقان يشدّانه من ذراعيه، وأحدهما يكلّمه بصوت خفيض لم نسمعه.

– ابتعد يا سهيل! صاح الحارس. يمكنني نقلك من هنا. وصدّقني لن ترغب في ذلك.

وأشار إلى الحارسين الآخرين لإبعاد سلاحيهما، بحركة من كفّي يديه نحو الأسفل وكأنّه يضغط الهواء.

انقبض صدري. يستطيع الحرّاس أن يفعلوا ما يشاؤون بسهيل هنا. إلى مَن يمكننا أن نذهب؟ لا شرطة نتّصل بها. لا أحد ليحمينا. يجب أن نفعل شيئًا ما. قد يلحقون به الأذى. هممت بالاقتراب، لكّن عائشة شدّتني من ذراعي إلى الخلف وهي تهزّ برأسها.

– لا تكوني حمقاء، قالت لي. معهم بنادق.

أردت أن أزعق بها. لكنّني نظرت في عينيها الجاحظتين رعبًا فلجمت نفسي. إنّها على حقّ. ألقيت نظرة خاطفة على يديَ. كانتا ترتجفان. جمعت يدي اليمنى كقبضة وضربت بها فخذي، وصررت أسناني، وهززتُ رأسي موافقة.

رفع سهيل يده وأبعد صديقيه عنه، ثمّ تراجع خطوات قليلة.

لم ألمح سوى جزء من وجه الحارس، لكنّني رأيت كتفيه تسترخيان. ثمّ قال:

– سيسير الأمر على ما يُرام يا سهيل. اهدأ. الجميع يقومون بعملهم هنا. عليك فقط أن تقوم بعملك.

– وما هو عملي؟ سأله سهيل ثمّ بصق أرضًا أمام قدميه.

– عملك أن تقوم بما يُطلب إليك، قال الحارس، قبل أن ينضمّ إلى الحارسين الآخرين لمساعدتهما على تفريق حشد المتفرّجين الصغير.

هزّ سهيل رأسه وسار مبتعدًا، نحو الحديقة، نحونا. كلّ لحظة من الوقت القصير الذي أمضيناه خلف هذا السياج كانت تكشف لي حقيقة ما. وفي هذه اللحظة أدركت أنّ سهيل كان محظوظًا لأنّ الحارس اكتفى بصرفه بفظاظة.

– هل أنتَ بخير؟ سألت عائشة سهيل حين اقترب منّا.

رفع الشابّ رأسه نحونا مجفلًا. كان واضحًا أنّه لم يلاحظ وجودنا. خرج من فمه زفير مرتفع كأنّه تنهّد عميق. التفت إلى الوراء فرأى أنّ الحرّاس والجمع الصغير قد ابتعدوا. لا أحد أراد أن يبقى في ذلك المكان.

– أنا بخير، أجاب. وتريّث ثمّ تابع: لا. لستُ بخير على الإطلاق. ما يجري هو عمل فاشيّ على مستوى عالٍ.

اكتفيتُ وعائشة بهزّ الرأس. ثمّ ركلتُ حجرًا صغيرًا، وشاهدناه يتدحرج بعيدًا. حملقنا به وكأنّه حدث بالغ الأهمية. الواقع أنّه بغياب هواتفنا، كان كذلك فعلًا.

نظر كلّ منّا إلى الآخر. ثمّ كسر الشابّ الصمت وقال:

– أدعى سهيل. وأضاف بنبرة رسميّة: سهيل سعيد.

– سمعنا، قلتُ له، وأنا ليلى.

– عائشة، قالت له رفيقتي بابتسامة.

بادلها سهيل الابتسامة، وبدا أنّ ذلك أزال عنه التوتّر.

– لو كانت تيتا هنا، لعرفت لعنة الفراعنة المناسبة لإنزالها على هؤلاء الأنذال.

– كلعنة توت عنخ آمون؟ سألته عائشة.

– لم يكن الفرعون الوحيد، قال سهيل بضحكة صغيرة. لم تكن جدّتي تؤمن باللعنات، لكنّي كنت أحبّ الاستماع إلى رواياتها عنها، وعن الموت المفاجئ الذي تعرّض له كثيرون ممّن شاركوا في الحفريات. كانت تيتا عالمة آثار وراوية حكايات. صدّقاني. كانت قصص اللعنات القديمة والمومياءات من أقوى حكايات الرعب.

– أخبرنا قصّة لعنة واحدة على الأقلّ، قلت له.

مرّر سهيل يده في شعره الأسود المتموّج. سرحت عيناه الكستنائيّتان في البعيد قبل أن تعودا فجأة إلينا، وقال:

– نُقشت على تمثال كاهن آمون الأكبر لعنة تقول إنّ المعتدي سيموت جوعًا وعطشًا.

– ألا تظنّها لعنة عاديّة جدًّا بالنسبة إلى قوم يعيشون في الصحراء؟ سألته عائشة.

نظر إليها بطرف عينه وقال:

– وماذا عن اللعنة التي تقول: «سيُطهى مع المحكومين»؟

– مقتضبة، قلتُ. أظنّني أحبّ هذه اللعنة. ليُطهَ أعداؤنا مع المحكومين.

– حسنًا. الأرجح أن نموت نحن جوعًا وعطشًا، لا الحرّاس أو أيّ من موظَفي المكاتب في المركز، ولا الرئيس طبعًا، قال سهيل.

– أتظنّهم سيجوّعوننا؟ سألته عائشة.

– هذا مخيّم اعتقال. هل رأيت صور مخيّمات اعتقال أسرى الحرب العالميّة الثانية؟ سألها سهيل.

عادت عائشة خطوة إلى الوراء، وكأنّها تلقّت لكمة في صدرها.

ثمّ خطر لي أنّها لم تتخيّل أمرًا أسوأ من هذا. ربّما كان هذا شأن كثيرين. جميعنا شعرنا بخوف عميق وكأنّه ينخر عظامنا. ولعلّ التفكير في ما قد يفعلونه بنا لاحقًا كان أقسى من أن نتحمّله.

– هذا ليس مخيّم اعتقال لأسرى الحرب، قلتُ. كنت أريد حماية عائشة، لأنّها لم تكن مستعدّة للتفكير في السيناريوهات المخيفة. وأضفت: لن يكون مفيدًا لأحد أن تقول كلامًا كهذا. إنّه مرعب.

– جيّد. أريد إثارة رعب الناس. يجب أن نشعر بالرعب. لعلّ الناس يقفون ويفعلون شيئًا ما.

– أوافقك الرأي. بعض الخوف مفيد، ولكن ليس لدرجة أن يشلّنا. هذا ليس مفيدًا لأحد. انظر حولك. لا تكن غبيًّا.

انقبض فكّا سهيل، وبدا أنّه على وشك أن يقول شيئًا، لكنّه امتنع. ثمّ نظر إلى عائشة، ورقّت ملامحه، وقال لها:

– آسف. لم أقصد إثارة هلعك.

– لا بأس. كلّنا متوتّرون.

– في أيّ مربّع تقطن؟ سألتُه محاولة تخفيف التوتّر.

أشار سهيل بيده إلى الجهة المقابلة من ميدواي، وأجاب:

– أنا في المربّع 6، مع خليط من الأميركيّين الآخرين من أصل عربيّ.

حين قال سهيل ذلك، أدركتُ أنّنا قد قُسمّنا على أساس إثنيّ. كذلك فعلت عائشة وقالت:

– اللعنة، مربّعنا كلّه يضمّ جنوب آسيويّين. وأضافت وهي تلتفت إليّ: لا أظنّ التفريق بيننا مجرّد صدفة.

– لا أظنّ أنّ هيئة الإبعاد تترك شيئًا للصدف، قال سهيل مكشّرًا وهو يفرك مؤخّرة عنقه.

– فرّق تسد، قلت.

لا أظنّ أنّ سهيل وعائشة سمعاني. فقد كانا يتبادلان نظرات ونصف ابتسامات غريبة.

– ربّاه! قالت عائشة وهي تنظر إلى ساعة يدها. سنتأخّر عن اجتماع التوجيه. وستصاب أمّي بالهلع.

– سنلتقي لاحقًا، بعد أن يتمّ توجيهنا، أو قول ما يريدون قوله لنا بشأن هذا المكان اللعين، قال سهيل.

استدرت وعائشة عائدتين نحو مربّعنا، فيما عاد سهيل إلى مربّعه. ومع كلّ خطوة، كنت أشعر بعضلاتي كلّها تتوتّر، بينما عائشة تقبض على معدتها.

رأيت أشخاصًا يسيرون عائدين إلى مقطوراتهم، وآخرين يتّجهون إلى المركز في مجموعات عائليّة صغيرة. ساد صمت كبير. صمت مفرط. نحن أشخاص مختلفون، لكنّ نظراتنا جميعها تشابهت. إنّها نظرة الخوف الشديد.

مع اقترابنا من مقطورتينا، التفتّ لأنظر إلى الجبال، إلى تلك القمم الغرانيتيّة المدهشة في البعيد. كانت جميلة وعارية تحت السماء. وتخيّلت أنّ ظهور القمر سيكون رائعًا إذا استطعنا رؤيته هذا المساء، هلالًا فضيًّا معلّقًا فوق القمم. ثمّ نظرت من جديد، فلم أرَ سوى سياج وشريط شائك وبنادق.

أحسست ببرودة الصحراء في جسدي، وسرت فيّ ارتجافة.

الفصل 7

– أين كنت؟ سألني أبي لحظة دخلت المقطورة، اجتماع التوجيه بعد 15 دقيقة. أسرعي. لا يمكننا أن نتأخّر.

– آسفة، صادفتُ عائشة. إنّها الفتاة التي التقيتها في محطّة القطارات. كنّا نتمشّى، ولم نلاحظ حجم هذا المكان. وقد تهنا قليلًا.

– التراب يغطّيك! قالت لي أمّي وهي تنظر إليّ بعينين جاحظتين. ماذا كنت تفعلين؟

– لا شيء. إنّه غبار. سأذهب لأغتسل.

أسرعت إلى غرفتي. أظنّني بدأت أدعوها غرفتي. طريف كيف أنّ عقولنا تتمسّك بالحفاظ على وتيرة طبيعيّة للحياة، وتبحث جاهدة عمّا يمكنها اعتباره مألوفًا في بيئة غريبة تمامًا. لا. هذا خطأ. الأمر لا يشبه السفر إلى بلد آخر، حيث قد يشعر المرء بنوع غريب من الإثارة إذا وجد شيئًا يشبه دياره، أو صادف شخصًا من مدينته، أو حتّى رأى دعاية كوكاكولا قديمة الطراز. هذا المكان ليس أجنبيًّا. هذا مكان إقامة قسريّة. إنّه سمّ يُدفع دفعًا في أفواهنا.

غسلت وجهي بسرعة، وأزلت التراب عن يديّ. ثمّ بدّلت قميصي وارتديت تي شيرت رماديّة اللون كنت قد اشتريتها حين ذهبتُ ودايفيد إلى حفلة فرقة ويلكو الموسيقية الصيف الماضي. يبدو لي الآن أنّ ذلك حدث منذ مليون عام، وأنّ دايفيد يبعد عنّي مليون ميل. لم يُتح لي نفض كلّ التراب من شعري، فربطته على صورة ذيل حصان واعتمرت قبّعة بايسبول خضراء. تذكّرت فريق التنس. وافق بعضنا على مساعدة المدرّب في إدارة حلقات نقاش خلال فصل الصيف تواكب الاستعداد للمباريات المقبلة في الخريف. كنّا نتوقّع تمارين وركضًا ومباريات تدريبيّة وضحكًا وثرثرة. لكنّ هذا انتهى بالنسبة إليّ. فمضربي وتنّورة التنس لا يزالان في خزانتي، ينتظران شباك العناكب. بدا مستحيلًا أن يفقد العالم كلّه المنطق والفضيلة في لحظة واحدة.

ومع ذلك فها نحن هنا الآن.

سرنا نحو المركز مع مئات العائلات الأخرى. دوّى عبر مكبّرات الصوت صوت جرس إنذار، معلنًا عن بداية الاجتماع، فصمت الجميع. مرّة جديدة أدهشني الطابع الأميركيّ لهذه الحشود: تجتمع هنا كلّ الأعراق، وعشرات الإثنيات، وأزياء مختلفة، وطبعًا آراء متباينة تمامًا حول السياسة والحياة، وحتّى حول الإسلام. لكنّني أظنّ أنّ هذا هو مشهد أميركا التي عرفناها من قبل. أمّا الآن فقد بات شيء واحد يجمعنا: الديانة التي تجعل منّا أعداءً للدولة. الدولة التي نحن جميعًا مواطنوها، الدولة التي وُلد معظمنا فيها.

مع اقترابنا من المركز، آلمتني حقيقة جديدة: الحرّاس المسلّحون، أولئك الذين ينظرون إلينا بازدراء، كلّهم أميركيّون أيضًا. جلت ببصري في ميدواي أبحث عن وجه الحارس صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة، ذلك الذي بدا... لكنّني لجمت تلك الفكرة. غير مهمّ ما أراه في وجهه أو في عينيه. بالنسبة إليه أنا العدوّ. وبالنسبة إليّ، هو سجّاني.

دخلنا مسرح المركز الشاسع الحجم. «وحدة». «أمن». «ازدهار». ملأت تلك الكلمات شاشة عملاقة على المسرح.

برغم تدفّق المئات للدخول، ظلّ المسرح شبه خالٍ. ارتجفت حين فكّرت في العدد الكبير من المعتقلين الذين ربّما يُجبرون على الانضمام إلينا هنا، أو على الذهاب إلى مخيّمات أخرى، لا تزال حتّى الآن مجهولة وفارغة. المسلمون يشكّلون نسبة 1% فقط من مجموع الشعب الأميركيّ، ومع ذلك فهذه النسبة تعني نحو 3.5 ملايين نسمة. كيف يمكنهم أن يسجنونا كلّنا؟ الأمر بمثابة اعتقال 90% من سكّان لوس أنجلس. فضلًا عن الترتيبات اللوجستيّة، من المفترض أن يكون مجرّد التفكير في الأمر مستحيلًا هنا في أميركا.

دخل رجل ضخم الجثّة يرتدي بزّة سوداء إلى وسط المسرح. إنّه الرجل الممتقع الوجه عينه الذي وقف يتفرّج على الحرّاس يمسكون بذلك الطفل. صدى خطواته المرتفع أخرس ضجيج الأصوات في القاعة. ولم يزل وجهه يبدو وكأنّ ربطة عنقه تمنع تدفّق الدم إلى رأسه. سار إلى جانبه شخص بدا أنّه حارسه الأمنيّ. وهؤلاء لا يرتدون ملابس عسكريّة بل بذلات، كعناصر جهاز المخابرات. وهم، بقصّات شعرهم الفاشيّة وتكشيراتهم الخبيثة، يبدون كأنّهم في مهرجان لحركة «توحيد اليمين» المتطرّفة. حملق الرجل فينا عند دخولنا، بعينين كخنجرين، تلتمعان بالشرّ، وقد رسم على شفتيه البنفسجيّتين والمرتخيتين ابتسامة مصطنعة. لو أنّه ارتدى قميص بولو وعلّق في عنقه صفّارة، لبدا أشبه بالسيّد كونورز، مدرّب الفوتبول الضخم العنق في مدرستي الثانويّة. هدر صوته في الحشود كالرعد:

– أهلًا بكم في موبيوس. أنا مدير مخيّمنا، المسمّى نسبة إلى درب «موبيوس آرتش لوب» القريب من هنا.

- «أهلًا بكم؟» سألتْ أمّي هامسة، إنّه يتكلّم وكأنّنا أتينا إلى هنا باختيارنا.

شدّت أمّي على يدي ورمقتني بنظرتها التي تعني «اصمتي»، والمقترنة بالشفتين المزمومتين والحاجبين المعقودين.

- الآن، نحن نرغب في جعل الحياة هنا هادئة وممتعة بأكبر قدر ممكن. خذوا بعض الوقت لتتعرّفوا إلى أنحاء المخيّم. إنّه مكان كبير، وفيه فرص كثيرة. توجد مساحات ترفيه للأطفال كما للبالغين. كما نخطّط لزرع بستان خضار. ويوجد مستودع يمكنكم أن تتسلّموا منه حصصكم التموينية، وقاعة طعام طبعًا، حيث نتناول كلّنا عشاءنا معًا كجماعة واحدة.

حملقت في المدير، بما يشبه الشعور بالرعب من قدرته على تحريف فكرة الأسر لجعلها تبدو شبيهة بالإقامة في مخيّم ترفيهيّ. جماعة واحدة. فرص. ترفيه. بستان. كان يتكلّم وكأنّه المسؤول عن الترفيه في سفينة سياحيّة، وليس آمرًا في مخيّم اعتقال. نظرت من حولي فرأيت أشخاصًا ينظرون أمامهم بعيون جاحظة وخائفة، أو بعيون تملأها الدموع، وآخرين يسدّدون نظرات الحنق الشديد. بعضهم كانوا يحاولون إسكات أطفالهم، فيهدهدونهم برفق لئلّا يبكوا، محاولين جعلهم يشعرون بالارتياح.

مشاهدتي فعل الحبّ البسيط هذا كان لها وقع هائل عليّ. مخيّم الاعتقال ليس مكانًا للأطفال. إنّه ليس مكانًا لأحد. التقت عيناي بعيني طفلة صغيرة لا يزيد عمرها عن سنتين أو ثلاث. كانت ذات عينين خضراوين برّاقتين، لكنّ الدوائر السوداء تحتهما فضحت قلّة نومها. كانت متعبة، كحالنا جميعًا. حملقت الطفلة بي، وفي وجهها الذي له شكل القلب، رأيت شيئًا مألوفًا، شيئًا رأيته من قبل. فحككت دماغي.

لاجئون.

ذكّرتني باللاجئين السوريّين، وتحديدًا بصورة طفلة صغيرة، ربّما كانت في مثل عمرها، تحملق عبر سياج سلكيّ في عدسة مصوّر فوتوغرافيّ. لكنّ المصوّر التقط صورة تلك الفتاة في اللحظة التي انطفأ فيها نور عينيها، لا بفعل الخوف فقط، بل بفعل صمت العالم حولها. رأيت تلك الصورة للمرّة الأولى في موقع الأخبار الإلكترونيّ الذي طلب منّا أستاذ التاريخ أن نتسجّل فيه. أظنّها أكثر الصور التي شاهدتُها تعبيرًا عن الوحدة. هذه الطفلة، ذات الوجه الشبيه بالقلب... ربّاه، لا أريد أن تخسر ذلك النور من عينيها.

لكنّني رأيت كذلك بعض الأشخاص يهزّون رؤوسهم علامة الموافقة بشكل ميكانيكيّ. لعلّهم ظنّوا أنّ علينا أن نجاري هذا الوضع، أو اعتقدوا أنّهم بموقفهم هذا سيخرجون من هنا في وقت أسرع. لم أستطع أن أقرّر ما إن كانوا جاهلين تمامًا أو يأملون حقًّا أنّ العدالة ستنتصر.

– ستلاحظون أنّنا قسّمنا المربّعات بحسب خلفيّاتكم الإثنيّة والثقافيّة. تعتقد هيئة الإبعاد أنّكم ستشعرون بارتياح أكبر وسط أبناء جلدتكم.

أبناء جلدتي هم الأميركيّون. كلّ الأميركيّين.

بارتياح، واصل المدير خطابه المفعم بالعجرفة، فقال:

– للمساعدة على التخفيف من مصاعب انتقالكم، عيّنّا على كلّ مربّع مشرفين. ومعظم هؤلاء المشرفين يتكلّمون بلغتكم. لذلك فهم يفهمون كلّ شيء. ثمّ كرّر المدير بعد تريّث: «كلّ شيء».

يا له من وغد. كلّ كلمة من كلماته تحمل تهديدًا. «نحن نراقبكم». «نحن نسمع كلّ ما تقولونه». «نحن في كلّ مكان».

– إنّهم متوفّرون ليل نهار لمساعدتكم، تابع يقول.

ثمّ أشار إلى صفّ من المقاعد خلفه جلس عليه نحو عشرين شخصًا. إنّهم أناس منّا. البعض محجّبات، والبعض بالقلنسوات الجنوب آسيوية،

والبعض الآخر بسراويل الجينز وقمصان تي شيرت. من كلّ عرق وكلّ إثنيّة في المخيّم. من يحتاج إلى الحكومة للنيل منه حين يكون قومه مستعدّين للقيام بذلك الدور؟

أشار المدير إلى المشرفين ليقفوا، وقال:

– هؤلاء الأشخاص المميّزون يشاطرونكم خلفيّاتكم، ويتفهّمون همومكم. وهم يأتون من مجتمعاتكم. وقد تبرّعوا بوقتهم للمساعدة على تسهيل انتقالكم للعيش في موبيوس...

– خونة! فاشيّون! صاحت بالمشرفين امرأة وقفت في وسط المسرح. وكانت ذات شعر بنيّ فاتح مربوط على شكل ذيل حصان.

سرت وسط الحشد موجات تهامس، ثمّ شارك بعض الجالسين في الخلف بالاحتجاج، صائحين: «خونة!».

امتقع وجه المدير لكنّه حافظ على هدوء صوته. وأشار إلى الحرّاس بإبعاد المرأة المحتجّة. وتابع يقول:

– لا نقبل بتعكير الهدوء في موبيوس. نحن المخيّم الأوّل، وسنكون القدوة. وكلّ من يخالف الأنظمة سيتعرّض للعقوبات.

في هذا الوقت، اقترب حارسان من المرأة وأخذاها بالقوّة من مقعدها، وجرّاها عبر الممرّ. ثمّ أخرج الحارس الأوّل قيدًا. بصقت المرأة في وجه الحارس الثاني، الذي ردّ عليها بصفعة شديدة جعلتها تسقط أرضًا. أحسست بالغثيان لمشاهدتي ذلك. اقترب الحارس الثاني ليحمل المرأة على النهوض، لكنّها دفعته وركلته بكعب حذائها في ذقنه. فصعقها بالكهرباء. أزّ صوت الكهرباء في الصالة وتلاه صراخ يمزّق الآذان. ثمّ عاود صعقها. أمسك الحارسان بذراعيها ورفعاها، ثمّ جرّا جسدها المتهالك إلى خارج المسرح. تسمّرت عيون كلّ الحضور بالباب وهو يُغلق.

ساد الصمت. فالخوف أو الذهول عقدا ألسنة الحضور. بدا أنّ أحدًا لا يعرف أين يجب أن ينظر: إلى الأرض، إلى الآخرين... غطّى البعض وجوههم وأفواههم بأيديهم. نظرت إلى والديّ وأنا أهزّ رأسي، والدموع تحرق عينيّ. خانتني الكلمات. ما نفع كلماتي أمام هذا الأمر؟ شدّتني أمّي إليها وأمسكت يدي بكلّ قوّة.

في النهاية عدنا للنظر إلى المسرح وإلى المدير الواقف هناك وهو يتفرّج بلا مبالاة على ما يجري، بدون أن يتفوّه بكلمة واحدة. كان الصمت مخيفًا. كما في فيلم للرعب حين نتوقّع حدوث أمر مروّع ولكنّنا نبقى عاجزين عن منعه.

تنحنح المدير واستأنف كلامه:

– تذكّروا شعارنا، وأشار إلى الشاشة خلفه. «وحدة، أمن، ازدهار». والآن، حان وقت العشاء. أيّها المشرفون، نادوا على قاطني مربّعاتكم واذهبوا بهم إلى قاعة الطعام.

حين نادى المشرفون على قاطني مربّعاتهم، وقادوهم عبر تلك المسافة القصيرة بين المركز وقاعة الطعام، مشى المئات منّا في صمت وذهول. المشهد زعزعنا جميعًا، لا بسبب وحشيّته فحسب، بل لما بدا عليه من عادية... فالمدير لم يرفّ له جفن، والحرّاس وجّهوا الصعقة الكهربائيّة بارتياح تامّ. تساءلتُ أين اقتيدت المرأة، وهل ما رأيناه قمّة جبل الجليد. في تلك الأثناء، كانت طائرة مسيّرة تحلّق فوقنا وتسجّل سيرنا الصامت.

كانت قاعة الطعام عبارة عن كافتيريا ضخمة عاديّة جدًّا، كتلك الموجودة في الثانويّات الرسميّة أو في السجون. طاولات طويلة وعن جانبيها كراسيّ بلاستيكيّة زرقاء. كنت أسير خلف الجموع، وحذائي يصرّ على الأرض المكسوّة بغطاء من الفينيل يشبه رقعة شطرنج رماديّة وبيضاء. هل كان من الفينيل؟ أو ربّما نوعًا من الإيبوكسي؟ مهما كانت،

فقد بدت لي ليّنة كالإسفنجة. كانت القاعة كبيرة، على أحد طرفيها مطبخ ونضد لتقديم الطعام، وعلى الطرف المقابل جدار ترابيّ اللون عُلّقت عليه ملصقات زاهية عن كيفيّة غسل الأيدي والمحافظة على النظافة الشخصيّة. المكان كما قلت هو مثل مدرسة أو سجن. شممت رائحة السائل المطهّر الذي شممته في مقطورتنا، لكنّها امتزجت هنا برائحة الزيت المقليّ، وبما كنت أدعوه «عطر الكافتيريا» حين كنت أتناول غدائي في المدرسة.

كذلك، كانت قاعة الطعام مقسّمة بحسب المربّعات. وقد وُضعت على الطاولات بطاقات كرتونيّة تحمل أرقام المربّعات لكي نعرف أين علينا الجلوس. علا الضجيج حين راح الناس يبحثون عن طاولاتهم، وعادت إليهم أصواتهم، برغم أنّني لم أتخيّل أحدًا قادرًا على البوح بحقيقة ما يفكّر فيه.

وقفت ووالديّ بجانب الطاولات المعدّة لمربّعنا، متردّدين بشأن ما علينا أن نفعله. ثمّ اقترب المشرفان علينا، وعرّفا بنفسيهما:

– أنا سليم، وهذه زوجتي فوزيّة. يسرّنا لقاؤكم.

كانا شابّين. لا شكّ في أنّهما في العشرينات من عمرهما. بدَوا أنْ لا أولاد لهما. سبق أن رأيتهما في مربّعنا. إنّهما مثلنا، أميركيّان من جنوب آسيا، لكنّهما متعاونان يطعناننا في ظهورنا. تساءلت كيف قبلا بذلك، وأيّ دافع يحمل المرء على خيانة قومه.

نظرت من حولي إلى الناس يجلسون في كراسيّهم بحسب الأقسام المخصّصة لهم: الجنوب آسيويّون، الأميركيّون الأفارقة، العرب، الجنوب شرق آسيويّون. وكذلك الشرق آسيويّون واللاتينيّون، برغم أنّ هؤلاء أقلّ عددًا. كان سهيل على حقّ، كلّ شيء مقصود. فرّق تسُد. لعلّنا جميعًا مسلمون، لكن تظلّ لدينا أحكامنا المسبقة وعنصريّتنا. إذا ما جرى التفريق بيننا، وتغذية مخاوفنا بعضنا من بعض، يسهل عليهم اللعب على

وتر انتماءاتنا الداخليّة المتعدّدة، وكذلك جَعْلُنا نشعر بأنّنا «مختلفون في ما بيننا»، وبذلك نحقّق أهداف المدير بالنيابة عنه. جميعنا اليوم مسلمون أُرغمنا على القدوم إلى هنا. لكن قد لا يكون من الصعب استغلال تعصّبنا الدينيّ للإيقاع بيننا، وتحويل غضبنا عن الهدف الذي يجب أن ينصبّ عليه. إنّها استراتيجيّة المستعمرين التقليديّة. سلوا البريطانيّين عن ذلك.

اقتربت عائشة منّا. كانت تمسك بيد صبيّ يصغرها سنًّا، وتسير بجانب رجل وامرأة في متوسّط العمر. افترضت أنّهم أفراد عائلتها.

خاطبت عائشة والـديّ بلقبَي «خالـتي»، و«عـمّـي»، وهما لقبا الاحترام اللذان يخاطب بهما كلّ جنوب آسيويّ تلقائيًّا مَن هم في عمر والديه. لعلّ بعضنا فقد «لغته الأمّ»، كما كانت مربّيتي تسمّيها، لكنّ عادة احترام الأشخاص الأكبر سنًّا لا تزال راسخة لدينا، برغم عشرات السنين من الاندماج في أميركا.

– هذان والداي، آصفيّة وزكي، وشقيقي الصغير زبير، قالت عائشة، فيما تبادل الأهل المصافحة.

– السلام عليكم، يسرّني لقاؤكم، قال أبي. ثمّ أضاف بعد تريّث: الغبار كثير في هذا المكان.

– نعم. لا يمكننا حتّى أن نفتح النافذة في... منزل مركوري الخاصّ بنا، قالت أمّي.

– لا أعرف كيف سيمكننا إبقاء الملابس نظيفة، ردّت والدة عائشة.

نظرتُ إلى عائشة فهزّت رأسها قليلًا. أعتقد أنّ الغبار سيكون مثل الطقس، الموضوع الذي يتحدّث فيه المرء حين لا يجد شيئًا آخر يقوله.

لم يكن يُسمح لنا بإحضار الطعام إلّا بعد المناداة برقم مربّعنا. عندما حان دورنا، توجّهت وعائشة إلى الصفّ، ولحق بنا ذوونا. مررنا

أمام عمّال الكافتيريا للحصول على أطباقنا من الأرزّ ويخنة خضار لم أعرفها. كانت هناك أيضًا عبوات حليب، وعلب تحتوي فاكهة، وهلام.

– أشعر بالغثيان، قالت عائشة وهي تنظر إلى الطعام، لا أعرف إن كان بإمكاني أن آكل.

– وأنا أيضًا، قلت لها.

– وكأنّنا عدنا لمرحلة الغداء في المدرسة الابتدائيّة، قالت عائشة بتكشيرة ونحن نرجع إلى طاولتنا.

– فعلًا، وليس فقط في الطعام، بل حتّى في أغطية رؤوس العمّال وفي نظراتهم الفظّة. أجبت. وأضفت عابسة بعدما أكلت اللقمة الأولى: يبدو أنّ المنكّه الوحيد في هذا الطعام هو الملح. هل هذا طبق جنوب آسيويّ؟

– تقديم هذا الطعام في منزل باكستانيّ قد يكون سببًا كافيًا للتبرّؤ من طاهيه. ثمّ اقتربت منّي عائشة وهمست لي: المدير، يا للّعنة!

أحسست بأنّ الجزء الأعلى من جسدي قد تجمّد. نظرت حولي خشية أن يكون أحدهم سمعها. لكنّ قرقعة صواني الطعام والشوك والملاعق كانت صاخبة، فأحسست بالارتياح.

– أعلم، كان الأمر مرعبًا، قلت لها، وكأنّه ليس شخصًا حقيقيًّا، لكنّ الواقع أنّه شخص حقيقيّ، وهذا ما يجعل الأمر أكثر إثارة للرعب. الوحوش الأكثر إثارة للخوف هم أولئك الذين يشبهوننا.

– أين سيأخذون تلك المرأة، برأيك؟ سألتني عائشة بصوت منخفض يكاد يكون همسًا، برغم اعتقادي أنّ أحدًا لن يسمعنا.

كانت بي رغبة في ألّا أفكّر في الأمر، لكنّني أجبتها:

– إلى السجن ربّما؟ إضافة إلى كون هذا المكان سجنًا كبيرًا، أظنّ أنّ فيه غرفة احتجاز. لا أعلم. لا أريد أن أعرف ما يحلّ بها. أرجو فقط ألّا يلحقوا بها الأذى أكثر ممّا سبق أن فعلوا.

أعرف أنّ ردّي كان ساذجًا، لكنّني أردتُ التمسّك بالأمل لأجل تلك المرأة... بل لأجلنا كلّنا، حتّى لو كان أملًا زائفًا.

– ليست لدينا حرّيات مدنيّة هنا، ولا محامون، قالت عائشة وهي تغطّي يدها بفمها حالما خطر الأمر ببالها.

– هذا المكان شبيه بغوانتانامو، سوى أنّه في كاليفورنيا. أخشى ما سيحدث إذا بقينا هنا وقتًا طويلًا. لا بدّ لنا من أن نفعل شيئًا ما... ثمّ تلاشى صوتي.

جحظت عينا عائشة. وفتحت فمها ثمّ أطبقته بدون أن تنبس ببنت شفة. لعلّي قلت أكثر ممّا يجب قوله.

لبثنا صامتتين لبعض الوقت. لا أظنّ أنّ أيًّا منّا نحن الاثنتين استطاعت هضم الحديث عمّا يمكن أن تكون المرأة المحتجّة في المسرح تواجهه الآن.

أبعدت طبق العشاء الرديء وفتحت غطاء علبة الفاكهة.

– ما المفضّل لديك؟ سألتني عائشة وهي تكسر الصمت.

– في أيّ شأن؟

– أفلام ستار وورز. أتتذكّرين حديثنا السابق في محطّة القطار؟ عن أنّ لاندو هو الأفضل؟

– اللعنة. لقد تبادلنا هذا الحديث صباح اليوم، أليس كذلك؟

هزّت عائشة رأسها وخفضت بصرها، ثمّ التقطت بشوكتها بعض الأرزّ ورفعتها إلى فمها. وما لبثت أن أعادتها إلى الطبق، متنهّدة. شعرت بانقباض في معدتي. عرفت أنّ عائشة تريد أن تعيش حياة طبيعيّة ولو لثانية واحدة. وذلك شيء يمكنني أن أمنحها إيّاه. أخذت نفسًا عميقًا وأجبتها:

– فيلم «يقظة القوّة» كان الأوّل الذي أشاهده. ولم أشاهده إلّا لأنّ والديّ أرغماني على ذلك.

– ألم تشاهدي الأفلام التي تلت الثلاثيّة الأولى؟ «بودرايس»؟ «لوك الصغير»؟ هذا خطأ كبير وعلينا تصحيحه.

– كانت أمّي في صغرها مفتونة بلوك سكايووكر، قلت بابتسامة.

وكان ذلك صحيحًا. فقد أخبرتني كيف كانت تقف وهي مراهقة ساعات في طابور أمام السينما لتشاهد ستار وورز. أقسم على أنّها تتكلّم عن ذلك بكثير من الوقار وكأنّه حدث دينيّ، حتّى إنّها فتحت لها حسابًا في تويتر لتتابع مارك هاميل.

– ما أحلاها! قالت عائشة ضاحكة، لكن مهلك! ريز أحمد مثّل في «روغ وان». أحدّثك هنا عن ممثّل جنوب آسيويّ شارك في ستار وورز! ما زلت لم أُشفَ منه حتّى اليوم.

ضحكتُ قليلًا. من الجيّد أن يضحك المرء قليلًا، وأن يشعر بلحظة من المرح الخفيف. لكنّني ما لبثت أن لجمت نفسي لأنّني شعرت بأنّ ما أقوم به غير مناسب. هذه اللحظات من الحياة شبه الطبيعيّة تسبّب ألمًا.

كان سليم المشرف علينا واقفًا، بلحيته البنيّة المشذّبة بعناية على أمل أن تجعله يبدو أكبر سنًّا، كما أظنّ، إلّا أنّها لم تكفِ لإخفاء وجهه الطفوليّ. كذلك وقفت فوزيّة بجانبه، تبتسم لنا. كانا متشابهين طولًا وبنيةً، تقريبًا. ربّما يبلغ طولهما 170 سنتمترًا، نحيلان، ولهما أكتاف كأكتاف السبّاحين. بدت ابتسامة فوزية حقيقيّة تقريبًا، بعكس ابتسامة سليم. من الواضح أنّه لا يملك ما يكفي من موهبة التمثيل ليخفي التكلّف في ابتسامته.

– المربّع 2، سنسير معًا عائدين إلى منازلنا. تذكّروا أنّنا نعمل كفريق واحد، قال سليم محاولًا أن تلتقط نظراته عيون أكبر عدد ممكن من الأشخاص.

لكنّه بدا متزمّتًا يردّد كلامًا أجوف، وكأنّه كتيّب معلومات ناطق.

– هناك أمور كثيرة يجب أن نتعلّمها، وأعرف أنّ الجميع يرغبون بالاستقرار في منازلهم، أضافت فوزيّة. عند العاشرة مساءً يبدأ تطبيق منع التجوال. يجب أن يكون مربّعنا مثاليًا. وعدنا المدير بامتيازات إضافيّة للمربّعات التي تطبّق الأنظمة بدون مخالفات. تذكّروا، إن كانت لديكم أسئلة، فبابنا مفتوح دائمًا. تريّثت قليلًا لتضيف بابتسامة متردّدة: توجد كاميرات وطائرات مسيّرة تقوم بالمراقبة. سوف تكونون... بأمان. الوحدة. الأمن. الازدهار. «خُدا حافِظ».

بعدما ألقت علينا فوزيّة تحيّة الوداع بلغة الأوردو وتعني «بحفظ الله»، همّت بالانصراف. لكنّني لاحظت سليم يمسك يدها ويضغط عليها بشدّة. فعضّت عى شفتها وتنحنحت ثمّ قالت مستدركة:

– أعني، أتمنّى لكم ليلة طيّبة.

بدأ كلّ سكّان المربّع 2 بالوقوف. بضع ساعات، وشعار مخيّم يثير القشعريرة، واستعراض عنيف للسلطة كانت كافية لنذعن ونفعل ما نؤمَر بفعله.

لكنّني لا أحبّ أن أؤمر، وخصوصًا حين يكون الأمر الموجّه إليّ خطًا كبيرًا.

تبادلت وعائشة التمنّيات بليلة طيّبة. كان والداها يستعجلان العودة إلى المربّع فسبقانا في السير. لا ألومهما. صحيح أنّ بداخل المقطورات كاميرات. لكنّ السير في العراء يجعلنا نشعر بأنّنا حيوانات في حظيرة، ننتظر الذبح.

خيّم الليل تمامًا. كانت كشّافات أبراج المراقبة تمشّط المخيّم بأضوائها الساطعة، والحرّاس يقومون بدوريّات راجلة، وقد أعدّوا بنادقهم والصواعق الكهربائيّة. ووجوههم الشاحبة تخفي أيّ أثر للمشاعر أو الشكوك العابرة التي قد تساورهم. تعثّرتُ حين انعطفنا عند زاوية

المربّع 2. رأيت الحارس الأشقر صاحب الوشم يقف بين المربّعين 1 و2. وككلّ الحرّاس الآخرين، كان يحمل صاعقًا وبندقيّة.

استدار ورآني أنظر إليه. ثمّ مال بذقنه والتقت عيوننا، قبل أن يلتفت بعيدًا ويعود إلى وقفته الجامدة.

الفصل 8

كان جسدي منهكًا، لكنّني لم أستطع النوم. فكلّما أغمضت عينيّ تراءت لي صورة صاحب البذلة في منزلي شاهرًا مسدّسًا. كفى. تنفّسي. نامي. لكنّني عدت لرؤية الصبيّ، والأمّ التي تصرخ. كفى. تنفّسي. نامي. هذه المرّة رأيت صورة المرأة التي صُعقت بالكهرباء. مرّة بعد مرّة، صور تتكرّر في ذهني.

أرغمت نفسي على مغادرة سريري الضيّق، وغسلت وجهي بالماء البارد.

لا يمكننا أن نبقى هنا. لا يمكننا أن نكون هنا.

ولكن كيف لنا أن نخرج؟

لا بدّ من وجود وسيلة للخروج. لا يوجد جدار لا يمكن اختراقه.

ارتديت ملابسي وانتعلت حذائي المكسوّ بالغبار، وخرجت من غرفتي على رؤوس أصابعي. كان باب غرفة والديّ مغلقًا. سرت بحذر عبر المطبخ وحجرة الجلوس، وأخذت بطاقة مفتاح عن الطاولة. تسلّلت خارجة من مقطورتنا، وتأكّدتُ من إغلاق الباب بأقلّ ضجيج ممكن. إذا رآني والداي أتسلّل خارجة بعد منع التجوال، فسيفقدان صوابهما.

كان الهواء باردًا، فوضعت الـ«هودي» على رأسي. أرتدي الكنزة عينها التي كنت أرتديها حين تسلّلت لرؤية دايفيد. أحاول بصعوبة عدم التفكير فيه. كم تمنّيت لو كان بإمكاني الاتّصال به أو رؤيته قبل أن يأخذوني بعيدًا. كم كان مؤلمًا ألّا أستطيع توديعه. يجب ألّا أفكّر فيه، أقلّه في الوقت الراهن. لو سمحت لنفسي بالتفكير – أو الشعور – في شدّة شوقي إليه، لما استطعت مغادرة السرير.

كان عدد الحرّاس المنتشرين قليلًا. أقربهم اثنان يقفان على مسافة مربّع منّا، ويتبادلان الحديث. كان أحدهما يدخّن وجمرات سيجارته البرتقاليّة تتطاير قبل أن تهبط على التراب. كانت كشّافات أبراج المراقبة تمشّط المخيّم بأضوائها. بقيتُ قريبة من المقطورات، راجية أن تخفيني الظلال. أحصيت الوقت الفاصل بين مرور ضوء الكشّاف والآخر، ورحت أتسلّل بين مقطورة وأخرى، محاولة تجنّب افتضاح أمري وعواقب مخالفة منع التجوال. التصقت بجدار إحدى المقطورات مع اقتراب الضوء منّي. كاد أمري ينكشف. اشتدّ خفقان قلبي وتسارعت أنفاسي.

توقفت لأنّني أدركت فجأة، بكلّ غباء، أنّني لا أعرف أين أتّجه، وأنّني بمفردي تمامًا في الظلام. كان مخيّم موبيوس بعيدًا جدًّا عن أيّ مكان مأهول، وكأنّه على سطح القمر. لكنّني لمحت الحديقة في البعيد. فتذكّرت تلك الحفرة التي رأيتها عند السياج قبل التلاسن بين سهيل والحارس. إن كان حيوان ما حفر طريقًا للدخول، فلعلّ ثمّة طريقًا للخروج.

كان الهواء هادئًا، فحمدت الله على ذلك. أنا بغنىً عن دخول الغبار إلى رئتيّ. ساد المخيّم سكون مخيف. وتردّد في سفوح التلال البعيدة صدى نباح حادّ. وكأنّه صوت الوحدة. سرت القشعريرة في جسدي. لا كلاب في موبيوس، فالحيوانات الأليفة ممنوعة. أي إنّه صوت قيّوط أو ذئب أو ثعلب. بصراحة، لا أعرف الفرق بينها. ما عرفته هو أنّني في تلك اللحظة، شعرت بالسرور لأنّ سياجًا مكهربًا يفصل بيني وبين تلك الأصوات.

كانت المقطورات متقاربة، لكنّ مسافة واسعة كانت تمتدّ بين آخر مقطورة والحديقة. حبست أنفاسي وانتظرت مرور ضوء الكشّاف، ثمّ عبرت الحديقة راكضة. تقوقعت في التراب وألصقت نفسي بإحدى الصخور الكبيرة عندما مرّ الضوء من جديد، لكنّ طرفه ظلّ بعيدًا عنّي، فتنفّست الصعداء.

تقدّمت بحذر نحو الصخرة التي أتيت وعائشة إليها في النهار، حيث شاهدت تلك الحفرة بجانب السياج. تحسّستُ صفحة الصخرة، بحثًا عن نقوش تلك الأحرف التي اكتشفناها. وحين وجدتها، داعبتها أصابعي. لتلك الأحرف حكاية. في وقت مضى، أتى شخصان إلى هنا بمحض إرادتهما. لعلّهما كانا شابّين ومتحابّين. مَن يعلم أين هما الآن؟ مَن يعلم إن لم يزل الحبّ يجمع بينهما. تظاهرت بأنّهما لا يزالان يعيشان سعيدين معًا في مكان ما. مجرّد تخيّل، لكنّه يمنحني بعض الأمل. ويذكّرني بأنّه كانت ثمّة حياة طبيعيّة في الماضي.

انبطحت أرضًا وتقدّمت زاحفة في اتّجاه الجبال، أحاول النظر عبر الفتحات ما بين الحواجز البلاستيكيّة البرتقاليّة. أمعنت النظر في الظلام بحثًا عن تلك الحفرة، لكنّ الرؤية كانت مستحيلة. لم أكن أحمل هاتفًا لأستخدم ضوءه. لا شيء سوى بريق أضواء الكشافات المتناوبة، ولا أريد لتلك الأضواء أن تكتشفني. مع ذلك واصلت البحث عن تلك الحفرة، أو عن أيّ طريقة أخرى لتجاوز السياج. السياج المكهرب. لعلّه لم يكن مكهربًا حقًّا وليس الأمر سوى مجرّد تهديد يُقصد به إخافتنا. لعلّ ذلك سبب نجاح حيوان ما في عبوره. ذلك الحيوان الخياليّ الذي عبر الحفرة التي أعجز عن رؤيتها. ولكن، حتّى لو لم تكن المحاولة مجازفة حمقاء، فكيف يمكنني أن أحفر نفقًا للعبور؟ نظرت إلى الشريط الشائك. حتّى لو لم يكن السياج مكهربًا، وحتّى لو كان بإمكاني تسلّقه، فكيف

أصل إلى أعلاه بدون أن أتمزّق؟ وكيف يمكنني حتّى أن أختبره لأتأكّد ممّا إن كان فعلًا مكهربًا؟

ما الذي أفعله بحق السماء؟!

أخذت نفسًا عميقًا ومضطربًا، واستسلمت للبكاء. ألقيت خدّي على الأرض، فاختلطت دموعي بالتراب، وأحسست بأنّ خيوطًا من الوحل تلتصق بوجهي. كوّرتُ يديّ وجعلت منهما قبضتين. البكاء يزيد من حنقي على نفسي. لا جدوى من الدموع هنا. عليّ أن أتمسّك بغضبي.

سمعتُ صوت خطوات، تلاها صوت ارتطام حصى بصخرة. شهقتُ، لكنّي سارعت إلى تغطية فمي بيديّ.

ثمّ سمعتُ صوت رجل يقول لي من الجانب الثاني للصخرة:

– يجب ألّا تكوني هنا.

تسارعت ضربات قلبي. ثمّ استدرت ونهضت. كانت ركبتاي تصطكّان، لكنّني تمكّنت من الوقوف. بحثت عيناي في كلّ اتّجاه حتّى وقعتا على وجه الحارس الذي رأيته في القطار، صاحب الوشم الشبيه بالبوصلة.

لا مكان أهرب إليه.

أخذت نفسًا عميقًا. ثمّ نفسًا آخر.

فكّري.

لا تتحامقي.

ابتسمي.

رقّت النظرة في عينَي الحارس، لكنّ فكّه ظلّ منقبضًا.

– ماذا تفعلين هنا؟

– لقد... أضعت عقدي هنا من قبل، لكنّني عثرت عليه. قلت هذا ومرّرت إصبعي على حلية عقدي الشبيهة برمز اللانهاية، وهي

آخر ما يربطني بدايفيد. وأضفت: إنّها هديّة من حبيبي... لكنّني غصصتُ بكلماتي.

لا تبكي. لا تبكي الآن. لا تبكي أمامه.

– أنت تخالفين قرار منع التجوال. أتدركين هذا؟ هل تفهمين عواقب مخالفة الأنظمة هنا؟

– هل ستبلّغ عنّي؟ قلتُ بصوت متهدّج. ثمّ تنحنحتُ وقلت: هل ستخبر المدير؟

اقترب الحارس منّي خطوة. ثمّ رمش بعينيه. انتبهت فجأة إلى أنّ على وجهي آثار دموع مجبولة بالوحل. أزلت التراب بيدي. كان من الصعب أن أراه بوضوح في الظلام. لكن بدا لي أنّني لمحت على وجهه تكشيرة ألم. ثمّ أطبق فكّيه، وأخذني من مرفقي. أقسم أنّني أحسست بأصابعه ترتعش قليلًا. نظر إلى الجبال خلفي، ثمّ تلفّت حوله. كنّا وحيدين.

– رجاءً، قلت له همسًا، أنا آسفة.

حكّ جبينه بيده، وقال:

– يجب أن تعودي. حالًا.

قادني بسرعة عبر المخيّم، وسرنا بين المقطورات مبتعدين عن أضواء الكشّافات، تجنّبًا للفت الأنظار إلينا.

كان المخيّم كلّه نائمًا. رفعت بصري إلى السماء، فرأيت النجوم. النجوم في كلّ مكان. لازمني ذلك الشعور بأنّ ذلك المكان جميل، لو لم يكن سجنًا. ولكنّني شعرت، والحال هذه، بأنّ السماء قد تشتعل في أيّ لحظة وتتصادم النجوم وتحترق حتّى تتلاشى. مع اقترابي من مقطورتنا، تباطأتُ. ربّما لم يكن عليّ أن أسأله، ولكنّ فضولي يتغلّب عليّ دائمًا، فسألته:

– لماذا لا تسلّمني؟

- لأنّني لست... قال ذلك ثمّ صمت.

- لست حارسًا من هيئة الإبعاد في مخيّم اعتقال؟

توقّف ونظر في عينيّ وقال:

- الأمور تختلف أحيانًا عمّا تبدو عليه يا ليلى.

كان يعرف اسمي. لا أظنّه مناسبًا أن أكون معروفة في هذا المكان. سرنا الخطوات الأخيرة في صمت. ما دام يعرف اسمي، يحقّ لي أن أعرف اسمه، فسألته حين توقّفنا أمام بابي:

- ما اسمك؟

أمعن الحارس النظر في وجهي، وكأنّه يحاول قراءة شيء ما، ولكنّه بقي عاجزًا عن ذلك. فانحنى وهمس لي:

- أنا العريف رينولدز. إيّاك أن تكرّري فعلتك. في هذا المخيّم أفاعٍ، ورجال لن يتردّدوا في إطلاق النار عليك.

الفصل 9

خلال سيري إلى قاعة الطعام قبل بضع ليالٍ، تناهى إلى سمعي حديث فتاتين لعلّهما في الصفّ السابع أو الثامن، تقطنان في المربّع 3، وهو أيضًا للجنوب آسيويّين. كانت إحداهما تتحدّث عن صنع ستارة للنافذة الصغيرة في غرفة نومها، من غلاف وسادة إضافي زيّنته بالرسوم بأقلام الحبر. بدت سعيدة حقًّا بأنّه سيكون لها شيء جميل تنظر إليه، فتشعر «كأنّها في غرفتها بمنزلها»، كما قالت. أحسست بانقباض في أحشائي حين سمعت تلك الكلمات. أن تكون سعيدًا بشيء صغير جدًّا وبسيط جدًّا. على الأشخاص أن يفعلوا كلّ ما يمكنهم فعله ليعيشوا يومًا بعد يوم في هذا المكان. ولكنّني لا أريد أبدًا الشعور «وكأنّني في منزلي» في مخيّم موبيوس. سيكون هذا بمثابة استسلام بالنسبة إليّ. ومع ذلك فقد لحقت بالفتاتين إلى مربّعهما بعد العشاء وأعطيتهما لفائف أشرطة التزيين الملوّنة التي حملتها معي لسبب أجهله ولم أتكلّف عناء إخراجها من الحقيبة قبل ذلك. الأشياء الصغيرة هي التي تمنحنا الأمل أحيانًا وتجعل الحياة تُطاق.

جلست متربّعة على أرض غرفة سجني الصغيرة، العاديّة جدًّا، ذات الجدران البيضاء. وجلست عائشة على السرير الأسفل. كانت هذه الغرفة تثير فيّ رهاب الاحتجاز، لكنّ عائشة كانت تتشاطر غرفتها وشقيقها. لذلك كانت تلجأ إلى غرفتي الصغيرة المساحة لتهرب من شقيقها. لتحظى بالخصوصيّة. كانت تلك الغرفة بمثابة فقّاعة صغيرة حيث لا أحد ينظر إلينا، لا حرّاس ولا كاميرات ولا طائرات مسيّرة.

قلت لها متنهّدة:

– لا نعلم كم سيطول بقاؤنا هنا، أليس كذلك؟ نحن من انتخبنا هذا الرجل الذي يعتبرنا كلّنا تهديدًا. وهو لا يجد نفسه مضطرًّا إلى إطلاق سراحنا. نحن كأسماك عالقة في شباك، نصارع للعثور على الماء، لكنّنا لا ندرك أنّنا نغرق على اليابسة. يجب أن نخرج.

– ماذا تعنين؟ سألتني عائشة همسًا. كيف تقترحين أن نخرج؟

– لا أعلم، لكن علينا التفكير في شيء ما. لا بدّ من وجود آخرين يشعرون بما نشعر به. أنا متأكّدة. الخوف ليس الشعور الوحيد السائد في المخيّم. الغضب أيضًا موجود.

– الغضب لا يمكنه قطع الكهرباء عن السياج. وما لست تنوين الخروج من هنا في كيس للجثث...

رفعت عائشة يدها إلى فمها وصمتت عن إكمال كلامها. لكنّ ما أرادت قوله لم يكن بعيدًا عن تفكيري.

– لا، أخطّط للخروج من هنا حيّة. فكّري في الأمر. لا جدار في التاريخ لم يستطع الناس اختراقه.

– هل تعنين جدار الحدود؟

– نعم، وجدار برلين. ألم تدرسي ذلك في كتاب التاريخ؟ البعض استطاع الهروب في منطاد، أو بحفر نفق تحت الجدار.

– لا نملك رفوشًا ولا منطادًا، أجابت عائشة. ثمّ أضافت بعدما رأتني أهزّ بكتفيّ وأتنهّد بامتعاض: اسمعي. لا أقول إنّني لست معك. أطلب منك فقط أن تكوني واقعيّة وذكيّة. أنت تتحدّثين عن احتمال أن تتعرّضي للقتل. والداي لن يوافقا على خطّة هروب. هل والداك سيوافقان؟

كانت نبرة صوت عائشة تزداد حدّة وهي تتكلّم. هززتُ رأسي علامة النفي وأجبتها:

– إنّهما خائفان جدًّا. لكنّ الآخرين ليسوا كذلك. سهيل. نحن. أعرف أنّنا لا نستطيع أن نرتكب حماقة. لكنّني لا أريد أن أُدفن هنا وأُنسى.

وقفت ورحت أذرع أرض الغرفة الصغيرة جيئة وذهابًا، وألفّ أطراف شعري حول إصبعي. أخذت نفسًا عميقًا ثمّ زفرت بخدّين منتفخين. حين استدرت لأسير في الاتّجاه الآخر، رأيت عائشة تعضّ على شفتها السفلى. كانت خائفة.

– أنت على حقّ، قلت لها، لم أقصد أن أكون لامبالية. آسفة. أجهل ما بي. لعلّ السبب هو الغبار. أو العزلة، أو السياج، أو دايفيد. أريد أن أكلّم دايفيد. أن أسمع صوته، أو ربّما...

– دايفيد؟ قاطعتني عائشة.

أدركت آنذاك أنّني بذلت جهدًا كبيرًا لئلّا أفكّر فيه لدرجة أنّني لم أخبر عائشة عنه. قول اسمه بصوت مرتفع ذكّرني بكلّ ما فقدته.

– حبيبي. أظنّه لا يزال حبيبي، قلت ذلك ولمست عقدي. أجهل متى سأراه من جديد، ومَن سيرافقه إلى حفلة التخرّج.

انفتح فم عائشة، وحاولت أن تكتم ضحكة ثمّ قالت:

– آسفة. آسفة جدًّا. لم أقصد أن أضحك. أحببت فقط كيف أنّك وضعت حفلة التخرّج في المرتبة الثالثة على لائحة الأولويّات بعد الحريّة والتنفّس.

– ربّاه. هذا سخيف تمامًا. أليس كذلك؟ ثمّة أوقات أفكّر فيها في أنّ هذا المكان ليس حقيقيًا، وكأنّه كابوس مروّع. في تلك الأوقات يتحرّر ذهني ولا يتردّد في التفكير بأمور مثل حفلة التخرّج.

– فهمت. من الطبيعي والضروري أن تكون لنا أوقات نتذكّر فيها أنّنا بشر ونفكّر في الأمور العاديّة، وإلّا فإنّ هذا المكان سيسحقنا. هل شاهدت «فوت لوز»؟

– الفيلم؟ سألتها.

– نعم، إنّه أحد أفلام أمّي المفضّلة من مرحلة الدراسة المتوسّطة. أجبرتني على مشاهدته، على سبيل العلاقة بين الأمّ وابنتها كما أظنّ. النسخة الأصليّة، لا النسخة الثانية. تدور أحداثه في مكان سخيف، لكنّ الأولاد يعدّون لثورة لأنّهم ممنوعون من الرقص في بلدتهم، فواعظ البلدة يقول إنّ الرقص مخالف للكتاب المقدّس، كما الشريعة الإسلاميّة بالنسبة إلى بعض المسيحيّين.

قلبت عينيّ تأفّفًا، فكلّ المسلمين يعرفون نفاق المتطرّفين اليمينيّين كارهي الأجانب. فهؤلاء يشعرون بالرعب من كلمة لا يفهمونها، ويخشون أن تتغلغل الشريعة الإسلاميّة في أميركا، ولكنّهم في الوقت ذاته يؤيّدون تطبيق عقوبة الإعدام، ويقفون ضدّ الحقّ في الإجهاض، ويظنّون أنّ على المدارس تعليم نظريّة الخلق كما ترد في الكتاب المقدّس بسبب... الدين!

– شيء ما من هذا القبيل، قالت لي عائشة بابتسامة متكلّفة. في أيّ حال، أقاموا مسرح الرقص خارج حدود البلدة لئلّا يطالهم القانون.

ابتسمتُ ابتسامة باهتة لعائشة، وتركت ذهني ينساب عائدًا إلى دايفيد، وتخيّلت نفسي أرافقه إلى حفلة التخرّج. فكّرت في آخر ابتسامة حقيقيّة تبادلناها، ثمّ في لحظات العجز الأخيرة والرهيبة التي قضيناها معًا، حين صاح بي أن أهرب.

– دايفيد! قلت بصوت مرتفع، ما جعل عائشة تنظر إليّ. وتابعتُ: دايفيد خارج المعتقل. لعلّه يستطيع مساعدتنا بطريقة ما. كان والده يعمل في وزارة الخارجيّة. برغم أنّه لم يحرّك ساكنًا لمساعدتنا حتّى الآن. وأشكّ في أن يستيقظ ضميره فجأة. لا أعلم. لعلّي أتمسّك بحبال الهواء. لكنّ هذا كلّ ما لديّ الآن.

– هل يمكننا أن نستقبل زوّارًا؟ يمكنك أن تطلبي الاتّصال هاتفيًا بدايفيد، لكنّ مساعدي المدير يصغون إلى المحادثات. ثمّ أضافت بعد تريّث: هل يعلم والداك أنّ لديك حبيبًا؟

هززت رأسي إيجابًا. نهضت عائشة، فارتطم رأسها بحافة السرير الأعلى.

– تبًّا.

– هل أنت بخير؟ أنا أيضًا أصدم رأسي باستمرار. كلّ ما في هذا المكان ضدّنا، حتّى هذا السرير الواطئ السخيف.

فركت عائشة رأسها بيديها، وقالت:

– أنا بخير. تابعي. أعجبتني حكاية أنّ والديك على علم بعلاقتك بشابّ.

– أنا لا أخبرهما التفاصيل كلّها، قلت بابتسامة باهتة. لكنّهما يعرفان بعلاقتنا. دايفيد يأتي لتناول العشاء، وأحيانًا يرافقنا إلى المسجد. حتّى إنّه شاركنا الصيام بضعة أيّام في رمضان الماضي.

– هل سيعتنق الإسلام؟

– ماذا؟ لا. لم نتناقش في الأمر حتّى. عائلته يهوديّة، وهذا مهمّ جدًّا بالنسبة إليه. نصف عائلة أبيه قُتلوا في الهولوكوست خلال الحرب العالميّة الثانية، وعائلة والدته من يهود اليمن اللاجئين. بعضهم فُقد أثره من المخيّمات. ثمّ تريّثت، وكتمت أنفاسي، مصغية إلى صدى كلماتي في ذهني، فالتاريخ بدا حاضرًا فجأة وعلى نحو مرعب. ثمّ تابعت أقول:

عانوا الكثير ليتمسّكوا بعائلتهم وإيمانهم. دايفيد يشعر بذلك بكثير من العمق، ويحمد الله على أنّ عائلته بقيت على قيد الحياة، كما يشعر بأنّ عليه واجب ألّا ينسى أبدًا، وأن يقول الحقيقة دائمًا.

نظرت إليّ عائشة بعينين جاحظتين وقالت:

– مهلًا. إذن دايفيد أسمر ويهوديّ؟

هززت رأسي إيجابًا، وقلت لها:

– بصراحة، حين التقينا للمرّة الأولى في المدرسة الابتدائيّة، ظننته من جنوب آسيا. أظنّني أردتُ حينذاك ألّا أكون الجنوب آسيويّة الوحيدة.

– فتاة مسلمة جنوب آسيويّة من عائلة مهاجرين وفتى أسمر يهوديّ ابن لاجئ. أنتما فريق مثاليّ لبرنامج نموذج الأمم المتحدة.

قلت لها بابتسامة باهتة:

– دايفيد يعرف أنّ والده يملك حظوة لكونه أبيض البشرة، لكنّه رأى كيف تعرّضت والدته لمواقف المعادين للساميّة، وللعنصريّة، لذلك فهو يفهم الأمر. كلّ منّا يحاول أن يكون متفهّمًا في ما يتعلّق بإيمان الآخر، فنتبادل الأسئلة ونتصارح في كلّ شيء.

– هذا ممتاز! قالت عائشة وهي تهزّ رأسها إعجابًا.

– ربّاه، وفي عشاء السبت، تعدّ والدته المرق اليمنيّ، وهو حساء تقليديّ رائع، وخبزًا يُعرف بالملوّح، أحبّه أكثر من فطائر الباراثا التي تعدّها والدتي. إيّاك أن تخبريها أنّني قلت هذا!

– هذا الأمر سيُكسبك تذكرة سفر ذهابًا فقط إلى مدرسة داخليّة في الهند. قالت عائشة ضاحكة.

ابتسمتُ لها ابتسامة صغيرة، ثمّ تنحنحت متجاهلةً ما أشعر به من انقباض في حلقي. وأجبت:

– في أيّ حال... أتتخيّلين أحدًا قد يرغب في اعتناق الإسلام الآن؟ علنًا؟ تلك مخاطرة كبيرة.

– اعتنقت إحدى النساء الإسلام في مسجدنا قبل أشهر قليلة. وكانت تعي المخاطر. وبصراحة، هي أفضل منّي كثيرًا في النّطق بالعربيّة.

– ماذا؟ حقًّا؟ هل هي هنا أيضًا؟

– لا، لا أظنّ ذلك. اعتنقت الإسلام بعد إجراء الاستفتاء. كما أنّها بيضاء، ولست أرى هنا ذوي بشرة بيضاء اعتنقوا الإسلام. أرى عربًا ذوي بشرة بيضاء، نعم. أمّا أميركيّون ذوو بشرة بيضاء؟ فلا. قد يؤتى بهم إلى هنا قريبًا، لكنّك بتّ تعرفين هذا المكان.

– ثمّة تراتبيّة للمتزمّتين دينيًا. وكأنّ كراهيتهم للمسلمين ليست واحدة، بل تتوزّع على درجات. يكرهون بعضنا أكثر من البعض الآخر، بمقدار ما تكون بشرتنا أكثر سمرة، أو بمقدار ما تكون رنّة اسمنا أجنبيّة. وإن كانت إحدانا سوداء وتضع حجابًا، صُبّ عليها جام الكراهية.

– بصراحة، أعتقد أنّ بعض العنصريّين يحسبون الإسلام عرقًا أو إثنيّة، وليست دينًا. ويظنّوننا جميعًا سُمرًا من «مسلمستان».

قطع طرق على الباب حديثنا، وسمعنا صوت أمّي يقول:

– عزيزتي، يجب أن نوصل عائشة إلى منزلها، لئلّا يقلق والداها.

– لحظة واحدة، سنخرج.

ابتسمت عائشة ابتسامة باهتة وسألتني:

– هل والداك يطرقان الباب عليك؟ ألا يقتحمان الغرفة؟ هذا حلم! ربّما علينا أن نجعلهما يجريان حديثًا صغيرًا مع والديّ.

أعتبر سلوك والديّ من المسلّمات أحيانًا. أعرف أولادًا كثيرين، مسلمين وغير مسلمين، يحسدونني على ثقة والديّ بي. لم أضطرّ قطّ إلى أن أخفي حقيقتي أمامهما. أعرف بعض الفتيات في المسجد ممّن يرغبن في أن يواعدن فتيانًا علنًا، وفي ألّا يضطررن إلى التسلّل لفعل

ذلك. وفتيات أخريات مستعدّات لترتيب لقائهنّ بفتيان. وثمّة فتاة ترتدي حجابًا وهي في الوقت عينه ملكة جمال حفلة قدامى المدرسة. لطالما طلب منّي والداي ألّا أحكم أبدًا على مدى تديّن مسلم آخر. فكلّ منّا يمارس فرائضه الدينيّة بطريقته الخاصّة، والله وحده يحكم. «لا إكراه في الدين». لا أتذكّر عدد المرّات التي ذكر لي والداي فيها هذه العبارة المقتبسة من إحدى آيات القرآن.

تبادلت وعائشة نظرات حزينة يُفهم معناها بدون الحاجة إلى كلمات. فتحت بابي. رافقتها ووالديّ الخطوات القليلة التي تفصل بين مقطورتينا. كانت والدة عائشة على درجات مقطورتها تنتظر وصولها. مَن يمكنه لومها؟ القلق والخوف الشديدان هما الخبز اليوميّ في هذا المكان. كلّنا شديدو التوتّر واليقظة، والأدرنالين يتدفّق في أجسادنا بلا توقّف. تساءلت كيف سيكون وقع الانهيار العصبيّ علينا حين يصيبنا.

فيما تبادل والداي ووالدة عائشة عبارات السلام، عانقت صديقتي بسرعة وهمست لها:

– سأرى إن كان بوسعي الاتّصال بدايفيد. لعلّه يستطيع مساعدتنا بطريقة ما.

الواقع أنّني لم أكن واثقة من أنّ بوسع دايفيد مساعدتنا بشيء، حتّى لو استطعت الوصول إليه. لكنّني أردت أن أترك لديها شيئًا من الأمل فيما نحن نفترق وننظر إلى الكآبة المرسومة على وجوه ذوينا المتراخية. أقسم أنّ كلّ الآباء هنا باتت لديهم نظرتان فقط: نظرة القلق المجبولة بالرعب، وقناع رسموا عليه ابتسامة زائفة لإخفاء شعورهم بالرعب لئلّا يلاحظ أبناؤهم ذلك.

حين غادرنا مقطورة عائشة كانت ساعة واحدة تفصلنا عن موعد سريان منع التجوال، فأقنعت والديّ بأن يتمشّيا معي قليلًا. صرتُ أستغلّ كلّ فرصة أغادر فيها المقطورة للبحث عن أيّ وسيلة للخروج من

المخيّم، والانتباه إلى الحرّاس الذين يبدو عليهم بعض السأم. في الليل، كانت أضواء التفتيش وأبراج المراقبة مصدر تهديد يذكّرنا دائمًا بأنّنا محتجزون. كما أعلم أنّ الطائرات المسيّرة تحوّم في مكان ما فوقنا. أشعر بأزيزها في عظامي. سرنا نحن الثلاثة بهدوء عائدين إلى منزل مركوري الخاصّ بنا. كان العريف رينولدز يقف عند طرف مربّعنا. وحين التقت نظرتانا، سرعان ما حوّل عينيه بعيدًا.

الفصل 10

– انهضي يا عزيزتي، أبوك وأنا ذاهبان إلى لقاء التخطيط المجتمعيّ في المركز. بعد ذلك سنلتقي بعض الأشخاص للصلاة في إحدى مقطورات المربّع الثامن. كلي شيئًا ما.

انقلبتُ في سريري وفركتُ عينيّ محاوِلةً التخلّص من شعوري بالإرهاق. في هذا المكان لا أنام نومًا عميقًا أبدًا. قد أغفو، لكنّني أظلّ متأهّبة للاستيقاظ في أيّ لحظة. باختصار، أنا في غاية التوتّر.

– حسنًا أمّي، سمعتُك.

أخرجتُ يدي من تحت الغطاء ورفعت إبهامي تأكيدًا لأنّ أمّي مدّت رأسها عبر الباب. بعد انصرافها، غادرتُ السرير وحملقتُ في المرآة فوق المغسلة. لقد أصبحت الدوائر السوداء أمرًا مألوفًا تحت عينيّ.

بدا أنّ والـديّ يتأقلمان مع هـذا المكان، شأنهما شأن الجميع. فهما يلتقيان أشخاصًا آخرين وينظّمان الصلوات في مواعيدها يوميًّا، ويتوزّعان الأعمال مع الجميع. حتّى إنّ أمّي بدأت تعالج مرضى أوجاع العظام في العيادة التي أقامها بعض الأطبّاء في أحد أقسام المركز. ولم يمضِ يوم واحد خلال الأسبوعين الماضيين لم يلمّح لي والداي خلاله

إلى أنّ عليّ أن أبحث عن أصدقاء أو أشغل نفسي بشيء مفيد، أو أؤسّس نادي مطالعة. لكنّ ما تُسمّى المكتبة هنا مثيرة للشفقة، فهي تكاد تخلو من الكتب كما أنّ كلّ المؤلّفات المسموح بها في الاعتقال هي لكتّاب بيض ماتوا منذ زمن بعيد. لا أريد أن أتأقلم. لا أريد أن أتكيّف مع المراقبة الدائمة والنظرة المهدِّدة للحرّاس البيض المسلّحين، ولا مع ابتسامة الموت الدائمة على شفتَي المدير البنفسجيّتين. لا أريد لأحد أن يعتاد ذلك.

كما أنّني بحاجة إلى رؤية دايفيد. بدون سبب، بل لكلّ الأسباب.

أنزلتُ ساقيّ عن جانب السرير الأسفل، ثمّ نهضت حريصة على ألّا أصدم رأسي بالسرير الأعلى. إنّه درس قاسٍ تعلّمته في الأيّام الأولى لمجيئي إلى موبيوس. نظّفتُ أسناني وفركت وجهي محاذِرة الإسراف في استهلاك الماء. فكلّ شيء مقنّن. الطعام والماء متوفّران للجميع، ولكن ليس بكمّيات فائضة. والأسوأ هو جهاز توقيت ماء الحمّام. اشتقت إلى الحمّامات الطويلة وإلى غسل شعري وفركه بالشامبو المقوّي. لكلّ منّا خمس دقائق للاستحمام في اليوم. لا مبالغة في الترف، بل لا ترف على الإطلاق. لا يمكننا الغشّ حتّى لأنّ ماء الاستحمام يتوقّف أوتوماتيكيًا. من الدروس القيّمة الأولى التي تعلّمتها كذلك في الأسبوع الأوّل من الاعتقال أن أستحمّ ليلًا لئلّا أشعر بأنّني أنام وسط عاصفة رمليّة. أمّا أهمّ تلك الدروس فهو ألّا أستعيد في ذهني الأشياء التي كانت موجودة «آنذاك» ولم تعد موجودة «الآن». يجب عدم فعل ذلك قطعيًا، فهو أمر مثير للجنون.

سمعتُ طرقًا على الباب. فتحتُه لتدخل عائشة. كنّا نقضي الوقت معًا في الخارج، ونبذل قصارى جهدنا للنجاة من رهاب الاحتجاز الناجم عن العيش خلف سياج مكهرب محروس، ونثرثر، ونتعمّد إطالة مشاويرنا في المخيّم، ونلتقي فتيانًا وفتيات لا عمل لهم.

وأيضًا كنّا نبحث عن طريقة للخروج من هذا المكان. بدت لي محاولة الوصول إلى دايفيد وطلب المساعدة منه أمرًا طفوليًا ومستحيلًا في آن واحد. لكنّنا لم نتوصّل إلى أيّ فكرة أخرى لا تشتمل على الموت، أو أقلّه على خطر الموت. وبدأنا ندرك أنّها مجازفة ربّما علينا أن نقبل بها إذا أردنا فعلًا الخروج من هنا، لا أن نكتفي بالرغبة في الهروب. لم أطلع عائشة على ذلك بعد، لكنّني منحت نفسي أسبوعين آخرين لإيجاد طريقة. من عادتي العمل بشكل أفضل حين أُلزم نفسي بمهلة قصوى.

– هل دايفيد شخص رائع؟ سألتني عائشة فجأة.

– لا شكّ عندي بأنّه يظنّ نفسه رائعًا، أجبتها ضاحكة، لكنّني لا أقول له ذلك أبدًا لئلّا يأخذه الغرور. الآن، هل من شخص تجدينه أنتِ رائعًا؟ شخص في هذا المخيّم ربّما؟ شخص كنت تكلّمينه أثناء انتظار دورك لصبّ العشاء؟ شخص اسمه سهيل؟

– ربّما، أجابت عائشة وهي تبتسم ابتسامة باهتة. يبدو أنّه يبذل جهدًا ليتمكّن من مكالمتي. أنا طبعًا أشجّعه على ذلك. إنّه لطيف وذكيّ وطريف. لكنّ تبادل الإعجاب في مكان كهذا أمر لا جدوى منه. فنحن لن نخرج معًا في موعد، ولن يرافقني إلى حفلة التخرّج.

أمسكتُ يد عائشة وشددتُ عليها. سرّني أنّها وجدت ما يلهيها عن الواقع.

ثمّ أخذت نفسًا طويلًا فيما كان وجه دايفيد المبتسم يترسّخ في ذهني، وقلت لعائشة:

– أنا مشتاقة كثيرًا إلى دايفيد. أعرف أنّ أسبوعين فقط انقضيا منذ أن التقينا. لكنّني أشعر بأنّني لم أرَه منذ سنوات. هذا المكان يعبث بمفهوم الوقت.

– أعرف. أقسم أنّني إذا سمعتُ المدير يتقيّأ كلمات الوحدة والأمن والازدهار مرّة جديدة فسأصرخ. الناس يخشون أن يتعرّضوا للصواعق

الكهربائيّة وأن يختفوا، ولذلك يلزمون الصمت. والداي في الاجتماع أيضًا، وشقيقي الصغير يلعب كرة القدم مع مجموعة أطفال من هذا المربّع ومن مربّع آخر. بعض المشرفين هم مَن يتولّون تدريبهم. الأمر سيّئ.

بدأت حالات الاختفاء الأسبوع الماضي. لم ألاحظها في البداية، لكنّ أخبارًا بدأت تروج. «شبكة التهامس» كما سمّاها سهيل. كان بعض الأشخاص يُفقدون بعد أن يتمّ اقتيادهم ليلًا أو يُطلب منهم التوجّه إلى المركز لاستجوابهم لسبب ما، ثمّ لا يعودون أبدًا. أظنّ أنّ المدير، ومرافقه الشخصيّ والحرّاس، يحاولون إبقاء أعمالهم طيّ الكتمان، إلّا حين يتعمّدون ألّا يفعلوا ذلك.

قبل ثلاثة أيّام، سمعتُ أنّ حارسين قبضا على رجل كان يغادر المركز بعد سريان منع التجوال. يبدو أنّه تسلّل إلى المركز وحاول الدخول إلى كمبيوتر. أوقفاه وهو يحاول العودة إلى مقطورته خلسة، فطعن أحدهما بذراعه بسكّين سرقها من قاعة الطعام. وحين حاول صديقه البحث عنه قال الحرّاس إنّه رحل. لم يُنقل إلى مستشفى، ولا إلى السجن. رحل. هذا كلّ ما قالوه له. رأيت ذلك الرجل الذي يبحث عن صديقه المفقود. كنت أسير نحو المركز، فرأيت حشدًا من الناس يتفرّجون عليه وهو يركض كالمجنون من حارس إلى آخر، يسأل عن مكان صديقه، وعن موعد عودته. تجاهله الحرّاس لبعض الوقت، ثمّ عيل صبر أحدهم منه، فضربه ببندقيّته في كتفه. سقط الرجل أرضًا، وقيّده الحرّاس واقتادوه بعيدًا أيضًا. لكنّه لم يقاومهم. أمّا نحن الذين شاهدنا ذلك فقد اكتفينا بالوقوف، ولم نفعل شيئًا أو نقل شيئًا، ثمّ تفرّقنا. إنّهما رجلان... اختفيا.

لهذا السبب يجب أن أجد طريقة للخروج من هنا. للهروب. حين يفقد الناس الأمل تدرك هيئة الإبعاد أنّها نجحت في كسر إرادتهم.

– سهيل سيشارك، صح؟

– ماذا؟

– سيساعدنا؟

– لا أعلم. أظنّ ذلك. لكنّني لم أسأله مباشرة. معظم أحاديثنا تدور حول أنواع الموسيقى والأفلام المفضّلة لدينا، والطعام الرديء هنا.

– رأيته يتجادل مع والديه لدى خروجهم من قاعة الطعام مساء أمس. كانت أمّه تحاول إسكاته، لكنّني سمعته يقول إنّه لن يتجاهل الدوس على حقوقنا.

بصوت هامس، بدأت عائشة تغنّي «تقول إنّك تريد ثورة...».

– ما بالك أنت والأغاني القديمة؟ وكأنّك مصابة بآفة!

– الحقّ على والديّ. في صغرنا لم يغنّيا لنا أغاني الأطفال، بل بدآ بأغاني البيتلز وصولًا إلى أغاني نيرفانا، وهناك انتهت معرفتهما الكبيرة بالموسيقى.

لم أكن أعير عائشة كامل اهتمامي، بل رحت أنظر من نافذتي الصغيرة فيما كانت فكرة ما تتشكّل لديّ. رأيت العريف رينولدز يكلّم حرّاسًا واقفين في مربّعنا. هذا المكان يوحي بالأسرار. لي أسراري وللآخرين أسرارهم أيضًا.

– اتبعيني، قلت لعائشة وأنا أنهض عن الأرض.

– أوووه، هل نذهب إلى المركز التجاريّ، ونشاهد فيلمًا؟

– أقصر مسافة بين نقطتين هي الخطّ المستقيم.

– هل بتنا نتحادث بالألغاز؟

– أفكّر دائمًا في كيفيّة الاتّصال بدايفيد، أجبتها وأنا أهزّ رأسي علامة النفي. ألا يحقّ لنا بإجراء اتّصالات هاتفية؟ سأطلب ذلك.

– لكنّهم يتنصّتون على الاتّصالات. وعليك تقديم طلب.

– أعلم ذلك، لكنّني سأراهن على حدسي.

غادرت غرفتي وتبعتني عائشة، وحين خرجنا من مقطورتي، التفتّ إليها وقلت لها:

– جاريني، ثمّ عودي إلى مقطورتك. أمّا الآن فتظاهري بأنّك قلقة، وكأنّك تحاولين التخفيف عنّي. سأبدأ بالبكاء.

– لن يكون هذا صعبًا، ردّت عائشة وهي تعقد حاجبيها. أنا فعلًا قلقة من أن ترتكبي حماقة ما.

توقّفت والتفتّ إلى عائشة وأمسكت يدها، ثمّ قلت لها:

– اسمعي، أنت غير مضطرّة إلى مجاراتي. أعرف أنّ في الأمر مجازفة، لكنّنا لا نفعل شيئًا سوى الكلام منذ أيّام. سئمت الكلام.

هزّت عائشة رأسها. توقّعتُ أن أراها تذهب إلى مقطورتها، لكنّها شدّت على يدي وابتسمت. فاستدرنا وسرنا نحو الحرّاس والعريف رينولدز. التظاهر بالبكاء ليس صعبًا. منع أنفسنا من البكاء هو الصعوبة الحقيقيّة في هذا المكان.

مع اقترابنا من بداية المربّع، تحنحت بصوت مسموع ومسحت دموعي بيديّ. نظر إليّ العريف رينولدز والحرّاس الآخرون. اقترب منّا. لم أكن قد تبادلت معه الكلام منذ ضبطني أخالف قرار منع التجوال. مسحتُ يديّ المبلّلتين بالدموع بسروالي الجينز. طوّقت عائشة ظهري بذراعها وشدّت عليّ، كما ساعدتني لئلّا أقع لأنّ ركبتيّ كانتا تصطكّان قليلًا.

– سيّدتيّ، قال لنا العريف رينولدز وهو ينزع نظّارته الشمسيّة ويقترب منّا، هل من مشكلة؟

عليّ أن أجرّب تحقيق المستحيل، فقلتُ:

– أنا بحاجة إلى إجراء مكالمة هاتفية.

أخذ العريف رينولدز نفسًا طويلًا وأجاب:

– ثمّة إجراء لذلك.

– الأمر... أنا...

- إنّها الذكرى السنويّة الأولى للقائها بحبيبها، وهي تريد أن تكلّمه. لم تفعل ذلك منذ أن أتينا إلى هنا. التفتت نحوي قليلًا ثمّ سألته: ألا يمكنك أن تساعدنا؟ رجاءً.

كانت النبرة التي تتكلّم بها عائشة في غاية الإتقان: مفعمة بالقلق والأسف، وتكاد تتوسّل التدخّل للنجدة.

نظر إلينا رينولدز. وتريّث. التريّث أمر جيّد. يعني أنّه يفكّر في الأمر. كانت كتفاي متوتّرتين. وشعرت بذراع عائشة تشتدّ حول ظهري.

هزّ العريف رينولدزر رأسه، وقال لي:

- حسنًا، رافقيني.

تنفّستُ وعائشة الصعداء، ثمّ تعانقنا وهمستْ في أذني: «جازاك الله». ترقرقت عيناي بالدموع، ربّما لأنّها كانت المرّة الأولى التي أشعر فيها بأنّني حقًّا بحاجة إلى تدخّل إلهيّ في حياتي. جازانا الله كلّنا.

سرتُ والعريف رينولدز نحو المركز. كان الأدرنالين يتدفّق في جسدي بقوّة حتّى شعرت بأنّ قلبي يكاد ينفجر في صدري. من شدّة إحساسي بالعطش رحت أبلع ريقي بلا توقّف، وحاولت ألّا أركّز على ما أشعر به. كان العريف يسير مسرعًا وهو ينظر أمامه. وحين لاحظ أنّ عليّ أن أبذل جهدًا لألحق به، تباطأ في سيره، وراح يمشي بخطوات معتدلة. كانت كتفاه العريضتان تتقوّسان قليلًا إلى الأمام وهو يسير. وكان شعره قصيرًا من الخلف، لكنّ الاختلاف في اسمرار بشرته الظاهرة بين ياقة قميصه ومؤخّرة قبّعته العسكريّة الكاكيّة اللون لم يسمح لي بأن أعرف ما إن كان قصّه أخيرًا. كما كان قد أرخى كمّي قميصه يومذاك، فلم أستطع رؤية وشمه الشبيه بالبوصلة.

شعرتُ بأنّ عليّ أن أقول شيئًا. لا أعرف تمامًا لماذا، لكنّ هذا الصمت بدا ثقيلًا، ومحتقنًا جدًّا، وأردت تنفيس بعض الاحتقان. لعلّ ذلك يساعدني على التنفّس. لكنّ ذهني توقّف عن التفكير. تنحنحتُ وقلت:

– حضرة العريف رينولدز... سيدي؟ أتساءل إن كنت تشاهد حلقات الموسم الجديد من مسلسل جسيكا جونز؟ ليس متوفرًا لدينا هنا. وأتوق لمعرفة ما سيحدث، خصوصًا ما سيحدث مع جسيكا جونز ولوك كايج. أكره ظهور آيرون فيست في المسلسل. إنّه غريب الأطوار. حتّى إنّني لم أطق مشاهدة مسلسله، فقد كان رديئًا جدًّا.

تريّث العريف رينولدز في سيره، ونظر إليّ نظرة عبوس وجيزة قبل أن تسترخي ملامحه قليلًا، ثمّ أجابني:

– أنوي مشاهدته، لكنّني لم أبدأ بحلقات هذا الموسم بعد. سأخبرك ما يجري.

– شكرًا، قلت له، ثمّ تحلّيت ببعض الشجاعة وتابعت قائلة: وشكرًا لأنّك تسمح لي بالاتّصال بدايفيد.

– لنرَ كيف ستسير الأمور. لا تقولي شيئًا لأحد.

هززتُ رأسي علامة الموافقة. ألقيت نظرة على مسدّسه في قرابه، فعادت بي الذاكرة في الحال إلى منزلنا وإلى صاحب البزّة الذي شهر مسدّسه في وجهي، وإلى صاحب البزّة الآخر الذي رمى والدي أرضًا، وسمعتُ صراخ أمّي في أذنيّ. لا شكّ في أنّها ستصرخ الآن أيضًا إن رأتني أسير بجانب حارس. هززتُ رأسي وتمتمت أذكّر نفسي بأن أتنفّس.

– هل قلتِ شيئًا؟

– أنا؟ فقط... ثمّ تابعتُ بعدما قرّرت البوح بالحقيقة: أذكّر نفسي بأن أتنفّس.

– بأن تتنفّسي؟

– عائلتي أُرغمت على المجيء إلى مخيّم اعتقال لمجرّد أنّنا بشر أحياء، وأنت تحمل مسدّسًا يمكنك استعماله لإطلاق النار عليّ إذا فعلتُ شيئًا يُفترض بي ألّا أفعله. لذلك نعم، أحاول أن أتنفّس.

كان فكّاي منقبضين. تخيّلت نظرة الرعب على وجه أمّي لو كانت تصغي إليّ. تخيّلت كم كانت وأبي سيخافان. كنت أشعر بالخوف الشديد أيضًا، لكنّني أيضًا سئمت أن أفعل ما يُطلب منّي فعله، سئمت مجاراة كلّ هذا الهراء.

تمهّل العريف في خطواته ثمّ توقّف والتفت إليّ وقال:

– لن أطلق النار عليك.

خرجت منه الكلمات على مهل، متوقّفًا بين المقطع الصوتيّ والآخر. ثمّ فتح فمه وتردّد قبل أن يضيف:

– كما أنّك على حقّ. كان على لويس تان أن يظهر في المسلسل، لا آيرون فيست.

كدت أرى شبه ابتسامة على فمه، لكنّه محاها ثمّ واصل سيره بسرعة أكبر. حثثت خطاي، وعلى وجهي ابتسامة صغيرة.

وصلنا إلى المركز لكنّه قادني إلى مقطورة بقرب مبنى الإدارة، حيث مكتب المدير. نظر العريف رينولدز حوله قبل أن يشير إلى باب جانبيّ فتحه بسرعة ودعاني إلى الدخول.

لا تختلف هذه المقطورة عن تلك التي خُصّصت لعائلتي، إلّا أنّها خلت من المطبخ أو من مساحة للجلوس، فقد حُولّت إلى مكتب. رأيت فيها طاولة مستطيلة – من النوع الذي نعرض عليه المخبوزات لبيعها في المدرسة، لكنّها أضيق قليلًا – دُفعت نحو أحد جوانب المقطورة، وبجانبها ثلاثة كراسيّ معدنيّة رماديّة قابلة للطيّ. أشار إلى أحد الهاتفين الموضوعين على الطاولة، فجلست. رفع السمّاعة وأدخل رمزًا، ثمّ أعطاني إيّاها.

– دقيقتان، قال لي.

رفعت السماعة إلى أذني. لا أتذكّر متى كانت آخر مرّة اتّصلت فيها من هاتف ثابت. أسخر من والديّ لأنّهما لا يزالان يحتفظان بهذا النوع من

الهواتف في المنزل. لكنّني سمعتُ إشارة الاتّصال. إشارة اتّصال بهاتف ثابت عاديّ، تأتي إليّ من الماضي كمظلّة حماية، كدليل إلى أنّ العالم لا يزال موجودًا خلف سياج المخيّم. العرق المتصبّب من باطن يدي جعل الهاتف ينزلق، لكنّني أعدته بسرعة إلى أذني. وبأصابع مرتجفة، ضغطت على الأزرار التي ستصلني بدايفيد، أو على الأقلّ بصوته. إلى جانب رقمي لم أحفظ غيبًا سوى ثلاثة أرقام هواتف، وهي أرقام هواتف والديّ، ودايفيد.

تساءلتُ هل سيبدو صوته مختلفًا. تساءلتُ عمّا عليّ أن أقوله له لحمله على المجيء إلى هنا، للحصول على مساعدته، فيما العريف أو أيّ شخص آخر يصغيان إليّ. لقد أدار العريف ظهره إليّ على الأقلّ. هذا ليس كثيرًا لكنّها بادرة ليمنحني نوعًا من خصوصيّة زائفة.

سمعت إشارة الرنين.

كان قلبي يخفق في أذنيّ، ويتردّد خفقانه في كلّ جسدي. شعرتُ بشيء يتعاظم في صدري. أظنّه شيئًا يشبه الأمل. كان ذلك مؤلمًا، كعضلة لم أستعملها.

لا أزال أسمع إشارة الرنين.

دقيقتان. فكّري يا ليلى. جدي طريقة ليأتي دايفيد إلى هنا. قولي له إنّك تحبّينه. ولكن لا تهدري وقتك على كلام عاطفيّ مفرط.

إشارة الرنين أيضًا.

استبدّ بي الهلع. نظرت حولي فرأيتُ ساعة في فرن ميكرويف يومض فيها الوقت بأرقام خضراء مضيئة. هذا يوم مدرسيّ. دايفيد في المدرسة. وهو الآن في صفّ اللغة الإنكليزيّة.

لا. لا. لا. لا.

استمرّت إشارة الرنين تصلني ثمّ...

– «هنا دايفيد. تعرف ما عليك أن تفعل».

سمعت إشارة صوتيّة عبر الهاتف تلاها صمت.

– دايفيد، قلت هامسة، وأنا أكاد أختنق بكلماتي.

لكنّ الغضب ثار فيّ فوضعت الهاتف من يدي بقوّة. وسمعتُ في رأسي صوت أمّي يقول لي: خذي نفسًا يا ليلى. طردتُ صوتها من رأسي وطردتُ معه كلّ ذرّة عقل أملكها. أنا غاضبة. كان الحنق يحرقني من الداخل. لا يمكنني تهدئة مشاعري بالتفكير المنطقيّ.

الصوت الشديد لارتطام سمّاعة الهاتف بقاعدتها جعل العريف رينولدز يستدير بسرعة، وسألني:

– هل من مشكلة؟

– مشكلة؟ مشكلة؟ بـدأتُ أضحك لكنّني سرعـان مـا اختنقت بضحكتي، فتابعت أقول: من أين يجب أن أبدأ؟ ليست مشكلة واحدة، إنّها مليون مشكلة. إنّها حياتي. إنّه واقع أنّني في هذا المخيّم اللعين لمجرّد أنّه كانت لديّ الوقاحة لأحيا.

أحسستُ بأنّ معدتي تتشنّج وسمعتُ صوتي يرتفع وأنفاسي تتسارع. لكنّني لم أتوقّف بل اقتربتُ من العريف رينولدز، واستأنفتُ كلامي:

– وأنت وكلّ الذين هنا، كلّ حارس، كلّ سياسيّ، كلّ جار شاهدنا نُقتاد من منزلنا ولم يقل شيئًا. هذا الكابوس سيلاحقكم. لا يمكنني إجراء اتّصال هاتفيّ لعين لأسمع صوت حبيبي بدون أن أتوسّل. لقد سئمت ذلك. أنا أكره الرئيس. وأكرهك. أكرهك بشدّة الآن لأن بوسعك أن تطلق النار عليّ بدون أيّ سبب ولن يرفّ لأحد جفن لذلك. وأكره نفسي أيضًا، لأنّني من الحماقة لدرجة أنّني أصرخ بحارس، وعليّ الآن أن أنحني وأعتمد على رحمتك لئلّا ترمي بي في السجن أو تخفيني مثل كلّ الآخرين الذين كانوا فقط يريدون أن يعيشوا.

حاولت استرجاع أنفاسي. سالت دموع ساخنة على وجهي، فمسحتها بكمّي وانتظرت. كنت أنتظر العريف رينولدز ليقول شيئًا ما، ليفعل شيئًا ما. ليقيّدني، ليلكمني، ليقتادني بعيدًا.

لكنّه لم يفعل، بل وقف ينقّل وزنه من قدم إلى أخرى وهو يحملق بجزمتيه. ثمّ رفع رأسه والتقت عيوننا. كان الهواء في تلك المقطورة ثقيلًا جدًّا ومن الصعب تنفّسه. وكانت النار تخرج من خدّيّ. ظلّ العريف صامتًا، وقف فقط يحملق بي، وفي عينيه شيء من الألم.

وفي النهاية، أخذ نفسًا عميقًا، وأومأ برأسه لي. ثمّ خطا إلى الأمام، وفتح باب المقطورة وخرج.

تريّثتُ قليلًا. أحسست بالغثيان. لا يمكنني العودة عن أيّ كلمة قلتُها. والأهمّ أنّني لا أريد أن أعود عنها. لعلّ ما فعلته كان حماقة كبرى، لكنّ جزءًا منّي يشعر بالارتياح. وربّما حتّى بالسعادة. هل يجعلني هذا الأمر أكثر حماقة؟ لا أعلم. لعلّه فقط يجعلني كائنًا بشريًّا عن حق.

فتحتُ الباب، فبهرني ضوء الشمس. رفعت يدي لأحجب الضوء عن عينيّ، ورأيت العريف رينولدز ينتظرني. ابتسم لي ابتسامة حزينة. وسرنا عائدين إلى المربّع 2 بدون أيّ كلمة.

الفصل 11

أخذت حجرًا صغيرًا وقذفت به نحو الجبال. هذا تمامًا ما أشعر به: بأنّني حجر صغير في مواجهة جبل. جلست وأسندت ظهري إلى إحدى صخور الحديقة. رسالة دايفيد الصوتيّة تتردّد في ذهني بلا توقّف. لم تخرج من فمي سوى كلمة واحدة قبل أن أستسلم لغضبي وأضع السمّاعة من يدي بعنف. ربّاه، أنا عبقريّة. لعلّه يظنّني فقدتُ صوابي. لعلّي فقدتُ صوابي فعلًا. على الأقلّ سمعت صوته في الرسالة الصوتيّة. لكنّها جائزة ترضية سخيفة.

كنت عند طرف حديقة الصخور، أحاول أن أمنح عائشة وسهيل ما يشبه الخصوصيّة. خشيت عائشة أن يراها أحد بمفردها معه، فأمّنتُ لها التغطية في هذا المشوار السريع مع سهيل.

لمحت بطرف عيني سهيل يقترب من عائشة، وكانا جالسين على إحدى الصخور الكبيرة. فسارعت إلى الالتفات بعيدًا، وشغلت نفسي برمي الحجارة. لم أنظر إليهما، لكنّهما لم يكونا بعيدين سوى نحو ثلاثة أمتار. كنت أسمع كلّ شيء، لكنّني تظاهرت بأنّني لا أسمع.

– أتظنّه غريبًا أن نلتقي هنا؟ سألت عائشة سهيل.

– قد تكون كلمة «غريب» مناسبة لوصف هذا اللقاء، لكن فكّري أكثر بكلمة «جنون»، أجاب سهيل. لكنّني سعيد بأنّنا التقينا.

ضحكت عائشة، ثمّ قالت:

– نعم، في الحقيقة لم يكن هذا تصوّري عن اللقاء العاطفي الذي أتمنّاه.

– وكيف كان تصوّرك؟

– كنت أتخيّل نفسي أدخل مسرحًا ضخمًا مليئًا بأشخاص يتدافعون ليجدوا مقعدًا، والجوّ مشحون بالإثارة. إنّه مهرجان لأفلام ستار وورز. وعندها، أراه في الجهة المقابلة من القاعة المزدحمة. إنّه رجل وسيم...

– نسيتِ صفة الأنيق، قاطعها سهيل.

– آسفة. أرى رجلًا وسيمًا وأنيقًا في الجهة المقابلة من القاعة. تتلاقى عيوننا، ولا يعود أيّ منّا يرى أحدًا سوى الآخر. بعد ذلك يتماطأ كلّ شيء من حولي ولا أعود أميّز معالم وجوه الموجودين. يسير نحوي. فيخفق قلبي بشدّة. يصلّ إليّ فيمدّ يده مصافحًا ويقول «مرحبًا، أنا رضا أحمد».

حاولت أن أكتم ضحكة. التفتّ فرأيت عائشة تنظر إلى سهيل الذي كان يضحك ضحكة عالية ودافئة.

دوّت صفّارة المخيّم.

– اسبقاني إلى العشاء، وسألحق بكما، قلت لعائشة وسهيل.

– هل أنت بخير؟ سألتني عائشة.

– بخير، نعم، أريد فقط قضاء بعض الوقت بمفردي، قلت لهما بابتسامة وهما ينصرفان.

العشاء في قاعة الطعام. من جديد. لا أظنّني قادرة على تحمّل المزيد من هذا. المزيد من التظاهر. المزيد من الابتسامات الزائفة والمحادثات التافهة مع المشرفين، الذين يحرصون دائمًا على إلقاء

التحيّة على كلٍّ منّا خلال العشاء. المزيد من الشعور بالتوتّر والتظاهر مع ذلك بأنّ كلّ شيء طبيعيّ. المزيد من الرغبة في الصراخ ومع ذلك كتم الصراخ لأنّه يتسبّب باقتيادنا بعيدًا. قاعة الطعام التي تجمعنا مكان مقفل يعجّ بالحرّاس والمشرفين، وهواؤها مثقل بالخوف والقلق، لكنّنا لا نستطيع الاعتراف بذلك. خوفنا يمنعنا من لفت الانتباه إلينا. آخر ما يرغب فيه المرء في مكان كهذا هو لفت الانتباه إليه.

أغمضت عينيّ. مع غياب الشمس، تتسلّل البرودة إلى المساء. إذا امتنعتُ عن التفكير في أيّ شيء لدقيقة – لدقيقة واحدة ليس إلّا – أستطيع أن أتنفّس بدون أن أحسّ بثقل على صدري. تركتُ ذهني يسافر حرًّا إلى حيث يريد. إنّه يعود دائمًا إلى الأمور اليوميّة، كالذهاب إلى السينما، ومكيّف الهواء، والمثلّجات، وتقبيل دايفيد بين أكوام الكتب في مكتبة المدرسة. المدرسة. للحظة، صلّيت لكي أستيقظ من هذا الكابوس وأجدني في المنزل. ثمّ أرغمتُ نفسي على فتح عينيّ ومواجهة الصحراء الخالية. لا مكان للحنين هنا.

– ليلى.

جعلني صوته أجفل. كان العريف رينولدز بمفرده. لم يشِ بي لأنّني زعقت به، ولا لأنّني قلتُ إنّني أكره الرئيس، وهو ما يُعدّ خيانة حاليًا، بعدما كان في إطار حريّة القول من قبل. عدم التصفيق للرئيس في خلال إلقائه خطاب الاتّحاد اللعين يُعدّ تحريضًا على الفتنة. والبعض لا يزال يظنّ أنّنا في دولة ديمقراطيّة.

مسحتُ الغبار عن سروالي. تظاهرت بأنّ كلّ شيء على ما يُرام. حسنًا، بالقدر الممكن. هززتُ رأسي مجاراة له، وقلت:

– أعرف. أعرف. هذا وقت الطعام. سأسرع لأتناول عشاء الخمس نجوم الذي ينتظرني، قلت له.

وبدأت أسير نحو قاعة الطعام. من عادتي أن ألتقي والديّ هناك. سيصابان بالذعر إن لم أصل في الوقت الاعتياديّ.

أمسك العريف رينولدز بمرفقي.

تجمّدت ونظرت إليه وفمي مفتوح. اجتاحتني أمواج الخوف، وجُنّت كلّ أجراس الإنذار بداخلي. لعلّي كنت من الغباء أنّني ظننتُه لن يشي بي. لعلّه انتظر أن يجدني بمفردي ليسهل عليه اقتيادي. ربّاه، كيف كنت متهوّرة إلى هذا الحدّ؟

– أنا... آسفة. لم أعرف أنّني تأخّرت. سأسرع لألحق بالآخرين.

لعقتُ شفتيّ، فقد أحسست بالعطش فجأة. ورحت أرمش بعينيّ لمقاومة البكاء.

– لا بأس عليك. لن أقودك إلى أيّ مكان. آسف. ما كان عليّ أن ألمسك. ثمّ أفلت ذراعي، وتابع يقول بصوت أرقّ: مهلًا. عندي شيء لك.

كان الناس يتّجهون إلى قاعة الطعام. من عادة حرّاس المربّعات أن يتبعونا إلى العشاء قبل تبديل نوبات الحراسة. كنّا نسير خلف الجميع. دعتني غريزتي إلى الهرب. دائمًا تدعوني غريزتي إلى الهرب. ولكن إلى أين؟ تُرى، هل يصيب الوهن الجسد حين لا نستجيب لنداء الردّ بالقتال أو الهروب؟ هل يبدأ بإرسال إشارات خاطئة لأنّنا تجاهلنا الإشارات السابقة؟ هل يتوقّف الصوت الهادر في أذنينا؟

– آسف لأنّك لم تستطيعي أن تكلّمي حبيبك أمس.

أهذا ما أتى ليقوله لي؟ حملقت فيه وأنا لا أصدّق.

– انظري، قال لي وهو يُخرج من جيبه هاتفًا قديمًا قابلًا للطيّ، وضعه في يدي قائلًا: إنّه هاتف ببطاقة واحدة مسبقة الدفع.

لم يستوعب عقلي ما كان يعطيني إيّاه.

– ضعيه في جيبك. سأرافقك إلى مقطورتكم، وهناك ستدخلين حمّامكم وأنت تقبضين على معدتك، ثمّ تتّصلين بحبيبك. لديك

دقائق قليلة فقط. إذا سألك أحدهم عمّا حدث، قولي إنّك أحسست بالغثيان وأنت في الحديقة، وأنا أحضرتُك إلى هنا، ثمّ إلى قاعة الطعام. هل تفهمين؟

كان عقلي مزدحمًا بمليون فكرة، لكنّني عجزت عن الكلام. اكتفيت بهزّ رأسي. سرنا في طريق ميدواي. رأيت أمامي بعض الأشخاص المتأخّرين يهرعون للوصول إلى قاعة الطعام. ولكنّ مربّعنا كان خاليًا حين استدرنا متّجهين نحوه. لا أحد في هذا المربّع يريد أن يتأخّر، فهناك دائمًا مَن يذكّرنا بأنّ للتأخّر عواقبه. لم تكن تلك العواقب محدّدة. لكنّ الكلمة تحوم فوق رؤوس الجميع: العواقب.

حين وصلت إلى مقطورتي، مضيت توًّا إلى الحمام وقد أحنيت جسدي ولففت ذراعيّ حول بطني، كما قال لي العريف رينولدز.

ردّ دايفيد من الرنّة الأولى.

– آلو؟

– دايفيد، قلتُ له همسًا، هذه أنا.

– ربّاه! ليلى!

– اصمت، قلت له وأنا لا أدري أين هو أو إن كان أحد ما يتنصّت على المخابرة من جهته.

– لا أصدّق أنّني أسمع صوتك. كيف تتّصلين بي؟ تبًّا. هل أنت بخير؟ ماذا يفعلون بك؟ هل أنت مصابة؟ هل حدّدوا موعدًا لإطلاق سراحكم؟ هل...

صوته. صوت دايفيد. المنزل. لكن هذا ليس الوقت للحنين ولا للعاطفة، ولا حتّى للمشاعر، حقًّا.

– دايفيد، قاطعته، اشتقت إليك كثيرًا. أحبّك. لكنّني...

– أنا أيضًا أحبّك. اشتقتُ إليك. لا أصدّق كيف تدهور كلّ شيء.

– دايفيد، أحتاج إلى مساعدتك. أيمكنك المجيء إلى هنا؟ أيمكنك زيارتي؟ أنا في...

– أعرف أين أنت. معارف أبي في وزارة الخارجيّة أخبروه. أبي نذل، لكنّني هدّدته بألّا أعود إلى مكالمته أبدًا إن لم يعرف مكانك. طبعًا أنا مستعدّ للذهاب إليك، ولكن هل يسمحون...

سمعتُ طرقًا مرتفعًا على الباب. تبًا.

– دايفيد، عليّ أن أذهب. رجاءً، سأفكّر في شيء ما. أحتاج إليك. ربّما نجد طريقة تسمح لك بالدخول إلى هنا.

مجدّدًا عاد الطرق على الباب، وسمعته يُفتح.

– وداعًا يا دايفيد، أحبّك.

– ليلى، مهلًا. اسمعي. هذا وقت الطعام، ولهذا هاتفي معي. لكنّني من الآن وصاعدًا سأحتفظ به دائمًا. دعيه يرنّ مرّة واحدة، ثمّ أقفلي الخطّ واطلبيني من جديد، فأعرف أنّك المتّصلة. وأيضًا، أحبّ...

– ليلى؟ ملأ صوت العريف رينولدز المقطورة كلّها، وأضاف: علينا الذهاب حالًا.

أقفلت الخطّ مع دايفيد، ووضعت الهاتف في جيبي، وخرجت من الحمّام.

كاد العريف رينولدز يسحبني سحبًا من الباب، وقال لي همسًا:

– حرّاس النوبة التالية لن يلبثوا أن يصلوا. تذكّري، عليك القول إنّك شعرت بالغثيان فرافقتك إلى مقطورتك.

جال بعينيه حولنا بسرعة، ثمّ أشار إليّ لأعطيه الهاتف. أخذه ثمّ ركع في التراب متظاهرًا بترتيب شريط حذائه، ودسّ الهاتف بين جوربه وجزمته.

أخذني من مرفقي وسار بي بين الحارسين اللذين كانا يتسلّمان مركزيهما عند مدخل مربّعنا. أدّيا له التحيّة فردّها بحركة من رأسه وواصلنا سيرنا إلى قاعة الطعام.

كذلك أدّى له الحرّاس الآخرون التحيّة. أظنّ ذلك لزامًا عليهم، لكّني لاحظت من نظراتهم أنّ تحيّتهم لرينولدز أكثر من مجرّد حركة آليّة.

فيما واصلنا سيرنا نظرت إلى العريف. لم أدرِ كيف أصفه. إنّه حارس مسلّح، ومع ذلك فهو يخاطر لمساعدتي. العريف رينولدز مرقّعة بازل فيها رقع كثيرة، لكنّ نصفها مفقود، ولذلك لا أستطيع أن أراه على حقيقته.

– لماذا تفعل هذا؟ لماذا تساعدني؟

– إنّه مجرّد اتّصال هاتفيّ، أجاب، كما أنّ لي أسبابي.

كلماته الأخيرة خرجت بنبرة جافّة، وكأنّه غاضب، ولكن من نفسه.

– شكرًا، سيّدي العريف رينولدز، قلت له ونحن نقترب من قاعة الطعام.

كنت أعني ما أقوله. أنا لا أثق به بالمعنى الحرفيّ للكلمة. تلك الرقع الناقصة قد تعني أيّ شيء. قد تخفي وحشًا، لكنّ حدسي أنبأني أنّ ما يخفيه ليس بهذه الفظاعة.

قبل أن نصل إلى حيث يستطيع حرّاس قاعة الطعام سماعنا، انحنى نحوي وقال لي برقّة:

– ناديني جايك. وصدّقيني حين أقول لك هذا: مهما كان ما تخطّطين له، وما تظنّين أنّ بوسعك القيام به، أعيدي النظر. لا ترتكبي أيّ حماقة. قد تعرّضين نفسك للإصابة أو للقتل هنا. وبسهولة أكبر ممّا تظنّين.

الفصل 12

لا أخبار. لا أخبار بداخل السياج. صحيح أنّنا نسمع أمورًا، فشبكة التهامس لا تصمت أبدًا، وقد وردتنا أخبار عن احتجاجات ومسيرات تحدث في الخارج. الحكومة تحاول فرض الرقابة على أخبار الاحتجاجات التي تنقلها شبكات التواصل الاجتماعيّ. يُقال إنّ مخيّمًا ثانيًا يجري تجهيزه. لكنّ تلك الأخبار بمعظمها شائعات من الموظّفين غير العسكريّين هنا، أولئك الذين يشعرون بقدر من الذنب يجعلهم يتظاهرون لا بالودّ، بل بالحدّ الأدنى من التمدّن. لعلّ جيرانهم مسلمون، أو بعض رفاق صفّهم كانوا مسلمين. لعلّهم لم يلتقوا مسلمين قطّ حتّى أتوا إلى هنا، ونظروا في عينَي أحدنا فأدركوا أنّنا بشر نضحك ونبكي مثلهم، وأنّنا من لحم ودم، وأنّ لنا شرايين تنزف. كما أنّ ذلك التمدّن الهزيل، وإيماءة الرأس أو نصف الابتسامة، والمقدار الإضافيّ من الزبدة الذي يضاف إلى طبق البطاطا المهروسة، تقترن أحيانًا ببعض الأخبار من العالم خلف السياج، التي لا تلبث أن تروج في موبيوس. الأمر مثل لعبة «الهاتف المكسور»، حيث تختلف الجملة التي تُقال أخيرًا عن الجملة الأولى. ومع ذلك بوسع المرء أن يتخيّل الحقيقة، وأن يأمل.

سمعتُ طرقًا على بابي. رأيت والديّ يحملان ثلاثة فناجين من الشاي. الشاي هو عادتهما الصباحيّة، لكنّ تناوله في غرفة نومي ليس كذلك. من شأن المحافظة على بعض العادات أن يساعدهما. فهما يصلّيان، وسبحة الصلاة لا تفارق أمّي أبدًا. أعرف أنّهما كانا يستمتعان بالحياة الطبيعيّة التي بنياها لنفسيهما في المنزل. لكن حين طُرد أبي من عمله، وحين بدأ عدد مرضى والدتي يتناقص، أصبحا يبدوان كشخصين مهزومين أحيانًا. لم يقولا لي ذلك قطّ فقد كانا يحاولان دائمًا حمايتي، وإبعادي حتّى عن أصغر المشاكل. لكنّ الحقيقة كانت واضحة لي. هنا، الأمر أسوأ بأشواط بعد. أمّي تمضي أيّامها في العيادة في تقويم العظام، وأبي يلتقي أساتذة آخرين لتجهيز مدرسة خاصّة بأولاد المخيّم، بدءًا بالصغار. كانا يحاولان مساعدة الآخرين بطريقتهما الخاصّة. أعرفهما جيّدًا، وأعرف، بدون شكّ، أنّهما يشعران بالعجز. هذا ما أشعر به أنا أيضًا.

– بيتا، هل تشربين معنا الشاي؟ سألني أبي، فكّرنا في أنّ هذا سيعجبك، وكأنّك تتناولين الفطور في السرير.

عقدتُ حاجبيّ، وأنا أجهل ما يقصدان، لكنّني ابتعدت قليلًا، ودخلا، ثمّ أقفلت أمّي الباب خلفهما.

سحبت كرسيّ مكتبي الصغير ودعوت أمّي للجلوس. قبل أن تفعل، ناولتني فنجاني. شربت قليلًا. شاي بالسكّر والحليب، كما أحبّه. وجد أبي مكانًا مريحًا على أرض الغرفة تربّع عليه مسندًا ظهره إلى بابي. بدوري، جلست أرضًا بين الكرسيّ وسريري.

نظرت إليهما ورفعت كتفيّ وسألتهما:

– هل لديكما ما تقولانه لي؟

لا كاميرات في غرف النوم. لا شكّ في أنّ خطوتهما تعني شيئًا. لا سبب آخر يدعوهما للدخول إلى هذا المكان الضيّق لشرب الشاي، الذي يفضّلان التلذّذ به بارتياحٍ يذكّرهما بما كانت عليه حياتنا من قبل.

أومأت أمّي برأسها لأبي الذي قال:

– بعض الآخرين قالوا إنّهم...

قاطعته أمّي وقالت:

– قال بعض الأهالي الآخرين إنّهم رأوك تذهبين إلى مكان ما مع ذلك الحارس الطويل القامة الذي لا يبتسم أبدًا.

شعرتُ ببعض التوتّر لكنّني حاولت إخفاءه، وقلت:

– لا أحد من الحرّاس يبتسم يا أمّي. إنّهم حرّاس وليسوا فرقة كوميديّة في رحلة سياحيّة.

– لا حاجة إلى التهكّم، قالت أمّي وهي ترفع حاجبها نحوي، هل تنكرين ذلك؟ ألم يشاهدك أحد تسيرين إلى المركز برفقة ذلك الحارس؟

تبًّا. أظنّني كنت متهوّرة. لا يمكنني السماح بحدوث ذلك من جديد.

– كان... أمرًا بسيطًا. سألته إن بإمكاني الاتّصال بدايفيد.

– ماذا؟ سألتني أمّي بصوت مرتفع، هل جننتِ؟ طلبتِ خدمة من حارس؟ هل تعرفين ما قد يفعله بك؟

– جاآن، قال أبي يخاطب أمّي بكلمة التحبّب المفضّلة لديه – وتعني «روحي» أو «حياتي» – ويده تعلو وتهبط بحركة تهدئة، دعي ليلى تشرح.

– آسفة. كان أمرًا لا يستحقّ الذكر. سألته إن كان يحقّ لنا إجراء مكالمات هاتفيّة وإن كان بإمكاني الاتّصال بدايفيد. سرت إلى هناك معه ثمّ تذكّرت أنّ دايفيد كان ساعتئذ في صفّ اللغة الإنكليزيّة ولا يمكنه الردّ عليّ. هذا كلّ شيء.

ما قلته كان جزءًا كبيرًا من الحقيقة. هذا كلّ ما بإمكاني البوح به لهما الآن، من دون أن أزيد من قلقهما.

ارتخى فكّ أمّي الأسفل حتّى كاد يرتطم بالأرض، وقالت لي:

– ليلى، أتعلمين كم كنت حمقاء؟ حتّى بسؤالك إيّاه ذلك؟ عرّضت نفسك للخطر. لا نريدك أبدًا أن تكوني بمفردك مع أحد الحرّاس. لا تعرفين أبدًا ما قد...

ولم تسمح لنفسها بأن تتمّ بقيّة الفكرة، فتابع أبي يقول:

– ليلى، أفضل ما يمكننا عمله هو خفض رؤوسنا، وعدم لفت الانتباه، والذوبان في الجمع. لا يمكننا البقاء على قيد الحياة إلّا إذا ظللنا مجهولين بأكبر قدر ممكن.

كنت قد رفعت الفنجان لأشرب قليلًا من الشاي، لكنّني وضعته أرضًا بجانبي، بقوّة أكبر ممّا أردتُ، فوقع بعض الشاي خارجه. مسحت السائل الساخن عن سروالي وسألتهما:

– البقاء على قيد الحياة؟ أهذا كلّ ما نريده الآن؟ وماذا عن إرادة الحياة؟ هل نسينا ذلك؟ هل قرّرنا أن نمضي بقيّة حياتنا هنا؟ هل فاتتني قراءة تلك المذكّرة؟

– ليلى، قالت أمّي بنبرة حادّة لم تحاول هذه المرّة تلطيفها كما تفعل عادة، أنت صغيرة السنّ. صغيرة جدًّا ورعناء ولا تفهمين ما يحدث هنا. لا نملك حقوقًا ولا قدرة، ولا أحد في هذه العائلة سيجازف. هل تفهمينني؟

– بيتا، قال أبي بنبرة هادئة محاولًا تلطيف وقع صوت أمّي. ثمّ أخذ نفسًا وتابع: أتتذكّرين ما كتبتُه «فقط حين يصغي الإنسان إلى صمت القلب يستطيع أن يسمع زئيره»؟

– ظننتُك كتبت تلك القصيدة بعد ولادتي، وموضوعها العثور على الحبّ في الأماكن الهادئة.

ابتسم أبي. ثمّ نهض وسار نحوي وجلس بقربي أرضًا، وراح يربّت شعري كما كان يفعل معي في طفولتي. نظرت إلى أمّي فرأيت الدموع في عينيها. قال لي:

– صحيح، القصيدة تعني ذلك، لكنّها تذكّرنا أيضًا بأنّ الصمت لا يعني دائمًا الضعف. أحيانًا يحتاج المرء إلى قوّة كبيرة يستمّدها من الصمت. البقاء على قيد الحياة يتطلّب قوّة هائلة أحيانًا.

أخذت أمّي نفسًا عميقًا مرتعشًا. شعرتُ بالألم من أجلها. بل من أجل كليهما. أنا أيضًا أقلق لأجلهما، لكن لا يسعني حتى أن أتخيّل كم يفوق قلقهما عليَّ قلقي عليهما، فقد بنيا حياتهما كلّها حول وجودي. أعرف أنّ نيّتهما حسنة. لا أشاركهما نظرتهما إلى العالم، لكنّني لن أقول لهما ذلك.

– آسفة. أنتما على حقّ. كان يجب أن أكون أكثر ذكاءً. لكنّني... مشتاقة لدايفيد كثيرًا، قلت لهما بصوت متهدّج.

– نعرف يا بيتا، قالت أمـي، آسفة لأنّني رفعت صوتي. نخشى حدوث شيء لك. هناك أشخاص...

– أمّي، أعرف. لا داعي لأن تلمّحي. بعض الأشخاص يختفون ولا أحد يعرف أين. كنت معكما في اجتماع التوجيه، أتتذكّرين؟ لا تقلقي. لن أقوم بأيّ عمل غبيّ. أقضي معظم وقتي مع عائشة، أستمع إليها تتحدّث عن أفلام ستار وورز.

– من الواضح أنّ لعائشة ذوقًا ثقافيًا رفيعًا، وأنا أوافق تمامًا على هذه الصداقة، قال أبي بضحكة صغيرة.

– سبق أن قلت لها إنّك وأمّي مولعان بأفلام ستار وورز.

– صدّقيني، قالت أمّي بابتسامة حزينة، كان لوك سكايووكر حبّي الأوّل. والحبّ الأوّل لا يُنسى أبدًا.

– ظننتُني جعلتك تنسين كلّ الرجال الذين أحببتِهم في الماضي، قال أبي لأمّي وهو يقبّلها على خدّها.

– طبعًا يا جاآن، أنا الآن غير معجبة إلّا بك، وبلوك الشابّ.

وضحكنا.

الحبّ الأوّل لا يُنسى أبدًا.

يجب أن أكلّم دايفيد من جديد. أعرف أنّني قلت إنّني لن أعود إلى المجازفة، وأكره أن أكذب على والديّ. لكنّ الكذب جزء من الحياة في موبيوس. إنّه أداتنا للبقاء.

الفصل 13

مضى والداي إلى «عمليهما». غسلتُ الأطباق ومسحت الأرض حيث أوقعت الشاي. في مثل هذا الوقت أذهب عادة لألتقي عائشة، ونقضي الوقت في حديقة الصخور. بات سهيل يتردّد كثيرًا إليها أيضًا. ليلة البارحة، وبينما كنّا ننتظر لصبّ أطباق العشاء في قاعة الطعام، همس سهيل شيئًا لعائشة. سألتني لاحقًا إن كان بوسعنا ألّا نلتقي اليوم كالعادة. أظنّها أصبحت أكثر جرأة، وتخلّت عن تغطيتي لها. شعرتُ بالسعادة لأجلها. كلّنا بحاجة إلى ما يلهينا في هذا المكان.

لا تزال كلمات أمّي تتردّد في أذنيّ «الحبّ الأوّل لا يُنسى أبدًا.» قال دايفيد إنّه مستعدّ للقدوم إلى هنا، وأنا أصدّقه. لكنّ عليّ أن أكلّمه من جديد لأنّه لا يستطيع الحضور ببساطة إلى مدخل المخيّم. شددتُ طرف تي شيرت «إكس فايلز» التي أخرجتُها بعد طول احتجاز من خزانة أمّي قبل أعوام، ومسحت باطن كفّيّ المتعرّقتين بسروالي الجينز الذي ألبسه منذ زمن بعيد. ثمّة طريقة واحدة للحصول على هاتف.

خرجت من المقطورة. بعد الحديث مع والديّ، بتّ أعرف أنّ الطائرات المسيّرة والحرّاس ليسوا العيون الوحيدة المسلّطة عليّ.

نظرت حولي. بما أنّ كثيرًا من البالغين لديهم «وظائف» يقومون بها، فإنّ معظمهم يكون مشغولًا في النهار. وهناك نوع من الحضانة النهاريّة حيث يهتمَ الأجداد والجدّات برعاية الأطفال. بدا المربّع هادئًا جدًّا.

كان الحرّاس يتناوبون على القيام بالدوريات في المربّعات. ونوبة العريف رينولدز في مربّعنا اليوم. فلأغتنم الفرصة.

لم أركض ولا حاولت السير بسرعة، ولا فعلت شيئًا يبدو غير مألوف. بل سرت بشكل اعتياديّ نحو الحارسين وكأنّني أنوي تجاوزهما. لا طائرات مسيّرة تحلّق فوقنا. هذه هي اللحظة المناسبة لأقوم بمجازفة غبيّة. تعثّرتُ وصحت «أوووه» بصوت أعلى ممّا يجب. التفت الحارسان نحوي. قال العريف رينولدز شيئًا للحارس الثاني، ثمّ سار إليّ، وكنت جالسة أرضًا أفرك كاحلي.

– أنت بخير؟ سألني وهو يركع بجانبي.

– نعم. أردت لفت انتباهك لكنّني لم أعرف كيف.

– يجب أن تتوقّفي عن القيام بمجازفات حمقاء كهذه، قال لي وهو يهزّ رأسه.

لا وقت لي لأشعر بالإهانة، بل قلت له:

– أنا بحاجة إلى مكالمة دايفيد. هل يمكنك أن تتدبّر لي هاتفًا من جديد؟

– ربّاه، قال العريف وهو يفرك جبينه. ثمّ تنهّد وقال لي: انهضي، وتظاهري بأنّ المشي يؤلمك.

نهضت ببطء، وأمسك العريف بمرفقي، ثمّ رافقني عائدًا بي إلى مقطورتنا. بذلت جهدًا للتظاهر بأنّني أعرج، وأظنّني أبرع في ذلك لأنّني لويت كاحلي من قبل أثناء لعب التنس، وأعرف كيف يكون ذلك. لا أزعم أنّني أستحقّ جائزة أوسكار، لكنّني أجيد تمثيل الأمر. حين وصلنا إلى باب مقطورتي، همس لي:

– ادخلي وابقي في المقطورة. لمرّة واحـدة، أرجو منك أن تصغي إليّ. سأعود.

هززت رأسي موافقة، ودخلت.

انتظرتُ بداخل المقطورة كما طلب منّي. مرّت دقائق. سرت في الغرفة قليلًا، ولم أنسَ أن أعرج أمام الكاميرا. ثمّ جلست إلى الطاولة ورفعت ساقي لأريحها على الكرسيّ بجانبي. حاولت أن أنسى أنّني بين دقيقة وأخرى قد أكلّم دايفيد. تركت أفكاري تسرح في مكان آخر. تساءلتُ عمّا تفعله عائشة وسهيل الآن. لا، الواقع أنّني لم أتساءل. بل رجوت أن تكون ربّما تسرق قبلتها الأولى، وأنّها تبتسم. سهيل شابّ نبيل، كما أظنّ. آمل ألّا يخطئ حدسي بشأنه.

أجفلت حين سمعتُ طرقًا على الباب، برغم أنّني كنت أتوقّعه. لقد أصبحت أجفل لأقلّ الأمور أخيرًا.

تظاهرت بالعرج أمام الكاميرا المركّبة في المقطورة وتوجّهت إلى الباب وفتحته ببطء.

نظر إليّ العريف رينولدز، وسمح لابتسامة صغيرة بأن تخترق جدّيته المعهودة. ثمّ أعطاني عدّة أكياس ثلج قائلًا:

– هذه لكاحلك. ربّما عليك الاستلقاء وساقك مرفوعة على وسادة. هذا ما قالته لي الممرّضة.

أخذت أكياس الثلج، وشكرته وأغلقت الباب. أردت أن أهرع إلى غرفتي، لكنّني لم أفعل. أخذت وقتي ولم أنسَ أن أعرج. حين وصلت إلى غرفتي بأمان وأغلقت بابها، رفعت كيس الثلج الأعلى، فوجدت تحته هاتفًا أسود قابلًا للطيّ في كيس بلاستيكي صغير ومعه ورقة كُتب عليها:

«تبديل الحرّاس بعد 30 دقيقة. الحارس الذي معي سيكلّم الحارسين الجديدين. أعيدي إليّ الهاتف بين أكياس الثلج. اشكري الحرّاس

وانصرفي. لا تتأخّري. مرّري الماء على هذه الورقة حتّى يسيل حبرها. ثمّ مزّقيها وارميها في المرحاض».

طلبت رقم دايفيد. وتركت الهاتف يرنّ مرّة، ثمّ أقفلت الخطّ وطلبته من جديد كما قال لي. رنّ ثلاث مرّات قبل أن يجيب.

– ليلى؟ قال لي همسًا، آسف كان عليّ التذرّع بالذهاب إلى المرحاض للخروج من الصفّ.

سماع صوته جعلني أشعر كأنّ صخرًا أُزيح عن صدري، وسُمح لي بالتنفّس من جديد.

– دايفيد.

بدأت أبكي بصمت لكنّي سرعان ما مسحت دموعي، وتنحنحت وتابعت أقول له:

– دايفيد، أيمكنك الحضور إلى هنا؟ أريدك أن تساعدني على التفكير في طريقة للخروج من هذا المكان.

– سآتي غدًا. المسافة بالسيّارة غير بعيدة.

– ماذا ستقول لوالديك؟

– تبًّا لهما. سألت أبي إن كان بوسعه الإفادة من معارفه في وزارة الخارجيّة للمساعدة على إخراج عائلتك، فأجابني بأنّ الأمر لا يسير على هذا النحو، وأنّهم لا يُخرجون إلّا مَن هم مفيدون لهم. أكرهه لأنّه موافق على ما يحدث. وأمّي... لا أعرف كيف يمكنها أن تبقى صامتة. أعرف أنّهما خائفان، ولكن يبدو كأنّهما نسيا كلّ ما علّماني إيّاه.

بالكاد كنت أركّز على ما يقوله دايفيد، فسماع صوته كان مصدر بهجة وألم في الوقت عينه. ثمّ أدركت فجأة ما فعلتُ: المجازفة السخيفة التي أريد تحميله إيّاها بطلبي منه الحضور إلى هنا. الأمر لا يستحقّ العناء. أجهل ما كنت أفكّر فيه.

– دايفيد، أحبّك كثيرًا. لكنّني أخطأتُ بطلبي إليك الحضور. لا يمكنك أن تأتي، فذلك خطير، ومستحيل. لا يُسمح لنا باستقبال زائرين.

– ليلى، سنجد طريقة. تذكّري حين قلت لك إنّ هذه ليست نهايتنا؟ عنيتُ ما أقول، أنا معك دائمًا. هل من مكان يمكننا اللقاء فيه بدون أن يعرف أحد؟

– لا أعلم. الحرّاس والكاميرات في كلّ مكان. والطائرات المسيّرة تحلّق فوق المخيّم بلا انقطاع. لا يوجد مكان لا يستطيعون أن يرونا فيه.

– هل من أحد حيث أنت يستطيع تقديم المساعدة؟

تردّدتُ، ثمّ أجبته.

– لست واثقة. ربّما بوسعي أن أسأل العريف رينولدز.

– العريف رينولدز؟

– لا تهلع. إنّه حارس هنا، وهو مَن أعطاني الهاتف للاتّصال بك. إنّه يساعدني.

– ليلى، هذا يبدو خطيرًا. هل أنت واثقة من أنّه لا ينصب لك فخًّا؟

– لا أظنّه يتكبّد كلّ هذا العناء للإيقاع بي. فهم لا يحتاجون إلى أسباب لاقتياد الناس بعيدًا من هنا.

– ربّاه. تبًّا. لا أصدّق أنّ العالم أصبح على هذا النحو.

– أعرف تمامًا ما تقول. أنا أثق به يا دايفيد، بقدر ما يمكن الوثوق بغريب في هذا المخيّم، وخصوصًا بحارس. لكنّني أظنّ حدسي مصيبًا بشأنه.

– إن كنت تثقين به، فأنا أيضًا أثق به. أرجو منك أن تتوخّي الحذر. أحبّك يا ليلى.

سمعتُ عبر الهاتف صوت جرس المدرسة. أنا مستعدّة لفعل أيّ شيء كي أكون في المدرسة الآن، كي أعود إلى كلّ ما كان، إلى الـ«من قبل». لا أن أبقى في «الآن»، حيث الـ«ما بعد» الذي لا ينتهي ألمه.

– سأفكّر في شيء ما، وأتّصل بك، أو يمكنني أن أسأله الاتّصال بك. في كلتا الحالين، هل أراك غدًا؟ ربّما؟ هل آمل ذلك؟

– أحبّك إلى الأبد. وسوف أراك غدًا بكلّ تأكيد.

لعلّها كانت أغبى الأفكار التي راودتني على الإطلاق. لا شكّ في أنّها الأكثر مخاطرة. لكنّنا حدّدنا خيارنا. والاتّجاه الوحيد الممكن الآن هو إلى الأمام.

الفصل 14

كانت يداي ترتجفان وأنا أرتدي كنزتي السوداء «الهودي». أظنّها باتت لباس الهروب الرسميّ الخاصّ بي. دايفيد هنا. قريب، قريب جدًّا. رجوت ألّا تقع أيّ مشكلة. وافق العريف رينولدز على مساعدتي، بل على مساعدتنا. لا شكّ عندي في أنّه يشعر بالارتباك بسبب هذا كلّه. لا بدّ من ذلك. لو أنّنا في الخارج ربّما كنتُ لأبالي بأنّني أستغلّ تعاطفه أو شعوره بالذنب لحمله على التآمر معي، ولكن أيّ خيار آخر لديّ؟

خرجت من المقطورة على رؤوس أصابعي. تجاوزت الساعة منتصف الليل بقليل. عليّ التوجّه بمفردي إلى حديقة الصخور. لم يكن في الخارج حرّاس، كما قال لي العريف رينولدز. سرتُ بمحاذاة المقطورات متجنّبة أضواء الكشّافات التي تعبر المخيّم بتتابع زمنيّ محدّد. لذلك كنت أعدّ الثواني وأركض من ظلّ إلى ظلّ. كان قلبي يخفق بشدّة حتّى إنّني أحسست بخفقانه في أذنيّ، وسرت القشعريرة في جسدي. كان المنطق في ذهني يصرخ بي أن أتوقّف وأعود إلى المقطورة. لكنّني لم أتوقّف. لا أستطيع أن أتوقّف.

كان العريف رينولدز ينتظرني في الحديقة. حين رآني رفع يده مشيرًا إليّ لأنتظر. مرّ ضوء على مسافة سنتمترات قليلة من حيث يقف. ثمّ طلب منّي أن أسرع.

– أبعدتُ الحرّاس المكلّفين بالحراسة هنا، كما غيّر صديق لي مسار الطائرات المسيّرة. لكنّ لديك خمس دقائق حدًّا أقصى. أتسمعينني؟ كان صوته ينمّ عن الضيق والاضطراب. وارتسم على وجهه تعبير معاناة هائل، لكنّني لم أعرف السبب. وتابع يقول: المدير خارج المركز اليوم. ولهذا السبب استطعتُ تعديل بعض الإجراءات. ولكن لا تظنّي أنّك بمأمن، ولا حتّى بوجودي إلى جانبك، ولا للحظة. أتفهمين؟

هززتُ رأسي لأؤكّد له أنّني فهمت. كنت أسمع كلماته الشديدة الوقع، والبالغة الجدّية. لكنّني لم أشعر بها. في تلك اللحظة لم أشعر إلّا بذهول ناتج عن السعادة لأنّ دايفيد هنا. هنا. في هذا المكان، حيث خُيّل إليّ أنّ الجميع نسينا. لكنّ العريف رينولدز كان يحملق بي بعينين تنتظران ردًّا. هزّة رأسي لم تكن مقنعة. فقلت له:

– فهمت، سيّدي العريف. أنا في خطر دائم.

– نعم. أنت كذلك. وكما قلت لك من قبل، ناديني جايك. من المنصف القول إنّني تجاوزت معك شكليّات دوري كحارس هنا.

– جايك؟ شكرًا، همست له.

وقبل أن أدرك ما أفعله، وضعت يدي على ذراعه في حركة امتنان عفوية صغيرة جعلت كلينا يجفل. فسارعت إلى سحب يدي.

أشار جايك إلى كوخ عدّة مصنوع من المعدن الأحمر على الجهة المقابلة من طريق ميدواي، وبجانبه سيّارة جيب مركونة. أسرعنا نحوه من دون أن نتلفظ بكلمة واحدة. لكنّني كنت واثقة بأنّ خفقان قلبي يتردّد صداه في الوادي كلّه.

أوقفني جايك عند الباب وأعطاني مصباحًا كهربائيًا، وقال لي:

– تذكّري ما قلته: خمس دقائق. أبقي أذنيك مفتوحتين. إذا سمعت صوتي، فإيّاك أن تتحرّكي، أو تصدري صوتًا، أو تخرجي. أنا سأفتح الباب حين يكون المكان آمنًا. هل فهمت؟

هززت رأسي إيجابًا. ووضعت يدي على مقبض الباب.

– ليلى، همس لي جايك. لا كاميرات في الداخل، ولكن تكلّما بصوت منخفض.

دفعت الباب. كان المكان مظلمًا جدًّا.

– ليلى.

إنّه هو. هذا صوته.

أضأت المصباح الكهربائيّ، فتقدّم منّي دايفيد وطوّقني بذراعيه. بكيتُ وسالت دموعي على قميصه، فعانقني بقوّة أكبر. كان شعورًا مريحًا أن أعانقه. هل من الممكن أن يفتقد المرء شيئًا حتّى وهو يعيشه؟ ثمّ تبادلنا قبلة، كانت هادئة ورقيقة وجميلة، وجعلتني أرغب في أن أبكي وأضحك في الوقت عينه. وللحظة مثاليّة واحدة، اختفى العالم كلّه.

سحبني دايفيد برفق إلى الأرض، واستدار بحيث بات ظهره إلى الباب وشدّني إليه. وبذراعه اليمنى طوّق كتفيّ، وشبك أصابعه بأصابعي.

أردت البقاء هنا بدون أن أقول كلمة واحدة. طوال الليل. أنا ودايفيد، ورائحة الزهور في ثيابه النظيفة، ورائحة الصابون بالنعناع الذي يستعمله، والألفة والحميمية اللتان يلتقي بهما جسدانا. هذا كلّ ما يريده البشر، أليس كذلك؟ أن يعرفهم الآخرون؟ ودايفيد يعرفني. لكن لا العالم يكفينا ولا الوقت. ليس لدينا سوى دقائق، بل ثوانٍ. ولن نلبث أن نعود إلى الواقع، إلى الشريط الشائك والسياج المكهرب.

– اسمعيني يا ليلى. لن يقفلوا هذا المخيّم. بل سيفتتحون مخيّمًا آخر بعد أسابيع قليلة. وسّعوا نطاق الحظر على المسلمين، ومنعوا الهجرة

تمامًا كما منعوا دخول السيّاح، حتّى لو لم يكونوا مسلمين بل يأتون من بلد ذي أكثريّة مسلمة. ولكنّ لديّ فكرة.

هذه الأخبار قلبت أحشائي.

– فكرة؟ أيّ فكرة؟

– أجهل إن كان الأمر سينجح، ولكن أتتذكّرين أنّي أخبرتك ما قاله أبي عن أن يصبح بعض الأشخاص مصدر إفادة؟

أومأت له برأسي أنّني أتذكّر، لم أكن واثقة أين يريد دايفيد أن يصل، ولا أنّني أريد أن أعرف.

– فكّرتُ. ماذا لو... ثمّ تريّث وأخذ نفسًا عميقًا.

من غير عادة دايفيد أن يشعر بعدم الارتياح بوجودي، لكنّني في تلك اللحظة أحسستُ بتوتّر عضلاته. كانت كلماته دفينة في داخله، وكأنّه يحاول إخراجها بالقوّة.

– دايفيد، أنت توتّرني. ما الأمر؟

– أتظنّين أنّ بوسعك إقناع والديك بأن يساعدا الحكومة على...

انفتح فمي دهشة والتفتّ إلى دايفيد، ثمّ أمسكت المصباح الكهربائيّ ووجّهت ضوءه إلى وجهه. فرفع يده ليحمي عينيه، ثمّ خفضتُ الضوء، وقلت له:

– ماذا؟ أتريد من والديّ أن يساعدا الأوغاد الذين أرسلونا إلى هنا؟ ماذا تقول يا دايفيد؟ هل أقنعك أبوك بأن تطلب منّي ذلك؟

– لا، هو لا يعلم أبدًا. فكّرت في أنّني إذا ذهبت إليه وأخبرته أنّ والديك مستعدّان للتعاون بطريقة ما، فقد يحاول المساعدة على إخراجكم من هنا. لا أعني أن يحملا أسلحة ويصوّباها إلى رؤوس الناس، بل أن يقوما... لا أعلم، بالترجمة ربّما؟ وإبلاغ السلطات.

سالت الدموع على وجهي. لقد أصابني دايفيد في الصميم. فتحت فمي، لكنّني تلعثمت. كانت الكلمات التي خطرت ببالي كثيرة جدًّا

لدرجة أنّني رغبت في الصراخ، لكنّ الكلمات تجمّدت بداخلي. ولا أستطيع الصراخ هنا، ولا في أيّ مكان في هذا المخيّم.

– دايفيد، هل فقدت صوابك؟ أنت صديقي الوحيد. الشخص الوحيد الذي أثق به في الخارج. وتريد أن تجعل من والديّ متعاونين؟ أتريدنا أن نشي بمسلمين آخرين لننقذ أنفسنا؟ هما لن يفعلا ذلك أبدًا، ولا أنا سأفعل.

ابتعدت عن دايفيد مسرعة، ووقفت. مدّ يده نحوي لكنّني نفرتُ منه. فوقف وأمسك خدّي بيده. لبرهة، استسلمت ليده الدافئة التي أعرفها جيّدًا، وتركتها تلامس بشرتي، وتنهّدت. لكنّ الغضب المتعاظم بداخلي جعلني أتراجع. أدرت له ظهري لأحاول أن أفكّر في ما أقوله. اقترب منّي وسحبني إلى ذراعيه، لكنّني دفعته بعيدًا، فانحنى وهمس في أذني:

– اسمعيني يا ليلى. رجاءً. أنا آسف. لم أقصد إهانتك أو جرح مشاعرك. ولكن ماذا لو أنّها الطريقة الوحيدة لتخرجي؟ لتكوني بمأمن؟

– من أنت الآن؟ أمّك سمراء، وشهرتها شابازي. ولولا حماية أبيك لكان بعض الفاشيين الجهلة سيخطئون بهويّتها ويرغمونها على دخول هذا المخيّم أيضًا. وأنت تريدنا أن نتعاون معهم؟ أحقًّا تعتقد أنّ والدك سيوافق على فكرتك الغبيّة؟ هل فكّرت في الأمر حتّى؟

– فكّرت في أنّني أحبّك فقط. هذا كلّ شيء. أنا أشعر بالرعب، وخائف من أن تتعرّضي للأذى أو لما هو أسوأ. أريد إخراجك من هنا لأنّني أعرف ما يحلّ بالأشخاص الذين يُرسلون إلى المخيّمات. عائلتي كلّها تعرف ذلك. ألا تفهمين؟ الجنون يصيبني في كلّ ثانية تكونين فيها بعيدة عنّي. وتهدّج صوته ثمّ أضاف: لا أعرف أيّ طريقة أخرى لمساعدتك.

انقبض فكّي، لكنّ كلمات دايفيد أحدثت كذلك جرحًا في قلبي. قلت له:

– لو أنّك تعرفني فعلًا، لأدركت كم كان سؤالك غبيًّا.

رفعت بصري إلى دايفيد، والغضب في عينيّ. ولكن الشكّ كان أيضًا يخامرني. شعرت بأنّني ربّما كنت مستعدّة لأيّ شيء لأخرج من هنا. لأكون حرّة. لأعرف أنّ والديّ بمأمن. لأقوم بالأعمال اليوميّة العاديّة، لأتمشّى، لأتنفّس، لأنام. ولكن حتّى لو توسّلت إلى والديّ لكي يقبلا، لا أتخيّل أنّهما يرضيان. إن كانا لم يكذبا في الاستفتاء، رغم أنّها لم تكن إلّا كذبة صغيرة لحمايتنا، فهما بالطبع لن يتحوّلا إلى خائنين أو جاسوسين. وحتّى لو لم يريا قطّ مَن يعرّضانه للأذى، فهما سيعرفان أنّهما سيرسلان أشخاصًا إلى الاعتقال، أو إلى ما هو أسوأ. كما أنّ عيش حياة أخلاقيّة أمر بالغ الأهمّية بالنسبة إليهما. كنت أسمع صوت أبي، وأردّد كلماته التي أتت إلى ذاكرتي: «في سكون الليل، يعرف القلب الأكاذيب التي قلتَها في سبيل البقاء».

– مَن قال ذلك؟ سألني دايفيد.

– أبي، أجبته همسًا.

– إذن لا بأس. تمامًا. عليك أحيانًا أن تفعلي ما عليك أن تفعليه للبقاء على قيد الحياة. لتعيشي من أجل أن تحاربي في يوم آخر.

– لا يا دايفيد. ليس هذا معنى القصيدة. معناها أنّ المرء لا يستطيع الهروب من أكاذيبه أبدًا، حتّى لو ظنّ نفسه هرب. وحتّى لو من أجل البقاء. أكاذيب المرء وأخاديعه ترافقه دائمًا.

انقبض دايفيد وكأنّه تلقّى لكمة شديدة. لا أظنّني رأيته بمثل هذا الشحوب من قبل. لم ألاحظ إلّا في تلك اللحظة الدوائر الشبيهة بالكدمات تحت عينيه. يبدو أنّه لم ينم منذ أسابيع.

ترقرقت عيناه بالدموع، ثمّ قال بهمس يكاد لا يُسمع:

– أنا خائف عليك، وخائف ممّا قد يفعلونه بك. إذا حدث لك شيء ما...

– ألا تظنّني خائفة أيضًا؟

سرت خطوات قليلة نحو الباب.

– آسف يا ليلى. رجاءً. سأبقى في البلدة ولن أعود إلى المنزل. سأفكّر في طريقة أخرى. لن أرحل من هنا بدونك.

فُتح الباب، ووقف فيه جايك. لا أستطيع أن أتخيّل ما نبدو عليه، ولا سيّما ما أبدو أنا عليه. كان وجهي مبلّلًا بالدموع وعيناي منتفختين.

– دايفيد، ابقَ هنا كما قلت لك. سأخرجك بالسيّارة تحت غطاء الصندوق المشمّع، تمامًا كما دخلنا. إيّاك أن يخرج منك صوت واحد.

هزّ دايفيد رأسه موافقًا على تعليمات جايك، ثمّ نظر إليّ وقال لي:

– أحبّك. آسف.

ثمّ عاد إلى الخلف وابتلعه الظلام، وأغلق جايك الباب.

أسرعت وجايك عائدين عبر طريق ميدواي. تركته يقودني ويبعدني عن أضواء الكشّافات إلى الظلّ. كانت الدموع تسيل على وجهي بغزارة فعجزت عن مسحها. ظننتُ دايفيد قادرًا على مساعدتي بطريقة ما، لكنّه بدلًا من ذلك يريدنا أن نصبح مخبرين... مسحت أنفي بكمّي. كان عالمي بكامله قد انهار.

أخرج جايك منديلًا من جيبه وأعطاني إيّاه، ثمّ قال لي:

– لا أظنّه... ثمّ صمت وفرك مؤخّرة عنقه بيده قبل أن يتابع: هو يحاول مساعدة عائلتك.

كوّرت يديّ حتّى أصبحتا قبضتين. كان الغضب يتصاعد في داخلي، وقلت له:

– ألا تظنّني أعرف هذا؟ هل كنت تصغي إلينا؟

– سمعتُ معظم الحديث. من الصعب ألّا يصل الكلام إلى خارج ذلك الكوخ، فهو رديء البناء وليس عازلًا للصوت. دايفيد يائس، هذا كلّ شيء.

– أنا أيضًا يائسة. لكنّ ما يقترحه ليس خيارًا. لا يمكننا أن نفعل ذلك. وإذا فعلنا فإنّنا لن نقلّ سوءًا عن...

رفعت بصري إلى جايك، ثمّ لجمت نفسي عن الكلام وسرت مبتعدة.

– أكملي جملتك. هل تعنين أنّكم لن تكونوا أقلّ سوءًا منّي؟ سألني بنفور.

أحسست بجفاف في فمي. ربّما كان ما قلته في غاية الغباء أو الخطورة. لا يمكنني أن أتكلّم.

كان جايك يمشّط المنطقة ببصره مع كلّ خطوة. إنّه حذر، دائمًا يراقب ويكيّف سلوكه مع الوضع. ولا يتكلّم أبدًا إذا خشي أن يسمعه أحد. قال لي:

– اسمعيني يا ليلى. لا شيء محسومًا لا في الخارج ولا هنا. ثمّة أمور تحدث. الناس ينظّمون أنفسهم ويأتون إلى هنا. تلك البلدة الصغيرة، إندبندنس، تمتلئ بوسائل الإعلام والمحتجّين. يسمّون أنفسهم مجموعة «احتلال موبيوس». كذلك اخترق أنونيموس حساب وزير الحرب على الإنترنت. أتعرفين مجموعة الهاكرز الناشطة تلك؟

توقّفت ونظرت إلى جايك بعينين واسعتين وهززت رأسي. اشتعلت النار في أحشائي. كانت بعض تفاصيل الأخبار تردنا من الخارج. لكنّنا لم نسمع بمثل هذا الأمر قطّ. داخل المخيّم نحن متجمّدون في الزمن، وعالقون. أمّا في الخارج فالعالم لا يزال يتحرّك.

– لماذا تخبرني هذا؟

– لأنّ ما أراد أن يقوله لك دايفيد، برأيي... أو ما كان ممكنًا أن يقوله لك لو لم يكن يخشى خسارتك، هو ألّا تستسلمي.

حين وصلنا إلى باب مقطورتي، سألته همسًا:

– ألا يزال الأمل موجودًا، ربّما؟

ابتعد عنّي جايك نصف خطوة وهمس قائلًا:

- إن شاء الله.

قالها بالعربية.

الفصل 15

«إن شاء الله».

كان صوت جايك يرنّ في أذنيّ. لم أعلم ما عناه بقوله ذلك لي. ربّما يعني كلّ شيء وربّما لا يعني شيئًا. ككثير من تفاصيل الحياة هنا، حيث علينا أن نقرأ معاني أصغر الأمور، ومعرفة ما إن كانت خطرة، وما إن كانت تلويحة من أحدهم تعني أنّه يلقي علينا التحيّة أو أنّ علينا الاختباء.

دسستُ يدي تحت وسادتي وأخرجت الرسالة التي مرّرها لي جايك هذا الصباح حين ذهبت لتسلّم بعض حصصنا الغذائيّة. كانت رسالة من دايفيد، أظنّه كتبها على عجل وأعطاها لجايك بعدما أخرجه بالسيّارة من هنا. كانت رسالة اعتذار، يعدني فيها بأن يساعدني بأيّ طريقة أراها الأفضل. قبل أن أقابل دايفيد، خلت أنّ خروجنا كان الأمر الأهمّ. ولكن عندما فاتحني دايفيد بخطّة التعاون السخيفة، أدركت أنّني لا أستطيع أن أترك الجميع خلفي وأرحل. قد يتعرّض كثيرون للأذى. لعلّي غبيّة وأقصر نظرًا من أن أرى ما قد تكون عليه النتيجة الحقيقيّة. لعلّ الألم في معدتي ناتج عن الندم. لعلّه ناتج عن الخوف لأنّني بدأت أفهم ما عليّ القيام به.

– عليك التفكير في الأمر، قالت لي عائشة حين أطلعتها على اقتراح دايفيد.

كنّا في حديقة الصخور، وكانت لا تنفكّ تنظر في اتّجاه طريق ميدواي بحثًا عن سهيل كما افترضتُ، ولو أنّها لم تبح بذلك.

– كيف يمكنك أن تفكّري حتّى في هذا الأمر؟

– لعلّها الطريقة الوحيدة التي تمكّنك من الخروج. نحن نتكلّم دائمًا عن الهروب، ولكن كيف؟ حتّى لو خرجنا وخرجت عائلاتنا، أين نذهب؟ هل نحاول الذهاب إلى المكسيك؟ مع كلّ حرّاس الحدود الموجودين؟ إن لم نمُت ونحن نحاول عبور السياج أو الهروب بشاحنة تموين، فسنُقتل بالرصاص ونحن نحاول تسلّق الجدار الحدوديّ، حتّى لو كنّا نغادر الولايات المتّحدة لندخل إلى المكسيك.

– لن أتركك وأرحل، قلتُ لعائشة وأنا أمسك يدها. حتّى إنّني لم أخبر والديّ بالأمر، فلا أريد أن تغريهما الفكرة. قد يقومان بذلك من أجلي لكنّني لا أتخيّلهما قادرين على تحمّل وخز الضمير من بعدها.

– إنّهما خائفان. والأهل مستعدّون لفعل أيّ شيء لحماية أولادهم. لو عُرض هذا الأمر عليّ، لا أعلم إن كان بوسعي رفضه، قالت لي عائشة بصوت متهدّج.

– أتتذكّرين ما قاله لك أبوك عن الخوف في مسابقة التهجئة؟ وسهيل أيضًا؟ كيف أنّ علينا أن نخاف، وكيف أنّ باستطاعتنا استغلال ذلك؟

رفعت عائشة بصرها إليّ. لم يفُتني أن ألاحظ أنّ عينيها كانتا تومضان كلّما سمعت باسم سهيل. إنّها من النِّعم الصغيرة التي بتّ ألاحظها بوضوح أكبر وأحمد الله على وجودها. تابعت القول:

– لا يمكننا أن نقاوم هنا بدون مساعدة. أخبرني جايك أنّ ثمّة أشياء تحدث في الخارج. يجب أن نجعل أولئك الأشخاص يرون ما يحدث في الداخل.

– جايك؟

– الحارس الذي ساعدني على الاتّصال بدايفيد.

– هل بتّ تخاطبين ذلك الحارس باسمه الأوّل؟ تذكّري أنّ بإمكان هذا الشخص إلحاق الأذى بك بلا سبب. هو يحمل مسدّسًا وبوسعه إطلاق النار علينا. أتعرفين حتّى ما تفعلينه الآن؟ تبًّا.

– لا أظنّ الأمر كذلك معه.

شرحت لعائشة ما قاله لي جايك، لكنّها لم تقتنع.

– يستطيع أيّ شخص أن يقول «إن شاء الله»، لكنّ هذا لا يجعله مسلمًا. وحتّى لو كان مسلمًا فهذا لا يعني أنّه إلى جانبنا. ربّما قال ذلك فقط ليحظى بثقتك.

فهمتُ ما قالته عائشة. فقد أمضيت نصف الليل سهرانة في سريري أفكّر في الأمر. بعض المسلمين الذين أعرفهم، كأحد أنسبائي، يقولون «إن شاء الله» دائمًا بمعنى «أرجو ذلك». كما أنّ إحدى الفتيات في المسجد كانت تتذمّر من أنّ والدتها تستخدم تلك العبارة بمثابة رفض مهذّب – أي مثلًا: «أمّي، هل أستطيع الذهاب إلى السينما غدًا؟» «إن شاء الله يا بيتا». كما أنّني أعرف أشخاصًا غير مسلمين يقولون عبارة «إن شاء الله». لكنّ ورودها على لسان جايك لم يكن استخفافًا ولا خدعة. قلت لعائشة:

– أعرف كيف يبدو الأمر، وأعرف حقيقته. لكنّني أظنّه يريد مساعدتنا. لقد استخدم العبارة كإشارة أو...

– مثل شيبولِت، استخدمها مثل شيبولِت، قالت عائشة.

رفعت كتفيّ إشارة إلى عدم الفهم.

– إنّها كلمة تُستخدم للتمييز بين مَن هو في جانبك ومَن ليس كذلك. لا أتذكّر كلّ التفاصيل لكنّ مصدرها قصّة في التوراة. كانت

إحدى القبائل اليهوديّة تتعرّف إلى أعدائها من خلال عجزهم عن لفظ حرف الشين في الكلمة.

– أي إنّ كلمة «شيبولت» هي في الواقع «شيبولِت».

– نعم.

نظرتُ في عينَي عائشة وقلتُ لها:

– أعرف أنّك خائفة، ولكنّني أدرك في أعماقي أنّ جايك ليس عدوًّا.

رجوتُ ألّا تكون أعماقي على خطأ، لأنّني لست أجازف بحياتي فقط، بل بحياتها هي أيضًا.

– لا أعرف يا ليلى، قالت عائشة وهي تهزّ برأسها. إنّها قفزة خطرة في المجهول.

– لن أقوم بمجازفات لا طائل منها، قلت لها، مدركة أنّ ما أقوله كذب.

اكتفت عائشة بالردّ عليّ بهزّ رأسها، وهو ما اعتبرته موافقة منها.

– هل قرأتِ كتبًا لنتيشه؟ سألتها.

نظرت إليّ عائشة بحاجبين معقودين، وهزّت برأسها، وأجابت:

– أنا لا أمضي إجازتي الصيفيّة على هذا النحو عادة.

– قال ما معناه إنّه لا يحتاج إلّا إلى ورقة وأداة ما ليكتب، كي يقلب العالم رأسًا على عقب.

– أي إنّك تنوين إخراجنا من هنا بكلماتك الجارحة والقاسية؟ ماذا يدور في ذهنك؟

– هل سمعت يومًا بـ«الوردة البيضاء»؟

لم تجبني عائشة فقد كانت تنظر إلى سهيل الذي يقترب من الحديقة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

– مرحبًا، قال وهو يقترب.

– مرحبًا، أجابت عائشة.

– مرحبًا، قال من جديد.

تلى ذلك صمت. نظرت عائشة إلى حذائها وركلت التراب قليلًا. ووضع سهيل يديه في جيبي سرواله، وراح ينقّل وزنه بين رجل وأخرى.

– هل كان يفترض بي أن أقول «مرحبًا»؟ أهذا هو سبب هذا الصمت الغريب؟ سألتهما.

التفتت عائشة نحوي ونظرت إليّ لتهاألتأ

بعينين تعبّران عن شعورها بالإحراج، وتأمرانني بالصمت أيضًا. تجاهلتها ومضيت إلى صخرة أخرى ليستطيع سهيل الجلوس على الصخرة بجانبها.

– ماذا كنت تقولين عن «الوردة البيضاء»؟ سألتني.

– «الوردة البيضاء»؟ قال سهيل مشاركًا بالحديث. هل هي تلك القصّة عن شقيق وشقيقته في الحرب العالميّة الثانية كتبا مناشير تحرّض طلّاب الجامعات الألمان الآخرين على مقاومة النازيين؟

– نعم، أجبت، لا أتذكّر كلّ تفاصيل القصّة، لكنّني أعرف أنّهما استخدما كلماتهما لمحاولة مقاومة النازيين.

– أعرف قصّتهما، قال سهيل، ونهايتها ليست سعيدة. كانوا مجموعة من الطلّاب، ومن بين قادتها هانس وصوفي شول، اللذان كانا يجازفان بحياتهما لتوزيع مناشير ضدّ هتلر. حتى إنّهما دعَوا إلى تخريب المجهود الحربيّ.

– يبدوان على قدر كبير من الجرأة، قالت عائشة.

– كانا شجاعين جدًّا، قال سهيل. لكنّ أحد بوّابي الجامعة وشى بهما، فأُعدِما. كما أُعدِم بعض أفراد المجموعة الآخرين. بالمقصلة.

– هذا رهيب، قالت عائشة همسًا وهي ترفع يدها إلى فمها.

– لماذا كنتما تتحدّثان عنهما في أيّ حال؟ سألني سهيل. هل تفكّران في إحداث شغب؟ في المقاومة؟

فيما كان سهيل يتحدّث، أحسستُ بالمرارة تصل إلى حلقي، ولكنّني بـدأتُ أيضًا أتذكّر المزيد من تفاصيل قصّة «الـوردة البيضاء» التي تعلّمناها في صفّ التاريخ. قُتلا لأنّهما رفضا البقاء مكتوفي الأيدي، ولم يلزما الصمت قلت:

– أظنّ أنّ صوفي قالت خلال المحاكمة: «في النهاية، كان على أحد ما أن يبدأ»، أليس كذلك؟ أظنّني قرأت ذلك في كتابي. وقد كانت على حقّ. على أحدهم أن يبدأ من مكان ما. ويمكننا أن نبدأ نحن.

– أتريدين إعداد مناشير هنا؟ سألتني عائشة وهي تبتلع ريقها.

– لا. أريـد كتابة قصص تحرّض الناس خـارج المخيّم. وسأطلب من دايفيد إيصالها إليهم. أعرف أنّه خائف، ولكنّ علينا في مرحلة ما أن نتوقّف عن الكلام ونبدأ بتذكير الناس بمَن نحن. نحن أميركيّون. نحن بشر.

– صحيح، قالت عائشة وهي تضع يدها على ذراعي، ولكنّني أرغب في تجنّب ذلك الجزء الخاص بالوقوع في الأسر والمقصلة إذا أمكن.

– لم يعودوا يستخدمون المقصلة للإعدام، قال سهيل.

– أنت لا تساعدنا، أنا جادّة، قالت له عائشة وهي تلكزه بمرفقها.

– أنت على حقّ، آسف، أجـاب. لا ينبغي الحديث عن هذا الأمر الكريه ولا التبجّح به.

– اسمعا. هـذا الوضع كلّه سيّئ. لكنّني أعـرف أنّ علينا توخّي الحذر. لا يمكننا التعامل بخفّة مع الفكرة الرومانسية شبه الغريزة بأنّنا سنكون بذرة المقاومة المقبلة. علينا أن نفكّر في الأمر، ونكون أذكياء، ونعرف بمَن يمكننا أن نثق. ولكن، كما قالت صوفي: على أحد ما أن يبدأ. وبإمكاننا أن نكون نحن مَن نبدأ.

عند قولي ذلك، سمعتُ نبرة التصميم في صوتي. لكنّني كنت أرتجف من الداخل. الثقة بالنفس قناع، مثلها مثل بعض الأكاذيب التي

نقولها لنستطيع البقاء. «التظاهر بأمر ما حتّى يتحقّق فعلًا»، إنّه أحد أبرز السلوكات في الثقافة الأميركيّة.

– حسنًا. لنفترض أنّك كتبتِ تلك القصص. كيف ستوصلينها إلى دايفيد؟ إنّه حبيبك، أليس كذلك؟ أهو في الخارج؟ سألني سهيل.

سبق أن أتينا على ذكر دايفيد في أحاديثنا، لكنّ سهيل لا يعرف الحكاية الكاملة للمساعدة التي يقدّمها إليّ جايك. حين أطلعته على الحقيقة، ارتخى فكّه الأسفل، ولأول مرّة، أفقده الذهول القدرة على النطق.

– سأرى إن كان باستطاعتي إقناع جايك بمساعدتي على رؤية دايفيد من جديد.

– مهلًا. مهلًا. آسف. لا أزال مدهوشًا بحكاية أنّ أحد حرّاس هيئة الإبعاد هو من أدخل دايفيد إلى المخيّم، وأنّه شخص تخاطبينه باسمه الأوّل، قال لي سهيل وهو ينظر إليّ بإمعان.

– ليس مجرّد حارس. أعني أنّ لديه مزايا أكثر من ذلك.

– أليس عليه إذن أن يقف ويقول شيئًا؟ أن يقاوم؟ سألني سهيل.

– لعلّه يريد أن يفعل شيئًا لكنّه لا يعرف من أين يبدأ، قالت عائشة، أو لعلّه يساعدنا بطريقة ما، لكنّنا حتى الآن لا نعرف كيف. أثق بحدس ليلى حيال هذا الأمر، كما أنّها لا تطلعه على كلّ خططنا.

كانت عائشة تدافع عنّي لكنّني سمعتُ اضطرابًا في صوتها. أرادت أن تصدّقني وأردت أنا أن أستحق ثقتها.

– لا نملك خطّة، قال سهيل واصفًا الأمر باختصار.

رأيت عائشة تتوتّر، لكنّها لم تتراجع.

– هدف هذه المحادثة هو إعداد خطّة. في أيّ حال، قالت ليلى إنّها ستكتب مقالة وتوصلها إلى دايفيد. إنّها الخطوة الأولى للتحرّك. وأضافت عائشة تتحدّى سهيل: لا أحد يرغمك على أن تكون هنا، ولكن إذا أردت أن تكون معنا، فقدّم لنا المساعدة على الأقلّ.

أخذ سهيل نفسًا وهزّ رأسه علامة الموافقة ثمّ قال:

– أنا هنا. سأشارك. أنا معكما. بالطبع أنا معكما. كان صوته يزداد رقّة بمقدار ما يتكلّم، ثّم أضاف: أنا فقط أؤدّي دور محامي الشيطان. لا أريدكما أن تتعرّضا للأذى. كما لا أريد أن يتعرّض أحد للأذى.

– هذا ما نريده أيضًا.

لم يمضِ على معرفتي بعائشة سوى أسابيع قليلة، لكنّني منذ التقينا، شعرتُ بأنّ بإمكاني الوثوق بها. نشأت بيننا صداقة من اللحظة الأولى. كان ذلك شعورًا جديدًا بالنسبة إليّ على أكثر من صعيد: الإحساس بالثقة والولاء. هناك دايفيد طبعًا. وهو كذلك وأكثر. ولديّ أصدقاء في فريق التنس، وفي حكومة الطلّاب. لكنّ أحدًا منهم ليس مقرّبًا، أقلّه لم يعد أحد كذلك في المرحلة الأخيرة. أشعر بالامتنان لأنّ عائشة صديقتي. ابتسمتُ وقلت لها:

– أنا أيضًا مذعورة. لكنّنا لن نكون أغبياء. سنخطّط، ولن نلفت الأنظار إلينا، كما سيحمي كلّ منّا الآخر. سنبذل أفضل ما بوسعنا.

هزّ سهيل رأسه موافقًا.

اقتربت منّي عائشة وعانقتني وشدّت على يدي.

– حسنًا، قال سهيل، عليك التفكير في طريقة لإيصال رسالة إلى دايفيد.

– طريقة قد تلهب مشاعر الناس خارج المخيّم، قلت، في البلدة الآن محتجّون ووسائل إعلام. أريد أن أشعل عود ثقاب، أن أكون شرارة.

بدأ سهيل يروح ويجيء حول الصخور، ثمّ قال:

– علينا أيضًا أن نجد طريقة للمقاومة في الداخل.

فيما كان سهيل يسير، فتحت عائشة كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا وأعطت كلًا منّا شطيرة، ثمّ ابتسمت وقالت:

– كنت في الكشّافة، حيث تعلّمت أن أبقى دائمًا على استعداد لنوبات الجوع التي تداهمني.

شكرتُها وسهيل وأخذنا منها شطيرتَي زبدة الفستق والهلام. لاحظتُ أنّ أصابع سهيل بقيت طويلًا على أصابع عائشة حين مدّ يده ليأخذ شطيرته.

نظر سهيل إلى طعامه وقال:

– الصيام. نطلب من الجميع أن يصوموا، وألّا يذهبوا إلى العشاء، وأن يرفضوا تناول الطعام.

– لاحظتَ كيف أنّ الجوع يستبدّ بي بقوّة، أليس كذلك؟ سألت عائشة. ولكنّ صيامًا احتجاجيًا، ورفض تناول العشاء الرديء في قاعة الطعام ليوم واحد، ليس أسوأ الأفكار على الإطلاق.

ضحك سهيل وقال وهو يشير إلى كلتينا:

– أسلوب غاندي، هذا في حمضكما النوويّ.

– نعم، أنت على حقّ، ردّت عائشة وهي تقلب عينيها تأفّفًا. كلّ الجنوب آسيويّين في أميركا يعقدون اجتماعات دوريّة للتباحث في كيفيّة التصرّف بأسلوب أكثر «غانديّة»، وبغزل القطن الخاصّ بنا أيضًا. كما أنّ كلّ العرب هنا يعرفون كيف يركبون الجمال، صح؟

لاعبته عائشة بأن وكزته في ذراعه وكزة كانت أقسى قليلًا ممّا توقّعه، ما جعله يُجفل.

– حسنًا، فهمتك. سأعيد النظر في افتراضاتي.

أدارت عائشة رأسها وقالت:

– ثمّة شيء إيجابيّ في هذه الخطة: المسلمون معتادون الصيام. مَن كان يعلم أنّ رمضان أعدّنا لهذا الأمر؟

– إنّها وجبة طعام واحدة، قلتُ، كما أنّ امتناع ثلاثة أشخاص لن يثير كثيرًا من الانتباه. فكيف نحمل الآخرين على المشاركة؟

اقترح سهيل بداية خطّة، فقال:

– نبدأ بمجموعة مركزيّة. أرغب في دعوة ناديا ونديم – وهما توأمان في مربّعنا – وبعض الأشخاص الآخرين، للمشاركة. يوم الجمعة المقبل، سيسمح لنا المدير باختيار مقاعدنا ساعة العشاء ليرينا سخاءه المفترض، صح؟ لنستفِد من ذلك. نحتاج إلى تشكيل مجموعة منّا تكفي للفت الانتباه.

– ولكن كيف نعرف بمَن يمكننا الوثوق؟ علينا تجنيد أشخاص، قالت عائشة وهي تنظر إلى سهيل الذي بادلها الابتسامة.

– تجنيد الأشخاص اختصاصي، ردّ قائلًا، فأنا مَن اخترتُ نحو ستّة لاعبين لفريق كرة القدم في المدرسة. سأجد أشخاصًا. ولكنّنا لا نستطيع أن نلتقي كلّنا هنا. ثلاثة أشخاص يأكلون الشطائر لا يثيرون الشبهة. أمّا إذا تجاوز العدد خمسة، فستستيقظ شكوك الطائرات المسيّرة بوجود مؤامرة.

– وجدتُ الحلّ! قالت عائشة مبتسمة، حين كنت في مكتبة المركز الأسبوع الماضي، اقترحت على أمينة المكتبة نشاطًا يقوم به المراهقون لزرع بستان خضار، فأعجبتها الفكرة. حتّى إنّها طلبت أدوات وبذورًا وأشياء أخرى. لنحصل على بعض الأدوات ونقم ببعض العمل. لِنَثُر.

نعم، فكّرتُ. لنزرع البذور. هذا ممتاز.

الفصل 16

لم تفارقنا، عائشة وأنا، الحماسة التي أثارها حديثنا وسهيل في الصباح. وفيما كنّا نسير في طريق ميدواي نحو قاعة الطعام، حلّقت نحونا إحدى طائرات المدير المسيّرة الحمراء اللمّاعة، ثمّ خفّفت سرعتها وبدأت اللحاق بنا. فعقد التوتّر لسانينا، وصمتنا كلّيًا. بعد قليل تحدّثت عائشة عن طعام الليلة السابقة، وتذكّرتْ كلّ ما تشتاق إليه من الأطعمة التي اعتادت تناولها في الخارج. أمّا أنا فرفعت بصري وحدّقتُ في كاميرا الطائرة المسيّرة، متسائلة عمّا إن كانت تبثّ صورتنا مباشرة إلى مكتب المدير. مخيفٌ كلّ هذا. مرعب. لا أحبّ أن أكون تحت المراقبة، وأرفض اعتياد ذلك. واصلنا السير والحديث عن الأطعمة التي نشتهيها: التشيتو الحارّ اللاذع، كعكة الشوكولاتة المغلّفة بكريما الزبدة الحقيقية، والهمبرغر المفلفل من «إن أند أوت»، ودجاج بادماش المقليّ، وأطباق البرياني، وأرغفة لحم الضأن، وفطائر الساموزا، والتاكو، وسوشي سمك سليمان. بعد قول ذلك استبدّ بي الجوع. لكنّ الطائرة المسيّرة واصلت تحليقها نحو الطرف الخلفيّ للمخيّم، وهو ما استغربتُه لأنّ الجميع

يتّجهون حاليًا إلى قاعة الطعام. هذا وقت العشاء، والحضور إلزاميّ. السبب الوحيد...

سمعنا صراخًا ووقع جزمات على الأرض، ثمّ شاهدنا نحو عشرة حرّاس يركضون. سحبتُ عائشة باتّجاه قاعة الطعام، ولمحتُ بطرف عيني مدير المركز ومرافقيه الشخصيّين يتبعون الحرّاس. لا بدّ من أنّ أمرًا سيّئًا وقع.

– سأذهب لأرى ما يحدث، همستُ لعائشة.

– هل أنت مجنونة؟ يجب أن نكون في قاعة الطعام.

– لن أغيب إلّا لدقائق. إنّ أمرًا ما يحدث ولا شكّ في أنّ أحدًا لن يلاحظ غيابنا.

– حسنًا، سأرافقك، قالت عائشة متنهّدة. ولو لأذكّرك بضرورة أن تسرعي بالعودة إلى قاعة الطعام، حيث أكبر الأخطار هو أن تصابي بعسر الهضم، لا بطلق ناريّ كما قد يحدث هنا.

ابتسمتُ قليلًا. انتظرت أن يتّجه حارس باب قاعة الطعام نحو طريق ميدواي ليرى ما يحدث، وأخذت عائشة من يدها وأسرعنا لنختبئ خلف إحدى مقطورات الإدارة. هناك انتظرنا قليلًا أيضًا ثمّ أسرعنا لنختبئ خلف بعض المقطورات السكنيّة. رحنا نقترب من الحرّاس والطائرات المسيّرة، محافظين على مسافة بيننا وبين ميدواي لئلّا يرانا أحد.

سمعنا صراخًا، فتجمّدت في مكاني. لم أعد أقوى على التنفّس، وسرت القشعريرة في جسدي كلّه. نظرت إلى عائشة، فرأيت وجهها قد شحب تمامًا. استرقنا النظر من خلف المقطورة السكنيّة. كانت فرقة المدير الخاصّة، أي حرّاسه الشخصيّون، يجرّون امرأة على طريق ميداوي، والمدير يسير خلفهم بهدوء شابكًا يديه خلف ظهره وكأنّه يتنزّه، وكأنّه ليس المسؤول عمّا يجري.

إنّها نور.

ربّاه، لا!

بعد أيّام من وصولنا إلى هنا، كنّا نغسل ملابسنا، فرأتني نور أبتسم لرؤيتي حجابها الذي يحمل رسم العلم الأميركيّ، وعرّفتني بنفسها. قالت وهي تقلّب عينيها تأفّفًا إنّها تسكن في المربّع السادس، وإنّها أميركيّة من أصل عربيّ. أخبرتني أنّ أصحاب البزّات من هيئة الإبعاد قبضوا عليها في غرفتها بمهجع الجامعة بسبب ارتكابها أعمال شغب. وحين سألتها عمّا إن كانت ارتكبت فعلًا أعمال شغب، نظرت إليّ بابتسامة غامضة وأجابت:

– الثورة تقليد أميركيّ مثل فطيرة التفّاح، وكذلك هي الفاشيّة.

ولكنّها آنذاك كانت تُجرّ عبر طريق ميدواي من ذراعيها، والدم ينزف من فمها وجبينها. كانت تتلوّى وتركل في كلّ اتّجاه وتحاول أن تتخلّص من قبضة مرافقي المدير الشخصيّين. لكنّهم تجاهلوا صراخها وكأنّها شبح لا يسمعونه ولا يرونه.

لم أستطع الابتعاد بل تقدّمت. سحبتني عائشة إلى خلف المقطورة السكنيّة، لكنّ ذلك لم يعد مهمًّا لأنّ الجميع كانوا قد غادروا قاعة الطعام وأصبحوا هنا ليتفرجوا على ما يجري.

لمحت بطرف عيني امرأتين سوداوين تركضان نحو نور. كانتا شابّتين، في العشرينات من عمرهما ربّما، ومن المربّع السابع أو الثامن.

أردت أن أصرخ بهما «لا. لا. توقّفا. سيقتادونكما أيضًا». لكنّ الكلمات توقّفت في حلقي. لم تكن أيّ من المرأتين تحمل سلاحًا.

سبق لي أن التقيت إحداهما، وتُدعى أسماء، وهي ذات شعر قصير وترتدي قميص تي شيرت أصفر كُتبت عليها بأحرف حمراء كبيرة كلمتا «باد برينز». اندفعت باتّجاه أحد الرجال الذين يقتادون نور، لكنّ أحد حرّاس هيئة الإبعاد اقترب بسرعة وأمسك بها من قميصها وضربها بمرفقه في وجهها، وكأنّها بهيمة لا أهمّية لها. سقطت أسماء أرضًا، وحمت وجهها بيديها وهي تئنّ، فأوقفها حارسان بالقوّة.

شعرتُ بأنّ الحركة تتباطأ من حولي. كان هناك صراخ وتراب يُثار وغيوم من الغبار تملأ الهواء. وسمعت عائشة تقول «يا إلهي! لا! إنّها بلقيس».

خلال المشادّة، باغتت بلقيس – التي كانت تضع حجابًا بلون أزرق باهت – أحد الحرّاس ولكمته بقوّة في وجهه، فسال الدم من أنفه وفمه. ارتسمت على وجه بلقيس ابتسامة غبطة، ولكن ما لبث حارسان أن انقضّا عليها. لكمها أحدهما في بطنها، وحين انحنى ظهرها ركلها الآخر فأسقطها أرضًا وكبّلها. ثمّ رفعاها عن الأرض، فاقترب منها الحارس الذي لكمته وانتزع الحجاب عن رأسها. بصقت بلقيس في وجهه، فصفعها بقوّة. أطلقت صرخة ألم كادت تشقّ الأرض. كان الدم في كلّ مكان، ولطّخ وجوههم وملابسهم. ترنّحت في وقفتي، وشعرت بأنّني سأصاب بالغثيان. فهرعت عائشة إليّ.

سمعتُ صراخًا كثيرًا، وأصواتًا عميقة، تكاد تشبه أصوات البهائم، تصدر عن النساء. كان الناس في الحشد يصرخون ويطلقون الشتائم ويبكون. وخلال اقتياد نور وأسماء وبلقيس بعيدًا، حاول الحرّاس تفريقهم. لكنّنا رفضنا أن نتفرّق. ورمى أحدهم من الصفوف الخلفيّة للجمع حجرًا أصاب ذراع أحد مرافقي المدير، فعلت الهتافات. التفتُّ إلى المدير فعلمت أنّ هذا الأمر سيكلّفنا غاليًا. بدا وجهه الأحمر المرقّع على وشك الانفجار. اقترب من أحد مرافقيه، وأخذ منه مسدّسه ورفعه في الهواء وأطلق النار. دوّت الطلقة وتردّد صداها بين الجبال. ثمّ أطلق رصاصة ثانية.

صمت الحشد، ولم تعد تتردّد سوى أصداء صرخات النساء.

لبث المدير ينتظر، والمسدّس في يده. طال انتظاره. كان مؤلمًا جدًّا أن نسمع صرخات النساء اللواتي يُقتدن إلى حيث لا يعلم أحد. ربّاه،

كم هنّ شجاعات. شعرت كأنّ قلبي في حلقي. هذا ما أراده المدير: أن نسمع الصراخ. أرادنا أن نعرف أنّ هذا ما سيحلّ بنا إذا تمرّدنا.

بعد ذلك ساد صمت رهيب.

الفصل 17

رافقني والداي ووضعاني في السرير، وهو ما كانا قد توقّفا عن فعله منذ فترة طويلة جدًّا.

منذ لحظة الحادث الذي وقع للنسوة الثلاث لم يتفوّه أيّ منّا بكلمة أكثر من الحدّ الأدنى الضروريّ. سمح لنا المدير بتناول العشاء، وهذا ما فعلناه بدون أن نتفوّه بكلمة واحدة. كان ذلك مؤلمًا. لا صوت يُسمع سوى مضغ الطعام، واصطدام الأشواك بالصحون البلاستيكيّة، والآباء والأمّهات يسكتون أطفالهم الذين يجهلون ما يجري. لو كان للخوف صوت لكان صوت الصمت المؤلم والثقيل في قاعة الطعام هذا المساء.

– أتريدينني أن أبقى معك يا بيتا؟ سألتني أمّي بصوت رقيق يكاد يفطر القلب.

ابتسمت لوالديّ وقلت لهما:

– لا، أنا بخير.

– إذا أردتِ أن تتكلّمي في أيّ شأن، فأنا ووالدتك بجانبك دائمًا. يمكننا دائمًا أن نتمشّى معًا، قال لي أبي وهو يربّت ركبتي.

كانا يحاولان أن يطمئناني. لكنّهما أدركا على الأرجح فشل محاولتهما. إنّها مهمّة مستحيلة.

قبّلتُ كليهما على خدّه، وخرجا.

انتظرت حتّى سمعتهما يغلقان باب غرفتهما لأغادر سريري. سرت إلى مكتبي الصغير وأشعلت المصباح وجلست. محال أن أنام هذا المساء. وجوه أولئك النساء المدمّاة والمفجوعة لن تفارق ذهني أبدًا، وكذلك شجاعتهنّ. حاولت ألّا أفكّر في ما يحدث لهنّ الآن، في ما قد يحدث لهنّ، لكنّني سلّمت مخيّلتي للأسوأ. بصراحة، لعلّ الأمر في الحياة الحقيقيّة أشدّ سوءًا بعد.

بما أنّني لم أستطع النوم، فتحت الدفتر الذي أحضرته معي، وبدأت الكتابة. كتبت عن الحياة بداخل موبيوس، عن نور. عن المرأتين الشجاعتين اللتين حاولتا التدخّل لحمايتها، وعن المرأة ذات الشعر المربوط بشكل ذيل حصان في اجتماع التوجيه، وعن الرجل اليائس الذي بقي صامتًا جدًّا فيما كانوا يقتادونه بعيدًا بعد اختفاء صديقه.

كذلك كتبت عن الصرخات، تلك الصرخات التي ستبقى محفورة في ذاكرتي إلى الأبد.

كتبت ذلك بخطّ صغير حرصت على أن يبقى مقروءًا برغم ارتجاف يدي فيما كنت أمسح دموعي لئلّا تبلّل الأوراق. ثمّ طويت الورقة حتّى أصبحت مربّعًا صغيرًا ووضعتها تحت الوسادة مؤقّتًا. قبل الحادث، تردّد جايك قبل أن يوافق على إيصال الرسالة إلى دايفيد. كنت خائفة عليه وعلى نفسي وعلى دايفيد. لا أستطيع حتّى أن أتخيّل ما قد يفعله المدير إذا علم بالأمر. سيكون مستحيلًا أن ننجو. لعلّ التهمة ستكون الخيانة، ككلّ شيء آخر في مثل هذه الأيّام. أمّا حرّية التعبير؟ والحقّ في رفع عريضة إلى الحكومة؟ فهذا ما لا وجود له في مخيّمات الاعتقال.

نظرت إلى نفسي في المرآة. كان وجهي منتفخًا وأحمر وكأنّني بالغت في فركه بمقشّر للبشرة. جررت نفسي إلى السرير وألقيت رأسي على الوسادة. كانت عيناي تَخِزانني، فأغمضتهما.

سمعت ضجيجًا في الغرفة المشتركة. نهضت بسرعة وكدت أصدم رأسي بالسرير الأعلى. لن أعتاد أبدًا النوم في سرير من طابقين. أنزلت ساقيّ عن السرير وكنت أشعر بالدوار. أمسكت بطرفَي الفراش لأثبت نفسي. لطالما استيقظتُ أخيرًا وأنا أشعر بالارتباك وأتساءل في سرير مَن أنا، وغرفة مَن هذه. في هذا الصباح شعرتُ برأسي ثقيلًا، لكنّني كنت أعرف أين أنا، وما عليّ فعله.

نهضتُ ورششت وجهي بالماء، وغيّرت ملابسي فارتديت سروالي الجينز المفضّل وقميص إكس فايلز القديم الخاصّ بأمّي. أشعر بأنّ كلّ ملابسي وسخة. لدينا مكان لغسل الملابس، ولكن حتّى بعد غسلها أظلّ أشعر بأنّ كلّ ما أرتديه غير نظيف. وكأنّ الغبار في موبيوس دخل في نسيج كلّ لباس يلامس جسدي. قبل أن أخرج من غرفتي، أخذت الرسالة من تحت الوسادة ودسستها في جيبي الخلفيّ.

دخلت إلى الغرفة المشتركة الضيّقة في مقطورتنا. كان والداي متسمّرين أمام التلفزيون يتفرّجان على أحدث الإعلانات الصادرة عن الإدارة. لا توجد أخبار حقيقيّة، بل فقط ما يريدنا المدير أن نسمعه. وما أرادنا أن نعرفه اليوم أنّ كلّ شيء عاد إلى طبيعته بعدما تمّت معالجة أمر مثيري الشغب. ثمّ عاد إلى الحديث عمّا يجري في موبيوس.

– يبدو أنّ خطط إقامة حديقة عامّة تسير على قدم وساق، قالت لي أمّي حين رأتني، وأضافت بابتسامة خالية من أيّ معنى: حتّى إنّ هناك قسمًا من الحديقة خاصًّا بالمراهقين.

كانت أمّي شاحبة جدًّا. مضى علينا تحت الشمس الحارقة أسابيع، ولا تزال أمّي تبدو كالأشباح. اقتربتُ قليلًا ووقفت بجانبها، مسّدت كتفيّ ورقبتي، وهي حركة كانت كفيلة دائمًا بتهدئة روعي وأنا صغيرة.

نقّلت بصري بين أمّي وأبي، وأدركت أنّهما لن يثيرا موضوع ما جرى أمس، ولن يتحدّثا عن العنف ولا عن الشجاعة.

– لعلّ العمل في الحديقة سيجعل بعض الناس يبتسمون. علينا أن نحاول التكيّف مع الأمر بأفضل ما يمكن، قالت أمّي بصوت لا حياة فيه، وأضافت متلعثمة: يجب أن تشعري بالسعادة لأنّنا لا نزال معًا، لأنّنا أحياء.

– لماذا؟ لماذا علينا البقاء مكتوفي الأيدي واعتبار ما يجري أمرًا مقبولًا؟ ألم تريا ما رأيته مساء أمس؟ ليت الجميع يكفّون عن التصرّف وكأنّ كلّ ما يجري طبيعيّ. ما يجري ليس طبيعيًّا، قلت بصوت رفعته أكثر ممّا يجب.

– ليلى، قال أبي بصوت هادئ كعادته، مدركًا وجود الكاميرا وخضوعنا للمراقبة، أمّك تقول فقط إنّ علينا أن نبذل قصارى جهدنا لتكوين مجتمع هنا. لن نلبث أن نعود إلى منزلنا.

كنت أفهم سبب قيام والديّ بالتمثيل أمام الكاميرا، لكنّني لم أعد أتحمّل ذلك. كنت أخشى أن يبدآ بتصديق ما يقولانه.

– وماذا لو لم نخرج من هنا أبدًا؟ ماذا لو متنا هنا؟ مات كثيرون في مخيّمات الاعتقال الأميركيّة خلال الحرب العالمية الثانية. أفضّل الموت وأنا أقاتل على أن أجاري ما يحدث.

لقد سئمت من المراقبة الدائمة. كانت شراييني تغلي غضبًا. لكنّني كنت أتصرّف بتهوّر، وهذا أمر يشكّل خطرًا على والديّ وعليّ.

كانت النار تشتعل بداخلي، وشعرت بأنّها تكاد تنفجر لتحوّلني إلى مليون جمرة. كان مؤلمًا أن أنظر إلى التعب المرتسم على وجه أمّي.

أعرف أنّني من أسباب ذلك التعب. غرزت أظافري في باطن يدي بقوّة حتّى آلمتني. ثمّ نظرت إلى الآثار الحمراء العميقة التي حفرتها أظافري في جلدي.

تنهّدت وأخذت نفسًا مرتعشًا.

وعدت عائشة بأن أكون حذرة، وألّا أرتكب حماقة أو طيشًا. يجب ألّا أنسى أنّ عليّ أن أمثّل. عضضت على شفتي وقلت:

– آسفة، أنتما على حقّ. ما قلته حماقة ولم أكن أعنيه.

قبضت أمّي على يديّ بقوّة، ووضع أبي يديه فوق يديها. لفتني أنّ نظرة عيونهما، تلك النظرة التي لم تكن موجودة قبل أن نأتي إلى هذا المكان، هي نظرة خوف فريدة، نظرة مَن يتساءل حين يرى ولده يخرج من الباب إن كان سيراه من جديد. للخوف طبقات وتعقيدات عدّة، واحتجازنا هنا يُبرزها كلّها.

قلت لوالديّ إنّني ذاهبة للقاء عائشة، لكنّني كنت أكذب، وهذا في مصلحتهما. قبّلتُهما ثمّ وقفت عند الباب ولوّحت لهما مودّعة.

ما إن خرجت حتّى فوجئت برؤية جايك ينتظرني عند الباب. مفاجأة كادت تجعلني أتعثّر على درجات السلّم القصير.

– آسف، قال لي وهو يمسك بي من مرفقي قبل أن أهوي أرضًا.

رفعتُ بصري إليه، فأبعد يده في الحال، وقال لي:

– كنت أنتظر خروجك.

كنّا قد اتّفقنا على أن نتقابل لأعطيه الرسالة، لكنّني لم أدرك أنّه ينوي أن يترقّبني عند باب مقطورتي. كما أنّه بدا قلقًا، وهذا ما لم يكن مألوفًا.

سوّيت طرف قميصي ورتّبتُ شعري. الفكرة الأولى التي خطرت لي كانت «هذا مزعج». نظرتُ حولي ومددت يدي إلى جيبي الخلفيّ، لكنّ جايك أوقفني بحركة من يده وقال لي:

- تعالي معي، ولا تطرحي أسئلة.

فكّرت في محادثتي مع عائشة وسهيل، فترددت. لعلّي أسأت تفسير كلّ شيء. لماذا يبدو متوترًا بهذا القدر؟ لا أنفك أقول لعائشة وسهيل إنّي أثق بحدسي في شأن جايك، وقلت ذلك لدايفيد أيضًا. ولكن ماذا لو لم يكن حدسي في محلّه؟ ماذا لو أنّ عائشة كانت محقّة حين حذّرتني منه في المرّة الأولى. أكره أن أشكّ في نفسي. بعضٌ منّي كان يتساءل عمّا إن كانت ثقتي به مجرّد حماقة. مع ذلك تبعت جايك. إن كان حدسي مخطئًا، وإن كان يسعى للفوز بثقتي فقط لكي يقبض عليّ، فهو قادر على أن يقتادني بعيدًا ساعة يشاء.

سار بي جايك في وسط المخيّم، وهو يردّ التحيّة للحرّاس الآخرين. كان يتصرّف بلامبالاة، وكأنّ لديه أوامر باقتيادي إلى مكان ما. لعلّ هذا ما يفعله. تجاوزنا المركز ومضينا توًّا إلى قاعة الطعام.

لم تكن قاعة الطعام تُفتح إلّا ساعة العشاء. أمّا وجباتنا الأخرى فنعدّها بأنفسنا بما يعطوننا من الحصص الغذائية، التي تكون سخيفة في العادة. فقبل أيّام وجدنا في الصندوق قنّينة كاتشاب، فيما ذُكر على اللائحة أنّها قطعة خُضار. أوّلًا الطماطم هي فاكهة. وفي أيّ حال، الكاتشاب تابل لا قيمة غذائيّة له. لكنّني أظنّهم لا يبالون بالأمر هنا.

- لماذا نذهب إلى قاعة الطعام؟ هل تسمح لي بسرقة بعض عبوات المايونيز؟ هل يحلّ المايونيز محلّ البيض مثلًا؟

رمقني جايك بطرف عينه لكنّه لم يردّ على تهكّمي الذي أحاول إخفاءه منذ فترة، خصوصًا لئلّا أثير قلق والديّ. لكن من المستحيل أن أكبت حقيقتي وشخصيتي تمامًا، حتّى بداخل موبيوس، حيث المبالغة في إظهار المشاعر قد تسبّب لنا الأذى، أو تؤدّي إلى اختفائنا حتى.

كانت أضواء قاعة الطعام مطفأة، والصدى يتردّد في أرجائها بشكل مخيف، وكأنّها مسكونة بالأشباح. لماذا يريدني أن آتي إلى هنا؟ سرت القشعريرة في جسدي. لكنّ جايك لزم صمتًا مطبقًا.

ذهب جايك إلى الجهة الخلفيّة للمطبخ وأشار إليّ أن ألحق به. فعلتُ ذلك بتردّد محافِظة على مسافة بيننا. كنت أدرك تمامًا المسافة بيني وبين مخارج القاعة، وأحسب بأيّ سرعة عليّ الركض للخروج من هنا إذا ما اضطررت إلى ذلك. كان المطبخ مظلمًا، وفتح جايك باب خزانة.

– جايك. سيدي العريف رينولدزر، لا أفهم مـاذا... قلتُ وأنا أتراجع قليلًا.

– ليلى، قال دايفيد وهو يخرج من العتمة.

انفغر فمي دهشة. كان دايفيد يرتدي لباسًا كاكيًا يحمل على كمّه رقعة هيئة الإبعاد.

– ما هذا؟ قلتُ وأنا أنقّل بصري بين دايفيد وجايك وقد أخذتني الحيرة تمامًا.

– سأترككما. لكنّكما لا تملكان وقتًا طويلًا. شاحنة النظافة تنطلق بعد خمس عشرة دقيقة. لديكما فقط خمس دقائق تقضيانها هنا، قال جايك ثمّ سار نحو القاعة.

توقّف قلبي عن الخفقان، وراح ذهني يعمل بسرعة، وسألت دايفيد هامسة:

– ماذا يجري؟

شاهدني دايفيد أنظر إلى لباسه فقال:

– آه، أتقصدين هذا؟ العريف رينولدز تدبّر لي هذا اللباس ورتّب دخولي إلى هنا خلسة بشاحنة رفع النفايات.

– ماذا؟ كيف؟ متى رأيته؟

كان ذهني يفيض بالأسئلة، وكان جسدي يشدّني نحو دايفيد، لكنّني تردّدت ولجمت نفسي لبرهة.

– رأيته خارج النزل الذي أقيم فيه. اسمعي، لا وقت لي لأفسّر كلّ شيء. لدينا دقائق قليلة فقط. آسف بشأن ما حدث قبل أيّام، وبشأن كلّ ما قلته. خوفي الشديد عليك منعني من التفكير في الأمر مليًّا. لم أفكّر في ما كنت أسألك أن تفعليه ولا في المساومات التي اقترحت عليك القيام بها. لا أعلم. أظنّني أملت أن أقترح على أبي مقايضة بين حرّيتك وبين تعاون والديك مع هيئة الإبعاد. وكأنّني أملك قدرة على ذلك أصلًا. فأبي لن يأخذني على محمل الجدّ أبدًا، ولن يساعدني أو يساعدنا. آسف، لكنّني عنيتُ ما قلته لك. أنا إلى جانبك إن كنت بحاجة إليّ. قولي لي ما عليّ أن أفعل.

بقيتُ مذهولة لبرهة. أذهلتني كلماته. وهذا الواقع المستحيل. ثمّ لم ألبث أن أصبحت بين ذراعي دايفيد، ورأيتني كأنّني خارج جسدي. اقتربت منه أكثر وأغمضت عينيّ ورفعت شفتيّ إلى شفتيه، تاركة هذا المكان يتلاشى. القبلة التي نتبادلها الآن هي الشيء الوحيد الذي يبقيني حيّة حقًّا في هذا المكان. إنّها تذكّرني بكلّ ما أُخذ منّا، لكنّها تعطيني الأمل كذلك. لم يدم هذا الشعور سوى لثانية، لأنّني بعد ذلك بدأت أتساءل عمّا إن كان دايفيد قادرًا على سماع صوت النار المشتعلة في أحشائي. كان فرحي برؤيته لا يوصف، لكنّي كنت أيضًا أشعر بالرعب على كلينا. إذا قُبض عليه هنا وهو على هذا النحو، لا أعلم كم يستطيع والده حمايته. كما اتّجه تفكيري إلى جايك. كنت على حقّ: لن يشي بنا. وهذا ما يجعل خوفي يشمله كذلك.

حين ابتعد أخيرًا واحدنا عن الآخر، مددت يدي إلى جيبي الخلفيّ وأعطيته المنشور الذي كتبته. ثمّ أخبرته عن فكرتي، وقصّة الوردة

البيضاء وصوفي شول. وقلت له ما أريده أن يفعل، أي ما كنت واثقة بأنّه سيفعله.

تنحنح دايفيد بصوت مرتفع. دام الصمت لبرهة. الدقائق طويلة في موبيوس، ومع ذلك فالوقت غير كافٍ أبدًا.

– لقد أخبرك، أليس كذلك؟ في الخارج أشخاص يرفعون الصوت ويحتجّون. مجموعة «احتلال موبيوس» هنا، وغرف الفنادق كلّها مؤجّرة، والناس ينامون في السيّارات والخيم. وأحضروا معهم وسائل الإعلام. في النزل حيث أقيم مراسلة تحدّثت معها خلال الفطور هذا الصباح. إنّها متعاطفة جدًّا كما أنّ أنسباءها مسلمون، ستنشر مقالتك، لا شكّ عندي في ذلك، وسيسمع الناس كلماتك.

وبين الجملة والجملة كان دايفيد يداعب وجهي بقبلاته الرقيقة.

– أرجو منك أن تتوخّى الحذر. المقالة لا تحمل اسمي، ولكن إذا كُشف أمرك، وأنّك من أوصلها، فسيلاحقونك، ووالداك...

– أكيد سيُجنّ جنون والديّ غضبًا، لكنّني لا أبالي. أعرف أنّهما يريدان حمايتي، لكن عليهما أن يتذكّرا الإساءات التي واجهاها وحارباها بدورهما خلال حياتهما. يجب أن يستيقظا. سأكون بخير، قال لي دايفيد مقبّلًا جبيني، وتابع يقول: ثقي بي.

بعد ذلك وضع إصبعه على شفتيه ودسّ لي هاتفًا صغيرًا قابلًا للطيّ، وقرّب شفتيه من أذنيّ وقال:

– إنّه مشحون ببطاقة مسبقة الدفع. لا تخبري جايك. اتّصلي بي أو ابعثي لي برسالة نصيّة حين تستطيعين.

وافقته بإيماءة من رأسي ووضعت الهاتف في جيبي الأماميّ، مسرورة بأنّ هذا القميص القديم فضفاض ومتهدّل بحيث بات يهبط إلى ما دون وركيّ فلا يظهر منه شكل الهاتف. ثمّ أجبته بشكل طبيعيّ:

– أنا أثق بك، لكنّني لا أثق بأحد آخر في هذا العالم السخيف. هنا أيضًا تجري أمور. أعني أنّها ستجري. نتحدّث عن أمور تجري.

– ليلى، لا تعطيهم ذريعة لإلحاق الأذى بك، رجاءً. هذا المخيّم يعمل خارج إطار القانون، حتّى المدّعي العامّ لا سلطة له عليه.

– أعرف. أنا بداخله، أنسيت؟ لكنّني لا أستطيع البقاء مكتوفة اليدين.

وتذكّرت كلمات صوفي شول «على أحد ما أن يبدأ».

شدّني دايفيد إلى صدره، وشعرت وهو يعانقني بأنّني ألتفّ بغطاء مربّيتي الذي أحبّه. قال لي:

– أنت مدهشة.

وقفنا صامتين لبرهة، وتذكّرت كلمات من قصيدة لوالت ويتمان كان أبي يهمسها لوالدتي أحيانًا: «ها نحن الاثنين، مغتبطان، سعيدان لأنّنا معًا، ننطق بالقليل، وقد لا ننطق أبدًا».

– أحبّك، قال لي دايفيد ومرّر سبابته على العقد الذي أهداه لي.

حين عاد جايك إلى المطبخ، قبّلني دايفيد مجدّدًا. كانت قبلته خفيفة كريشة، وفيها سحر جميل تمتزج فيه الحلاوة بالمرارة. ثمّ حمل كيسَي نفايات أسودين ضخمين وخرج من باب جانبيّ. مشاهدته وهو يخرج من تلك القاعة سحقتني.

تريّث جايك منتظرًا خروج دايفيد، ثمّ أخذني من مرفقي وعاد بي عبر قاعة الطعام إلى الخارج.

هو أكثر مَن يحيّرني في هذا الأمر كلّه.

سار ببطء على غير عادة، يجرّ قدميه جرًّا عائدًا إلى مقطورتي. تفحّص المكان حولنا والسماء فوقنا قبل أن يتوقّف فجأة ويقول لي:

– مهلًا، أرجوك. ثمّ أضاف بعد تريّث: كتبتِ مقالة وسلّمتِها لدايفيد. ربّاه! ما كان عليّ إدخاله إلى هنا. حمايتي لك ليست بلا

حدود. لديّ أوامري. إن كنت تخطّطين للقيام بشيء داخل المخيّم، كالعصيان المدنيّ أو التمرّد، فسيُقبض عليك، وثمّة عواقب. لا أعرف كم أستطيع حمايتك.

رأيت وجه جايك يتقلّص قلقًا. وجهه في العادة هادئ الملامح، ويكاد لا يشي بأيّ انفعال. كان يجازف أيضًا، لكنّه خياره. أمّا أنا فأقوم بخياراتي لنفسي.

نظرتُ إليه بعينين ضيّقتين ووضعت يديّ في جيبيّ، وقلت له:

– أعطيتُه رسالة، هذا كلّ شيء.

قلب جايك عينيه انزعاجًا ورفع رأسه إلى السماء، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وقال لي:

– المدير ليس غبيًّا. أنت ترين الكاميرات. في الوقت الراهن، هذا كلّ ما يمكنني القيام به. سيراك. وإذا علم بما تفعلانه أو بما تخطّطان للقيام به داخل المخيّم، فالعواقب ستكون أسوأ بكثير ممّا رأيت. سمعتك تتحدّثين عن الوردة البيضاء. ذانك الشقيقان أُعدِما. يجب أن يتوقّف هذا الأمر في الحال. لن أشارك فيه بعد اليوم. حماقة منّي أنّني تركته يصل إلى هذا الحدّ. لا يمكنك أن تتخيّلي المخاطر.

شعرت بقلبي يتوقّف. لم يكن بوسعي رؤية دايفيد إلّا بمساعدة جايك. لكن لعلّها كانت حماقة منّي أن أعتمد عليه.

– إذا قُبض علينا...

– حين يُقبض عليكما، قال لي جايك وهو يضع يده حول ذراعي. تذكّري. لا تقولي «إذا»، بل «حين» يُقبض عليكما.

– لا أفهمك. هل تهدّدنا؟ إن كنت ستشي بنا، فاذهب وأخبر المدير. لا يمكنني أن أمنعك.

– لن أشي بكما. ألم تفهمي هذا بعد؟ أنتِ بحاجة إلى الحماية، فالتوتّر يتصاعد هنا. لست الوحيد، لديّ...

توقّف جايك عن الكلام، ثمّ نظر إلى الأرض وهزّ رأسه.

– ماذا لديك؟

– لا شيء. ثمّة آخرون يحاولون المساعدة ضمن أطر معيّنة. لكنّنا لن نستطيع مساعدتكم إذا أصدر المدير أمرًا خارج إطار القانون بنقلكم، وطلب من مرافقيه اعتقالكم منتصف الليل. أنتِ تجهلين ما بوسعه أن يفعل. أمّا أنا فأعرف، صدّقيني.

– أظنّنا شاهدنا عرضًا واضحًا لقدراته.

– الصعق بالكهرباء؟ الضرب بأعقاب البنادق؟ الاقتياد بعيدًا؟ اللكم؟ هذا لا شيء. قد يجري هذا في مركز للشرطة. أمّا في هذا المخيّم، فحين يُعتقل المرء... هذه الأرض مصنّفة منطقة حربية، ليست خاضعة لسلطة القوانين.

– فهمتُ. حريّاتنا المدنيّة انتُهكت.

– الأمر لا يتعلق بانتهاك حرّياتكم الدستوريّة. إذا ما قُبض عليكم واقتادوكم إلى موقع العمليّات السرّية لاستجوابكم، فسيفعلون بكم أمورًا... أمورًا لا يسعك تخيّلها. أتتذكّرين تلك المرأة التي اقتيدت أثناء الاجتماع التوجيهيّ؟ لم تُرسَل إلى موقع العمليات السرّية. ما جرى معها كان مجرّد ردّ خشن لا أكثر. أتكلّم عن التعذيب. أتعرفين لماذا لا يعود الأشخاص المفقودون أبدًا؟

كانت كلماته بمثابة لكمات تسدّد إلى صدري. معظم ما دار بيننا، دايفيد وعائشة وسهيل وأنا، حتّى الآن، هو مجرّد أحاديث، وتخطيط، ولعب لدور المقاومة في موبيوس. لكنّني الآن أدرك كم كنّا من الهواة. الخطر شديد، شديد جدًّا. ولست واثقة ممّا إن كان أيّ منّا مستعدًّا لمواجهة المدير والعواقب الحقيقيّة.

أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ قلت:

– عليّ أن أفعل شيئًا. إن كان ما تقوله صحيحًا، فعلينا أن نخبر الناس. لا أظنّ أنّ الناس في الخارج سيقبلون بهذا الأمر إذا ما علموا.

– لهذا السبب يريد المدير إبقاء هذا المكان مغلقًا بإحكام، ويحرص على عدم خروج أيّة معلومات منه. هذا المخيّم هو الأوّل، وهناك آخر سيُفتتح قريبًا. القيادة العليا في هيئة الإبعاد لن تكتفي بمخيّمين، يريدون القيام بإجراءات اعتقال على نطاق واسع.

– القيادة العليا؟

– نعم. إنّها بإشراف وزير الحرب، لكنّها تتألّف من عناصر الأمن الداخليّ، ومن وكالة المخابرات المركزيّة ومكتب التحقيق الفدراليّ أيضًا. يجب أن تفهمي أنّ الرئيس يتصرّف وكأنّ الدستور غير موجود. حزبه يسيطر على مجلسي الشيوخ والنوّاب، لا أحد يجرؤ على تحدّيه. حتّى إنّ الناس لا ينتقدونه علنًا على أكاذيبه السافرة.

تراخت كتفاي، وشعرت بأنّ جسدي كلّه سيتهاوى أرضًا. نظرت في عينيه وهمست له:

– ساعدنا يا جايك.

أخذ منديلًا ورقيًّا من جيبه وناولني إيّاه قائلًا:

– لنواصل السير. ما نفعله يثير الريبة. يجب أن أعيدك.

حين انعطفنا لنواصل سيرنا نحو المربّع الثاني، تقدّم منّا المدير بقامته الضخمة، فحجب عنّا الشمس. وتبعته إحدى الطائرات المسيّرة. بذل جايك جهدًا ليتمالك نفسه، ثمّ وقف وقفة تأهّب وقال:

– سيّدي المدير.

لم يسبق لي أن رأيت المدير من مسافة قريبة كهذه المرّة. ولاحظت أنّ فكّه الأسفل ناتئ، ما يزيد في بروز شفتيه البنفسجيّتين.

التفتّ إلى جايك، لكنّ عينيه كانتا تتّجهان نحو شيء بعيد. وددتُ لو أنّ بوسعي أن أفعل ذلك، أي أن أركّز بدون أن أركّز. ولكن حين يرتفع

معدّل الأدرنالين في دمي، كما هي الحال الآن، وحين يشعر جسدي بدافع إلى القتال وإلى الهروب في الوقت عينه، تشتدّ قدرتي على التركيز، إلى درجة مبالغ بها تقريبًا. سمعتُ صوت محرّك شاحنة ينطلق، وصوت إطاراتها الثقيلة تدور على أرض الصحراء. تساءلتُ عمّا إن كانت تلك هي الشاحنة التي تقلّ دايفيد. رجوت أن تكون كذلك. تخيّلت بوّابة المخيّم تُفتح وتُغلق ليخرج بأمان.

من عادة المدير استخدام الصمت، كما حين صُعقت تلك المرأة بالكهرباء ووقف ينتظر خفوت صرخات نور وأسماء، حريصًا على أن نسمع كلّنا ما يجري. قد يكون الصمت أداة، لكنّه لا يستخدم تلك الأداة بما يبعث على الارتياح. أرخى ياقة قميصه بسبّابته. كانت وطأة الشمس شديدة، وشاهدت قطرات العرق تتشكّل على جبينه، فمسحها بمنديل أبيض.

– أرى أنّك غامرت بالقيام برحلة صغيرة يا آنسة أمين. ألست تقضين الوقت مع صديقتك في المربّع؟... لمشاهدة لاعبي كرة القدم؟

إنّه يعرف اسمي، ويعرفنا كلّنا. حاولت ألّا أجذب الانتباه إلى نفسي، لكن لعلّي تهوّرت. لعلّ المدير يشعر بعدم الارتياح، لكنّ من المؤكّد أنّه ليس غافلًا عمّا يجري. بدا أنّ كلّ عضلة في جسده مستعدّة للانقضاض ككلب مدرّب على القتال.

أحسست بانقباض شديد في صدري. رجوت أن يخفي قميصي الفضفاض الهاتف في جيبي، وتسارع الدم إلى رأسي. شعرت كأنّ العالم يومض من حولي. ركّزت بصري على نقطة محدّدة في البعيد للمحافظة على توازني.

رفعتُ كتفيّ وذكّرت نفسي بأن أتنفّس.

– نعم، سيّدي المدير. أنا فقط...

أحسستُ بذهني فارغًا وخانتني الكلمات.

– لقد أضاعت عقدها في قاعة الطعام، سيّدي، ورافقتها إلى هناك للبحث عنه، قال جايك متدخّلًا، ومستخدمًا الكذبة عينها التي سبق أن استخدمتها معه. كان يتكلّم بوتيرة أسرع من المعتاد، متلعثمًا ببعض الحروف.

اقترب المدير أكثر. كانت كلّ خليّة في جسدي تصرخ بي أن أهرب، لكنّ قدميّ التصقتا بالأرض. مرّر سبابته الضخمة على عقدي الشبيه بعلامة اللانهاية. تمامًا كما فعل دايفيد، لكن حركة المدير كانت قذرة. شعرت بمعدتي تنقلب، فأدرت وجهي بعيدًا وأغمضت عينيّ.

– يبدو كأنّ لهذا العقد أهمّية خاصّة، قال المدير.

شعرت بطعم المرارة في حلقي، لكنّني أجبته:

– نعم، إنّه كذلك. حبيبي قدّمه إليّ.

ابتسم المدير. كان ذلك مقزّزًا، وفي الحال أدركت أنّني قلتُ شيئًا ما كان عليّ قوله. لم أعد مجهولة كما كنت من قبل، بل قدّمت له فرصة، ولا شكّ في أنّه سيستغلّها ضدّي إذا دعته الحاجة إلى ذلك.

– حبيب؟ هذا جميل. أليس هنا معك؟ أفترض إذن أنّه ليس مسلمًا. صحيح؟

تبًّا. لماذا فتحت فمي؟ ولماذا قلت الحقيقة؟

– لا، سيّدي، قلتُ همسًا.

– هل تدركين أنّ هيئة الإبعاد لا تحبّذ هذا النوع من الاختلاط بين الأديان؟

جعلتني كلماته أنكمش، لكنّني لم أقل شيئًا. عقدتُ ذراعيّ فوق معدتي ونظرت أرضًا. ضاقت أنفاسي وتقطّعت، وكنت أسمع صوت عقب جزمة جايك يطحن التراب.

تابع المدير كلامه، وكان واضحًا أنّه لم يلاحظ أو لم يبالِ بالضيق الذي تسبّبه لي كلماته. لا. هذا تمامًا ما يريده، أن أشعر بالضيق، بالألم. سألني:

– ما هي ديانة حبيبك؟

شعرت بوخز في عينيّ، ورحت أقاوم رغبتي في البكاء. لكنّني خسرت تلك المعركة مع نفسي، وسالت دمعة على خدّي. لا جدوى من الكذب الآن. من السهل جدًّا بالنسبة إليه أن يكتشف الحقيقة. يكفيه أن يجري اتّصالًا سريعًا بمدرستي، وسيعرف اسم دايفيد حتّى. أجبته:

– إنّه يهوديّ.

شعرت وأنا أقول ذلك بصوت مرتفع بأنّني أرتكب خيانة. لعلّ أميركا تعتقل المسلمين فقط في الوقت الراهن، ولعلّ المدير يركّز فقط علينا، لكنّ كراهية المتعصّبين دينيًّا لا حدود لها عمومًا. من المحتمل أن يكون كارهو المسلمين معادين للساميّة أيضًا. عبوس وجه المدير جعلني أشكّ في أنّه واحد من هؤلاء.

– نعم، حسنًا... قال المدير وتريّث ثمّ اقترب منّي مسافة جعلتني أشمّ رائحة قهوة قديمة في لهاثه، قبل أن يضيف: أبلغيني إذا ما أضعت هذا التذكار الثمين من جديد. لي عيون في كلّ مكان وفي كلّ وقت.

التفت المدير إلى الطائرة المسيّرة القريبة، ثمّ عاد ببصره نحوي.

– سيّدي؟ قال جايك بصوت مرتفع، أكثر ممّا هو مطلوب نظرًا إلى المسافة القريبة التي جمعتنا.

خطا المدير خطوة إلى الخلف، ونظر إلى جايك وقال له:

– نعم، أيّها العريف؟

– سيّدي، بما أنّ جونسون نُقل من هنا، سأتولّى بنفسي نوبة حراسة إضافيّة. ننتظر وصول بديله إلى موبيوس خلال هذا الأسبوع.

– جيد. لا شكّ عندي في أنّك تضبط الأمور، قال له المدير وهو يربّت ذقنه ويهزّ رأسه.

– نعم، سيّدي.

سار المدير مبتعدًا، وبدا أنّه يقصد مكتبه في مبنى الإدارة، لكنّه توقّف والتفت إلى الوراء.

كتمت أنفاسي وعضضت شفتي، وخطوت إلى الخلف بحركة غير ثابتة، فوضع جايك يده خلف ظهري لئلّا أقع.

ارتفعت الطائرة المسيّرة التي كانت خلف المدير إلى مستوى كتفه وأدارت الكاميرا الخاصّة بها في اتّجاهي، وقال لي المدير:

– تذكّري ما قلته، آنسة أمين. أنا أرى كلّ شيء. سأحافظ على الأمن في هذا المخيّم، تأكّدي من ذلك.

ثمّ سار مبتعدًا. وكان الغبار الذي تثيره خطواته مشحونًا بالتّهديد.

الفصل 18

أسرعتُ وعائشة نحو حديقة السلام. هذا هو الاسم الذي أطلقوه عليها: حديقة السلام. على الأقلّ، الفاشيّة لم تفقد حسّ السخرية. وجدنا سهيل قد سبقنا إلى المنطقة الجرداء، وبدأ بتمهيد الأرض وبسط التربة حيث ستنبت البذور، ومعه من جنّدهم كدعم، فقد كان خمسة عشر شخصًا يشاركونه الحفر في التراب. أعطتنا أمينة المكتبة كتاب تعليمات عن العناية بالحدائق قبل أيّام. مرّ بنا المدير ليتمنّى لنا التوفيق، ولا سيّما لجعلنا نشعر بوجوده، كما أظنّ، ولتذكيرنا بأنّ كلّ ما في موبيوس إمّا يكون رهنًا لمشيئته، أو لا يكون. كانت لدينا أدوات زراعة وبذور وأسمدة وأوعية ريّ نملأها من جرن ماء. فوجئت في البداية بأنّهم سمحوا لنا بالوصول إلى أدوات معدنيّة، ولكنّني حين رأيت جايك ينضمّ إلى حارسين آخرين، أدركت أنّ ثقة المدير بأسلحة رجال هيئة الإبعاد هي ثقة مطلقة. هو يعرف أنّنا نخشاه، أو على الأقلّ نخشى «عواقبه»، لذلك يمكنه أن يقدّم لنا شيئًا من السخاء الزائف ويسمح لنا بقدر من الحريّات في المخيّم.

لم أخبر عائشة ما حدث مع المدير أمس، خشية أن تصاب بالهلع. أنا نفسي لم يفارقني الشعور بالهلع تمامًا بعد. فلا يمكنني أبدًا أن أستخفّ بتهديداته الصريحة والواضحة ولا بتحذيره من أنّ له عيونًا في كلِّ مكان.

أخذت وعائشة مجرفتين صغيرتين وبدأنا نحفر ثقوبًا صغيرة في التراب لزرع البذور. اقترب سهيل وجلس القرفصاء بالقرب منّا، والعرق يسيل على عنقه، ثمّ قال لي وهو يرفع حاجبه ويميل برأسه ناحية جايك:

– أرى أنّك أحضرت ظلّك معك.

نظرت إلى جايك. الاختلاف في اسمرار بشرته على مؤخّرة عنقه لم يتغيّر. حين رافقني إلى مقطورتي بعد لقائي بالمدير، قال أيضًا إنّه سيحاول أن يراقبني عن كثب. يريد أن يجعلني أشعر بالحماية، لكن لا مراقبة أشخاص – ولا طائرات مسيّرة في هذا السياق – تشعرني بالأمان.

ألقيت المجرفة من يدي وغرزت أصابعي في التراب. أحسست به باردًا ورطبًا. لقد استقدموا تربة للقيام بهذا المشروع لأنّ تراب الصحراء لا تنمو فيه النباتات. في ذلك تكلفة بلا شكّ، لكن لعلّهم يظنّون أنّ ما يدفعونه ثمنًا للظهور بمظهر الحكّام الأسخياء، لا بمظهر الطغاة، يعود عليهم بالفائدة، وأنّه أرخص من ثمن الرصاص ودفن الجثث. المقلق أنّ هذا ما سيشعر به بعض المعتقلين أيضًا، أنّ ما يحدث ليس في غاية السوء. لكنّهم على حقّ، فالأمر قد يكون أسوأ بكثير. وأخشى أن أكون أنا السبب في أن يصبح الأمر بشعًا، بشعًا جدًّا.

– اسمعا، قلتُ همسًا لسهيل وعائشة، أظنّ أنّ علينا تأجيل خطوة الصيام.

توقف كلاهما عن الحفر والتفتا إليّ. كانت عائشة تنظر إليّ بعينين تقلّصتا لشدّة سطوع الشمس.

– ماذا؟ سألني سهيل بصوت مرتفع، سرعان ما خفضه حين التفتت إلينا بعض الرؤوس، وتابع: لماذا؟ أنا أجنّد أشخاصًا كما ترين. وهم مستعدّون. ونحن مستعدّون.

صوته الخفيض لم يخلُ من الحدّة. فوضعت عائشة يدها على ساعده لبرهة وقالت له:

– مهلًا يا سهيل، لعلّ ليلى تملك سببًا وجيهًا.

ثمّ التفتت نحوي تنتظر جوابًا، فأخبرتهما ما حدث أمس وكيف قابلت دايفيد وكدت يُقبض عليّ، وما قاله المدير. طوّقتني عائشة بذراعها.

– آسف، هل أنت بخير؟ سألني سهيل.

– نعم، كان جايك معي.

– أعرف أنّك قلتِ إنّك تثقين به... قال سهيل وهو يرفع حاجبًا في اتّجاهي.

– صحيح، وهذا الأمر لم يتغيّر.

كانت لي شكوكي أيضًا، لكنّني لم أطلعهما عليها. أخذت مجرفتي وعدت للحفر مشيرة إليهما بأن يحذوَا حذوي.

– أنا أثق بك، قالت لي عائشة، ثمّ التفتت إلى سهيل وأعطته كيسًا من البذور وقالت له: عليك أن تثق بها أيضًا.

أخذ سهيل نفسًا ثمّ نظر إليّ وقال:

– أنا فعلًا أثق بك يا ليلى، لكنّني غير مطمئنّ إلى دوافعه. لا أطلب منك سوى الحذر. ما زال بوسعه أن يشي بك في أيّ لحظة. إنّه حارس ووظيفته أن يبقيك في الأسر هنا. لا تنسي.

– لن أنسى، كذلك لا أنسى أنّ الناس قد يتعرّضون للأذى أو يختفون، ولهذا أخشى المبادرة إلى خطوة الصيام. لعلّها خطوة صغيرة، وقد يُقبض علينا كلّنا أو نتعرّض للصعق بالكهرباء، وينتهي الأمر. إنّها نوبة غضب، لا ثورة. علينا أن ننظّم أنفسنا أكثر ونتحصّن أكثر استعدادًا للأيّام المقبلة

كلّ ما سنفعله سيكون خطرًا، ولا يمكننا أن نتصرّف بسذاجة. كلفة السذاجة قد تكون باهظة جدًّا.

– ما كانت العبارة التي اقتبسناها من الفتاة في قصّة «الوردة البيضاء»؟ سألتني عائشة وهي تأخذ يدي بيدها وتشدّ عليها. على أحد ما أن يبدأ؟ أنا لا أقلّ خوفًا عن الآخرين، ولست شجاعة، لكنّني أعرف أنّ علينا أن نتحرّك قبل أن تسوء الأمور أكثر. لعلّ الصيام خطوة صغيرة، لكنّها البداية.

اقترب سهيل حتّى بات بمواجهة كلتينا، ونظر في عيني عائشة وقال همسًا:

– أنت شجاعة. وبعد أن ابتسمت له عائشة برقّة تابع يقول لي: أنت على حقّ يا ليلى. علينا أن نقوم بهذا الأمر. الآن أكثر من أيّ وقت مضى. لا تفقدي إيمانك. لا تبدئي بالقبول بما هو قائم. كلّنا خائفون. الشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل القيام بما هو صواب برغم الخوف.

كنت أنظر إلى صديقيّ وأسمع كلماتهما وأعرف أنّهما على حقّ. من الصعب جدًّا على المرء أن يتصرّف حين يستبدّ به الرعب ويلازمه. هذا ما يعتمد عليه المدير. الرعب يقود إلى الصمت لا إلى الصراخ.

لكزت عائشة سهيل وقالت له:

– احفر، لئلّا يظنّوك تتآمر عليهم، أو ربّما أسوأ: تغازل فتاتين.

ابتسمتُ ابتسامة صغيرة ونظرت إلى الأسفل متظاهرة بالاهتمام بمجرفتي. ولاحظت بطرف عيني سهيل يبتسم لعائشة.

خطف صوت طائرة مسيّرة انتباه الجميع، وقبل أن تصل إلى فوقنا قال سهيل هامسًا:

– يوم الجمعة نصوم عن العشاء. الجميع هنا موافقون. سنقوم بذلك.

كان معدن الطائرة المسيّرة الأحمر يلمع في الشمس الساطعة. حميت عينيّ من الضوء ونظرت إلى تلك الجاسوسة الميكانيكيّة وكأنّ لها

عينين. كززتُ بأسناني ولجمتُ رغبتي في أن أقذف مجرفة في اتّجاهها. أبصر جايك نظرتي، وهزّ رأسه هزّة تكاد لا تُرى يثنيني عن ذلك. أجهل كيف يعرف ما أفكّر فيه، فحرّكت شفتيّ بكلمة «حسنًا» وعدت للعمل.

واصلنا العمل لساعتين في الحرّ والعرق، حتّى إنّنا وجدنا أوقاتًا للضحك. كان العمل شاقًّا لكنّني ألهيت نفسي بزرع البذور وبالحفر، حفرة تلو الأخرى. مع اقتراب الظهر، بدأ الجمع يتفرّق بحثًا عن الظلّ والطعام. لوّحت لي عائشة مودّعة وهي تسير في اتّجاه مربّع سهيل لتناول الغداء. دعتني للانضمام إليهما، لكنّني اعتذرت تاركة لهما أن يتمتّعا بما يشبه الخصوصيّة.

ألقيت أدواتي فوق الأدوات الأخرى، وملأت قنّينتي ماءً وشربت طويلًا. سرعان ما تكثّفت البرودة على بلاستيك القنّينة، فتحوّل التراب على يديّ إلى وحل. مسحتهما، الواحدة تلو الأخرى، على رقعة صغيرة من سروالي الجينز لم يطلها التراب.

– كانت أمّي تحبّ العمل في الحديقة.

أتى صوت جايك من خلفي. وفيما عدت لملء قنّينتي وهو يقترب منّي، سألته:

– كانت؟ ألم تعد تحبّ ذلك؟

– ماتت وكان لي من العمر اثنا عشر عامًا، قال جايك وهو يركل التراب بعقب حذائه. أتذكّرها دائمًا والتراب تحت أظافرها وعلى سروالها الجينز في شهور الصيف. خصّصت سروالًا للعمل في الحديقة. أقسم أنّ ركبتَي ذلك السروال كانتا مصنوعتين من رقع الوحل لا القماش. وعلت وجهه ابتسامة كئيبة.

– آسفة، قلت له.

– مضى على ذلك وقت طويل، قال وهو يرفع كتفيه. كان أخي يكبرني بسنوات كثيرة وقد غادر المنزل منذ زمن، فتدبّرنا أمرنا، والدي وأنا.

لم يكن جايك ينظر إليّ وهو يتكلّم، بل ركّز بصره على الجبال البعيدة. رأيت في عينيه النظرة نفسها التي رأيتها أمس حين استوقفنا المدير. كان يركّز، ولكن ليس على ما أمامه. كذلك أدركت أنّها المرّة الأولى التي يتكلّم فيها عن حياته الخاصّة كإنسان، لا كحارس، والمرّة الأولى التي أفكّر فيها أنّ له حياة خاصّة.

– لا بدّ من أنّ الأمر كان صعبًا، قلت له.

– كان أبي عسكريًّا أيضًا، كان جنديًّا في الجيش. أدار المنزل بدقّة وصرامة ووضع قواعد لكلّ شيء. أظنّ أنّ ذلك ما أنقذني، أعني الهيكليّة التنظيميّة. في الجيش، الجميع يقوم بوظيفته، في تنظيم دقيق، وهذا ما يبقي الجنود بأمان. أظهر أبي حبّه لنا عبر حمايتنا، كما أظنّ. لم يكن سخيًّا في المشاعر ولا في الكلمات، تلك كانت وظيفة أمّي، لكنّها لم تكن ليّنة جدًّا كذلك، قال جايك وهو يضحك ضحكة خفيفة.

لم يفصح عن مشاعره، لكنّ نظرة الألم في عينيه دلّت بوضوح على أنّه يفتقدها.

– ليس سهلًا أبدًا أن يخسر المرء شخصًا يحبّه، مهما كانت حياته منظّمة، قلتُ بصوت فوجئت بأنّه كان متهدّجًا قليلًا.

في النهاية، استدار جايك لينظر إليّ. كانت الابتسامة الحزينة عينها لم تفارق وجهه، لكنّ بعضًا منه ظلّ يركّز على شيء ما في البعيد.

كنت راقدة على سريري، والداي لم يعودا بعد من «العمل». سألتقيهما في قاعة الطعام لتناول العشاء. في العادة، أستفيد من الدقائق المخصّصة لحمّامي ليلًا قبل النوم، لكنّ جسدي كان يومذاك

مكسوًّا بملح عرقي الذي جفّ، وأحسست بالتعب في عظامي، فأردت أن أزيل ذلك بالماء. أغمضت عينيّ لبرهة وتخيّلت سريري الليّن والدافئ وغطاءه القديم. شعرت بأنّ ذلك السرير، وذلك المنزل، من حياة أخرى. وكأنّني شخص مختلف، وكأنّ لي ذكريات من حياة ليست لي.

سمعتُ طرقًا على الباب. قالت لي عائشة إنّها ستمرّ بي لتقصّ عليّ تفاصيل غدائها مع سهيل، وهي تفاصيل عذريّة على الأرجح. نزعت المنشفة التي كنت أغطّي بها رأسي، وتركت خصلات شعري المبلّلة تسقط على ظهري وأسرعت إلى الباب، ففتحته وأنا أقول:

– كيف حال سهـ...

مَن بالباب لم يكن عائشة، بل جايك.

– دعيني أدخل بسرعة، قال لي، ثمّ ظهر على وجهه ما يشبه التكشيرة.

تجمّدت لبرهة وأنا غير واثقة ممّا يعني هذا الأمر، وما سبب وجوده هنا. شعرت بأنّ قميصي يتشبّع ببلل شعري، فارتجفت قليلًا. نظرت إلى مربّعنا في الخارج، فلم أرَ أحدًا. ابتعدتُ قليلًا وتركته يدخل، وأنا أرجو من كلّ قلبي أن يكون قراري صائبًا.

وقفنا في الغرفة المشتركة الخاصّة بمقطورتي. وضعت يديّ في جيبيّ ورحت أتأرجح على عقبيّ منتظرة أن يقول جايك شيئًا ما. اقترب منّي جايك وابتسم ابتسامة زائفة عريضة واضعًا يده على كتفي، فأجفلت. نظر في عينيّ وهزّ رأسه قليلًا. لم يقل شيئًا لكنّه أشار إلى غرفة نومي وبدأ يسير نحوها. لم أتحرّك من مكاني فأشار إليّ بأن أتبعه. كانت تلك قفزة ثقة كبيرة، أرجو ألّا تكون قفزة إلى الهاوية.

قطعتُ أنفاسي ودخلت غرفة النوم. كانت كلمات سهيل المحذّرة تحوم في الهواء حولي: لا تثقي بأحد. لكنّني أثق بحدسي، وأرجو أن يكون حدسي على حقّ. أقفل جايك الباب خلفنا.

– والآن ماذا؟ قلت بصوت مرتفع أكثر من اللازم.

رفع جايك إصبعه إلى شفتيه واقترب منّي، وقال:

– لا كاميرات هنا، ولكن أبقي صوتك منخفضًا. آسف لهذا التصرّف الغامض، لكنّ غرف النوم هي الأمكنة الوحيدة التي لا تصلها الكاميرات والطائرات المسيّرة.

– لكنّهم رأوك بالكاميرا في الغرفة المشتركة تدخل غرفتي. أليس هذا مريبًا؟

– أن يدخل حارس غرفة نوم امرأة؟ لنقل إنّ هذا الأمر محتمل الحدوث، والمدير لا يبالي.

– يا للقباحة. هذا... أمر خطأ. إنّها علاقة بين حارس وسجينة. لا تستطيع السجينة القبول. هذا...

– هذا إكراه، اغتصاب. شخصيًّا لا أعرف حرّاسًا يقومون بذلك، لكنّ ثمّة أحاديث تُقال.

– جايك، لا يمكنك السماح بذلك، عليك أن...

– أعرف، وإن كان شيء ما من هذا القبيل يحدث فسأضع حدًّا له، قسمًا. والآن اسمعي. ما الذي كنتم تخطّطون له في الحديقة؟

– لا شي، قلت بعدم اكتراث.

من الواضح أنّه كان يعرف أمرًا ما، لكنّني غير متأكّدة ممّا إن كان عليّ أن أقول له شيئًا، ولا حتّى إن كان من حقي أن أفعل، فالأمر يتعلّق بأشخاص كثيرين غيري.

– أفهم سبب ارتيابك. هذا دليل ذكاء. إنّها غريزة البقاء.

زفر جايك زفرة مقتضبة، أتبعها بأخرى. وكأنّه كان يعدّها في ذهنه. ثمّ نزع قبّعته ومرّر يديه في شعره الأشقر القصير المبلّل بالعرق. وقال لي:

– اسمعي، المدير يتحدّث عن استقدام مزيد من الحرّاس إلى هنا. إنّه يشعر بالاضطراب في المخيّم، وبجوّ الاعتراض السائد. إنّه حاقد

ودنيء لكنّه ليس غبيًّا. أتتذكّرين تلك الشابّة الأميركيّة من أصل عربيّ التي جرّوها وذهبوا بها؟

انقبضت عضلاتي، وكوّرت يديّ لتصبحا قبضتين، وقلت لجايك:

– لها اسم، وهو نور.

– آسف. نعم، نور، قال جايك وهو يهزّ برأسه موافقًا. هل تعرفين أنّ حجابها كان على صورة العلم الأميركيّ؟

هززت رأسي موافقة.

– يبدو أنّه انتُزع خلال العراك، وقد عُثر عليه صباح اليوم على باب مبنى الإدارة ممزّقًا وملطّخًا بالدم، ومكتوبًا عليه بخطّ عريض أسود كلمة «مقاومة».

شعرت بنوع غريب من السعادة العارمة. لا أعلم ما حلّ بنور أو بالنساء الأخريات. حتّى إنّني أخشى التفكير في ذلك. ولكنّنا، أي عائشة وسهيل وأنا، لسنا وحدنا. لا، ليست السعادة ما يعتمر بداخلي، بل الأمل. فأجبته:

– مَن؟ كيف؟ مرافقوه الشخصيّون والحرّاس يحيطون بمبنى الإدارة والمركز.

– أعلم، تابع جايك يقول. يُفترض بذلك ألّا يكون ممكنًا. وهو يعرف ذلك أيضًا، ويخشى أن يكون الفاعل أحد الحرّاس.

– اللعنة! قلت وقد ارتخى فكّي.

– جنّ جنون المدير، تابع جايك. ومثلما حذّرك، فهو يريد مزيدًا من العيون في كلّ مكان. هو الآن يثق بي، و...

– يثق بك؟ هل يجب أن يُشعرني هذا الأمر بالارتياح؟

– نعم، يجب أن تشعري بالارتياح. اسمعي، قضيت وقتًا طويلًا للوصول إلى هنا، وقتًا طويلًا جدًّا. كما أخبرتك من قبل، كانت تربيتي عسكريّة، والأوامر مقدّسة في منزلي. لكنّني تلقّيت كذلك أوامر مضادّة.

بوجودي هنا ولقائك والآخرين، فهمت أخيرًا مهمّتي الحقيقيّة، وواجبي الذي أقسمت عليه بحماية هذا البلد من الأعداء الخارجيّين والداخليّين.

لم أفهم تمامًا ما كان يحاول قوله. وقد أدرك معنى نظرة الحيرة على وجهي.

– ليلى، أنا حارس تابع لهيئة الإبعاد، ولكنّ هذا ليس كلّ شيء. لقد قلت أكثر ممّا يجب أن أقول، وعرّضتك للخطر...

– ما معنى هذا؟ ولماذا، لماذا تجاريهم؟ سألته.

كانت أسئلة كثيرة تضجّ في رأسي، وشعرت بالارتباك وبالدوار.

تقدّم جايك خطوة، حتّى أصبح قريبًا جدًّا منّي، وقال لي بصوت فاجأتني رقّته:

– آسف، أكره أن أسير في الأمر لكنّني مضطرّ إلى ذلك الآن. كما أنّني آسف إذا كان شيء ممّا فعلته أو قد أفعله يسبّب لك الأذى. لا بدّ من أنّ المدير يثق بي، ولهذا يطلب منّي أن أراقبك عن كثب. يظنّ أنّي حزت ثقتك، وأنّي سأبلّغه بأيّ شيء مريب. يجب أن أجاريه في الوقت الراهن. إنّها الطريقة الوحيدة لأحافظ على سلامتك.

كان يكلّمني بصوت خافت، هو أقرب إلى الهمس، ووضع أصابعه برفق حول ذراعي. نظرت إلى يديه، فسحبهما بسرعة. أجفلت ولكنّني لم أشعر بالخوف.

– أنا قلقة على نفسي أيضًا، بل علينا جميعًا. تكاد لا تمرّ لحظة واحدة لا أشعر فيها بالخوف. لكنّني أرى حولي حريقًا مشتعلًا ولا يسعني الوقوف متفرّجة. يجب أن تفهم هذا. أليس ما تفعله خطرًا عليك أيضًا؟

– أنا أقوم بواجبي يا ليلى. واجبي الذي أقسمت عليه.

– أنا أيضًا أقوم بواجبي، أجبته بصوت حادّ جعلني أقشعرّ.

– أريدك أن تفهمي، قال لي جايك وهو ينظر إليّ بعينين رقيقتين. أتتذكّرين ما قاله المدير لك قبل أيّام؟ لن يقبل بأن يتلاعب به أحد. سيؤذيك، وقد لا أستطيع منعه. لا يمكنني...

قاطعته وقد اغرورقت عيناي بالدمع وقلت:

– أعرف أنّ المدير قادر على أن يفعل بنا أشياء بدون أن يعيرنا أحد انتباهًا أو يبالي بنا، ولكن إن لم نفعل شيئًا الآن، إن بقينا صامتين، فماذا سيحدث؟ إن كانوا سيخفون كلّ أثر لنا في أيّ حال، لا يمكننا السماح بذلك بدون مقاومة.

صوت تلك الكلمات، حين سمعته في ذهني، بدا لي جريئًا، لكنّها حين خرجت منّي بدت مُثقلة بالخوف.

فرك جايك جبينه وقال لي:

– كنت أخشى أن تقولي هذا. تذكّري، لست وحيدة، ففي الخارج اضطرابات، وأمام البيت الأبيض احتجاجات، والناس يرفعون الصوت. المدير يمنع عنك هذه الأخبار، وعن الجميع. لكنّ في الخارج ضجيجًا يزداد صخبًا.

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة صغيرة وقلت له:

– هذا سبب إضافيّ لكي ننتفض في الداخل. ثمّ تهدّج صوتي وسالت على خدّي دمعة، وتابعت همسًا: أشعر بالرعب.

شعرت بأنّني أعترف بما ليس عليّ الاعتراف به. لكنّني لا أعرف أن أتظاهر بالقوّة أو كيف أظلّ قويّة وأنا أشعر بهذا الكمّ من الخوف والوحدة والوحشة. رفعت بصري إلى جايك، إلى عينيه اللطيفتين والدافئتين.

تردّد جايك قبل أن يمدّ ذراعيه قليلًا. عانقته وطوّقني بذراعيه، فشعرت بالأمان. خامرني الشعور بأنّ ما أفعله غير صائب، لكنّني في تلك اللحظة الصغيرة كنت بحاجة إلى أن يواسيني إنسان، وهذا ما شعرت به

بين ذراعَي جايك. أردت أن أستمدّ من قوّته ما يعزّز قوّتي المهتزّة خوفًا ممّا يخبّئه المستقبل.

لكنّني مجدّدًا شعرت بأنّ هذا خطأ. ففتحتُ عينيّ وابتعدتُ بسرعة عن جايك، حتّى كدتُ أتعثّر بحذائي.

تراجع جايك، وعلى وجهه نظرة ارتباك، وقال لي:

– ليلى، أنا آسف جدًّا. لا أعرف ما دهاني.

لكنّني هززتُ رأسي وخرجت منّي الكلمات تلقائيًّا:

– هذا المكان هو السبب. أشعر بوحدة كبيرة وأشتاق إلى دايفيد كثيرًا. وكأنّني في سرداب له باب ينغلق عليّ شيئًا فشيئًا ولا يمكنني أن أبقيه مفتوحًا، ولا أحد يسمع صراخي.

نظرتُ إليه فرأيت رجلًا يكبرني ببضع سنوات، رجلًا كان من الممكن، في عالمٍ آخر، مختلف عمّا هو عليه الآن، أن ألتقيه في حرم الجامعة التي أرتادها، فيساعدني على اكتشاف مبانيها في الأسبوع الأوّل من السنة الأولى لدخولي إليها. رأيتُ رجلًا كان يمكن أن يكون طالب السنة الأخيرة الوسيم الذي يقدّم المشورة للطلّاب الجدد، أن يكون صديقًا يمكن الوثوق به. لكنّ ذاك العالم غير موجود. هذا الرجل حارس في مخيّم الاعتقال حيث أقبع. هذا هو الواقع. هذا حاضري، وأنا أبذل قصارى جهدي لئلّا يكون مستقبلي.

– لستِ وحيدة يا ليلى. سأفعل كلّ ما بوسعي لحمايتك. المدير يصدّقني وطلب منّي أن أفيده بنشاطاتك، لذلك سأبقى قريبًا منك، بقدر ما يمكنني ذلك.

تحرّكت شفتاي بكلمة «شكرًا» صامتة، ثمّ قلت:

– أنا أصدّقك، ونحن نخطّط...

– توقّفي. أعرف أنّني سألتك، ولكن لا تخبريني. إن لم أكن أعرف ما تنوونه فلن يمكنهم انتزاعه منّي مهما حاولوا.

– سياسة الإنكار المقبول؟ هذا يشبه أفلام الجاسوسيّة، قلت له وقد ارتسمت على فمي ابتسامة صغيرة. لكنّني كنت أدرك ما يعنيه.

إن كان المرء لا يعرف الحقيقة، فلا يمكن انتزاعها منه بالتعذيب.

الفصل 19

نادتني أمّي من خارج غرفة نومي وسألتني:

– ليلى، أتريدين أن تسيري معنا نحو المركز؟

لارتباكي، سقط الهاتف الذي أعطاني إيّاه دايفيد على الأرض. تبًّا.

– أنتِ بخير؟

– بخير، سقطت منّي فرشاة أسناني. سأسير معكما. انتظراني قليلًا، صحت وأنا آخذ الهاتف وأخبّئه بين فراشي والجدار.

لم أخبر جايك حتّى اليوم عن الهاتف. وكنت أخشى استعماله كثيرًا، ولا أستطيع رفع صوت رنينه أبدًا. حاولتُ الاحتفاظ بتلك الدقائق الثمينة للحالات الطارئة رغم أنّ الحياة كلّها هنا ليست سوى حالة طارئة كبرى. كنت أشعر بأنّ في الاتّصال خطرًا كبيرًا، لكنّني بعثتُ برسائل نصّية إلى دايفيد، وخطّطنا لكي نلتقي مجدّدًا. اليوم.

تحقّقتُ للمرّة المئة من جيبي الأماميّ حيث خبّأتُ مقالتي الثانية. كان قميص ويمبلدون الأخضر والبنفسجيّ الذي أرتديه يتدلّى فوق سروالي عند الخصر. حين خرجت من الغرفة رأيت والديّ يشربان الشاي جالسين إلى الطاولة الصغيرة المتاخمة لجدار المقطورة، تحت إحدى

النوافذ. كان غبار زجاج النافذة هذا الصباح يخفّف من سطوع أشعّة الضوء الداخلة إلى المقطورة، والتي تغمر هذا الطقس اليوميّ لوالديّ بوهج رقيق. كنت أراهما كلّ صباح وقد شاخا أكثر من اليوم السابق، وكأنّ النوم يستنزف منهما الحياة بدلًا من أن يجدّد طاقتهما. ربّما لأنّهما لم يكونا ينامان أبدًا. لكنّهما، وفي تلك اللحظة، ذكّراني بصورة قديمة في إطار فضّي مؤكسد كانت على طاولة التبرّج في غرفة نوم أمّي، التُقطت لهما وهما شابّان بعد فترة وجيزة من تعارفهما، قبل أن أولد. تقول أمّي إنّ صديقًا لهما التقطها حين زارا باريس، وكانا يجلسان في مقهى إلى طاولة خضراء مستديرة صغيرة، بالقرب من نافذة زجاجيّة. كان طلاء أظافر أمّي الأحمر يبرز بوضوح فوق فنجان القهوة القشديّ اللون الذي تحمله بيديها، وشعر والدي الأجعد يغطّي إحدى عينيه. كان أبي ينظر إليها وهي تنظر من النافذة، والضوء الرقيق ينسكب على وجهها. أدركت فجأة كم كانت تلك الصورة جميلة وكاملة، وأحسست بانقباض في حلقي.

اقتربت منهما وقبّلتُ كُلًّا منهما على خدّه. ابتسمت لي أمّي، وأخذ أبي يدي ثمّ أعطاني كتابًا ذا غلاف ورقيّ تبلّلت أطرافه وانثنت، وقال لي:

– عندي شيء لك.

– «الإقناع؟» سألته.

هزّ أبي رأسه علامة الموافقة، وقال:

– الاختيار في مكتبة المركز غير واسع، لكنّ فيها بعض الكتب القديمة والقيّمة. أظنّك ستحبّين هذه الرواية. ألا تظنّين أنّ الوقت حان لتعاودي الانتظام في دروسك؟

نظرت إلى أبي وأنا أعقد حاجبيّ. دروسي. نعم، هذا تحديدًا هو أكثر ما يقلقني هنا، والنجاح في امتحاناتي. لقد أنشأوا مدرسة للصغار

في المخيّم، ولكن لا وجود لثانويّة تقدّم شهادات تَخَرّج. كنت على وشك أن ألقي تعليقًا ساخرًا لكنّني امتنعت، وقلت:

– شكرًا يا أبي. أحببت كتاب «كبرياء وتحامل» وليس لديّ شكّ في أنّني سأحبّ هذا أيضًا.

– إنّه يروي قصّة شابّة تدعى آن إليوت، عصريّة جدًّا بطريقتها الخاصّة. ويتكلّم عن شخصيّات لا تجد نفسها لكنّها تظلّ صادقة مع حقيقتها. اعتُبرت هذه الرواية في الماضي محرّضة جدًّا في بعض النواحي، قال أبي وهو لا يفارق عينيّ بنظره، قبل أن يضيف بسرعة: طبعًا، كان هذا الأمر منذ وقت طويل، أمّا الآن فيمكنك الاستمتاع بها، وبعد ذلك سأطلب منك كتابة موضوع إنشائيّ عنها.

تردّد أبي في قول كلمة «محرّضة» وغيّر نبرة صوته. الكاميرات والعيون المصوّبة في اتّجاهنا على الدوام جعلتنا كلّنا بارعين في إخفاء الحقيقة، لكنّها أرغمتنا أيضًا على إيجاد طرق خلّاقة في التواصل. بتنا نكذب أكثر كي نعيش أكثر.

– شكرًا يا أبي، أنا متشوّقة لكتابة موضوع إنشائيّ عن الرواية، قلت بنبرة ربّما كانت حماسية على نحو مبالغ فيه.

خرجنا من الباب معًا. كانت أصابعي ترتجف، فقد استبدّت بي فكرة وجود الرسالة في جيبي، وكذلك إحساسي بالغثيان بسبب ما أخفيه عن والديّ وعائشة وجايك. من الأفضل لهم ألّا يعرفوا، فهذا سيساعدهم على إنكار معرفة الحقيقة على نحو يمكن تصديقه، أليس هذا ما اتّفقت وجايك عليه؟

سرتُ ووالديّ في طريق ميدواي. كانا يقابلان كلّ مَن نلتقي به بالسلام والابتسامة، فيردّ عليهما بالمثل، وكأنّها ابتسامات حقيقيّة. في منتصف الطريق انفصلتُ عن والديّ بحجّة أنّني أريد العودة لإحضار كتابي وقراءته في مكتبة المركز.

عدت أدراجي نحو مربّعنا، وأنا أنظر إلى الخلف كي أتأكّد من دخول والديّ إلى المركز. ثمّ عبرت المخيّم باتجاه المربّعات في الجهة المقابلة من ميدواي. كان الناس يخرجون من مقطوراتهم، ويسيرون إلى أعمالهم أو يأخذون صغارهم إلى أجدادهم لحضانتهم أو إلى المدرسة. كان البعض يحملون أكياس ملابس وسخة لغسلها، وآخرون يحملون صناديق فارغة لملئها بالأطعمة من منطقة التموين. لم أركض ولا حاولت أن أختبئ، بل سرت متيقّظة تحسّبًا لظهور الطائرات المسيّرة والحرّاس. سمعت صوت شاحنات النظافة وهي تدخل عبر البوّابة، ورأيت الرجال بملابسهم الكاكيّة يخرجون منها وينتشرون في المخيّم. لم أرَ دايفيد لكنّني كنت أعرف أنّه هنا. سرت إلى المدخل الجانبيّ لقاعة الطعام الذي يكون مفتوحًا عادة في ساعة رفع النفايات، وغير محروس. نظرت حولي بحذر، ثمّ دخلت.

بقبضتين مشدودتين وقلب خافق بشدّة، سرتُ على رؤوس أصابعي إلى المطبخ. كانت قاعة الطعام مظلمة بمعظمها ما خلا الأضواء على محيط جدرانها، والتي كانت تبعث أزيزًا إلكترونيًا خافتًا. حرصت على ألّا ألمس شيئًا في المطبخ، خشية إثارة الضجيج، خشية ما قد يحدث.

كان باب المخزن مواربًا، وانبعث ضوء من الداخل. حبست أنفاسي وتقدّمت بحذر. ما إن وضعت يدي على إطار الباب حتّى امتدّت يد من الداخل أمسكت بيدي وسحبتني نحوها.

استسلمت لعناق دايفيد الذي قبّلني برقّة وشغف جعلاني أشعر برغبة في البكاء. على رغم خوفي من إخفاء ذلك الهاتف بين فراشي والجدار، حمدت الله على أنّه أتاح لي عيش هذه اللحظة في مخزن الطعام. راح دايفيد يداعب عنقي بطرف أنفه وهو يقول لي:

- اشتقتُ إليك، ثمّ تراجع وقال: يجب أن أريك شيئًا.

مدّ يده إلى جيب لباسه الكاكيّ وأخرج الهاتف وجعلني أنظر إلى شاشته. كانت تحمل عنوانًا بالأحرف العريضة يقول «فاشية في موبيوس: أحد المعتقلين يفضح كلّ شيء».

– نشروا الخبر وأنا في طريقي إلى هنا، قال لي دايفيد همسًا، بثّ تلفزيون كالا تي.في القصّة وقرأوا مقالك على الهواء. وقالت المراسلة إنّها تتوقّع أن يكون له دويّ الانفجار، ولعلّ هذا ما جرى. العالم كلّه سيعرفك، أو على الأقلّ سيعرف كلماتك. لقد نجحت يا ليلى. أنتِ مدهشة.

لم أعد أصغي إلى كلمات دايفيد، فقد تسمّرت عيناي على شاشة الهاتف. قرأت العنوان من جديد، فأصابني الذهول. رحت أقرأ الكلمات، كلماتي أنا، فعدت إلى ذلك المكان، إلى تلك اللحظة، وسمعت صراخ نور، ورأيت الحرّاس يقتادونها ويقتادون معها أسماء وبلقيس اللتين حاولتا مساعدتها. رأيت الأرض وقد تلطّخت بدمائهنّ. والمدير، والمسدّس. ترقرقت الدموع في عينيّ، وقلت هامسة:

– العالم كلّه سيعرف أسماءهنّ.

مسح دايفيد الدموع عن خدّيّ، ثمّ قبّلهما، وقال:

– نعم، الجميع سيعرف أسماءهنّ، بفضلك.

– وبفضلك أنت، قلت له.

مرّرت أصابعي في شعر دايفيد، كان مبلّلًا بالعرق. إنّه دائمًا إلى جانبي، بالمعنى الحرفيّ للتعبير. ها هو ذا الآن، إلى جانبي، ولكن في تلك اللحظة النادرة، التي تمرّ ببطء، كنت أعرف أنّ بيننا مسافة صغيرة، مسافة لا أعرف كيف أملأها. لم أكن أعلم ما هي. ربّما سببها الخلاف الذي جرى بيننا حين تسلّل إلى هنا للمرّة الأولى، أو ربّما السياج الكهربائيّ الذي يبدو أنّه يفصل بيننا حتّى وأنا بين ذراعيه. أجهل ما هو السبب بالتحديد، لكنّني أشعر بأنّه مروّع. حاولت أن أبعد ذلك الشعور لأنّني لا أريده أن يخامرني. إنّه يقوم بمجازفة هائلة ليراني، ليساعدني. أريد

أن يكون كلّ شيء كما كان. أتحرّق لأعيش مجدّدًا لحظة من الـ«ما قبل» مع دايفيد. رائحة صابونه بعطر النعناع، دفء ذراعيه، تشابُك أصابعنا الذي يُظهر أنّ بشرتي وبشرته شبه متطابقتين في سمرتهما، والأحاسيس المألوفة للمرء في منزله. في تلك اللحظة، كنت بأمسّ الحاجة إلى ذلك. كنت أحاول التمسّك بتلك الأحاسيس مع إدراكي التامّ أنّها خارج متناولي، برغم وجود دايفيد إلى جانبي. قبّلته ثمّ أخذت يده وأعطيته مقالة أخرى كتبتها بحرف صغيرة.

– سنضرب عن الطعام غدًا، قلت له همسًا.

– أنا خائف عليكِ.

– أنا أيضًا خائفة. خائفة علينا كلّنا، لكنّ جايك متيقّظ.

– أعرف أنّه ساعدنا، قال دايفيد وهو يبتعد عنّي قليلًا، ولكن هل أنت متأكّدة من أنّك تستطيعين الوثوق به؟ ومن أنّه لا يقوم بخدعة؟

– أنا أثق به. لكنّي أفهم شعورك هذا. لا يمكنني أن أقول أكثر. بل إنّني لا أعرف أكثر. لكن... تسنّت له مئة فرصة ليسلّمني إلى المدير، ولم يفعل. إنّه في صفّنا.

– لا يمكنني الوثوق بمَن يحمل سلاحًا يمكنه تصويبه نحوك، قال دايفيد وهو يهزّ رأسه. وعليك أيضًا ألّا تثقي به.

أخذت نفسًا عميقًا، وقلت:

– لن يُلحق الأذى بأحد، وهو بالتأكيد لن يلحق بي أيّ أذى. صدّقني.

نظر إليّ دايفيد رافعًا أحد حاجبيه ومتسائلًا:

– هل من أمر آخر يجب أن أعرفه؟ ماذا تقولين؟

كانت المسافة التي أتخيّل وجودها بيننا تتّسع، شيئًا فشيئًا.

– لا، الأمر ليس كذلك. صدّقني أرجوك. أنا أحبّك. كما أنّ الغيرة لا تناسبك.

شعرت بأنّ قلبي بين فكّي ملزمة. لعلّ دايفيد أيضًا يشعر قليلًا بتلك المسافة الفاصلة بيننا.

صُفق الباب بقوّة فأجفل كلانا.

– اخرجا في الحال. أعرف أنّكما هنا.

دوّى صوت جايك في أرجاء قاعة الطعام، ثمّ سمعنا صوت خطواته الثقيلة وهو يدخل المطبخ. مددت يدي إلى قبضة الباب، لكنّ دايفيد لامس يدي وهزّ رأسه يثنيني عن ذلك.

غير أنّ ذلك كان بلا جدوى، فجايك فتح باب المخزن على وسعه. كان فكّه منقبضًا، وملامح وجهه قاسية وجامدة وتشي بالغضب الشديد. في تلك اللحظة عاد عريفًا بكلّ ما للكلمة من معنى.

– كان هذا عملًا أحمق، قال هامسًا ولكن بصوت مضطرب. إنّه يعلم. ثمّ التفت إليّ وسألني: هل تحملين مقالة أخرى؟

فتحت فمي لكنّني تردّدت في الإجابة.

– لا وقت لدينا. سيصل إلى هنا بين دقيقة وأخرى. يجب أن تعطيني المقالة.

مددت يدي إلى جيب دايفيد وأخرجت الورقة وعليها كتابتي وأعطيتها لجايك الذي سارع إلى إخفائها في جزمته. نظر إليّ دايفيد والصدمة قد تركت فمه مفتوحًا.

انفتح باب قاعة الطعام بقوّة وأضيئت كلّ الأنوار. سار المدير إلى المطبخ يرافقه اثنان من حرّاسه الشخصيّين. لم يكونا عسكريّين ولا من هيئة الإبعاد. إنّهما الرجلان اللذان اقتادا نور. الحرّاس الشخصيّون غير ملزمين بقسم اليمين على احترام الدستور، وهم لا يدينون بالولاء إلّا للمدير.

– أحسنت أيّها العريف رينولدز. اقبض على الآنسة أمين، قال المدير والبصاق يتطاير من فمه.

اشتدّ احمرار وجه المدير حتّى تحوّل إلى قرمزيّ، وانتفخت شرايين عنقه فبدت كأسلاك مشدودة. انقبضت عضلاتي كلّها، وبات تنفّسي يُسمع كصوت صرير وكأنّ القاعة خلت من الهواء. كلّما شعرت بالخوف في هذا المكان ظننت أنّني بلغت أقصى درجات الرعب، ولكنّني في كلّ مرّة، في كلّ مرّة، أكتشف أنّ ثمّة درجة أعلى من الخوف لم أكن أعلم بوجودها.

كان جايك يقف أمامنا، فاستدار ونظر إليّ نظرة تعمّد أن يجعلها رقيقة لجزء من الثانية، ثمّ أمسك بي من ذراعي. نقّلت نظراتي المذعورة بين المدير ومرافقيه وجايك ودايفيد. اندفعت مبتعدة عن جايك، وطوّقت بذراعيّ عنق دايفيد وهمست له:

– هاتفك. إنستغرام. حالًا.

غير أنّ جايك سحبني وفي عينيه نظرة صدمة.

– أنا المخطئة. أنا المخطئة في كلّ شيء. دايفيد لم يفعل شيئًا، قلت وأنا أعلم بأنّ ما أقوله لا جدوى منه.

فرك المدير يديه وكأنّه يغسلهما، وقال:

– نشكر لك هذا الاعتراف، آنسة أمين، لكنّني أعتقد أنّ اللوم يطال الكثيرين. لا تقلقي، كلّ المتورّطين في هذا الأمر سيواجهون العواقب.

كاد وجه المدير يشعّ فرحًا. لكنّ ذلك لم يجعلني أرتجف خوفًا. لقد تجاوزت الخوف البسيط بأشواط. أشعر الآن بدبيب نمل فوق جسدي كلّه، وكأنّني أعرف أنّني في كابوس، وأحاول أن أنزع النمل عن جسدي بأظافري لكنّني أجرح نفسي ليس أكثر.

مع ذلك خرجت منّي بعض الكلمات، فقلت:

– دايفيد ليس من معتقلي المخيّم. لديه حقوق مدنيّة. دولة القانون لا تزال موجودة.

كان جايك يمسك بمرفقي، فشدّ برفق يحذّرني من أنّني أحفر لنفسي حفرة أعمق. لكن كان عليّ أن أقول شيئًا ما. دايفيد أتى إلى هنا بسببي، لأنّني طلبت منه القدوم، ولأنّني كنت بحاجة إليه. لكنّه سيتعرّض للأذى الآن لأنّني حمقاء أنانيّة.

– أنا القانون، صرخ المدير.

ثمّ أشار إلى مرافقيه، فأخذني أحدهم من جايك، ودفعني بعنف إلى باب الثلّاجة.

– لا! صرخت.

حدث الأمر بسرعة. قبل أن أدرك ما يحدث اصطدم خدّي بالمعدن الصلب والبارد، ثمّ تشوّشت الأصوات وأشكال الأجساد حولي، وسمعت جايك يصيح قائلًا إنّني قاصر.

وقف دايفيد أمام المدير، وبطرف عيني لمحته يرتجف. قال له:

– لا شكّ عندي في أنّ العالم مهتمّ بمعرفة كيف أنّك القانون الآن، وكيف تؤذي الأطفال هنا. الأطفال! وأضاف وهو يحمل الكاميرا ويصوّر: أنا أنقل ما يجري مباشرة عبر إنستغرام. هذه ليلى أمين، مواطنة أميركيّة من كاليفورنيا.

رأيت دايفيد ينظر إليّ وهو يقترب منّي ومن الرجل الذي لا يزال يثبّتني إلى الثلّاجة.

شدّ المدير ياقة قميصه وقد بات وجهه بلون الدم. وكان صوت أنفاسه ينبعث صاخبًا من منخريه حتّى إنّني توقّعت أن أراه ينفث نارًا.

تقدّم جايك وأزاح مرافق المدير عنّي، ثمّ أبعدني برفق عن الثلّاجة ووضع يده على ظهري فيما واصل دايفيد التصوير. ثمّ تكلّم جايك بصوت هادئ ومتّزن، فقال:

– آسف بشأن... وتريّث قليلًا لينظر إلى المدير ثمّ تابع: ... هذا الحادث يا آنسة أمين. لا شكّ عندي في أنّ المدير يريدك أن تخضعي

للمعاينة الطبيّة في المستوصف. قواعد هيئة الإبعاد واضحة بشأن معاملة القاصرين في موبيوس.

ابتعد المدير عنّا قليلًا ليقف في ظلّ رفّ كبير من المؤن، ثمّ قال:

– نعم، نريد الحرص على أنّ الآنسة أمين لم تتعرّض للأذى بسبب سوء التفاهم الصغير هذا. نحاول فقط معرفة مَن ينشر الأكاذيب المتعلّقة بموبيوس. ثمّ أخرج لوحة إلكترونيّة من جيب سترته وقال لي: آنسة أمين، لا شكّ عندي في أنّ بوسعك أن تؤكّدي لجمهور حبيبك أنّ تلك المزاعم خاطئة.

استدرت لأنظر في عيني المدير. كنت أحسّ بوخز واحتراق في خدّي الأيسر. كوّرتُ يديّ على شكل قبضتين وقلت:

– لا يمكنني أن أفعل هذا أيّها المدير.

اقترب المدير منّي، لكنّ جايك وقف بيننا قائلًا:

– لا شكّ عندي في أنّ الآنسة أمين لا تستطيع التعليق لأنّها لم تطّلع على ما قيل يا سيّدي.

ضاقت عينا المدير، وانتفخت عضلات عنقه كثيرًا وامتقع لونه بشدّة لدرجة أنّني لم أعد متأكّدة إن كان يستطيع التنفّس. لم أعد متأكّدة من أنّني أنا أستطيع التنفّس. وقال لجايك:

– أيّها العريف، أرجو منك مرافقة... ثمّ تنحنح وأضاف: ... ضيفنا إلى خارج المخيّم، وإيصال الآنسة أمين إلى المستوصف، حيث ستحظى برعاية ممتازة بدون أيّ شكّ.

واصل دايفيد التصوير فيما خرج المدير ومرافقوه.

ما إن أُغلق الباب حتّى وضع دايفيد الهاتف من يده. أظنّه كان يروي ما يحدث طوال مدّة التصوير لكنّني لم أسمع غير صوت الدم يتدفّق في أذنيّ. ثمّ خررتُ على ركبتيّ ورفعت يديّ إلى وجهي وأجهشت بالبكاء.

ركع دايفيد بالقرب منّي وربّت ظهري وسألني:

– ليلى، هل أنت بخير؟ أنا آسف جدًا، ليتني استطعت أن أفعل شيئًا.

رفعت عينيّ لأنظر إلى عينيه فرأيتهما غارقتين في الدمع. وحين حاولت أن أمسح وجهي بكمّي أجفلت، فقد أحسست بأنّ خدّي تورّم.

– بل فعلت، قلت لدايفيد، لم يكن بوسعك أن تفعل أكثر من هذا، وقبّلته على خدّه.

اقترب جايك منّا وساعدني على الوقوف، وكذلك وقف دايفيد.

– يكفي ما فعلتَه يا دايفيد، قال له جايك.

التفتّ إلى جايك، وأنا أشعر بالصدمة من قسوته بعد ما كاد يحدث، بل بعد ما حدث فعلًا، فقلت:

– جايك...

– هل تدرك ما فعلت؟ قاطعني جايك موجّهًا كلامه إلى دايفيد، أنت في الخارج وهي هنا. لعلّك تظنّ نفسك ذكيًا، أو تعتقد أنك حقّقت شيئًا ما. لكنّك في النهاية تستطيع الخروج من هنا، أمّا هي فلا. وماذا فعلتَ؟ أعطيتَها هاتفًا لتحتفظ به في مقطورتها؟ ثمّ أضاف متوجّهًا بكلامه إليّ: الهاتف الذي سأصادره بالمناسبة. من الآن فصاعدًا ستكون التدابير الأمنيّة مشدّدة جدًّا. هذا المكان سيصبح شبيهًا بمبنى الخزانة الأميركيّة.

بدا دايفيد كمن تلقّى لكمة شديدة في بطنه. أبعد عينيه عن جايك ونظر إليّ. الكلمة الوحيدة التي خطرت بذهني لأصفه كانت «منهار». فيما راح جايك يتكلّم كنت أراقب وجه دايفيد، واستطعت أن أشعر بكلّ ما مرّ في ذهنه، من الغضب إلى الخوف فالحزن، وأخيرًا الرعب. أعرف، لأنّ ذلك ما شعرت به أيضًا.

هزّ جايك رأسه وقال:

– علينا أن نخرجكما من هنا حالًا.

سرنا نحو البوّابة الرئيسيّة، وجايك يسير بيننا كالبالغ الذي يتولّى مرافقة المراهقين. لم يكن بوسعي أن أمسك يد دايفيد أو أن أقبّله مودّعة. مع كلّ خطوة كان الواقع يتّضح أكثر. دايفيد لن يستطيع العودة إلى هنا أبدًا، حتّى لو كان جايك مستعدًّا لمساعدتنا، ومن الواضح أنّه لن يكون كذلك.

شعرت بالعجز التامّ حين وقفنا أمام البوّابة الرئيسيّة. التفت دايفيد نحوي وتمتم كلمة «أحبّك»، وحين حاول الاقتراب أكثر وقف جايك بيننا.

ابتلع دايفيد ريقه ثمّ مدّ يده مصافحًا جايك، وقال له بصوت واهن:

– أرجو منك الحفاظ على سلامتها.

صافح جايك دايفيد ثمّ نادى حارسًا آخر، وهمس شيئًا ما في أذنه فهزّ الحارس رأسه موافقًا.

وقفت ودايفيد يحملق كلّ منّا بالآخر. أعرف أنّ شعوره في تلك اللحظة كان يشبه شعوري، وهو اليقين بالعجز التامّ.

أشار الحارس الآخر إلى دايفيد بأن يتبعه، ففعل. لكنّه سار المسافة كلّها التي تفصل بينه وبين البوّابة وهو يلتفت إلى الوراء مبتسمًا لي نصف ابتسامة، وكأنّه يريد أن تكون الأمور على ما يُرام. سحبني جايك وسار بي نحو المستوصف. كان قلبي يرغب في أن أقاومه لكنّ جسدي كان عاجزًا عن ذلك. لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن. فوجّهت إلى دايفيد نظرة لهفة أخيرة.

– هل سيكون بخير؟ سألت.

– نعم، أجاب جايك متنهّدًا. فريد سيقوده إلى البلدة ويحرص على إيصاله إلى الفندق بأمان. سيطلب منه فريد أيضًا أن ينشر ذلك الفيديو على أوسع نطاق ممكن. سيستشيط المدير غضبًا. وكأنّ قيام دايفيد

بالبثّ المباشر لما جرى لا يكفي، ليأتي نشر الفيديو في العالم كلّه... وبعد المنشور الذي كتبتِه... لهذا فإنّ ما قمت به كان حماقة.

– أعلم.

– عرّضت نفسك وأصدقاءك ووالديك للخطر.

– أعلم.

– ولا يمكنني أن أكون هنا دائمًا لحمايتك...

– جايك، قلت له بصوت أعلى ممّا كنت أنوي، أعلم. لقد ارتكبنا حماقة كبرى، لم أفكّر في النتائج. أعرف أنّك قد تتعرّض للخطر أيضًا.

تراخت كتفا جايك وقال لي برقّة:

– ليلى، لست قلقًا على نفسي. حتى إنّ المدير يظنّ أنني وصلت إليك أوّلًا فقط كي أسلّمك. كما أنّني أنقذت موقفه في الداخل، وقد تزداد ثقته بي، لكن مجرّد تخيّل ما يمكن أن يفعله بك...

ولامس جايك مرفقي.

لعلّه لم يكن الوقت المناسب لطرح السؤال، ولكن أيّ وقت آخر هو مناسب؟ فسألته:

– ماذا ستفعل بالمقالة التي كتبتها؟

– لا تقلقي، سأوصلها إلى الخارج. بعد قصّة اليوم ستتهافت كلّ محطّات التلفزة والمدوّنات طمعًا بالمزيد. كنتِ على حق. يجب أن يعرف العالم ما يحدث هنا. يجب أن يعرف حقائق التعذيب في مواقع العمليات السرّية واختفاء المواطنين.

وضعت يدي على ذراع جايك، التي توتّرت عضلاتها.

– كن حذرًا يا جايك.

– لا تقلقي عليّ. أنا من يحمل المسدّس، أتتذكّرين؟

– وماذا يُفترض بي أن أفعل؟

– اسمعي، سيزورنا فريق من الصليب الأحمر غدًا. المدير متوتّر ويريد أن تكون الزيارة ناجحة. موقعه لا يسمح بأن يبدو كأنّه لا يسيطر على الأمور. تسرّب المعلومات هنا سيعرّضه لمساءلة شديدة من القيادة العليا. لذلك ستكونين بخير في الوقت الراهن، ولكن بعد ذلك، حسنًا... سأفكّر في شيء ما، قال جايك بابتسامة شاحبة تفتقر إلى الحماسة.

لم أصدّق كلماته، وأظنّه هو نفسه لم يكن يصدّقها.

الفصل 20

وقفت أمام باب مقطورتي وأنا أضغط كيس الثلج على خدّي.

أغمضت عينيّ. كان ذهني يعمل بلا توقّف وشعرت بأنّني أترنّح وبأنّ قوّة الجاذبيّة ستزداد ثلاثة أضعاف بين دقيقة وأخرى وتسحقني كعبوة صودا فارغة. أردت أن أكون حيث أفتح عينيّ على الشاطئ، وأن أسير في المحيط الهادئ حتّى يبلغ الماء عنقي، وتتأرجح الأمواج على كتفيّ. أردت أن أتنفّس الهواء المالح وأترك الماء يزيل الغبار عن جسدي ويغسل الخوف عن روحي. أردت أن أحسّ بماء البحر يخزني في عينيّ وأن تحملني الأمواج وتعبر بي الزمن إلى حياة أخرى. هل ذلك ممكن؟ هل يمكنني أن أخترق نسيج الزمان والمكان وأتوارى بعيدًا عن موبيوس؟ فتحت عينيّ. يبدو أنّ تَحَقُّق الأمنيات لا يحدث إلّا في قصص الخيال، فيما الواقع يحيط بي من كلّ جانب.

شعرت بوخز في خدّي. لا يمكنني إخفاء الأمر عن والديّ. قد لا تصلهما أخبار شهرتي على إنستغرام في الحال، لأنّ المعلومات تستغرق وقتًا لتصل من الخارج إلينا؛ لكنّهما في النهاية سيعرفان. كيف أخبرهما أنّني جازفت بحياتهما لكي أقبّل حبيبي؟ كيف أخبرهما أنّني كاتبة

المقالة التي ربّما تنتشر الآن على نطاق واسع جدًّا؟ هذا المخيّم سجن بحدّ ذاته، ولكن بعد أن يعلم والداي ما فعلت، لن يسمحا لي بالخروج من هذه المقطورة التي تثير رهاب الاحتجاز.

دخلت وقد صمّمت على ألّا أقول لهما الحقيقة عالمة بأنّ كذبتي الآن، اليوم، قد تكون في مصلحتنا كلّنا. ما إن أغلقت الباب خلفي حتّى دوّى جرس إنذار في المخيّم كلّه جعلني أجفل. ثمّ سُمع صوت إعلان عبر مكبّرات الصوت تردّد صداه في الوادي كلّه، يقول: «عودوا إلى مقطوراتكم السكنيّة في الحال، وانتظروا التعليمات عبر وحدات الإعلام الخاصّة بكلّ مقطورة». نظرتُ من النافذة فرأيت أشخاصًا يسرعون عائدين إلى مقطوراتهم. ثمّ وصل والداي مقطوعَي الأنفاس. نظرت إلى شعر والدتي الأشعث وإلى النظرة المضطربة في عينَي أبي. بسببي أنا ستسوء الأمور بالنسبة إلى والديّ.

– عدنا مسرعين من المركز.

قال أبي ذلك وهو يسير إلى مجلى المطبخ حيث صبّ كوب ماء لأمّي وآخر له. استند كلاهما إلى نضد المطبخ الصغير وشربا مليًّا. ثمّ نظرا إلى خدّي الأحمر والمتورّم.

– ربّاه، قالت أميّ وهي تقترب منّي وترفع برفق كيس الثلج عن خدّي لتلقي نظرة، وسألتني: ماذا حدث يا بيتا؟ هل ألحق بك أحدهم الأذى؟

– لا، أنا بخير. تعثّرت على درجات المقطورة حين عدت لآخذ كتابي، وصدمت وجهي بالباب، كم أنا...

في تلك اللحظة أضيئت شاشة التلفزيون، ليملأها وجه المدير الغاضب وهو يقول:

– مخيّمنا تعرّض للخيانة. وأحدهم سرّب أكاذيب عن الحياة هنا في موبيوس، وهذه الأضاليل تثير اضطرابات في الخارج. سوف نجد الفاعل، لا تشكّوا في الأمر. وحتّى ذلك الحين سأعتبر كلّ نزلاء المخيّم مسؤولين.

انقبض فكّي، وتصاعد الغضب في داخلي. المدير يريد إخضاع الناس بالتخويف، وسينجح في ذلك لأنّ ملامح الكراهية تزداد وضوحًا على وجهه بينما يغيب عنه ما يدّعيه من لياقة. هذا الأمر جيّد، وهو يسرّني. سقط القناع، وكذلك القفّازان، وسأشحذ من غضبي عزمًا مضاعفًا. تابع المدير يقول:

– عليكم يا مواطنينا في موبيوس أن تنبذوا ذلك الشخص الذي يبثّ الخوف والذي تعمّد تعكير الهدوء في مخيّمنا الهادئ والمسالم. أبقوا عيونكم مفتوحة كي تلاحظوا أيّ شيء مريب. إذا رأيتم شيئًا بلّغوا عنه. المشرفون عنكم بتصرّفكم ليل نهار، والذين يتعاونون معنا سيجدون بانتظارهم مكافأة قيّمة. كما أعلنت في الأسبوع الماضي، سنستضيف غدًا أصدقاءنا من الصليب الأحمر، وسوف نريهم كم نحن فخورون بهذا المجتمع الذي بنيناه هنا في موبيوس. سنريهم حدائقنا وملاعبنا الترفيهيّة وعيادتنا ومدرسة الصغار. سنريهم الفوائد العديدة لمخيّمنا الرائع. سيتناولون العشاء معنا في قاعة الطعام، وسنلتزم بالأنظمة. تريّث المدير قليلًا ليبتسم للكاميرا ابتسامة هي في الواقع أقرب إلى زمجرة تحدٍّ، ليستأنف قائلًا: لا تنسوا: وحدة. أمن. ازدهار.

أقسم أنّني رأيت في عينيه ألسنة من النيران.

بعد ذلك انطفأت شاشة التلفزيون.

نظرت إلى وجهَي والديّ فرأيتهما بلون الرماد.

– مَن قد يفعل شيئًا كهذا؟ قالت أمّي متسائلة بصوت مرتفع. وكيف؟ هذه حماقة كبيرة. إنّهم يعرّضون الجميع للخطر.

ثمّ ألقت رأسها على كتف أبي.

– ربّما لا نعرف القصّة كاملة، قلت.

رفعت أمّي رأسها وحدّقت فيّ، وكأنّها تتفحّص وجهي للمرّة الأولى. انتظرت أن تقول لي إنّه ما من عذر يبرّر تعريض المخيّم كلّه للخطر، وإنّ

علينا جميعًا أن نحاول التأقلم مع الحياة هنا كيفما أمكننا ذلك، وأن نلتزم بالقواعد. منذ اللحظة الأولى التي أتينا فيها إلى هنا، كان والداي حذرين جدًّا من وجود الكاميرا في الغرفة المشتركة بمقطورتنا السكنيّة، والتي تسجّل كلّ ثانية من ثواني حياتنا، ولا تفسح مجالًا للحظة واحدة من الشعور بالارتياح أو بالاسترخاء. وهذا الأمر ينخر الإنسان في الصميم.

– أنت على حقّ يا بيتا.

لم أصدّق ما أسمع، لكنّني سمعته.

– لقد عرّضونا للخطر، تابعت أمّي تقول، لكنّنا في خطر دائم في كلّ حال. التقدّم في هذا البلد ينطوي دائمًا على خطر ما. كلّ الحركات عرفت ذلك: الحقوق المدنيّة، المساواة في الزواج، حقوق النساء...

أخذ أبي يد أمّي وشدّ عليها، وهزّ رأسه بحركة طفيفة تكاد لا تُرى لثنيها عن متابعة الحديث. ثمّ نظر إلى الكاميرا نظرة خاطفة، وعاد ليلتفت إلى أمّي. كانت عيناه المحتقنتان بالدم جاحظتين خوفًا. قبّلته أمّي على خدّه. الاختلاف بين والديّ يبدو كبيرًا في أكثر من جانب، لكنّهما يملكان وسيلة تواصل حميمة خاصّة بهما – بحركة، أو نظرة، أو نبرة صوت – أحسدهما عليها. أتساءل إن كنت سأتشاطر هذا الأمر مع أحدهم يومًا ما، إن كنت سأجد حقًّا شخصًا يفهمني بطريقة مختلفة عن الآخرين. أنا أحبّ دايفيد كثيرًا، ولكنّ بيننا هوّة كبيرة في الوقت الراهن.

مدّت أمّي يدها نحوي حتّى باتت تمسك يدَي كلينا معًا، وهمست:

– سنكون على ما يُرام.

أردت كثيرًا أن أصدّقها. وأنا أكيدة من أنّها تريد أن تصدّق نفسها أيضًا. ولعلّها تفعل ذلك، لعلّها أقوى إيمانًا منّي. لا شكّ في أنّ أبي يصدّقها.

شعرت ببعض الارتياح لوجودي مع والديّ. مجرّد سماعي أمّي تتلفّظ بتلك الكلمات خفّف من وطأة الشعور بأنّ هذه المقطورة مكان احتجاز انفراديّ. لكنّني لم أكن مستعدّة لتعريض حياتهما للخطر. لن أخبر

والديّ أبدًا أنّني الفاعلة، وأنّني ودايفيد مَن أثرنا هذه الاضطرابات، وأنّ جايك يساعدنا، وأنّ هذه ليست سوى البداية، وأنّ رضّة خدّي ليست سوى غيض من فيض ما يستطيع المدير القيام به. سيحاول والداي أن يمنعاني إن عرفا. عملهما أن يحمياني، أفهم ذلك. لكنّ لديّ عملًا أقوم به أيضًا، برغم الخوف الطالع من أحشائي والذي يكاد يفجّر كلّ خليّة في جسدي. لذلك، لا أيّها المدير، لن ألتزم بالقواعد.

مرّ العشاء بهدوء. لم يكن أحد في مزاجٍ يسمح له بالكلام إثر تهديدات المدير بعد الظهر. رحّب المشرفون بالجميع بنبرة البهجة الكاذبة التي اعتدناها، متظاهرين بأنّ كلّ شيء طبيعيّ. تبادلنا، عائشة وسهيل وأنا وسائر البساتنة والمتآمرين، إشارات خفيفة برؤوسنا. لقد قرّرنا أن نعلن الصيام غدًا، يوم زيارة فريق الصليب الأحمر، ليكون له وقع كبير، ولتحقيق أفضل نتيجة. لكنني مع انتشار مقالتي زدتُ حجم المخاطر كثيرًا. هل من المعقول أن يشعر المرء بدوار البحر في وسط الصحراء؟ لأنّ هذا ما أشعر به الآن، ولا بدّ من أنّ تعابير وجهي تشي بذلك. همس لي سهيل حين مرّ بجانبي:

– أحسنتِ عملًا. كلي الآن. بدأ الجدّ.

هززت رأسي، وحاولت المحافظة على شجاعتي. لقد أراد سهيل أن يطمئنني بكلماته، لكنّني لا أظنّ أنّ ثمّة كلمات قادرة على شدّ عزيمتي حاليًّا.

سار الناس بصمت وسط الغبار عائدين إلى مقطوراتهم. برغم أنّنا في مخيّم مفتوح، فقد كنّا نتنفّس هواءً مثقلًا بالخوف والقلق. كسائر الموجودين هنا، كنت أتساءل عمّا يخبّئه الغد. الأمل. الخوف. الترقّب.

كلّف المشرفون كلًّا منّا بعمل معيّن خلال زيارة فريق الصليب الأحمر، وذكّرونا بالمكافآت التي سيغدقها علينا المدير إذا انقضت الزيارة بدون متاعب. لن نعرف أبدًا ما ستكون تلك المكافآت المثيرة

للشفقة. سيشعر البعض بالغضب، فالبعض معتاد على القبول بالفتات. لكنّ المكافأة الوحيدة التي نريدها هي الحرّية. مع أنّ الحريّة ليست مكافأة بالمعنى الحرفيّ بالنسبة إلى مَن وُلد حرًّا لكنّ لصًّا تسلّل إلى منزله ليلًا وسرقها منه. الحريّة حقٌّ لنا، ونريد استعادة هذا الحقّ.

كانت عضلات جسدي كلّها مشدودة كرباط مطّاطيّ يوشك أن ينقطع.

دخلت مقطورتنا وتوجّهت توًّا إلى الحمّام، وتركت الماء يغسل الغبار وما عانيته اليوم من توتّر وألم. نظرت إلى الماء الموحل يدور قبل أن يغيب في ثقب التصريف. تنفّست بارتياح للمرّة الأولى. رنّ جرس المؤقّت. توقّف الماء. طبعًا سيتوقّف.

كان والداي يشاهدان أحد البرامج التلفزيونيّة المسموح بها محاولين الهروب إلى عالم آخر. تمنّيت لهما ليلة طيّبة ودخلت غرفتي، ثمّ رقدتُ في سريري ورفعت الأغطية حتّى عنقي. غاص جسدي في الفراش وأغمضت جفوني. كان نومي عميقًا وخاليًا من الأحلام، لكنّ كابوسًا أيقظني مذعورة فجأة. تجنّبت في اللحظة الأخيرة أن أصدم رأسي بالسرير الأعلى. لا أتذكّر الكابوس تمامًا، لكنّ كلّ ما في هذا المكان يشكّل مادّة خصبة للكوابيس.

غادرت السرير واتّجهت إلى النافذة الصغيرة في غرفتي. كانت السماء صافية ومرصّعة بالنجوم، وبدت أطياف الجبال في ضوء القمر. المكان هنا جميل، لكنّ الجمال كلّه على الناحية الأخرى من السياج، ولا يمكن الوصول إليه، تمامًا كحرّيتنا. قريبة جدًّا وبعيدة جدًّا في آن واحد. تساءلت عمّا إن كنت سأنظر إلى الجبال أو إلى السماء المرصّعة بالنجوم بطريقة مختلفة حين نخرج من هنا، هذا إذا خرجنا من هنا. هل ستعكّر جمالها ذكريات موبيوس دائمًا؟ هل سيزول الجمال بالنسبة إليّ؟

التفكير في الغد أثار خوفي. الصيام، الاحتجاج. نظرت شرقًا إلى ما بعد الجبال. عاد إلى ذهني صوت مربّيتي وصلاة أُخرى كانت تتلوها لي، وهي صلاة علّمتها إيّاها مربّيتها، وقد تلتها مرّات كثيرة خلال تقسيم الهند حين كانت خائفة من العصابات والرعب الذي خلّفه البريطانيّون بعد رحيلهم. تقول الصلاة «اللهمّ اكفِنيهم بما شئت».

احمنا يا ربّ.

الفصل 21

بـوم. بـوم. بـوم. استيقظت على قـرع صاخب، وسمعت صوتًا يزعق عبر الباب:

– انهضي. إنّهم هنا.

شعرتُ بقلبي يقفز خارج صدري. بدا لي أنّ القرع مصدره رأسي. نظرت حولي ورأيت نور الشمس يسطع عبر الستائر. ثمّ أدرك عقلي المترنّح أين أنا.

قفزت بسرعة وصدمت رأسي بإطار السرير الأعلى. نسبة أن أصدم رأسي بالسرير حين أستيقظ صباحًا خمسون بالمئة. فركت مكان الصدمة في جمجمتي، ثمّ سألتها:

– عائشة؟ مَن هنا؟

– سأدخل.

اقتحمت عائشة الباب فيما كنت أقف وأفرك عينيّ لطرد النعاس منهما، فيما بدت هي في ذروة اليقظة، فامتعضتُ لذلك. قالت لي:

– أسرعي. هاكِ، ارتدي هذه الملابس. وناولتني قميصي الرماديّ الـذي يحمل رسـم وونـدر وومـان وسـروال جينز، ثمّ تابعت تقول وأنا أرتديها: يوجد أشخاص وصحافيّون ومحتجّون. خارج البوّابة.

– ماذا؟ ظننتك عنيت فريق الصليب الأحمر.

– إنّهم هنا أيضًا.

تساءلتُ عمّا إن كان دايفيد بين المحتجّين. لا بدّ من أنّه عاد، لا شكّ في أنّه لن يتخلّى عن هذا الاحتجاج. أمسكت بفرشاة أسناني التي وضعت عليها عائشة معجونًا، وسألتها وأنا أفرك أسناني:

– ما عددهم؟

– لا أعلم، ولكن لنذهب.

اعتمرت قبّعة بايسبول ومرّرت شعري عبر ثقبها الخلفيّ، وأسرعت خارجة مع عائشة. كان والداي قد ذهبا للقيام بالأعمال التي أوكِلا بها لهذا اليوم، ليسا هنا كي يحاولا منعي، أقلّه في الوقت الراهن. جرينا عبر طريق ميدواي، وتجاوزنا المركز لنتوقّف فجأة. رأينا خلف السياج مئات من المحتجّين وقد حمل بعضهم لافتات كُتب عليها: «حرّروا معتقلي موبيوس»، «لا كراهية في الولايات المتحدة»، «أميركا عظيمة»، «أميركا تحتضن الجميع»، ووقف رجال الشرطة في خطّ يفصل بين المحتجّين والحواجز البلاستيكيّة البرتقاليّة التي وُضعت خلال الليل أمام السياج المكهرب. لعلهم قاموا بذلك تحسّبًا لاحتمال ألّا يقرأ المحتجّون اللافتات البيضاء الكبيرة التي تحمل تحذير «خطر». وقفت في طريق المخيّم ستّ شاحنات أخبار بيضاء مقفلة، ورأينا المراسلين يستعدّون مع أفراد طواقم التصوير ببدء بالبثّ المباشر. قاومت رغبتي في البكاء. لم أجرؤ على أن أتوقّع شيئًا، لكنّني شعرت بالأمل. كذلك أحسست بالدوار كما يحدث حين يمضي وقت لا آكل فيه. ذكّرني هذا الدوار بأنّني جائعة. ثمّ رأيت دايفيد واقفًا يهتف مع المحتجّين «لا سلام بدون عدالة».

رأيته رافعًا قبضته وقد بعثر الهواء شعره البنّي. كان يرتدي قميص ويلكو كالذي أملكه تمامًا. وكان وسيمًا.

– دايفيد! صرخت وأنا أركض نحو السياج.

أردته أن يراني، وأن يعرف أنّني بخير، ومستعدّة. كان صفّ من حرّاس هيئة الإبعاد يقف بيني وبين الحاجز المكهرب.

– دايفيد!

ناديته من جديد وأنا أقفز مرّة تلو المرّة لأستطيع أن أراه فوق أكتاف الحرّاس الذين يقفون في طريقي، وأفراد الشرطة الذين يمنعونه من الاقتراب. أمعنت النظر وسط نور الشمس الساطع ورحت أسترق النظر بين الحرّاس لأرى دايفيد يبتسم بجنون ويلوّح لي، وحبيبات العرق تبرق على بشرته السمراء. لم يسمح له أفراد الشرطة بالاقتراب لأنّهم كانوا يحاولون إبعاد المحتجّين عن السياج. لكنّ كلًّا منّا كان يرى الآخر. أرسلت له في الهواء قبلة، فتمتم بكلمة «أحبّك» قبل أن يعيده الحشد المتدافع إلى الخلف.

تقدّمت قافلة صغيرة وتوقّفت عند بوّابة موبيوس ليتحقّق الحراس من الهويّات ويقوموا بتفتيش السيّارات. وفي أثناء ذلك سار المدير وسط الحشد الذي تجمّع بداخل المخيّم، راسمًا على وجهه ابتسامة مزيّفة كبيرة. تساءلت إن كان يستطيع أن يخدع أحدًا بها، أو نفسه حتّى.

– حسنًا، ينتظرنا يوم عمل حافل. حان الوقت لتتفرّقوا، إلى العمل. هذا صباح جميل.

كان المدير يتكلّم عبر مكبّر للصوت حتّى يُسمع ما يقوله وسط هتافات المحتجّين، الذين تجاهل وجودهم، ولم ينظر إليهم حتّى. بدا كأنّه ينظر من خلالهم، وكأنّ عقله لا يعي وجودهم. فُتحت البوّابة وسُمح لعربات الصليب الأحمر بالدخول، فيما منع أفراد الشرطة المحتجّين من الاقتراب.

حاولت أن أرى دايفيد من جديد، لكنّني أضعته.

– هيّا بنا، قال جايك وهو يبعدني عن خطّ حرّاس هيئة الإبعاد، يجب أن نخلي المنطقة.

كثيرون منّا أبوا أن يغادروا المكان، فتعامل الحرّاس معنا بلطافة غير معهودة وهم يحاولون حثّ الجميع على القيام بالأعمال الموكلة إليهم أو العودة إلى المقطورات. ربّما كانت هذه أفضل فرصة لأكلّم جايك، فاقتربت منه وسألته:

– كيف حدث هذا الأمر؟ متى؟ مَن؟ كيف؟

– لم ينقطع وصول السيّارات إلى هنا طوال الليل وراح الناس يتجمّعون. مقالتك عمّا يجري انتشرت انتشارًا واسعًا، وكذلك الفيديو القصير الذي بُثّ مباشرة عبر إنستغرام. عرضته كلّ محطّات الأخبار الكبرى فاشتعلت وسائل التواصل الاجتماعي. كان الناس يحاولون أصلًا أن يتجمّعوا لرفع أصواتهم، لكنّ كلماتك، كلماتك أنت، كانت المحرّك الحقيقيّ. نظّم ائتلاف مجموعات المقاومة المعروف باسم «احتلال موبيوس» احتجاجًا. كذلك جرى تداول الهاشتاغ الخاصّ بهم بكثرة. إنّهم يستغلّون ثغرة قانونيّة. الأرض الواقعة ضمن السياج تابعة لسلطة وزارة الحرب، لكنّ هذه المنطقة هي في كاليفورنيا، وحاكم ولاية كاليفورنيا لا يحبّ الرئيس ولا سياساته العنصريّة.

كنت أسمع كلمات جايك وأرى المحتجّين. وارتسمت على فمي ابتسامة. لا كتلك الابتسامة الاعتياديّة التي أعتمدها هنا، أي ابتسامة الأدب الجوفاء التي نتبادلها كلّنا والتي تقول: «جاروا الواقع، أبقوا رؤوسكم منخفضة، تظاهروا بما ليس حقيقيًّا». بل ابتسامة حقيقيّة، تلك الابتسامة التي تنير الجسد من الداخل، وتؤلم الخدّين. الابتسامة التي تذكّرني بأنّني حيّة.

كان اليوم مخططًا له تخطيطًا دقيقًا. وقفت أتفرّج على الحرّاس يبعدون المعتقلين، وعلى المشرفين يقودوننا إلى ما كُلّفنا به من أعمال. لم يُرد المدير المجازفة في خلال زيارة فريق الصليب الأحمر. ومع وجود الصحافيين والمحتجّين هنا أيضًا، تخيّلت الغضب المشتعل والمستتر خلف ابتسامته الزائفة. أرجو أن يحرقه هذا الغضب من الداخل.

كان من السهل التعرّف إلى أفراد فريق الصليب الأحمر، بقمصانهم البيضاء التي تحمل رسم الصليب الأحمر الكبير الذي يعرفه العالم كلّه. قادتهم مجموعة من المشرفين المتبسّمين إلى المركز، حيث تبدأ زيارتهم الرسميّة. تساءلت عمّا إن كان الخونة كلّهم يشعرون بمثل هذا الارتياح. سيمضي أفراد الصليب الأحمر يومًا في موبيوس، ويزورون العيادة والحديقة والملعب، ويشاهدون أداءً للنشيد الوطنيّ الأميركيّ أعدّه معلّمو أطفال المخيّم، كما سيجولون على المربّع الأوّل الذي تمّ تنظيفه وإعداده بصورة خاصّة من أجل الزيارة. وبعد ذلك سيتناولون العشاء مع الجميع في قاعة الطعام. وسيرافقهم المدير طوال اليوم، مبتسمًا ومرحّبًا بحرارة، ومتظاهرًا بأنّنا نعيش في المخيّم حياة نُحسد عليها، تتجاوز الشروط الإنسانيّة البسيطة بأشواط.

يا لها من دعابة هائلة.

سمعت قصّة زيارة فريق الصليب الأحمر لمخيّم الاعتقال النازيّ «النموذجي»، تريزينشتات، حين زرت متحف الهولوكوست في واشنطن العاصمة مع والديّ. كان السجناء في ذلك المخيّم يتمتّعون بامتيازات خاصّة، فلم تُحلق شعور رؤوسهم، وسُمح لهم بارتداء ملابس عاديّة، حتّى إنّهم كانوا يتقاضون «أجورًا» مقابل العمل الشاقّ الذي يقومون به، ويستطيعون إنفاق ذلك المال الزائف في مقهىً ومتاجر توفير أنشأها النازيّون في المخيّم. كما أقيمت صفوف دراسيّة وحدائق للأطفال. وحين ذهب فريق الصليب الأحمر لزيارة ذلك المخيّم، أرغم

الأطفال على تقديم عرض موسيقيّ. كانت تلك خدعة مثيرة للاشمئزاز، وقد صدّق الفريق الدعاية النازيّة. ونجح المخيّم في زيارة التفتيش تلك نجاحًا باهرًا. ولكن بعد ذلك أُرسل كثيرون من سجنائه إلى أوشفيتز أو إلى مخيّمات إبادة أخرى، ومعظمهم قُتل.

إن كانت منظمة الصليب الأحمر اعتبرت مخيّمات الاعتقال النازيّة جيّدة، فلا شكّ في أنّها سترى في هذا المكان المدينة الفاضلة.

حدّقت في المحتجّين لعلّي أرى دايفيد مرّة جديدة، لكنّ بصري لم يتجاوز السياج. ولم أرَ شيئًا بين خطّ حرّاس الإبعاد في الداخل وخطّ رجال الشرطة في الخارج. لكنّني سمعت أصوات المحتجّين تهتف: «الشعب المتّحد لا يُهزم أبدًا».

لحق جايك بي وبعائشة لمرافقتنا إلى مربّعنا، لكنّني وعائشة لم ننوِ العودة إلى مقطورتينا. كنّا ننوي اللقاء بسهيل وناديا ونديم في حديقة الصخور. كان انتباه المدير ينصبّ على مكان آخر، وقد صمتت الطائرات المسيّرة عن الهدير لإضفاء مزيد من الراحة على زيارة فريق الصليب الأحمر، لذلك اعتبرناها لحظة مناسبة نادرة علينا استغلالها.

– يمكننا متابعة طريقنا بمفردنا من هنا يا جايك، قلت له متوقّعة أن يسير عائدًا إلى مركزه.

– ستلتقيان الآخرين، أليس كذلك؟ سأرافقكما، قال جايك.

نظرت إليه عائشة وسألته:

– كيف عرفت؟ قرّرنا ذلك وتواصل واحدنا بالآخر قبل ما لا يزيد على ثلاثين دقيقة.

– سمعت سهيل يقول ذلك لأحد أصدقائه فيما كان الجمع يتفرّق. أنتم غير حذرين بالقدر الكافي، وترتكبون هفوات كبيرة. لن ينتهي الأمر على خير. صدّقاني.

نظرت كلّ منّا إلى الأخرى، ورفعت عائشة كتفيها وقالت:

– في أيّ حال، أظنّه يعرف كلّ شيء.

حين شاهدنا سهيل نحن الثلاثة نصل إلى الحديقة، ربّت كتف نديم وقال شيئًا لناديا، فالتفتا إلينا.

– لا بأس. لا خوف منه، قلت لهم.

– أجهل ما تعنين، قال سهيل وهو ينظر إلينا. ظننتنا سنقضي الوقت معًا، ولم أدرك أنّنا سنفعل ذلك تحت الحراسة المسلّحة.

وضعت عائشة يدها على ذراع سهيل وقالت له:

– لا بأس. إنّه يعلم.

استدار سهيل ورمى حجرًا، ثمّ راح يتفرّج عليه يتدحرج في الطريق مثيرًا خلفه الغبار إلى أن توقّف. وقال لنا:

– ماذا دهاكما؟ إنّه العدوّ. إنّه حارس، إيّاكما أن تفكّرا لبرهة واحدة أنّه لن يطلق علينا النار إذا ما أُمر بذلك.

– لن أفعل ذلك أبدًا، ولو أُمرت. أعدكم بذلك، كما لم آتِ للقبض عليكم، بل لمساعدتكم، قال جايك.

– لماذا علينا أن نصدّقك؟

كان سهيل يشكّك في جايك، ويجب عليه ذلك. إنّه ذكيّ.

– لأنّه يقول الحقيقة، أجبت سهيل. وقد أنقذنا، دايفيد وأنا. كما أنّه أخذ مقالة أخرى كتبتها وأخفاها لئلّا يجدها المدير معنا، وأعطاها للمدوّنة الإلكترونية. لقد جازف بنفسه من أجلنا. بلى، نستطيع أن نثق به.

– انتشرت المقالتان من داخل موبيوس على نطاق واسع، وكذلك الفيديو الذي تظهر فيه ليلى مع المدير، قال جايك. كلّ وسائل الإعلام نشرت ذلك. كما أنّ مجموعة أنونيموس أرسلوا إنذارًا إلى الإدارة يهدّدونها بكشف أسرار كلّ مواقعها الإلكترونيّة إن لم تقفل المخيّم. حتّى إنّ هناك موقعًا إلكترونيًا بعنوان «احتلال موبيوس» يغطّي الاحتجاجات

ويدعو يوميًّا إلى التحرّك، كما أنّهم يعدّون لبثّ صوتيّ رقميّ بعنوان «صوت الاعتراض».

عانقتني عائشة وقالت لي هامسة:

– أنتِ فعلتِ هذا.

– لست وحدي، بل كلّنا، قلت لها.

– تدمير مخيّم يتطلّب قرية بكاملها، قالت لي ليلى وهي تغمزني، فيما ابتسم لها سهيل.

– حسنًا، قال هذا الأخير، سأجاريكم في الأمر لكنّني أعلن تحفّظي عليه.

– ولكن، أضافت ناديا، ما الذي يمنعه من الوشاية بنا كلّنا لإنقاذ نفسه إذا ما واجه خطرًا؟

– ما الذي يمنع أيًّا منّا من فعل ذلك؟ سألتُها، نحن غير مدرّبين على تحمّل التعذيب.

– أنا لن أشي بأحد، قال سهيل، مهما فعلوا بي.

وضع نديم، وهو يكبر سهيل بسنتين، ويلعب كرة القدم مع الأطفال في ميدواي، يده على كتف سهيل وقال له:

– اسمع، أنت أخي وأنا أصدّق أنّ هذه نيّتك. ولكن التعذيب؟ لا. لا أحد منّا يستطيع مقاومة أيّ تعذيب جديّ. ألم تقرأ ما فعلوه بأولئك الرجال في غوانتانامو؟

– لن أشي بأيٍّ منكم. كما أنّني خضعت لتدريب «مبهم».

نظرنا كلّنا إليه، أمّا أنا فقد رفعت كفيّ وقلت له:

– لا أظنّ أنّ أيًّا منّا يعرف ما معنى ذلك.

– إنّه اختصار لكلمات: «مراوغة، بقاء، هروب، مقاومة». كان جايك يتوقف بين الكلمة والأخرى، وتخيّلته يصيح بتلك الكلمات حين يستجيب لأمر عسكريّ ما.

– أهذا يعني أنّك تستطيع أن تقاوم التعذيب؟ سألته ناديا وهي تكتف ذراعيها.

– لا ضمانة لذلك. «مبهم» ليس سوى تدريب. لا شكّ في أنّني أتحمّل درجة معيّنة من القسوة. لكلّ إنسان عتبة انكسار، لكنّني أعدكم بأنّني سأقاوم.

نظرت في عيني جايك وأدركت أنّه جادّ في ما يقول. إنّه مؤمن بما يقول، وذلك يسرّني. عليه أن يؤمن به. ولكن حتّى هو لا يمكنه أن يتوقّع ما قد يحدث، أو ما يمكن أن يعترف به إذا ساءت الأمور كثيرًا، ولا ما يمكنه أن يقاسيه. البشر قادرون على أمور رائعة كثيرة، ولكن لا حدود للفظائع التي يستطيع بعضنا أن يُلحقها ببعض. أحسست بالانقباض. بصراحة، لا أحبّ التفكير في التعذيب. الكلمة وحدها تجعلني أشعر بالغثيان، وإذا تركت العنان لمخيّلتي، أخشى أن يعوقني ذلك عن القيام بما يجب عليَّ القيام به.

– هذا رائع يا رجل، قال سهيل بصوت مضطرب، لكنّك سرت في خطّتهم منذ البداية، وكنتَ على متن القطار الذي أتى بنا إلى هنا. ليس الأمر وكأنّك حاولت نسف السكّة الحديديّة.

– الأمر ليس كذلك يا سهيل، قلت.

– لا، قاطعني جايك. إنّه على حقّ، الأمر كما يصفه تمامًا، ونظر في عيني سهيل ثمّ أضاف: أعرف لماذا لا تثق بي. وارتيابك علامة ذكاء. معظم أفراد وحدتي تحوّلوا إلى حرّاس تابعين لهيئة الإبعاد. كنت أتبع الأوامر، وأنفذ ما يُطلب منّي. الأوامر هي كلّ ما أعرف. لكنّني نسيت لفترة طويلة واجبي الذي أقسمت عليه نحو أميركا والأميركيّين. وأنا آسف. لديّ الآن أوامر جديدة تناقض الأوامر غير الشرعية التي أقيم هذا المخيّم على أساسها. لم أعد خاضعًا للمدير. لكنّ المدير يثق بي.

لقد سلّحنا أصحاب البشرة البيضاء في هذا البلد، فلماذا لا أستغلّ ذلك لمصلحتكم الآن؟

– شكرًا، سيّدي العريف رينولدز، قالت عائشة.

– لا حاجة إلى شكري. لستُ أنا الشخص الشجاع.

هزّ سهيل رأسه لجايك وقال له:

– أنت على حقّ، وأنا لا أشكرك.

– أظنّنا بتنا نعرف موقف كلٍّ منّا، قلت، هل نحن جاهزون لهذا المساء؟

– جاهزون، قال سهيل. ثمّ سأل نديم: كم شخصًا أحصيت آخر مرّة؟

– خمسة وعشرون، أجاب نديم، وكلّهم يعرفون ما عليهم القيام به: أن يجلسوا إلى الطاولة الأولى وأمامهم صوانٍ فارغة. لا طعام، ولا ماء. العدد كافٍ للفت الانتباه.

– ما رأيك يا جايك؟ ماذا سيفعل المدير؟ سألته.

– يصعب معرفة ذلك. سيستشيط غضبًا، ولكنّ السؤال هو هل سيلجأ إلى الشدّة بحضور فريق الصليب الأحمر. معهم مراسلان، وأشكّ في أنه يرغب بأن تتناوله الصحافة بالسوء أكثر ممّا فعلت. ولكن حين ينصرف الزوّار، آنذاك ستصبح الأمور بشعة. سيعرف مَن أنتم، وأنكم كنتم تتآمرون، ولن تكون ردّة فعله بسيطة. ما دام الصحافيّون والمحتجّون في الخارج، فسيكون لديكم بعض الحماية، لكنّهم في النهاية سيرحلون.

– لا يمكننا تركهم يرحلون، قالت عائشة. كيف نحملهم على البقاء؟

– جايك، إذا كتبت مقالة أخرى، أيمكنك إيصالها إلى الخارج؟ أيمكنك مغادرة المخيّم وأنت تحملها؟ سألته.

– هذا سهل، قال جايك وهو يهزّ رأسه موافقًا.

– لنفعل هذا، قلت وأنا أحاول التظاهر بالحزم. إلى اللقاء في قاعة الطعام مساء اليوم. وحتّى ذلك الحين، لا تلفتوا الانتباه إليكم.

تركت عائشة مع سهيل ونديم ونادیا، وأسرعت عائدة إلى مقطورتي السكنيّة مع جايك. حين وصلنا، دخلنا توًّا إلى غرفتي وأغلقنا الباب. أخرجت أوراقًا وكتبت بعض الفقرات عن الصيام الذي نخطّط لتنفيذه هذا المساء. كتبت كذلك عن زيارة فريق الصليب الأحمر وعن الإعلان المحمّل بالتهديدات، والإعداد الدقيق للزيارة التي يُراد منها إبراز موبيوس بصفته مخيّمًا يصلح ليكون نموذجًا لكلّ المخيّمات في المستقبل. جاءت كتابتي على عجل وبدون تنقيح، لكنّ الوقت كان ينفد منّا، لذلك اعتبرت أنّها تفي بالمطلوب. أعطيت جايك الرسالة وقلت له:

– شكرًا على هذا، وعلى المجازفة التي تقوم بها. أنا آسفة إن كان هذا الأمر يعرّضك للخطر. هل مساعدتنا في داخل المخيّم جزء من الأوامر الخاصّة الموجّهة إليك؟

– أتتذكّرين حين قلت لك إنّ الناس لا يستطيعون إرغامك على قول الحقيقة حين لا تعرفينها؟ الأفضل عدم الإفصاح. بادرني جايك بابتسامة حزينة ودسّ الرسالة في جيبه، وقال لي: سأوصل هذه الرسالة إلى مَن يجب إيصالها إليه في أسرع وقت.

فتح الباب وخرج. نظرت إليه يبتعد، ثمّ أغلقت باب غرفة نومي، وذهبت لأستلقي على سريري والأفكار تعصف بذهني.

الخطر يحيط بالجميع على الدوام. المدير يطلب الولاء ممّن يحيطون به. ماذا سيفعل المدير بجايك إذا ضبطه ومعه رسالتي؟ لقد أصبحت أعتمد على جايك. لا أتخيّل مواصلة الأمر بدونه. وعائشة وسهيل؟ ونادیا؟ ونديم؟ والآخرون؟ حالما نلفت الانتباه إلى أنفسنا، لن يعود لدينا مهرب نلجأ إليه. سيعرف المدير هويّاتنا، وستنفتح علينا أبواب الجحيم.

ألقيت خدّي على وسادتي وفكّرت في دايفيد. ذكراه أعادت الدفء إلى جسدي. إنّه خارج سياج المخيّم ولا يستطيعون الوصول إليه. هل

يبقيه هذا بمأمن؟ قد لا أستطيع أن أكون بين ذراعيه بعد اليوم أبدًا. لكنّه هنا، قريب منّي. وفي الوقت الحاضر، هذا كافٍ.

كانت مشاعري تتخبّط بين جدران مخيّم الاعتقال هذا. أمسكت بمعدتي بكلّ قوّتي وأغمضت عينيّ، وتمنّيت أن يزول كلّ شيء. أوقفت التفكير التلقائيّ، والتدفّق اللاإراديّ لأسوأ السيناريوهات. لا وقت لذلك، كما أنّ مشاعري نحو دايفيد وتعاطفي مع جايك لا أهمّية لها في الوقت الراهن. يجب أن أستمرّ في سرد قصّتنا على العالم حتّى يسمعها الجميع. لا يجوز أن يلهيني شيء عن ذلك.

الصيام هذا المساء.

قد يتعرّض أشخاص للأذى.

وأحد هؤلاء الأشخاص قد يكون أنا.

الفصل 22

منذ أن عاد والداي إلى المقطورة من «عمليهما» بعد ظهر اليوم، بدا عليهما الانشراح على نحو مقلق. كانت زيارة فريق الصليب الأحمر قد رفعت من معنوياتهما، ولم أشأ أن أكدّر عليهما انشراحهما قبل الأوان.

جلسنا على الأريكة المكسوّة بالفينيل في الغرفة المشتركة الخاصّة بمقطورتنا، وانشغلت أمّي بإعادة ترتيب شعرها المعقود بشكل كعكة، فيما كان أبي يغسل الفناجين في المجلى. ثمّ قالت لي:

– كلّمت إحدى المساعدات العاملات في العيادة لبضع دقائق، وأخبرتني أنّ الناس يفكّرون فينا، ويعرفون أنّنا لسنا أعداء أميركا، ولا غرباء، بل نحن جزء من هذه البلاد أيضًا.

– هذا رائع يا أمّي، قلت لها سعيدة بأنّها تبدو أقلّ اكتئابًا ممّا كانت عليه في الأسابيع القليلة الماضية. كان صعبًا جدًّا عليّ أن أرى حيويتها تذوي، لكنّني خشيت ألّا يطول عمر سعادتها. تخيّلت الرعب الذي سيشعر به والداي حين أجلس مع الآخرين ساعة العشاء، وأرفض أن آكل، معلنة احتجاجًا صامتًا أمام المدير وفريق الصليب الأحمر.

– نعم، وأعتقد أنّ أفراد فريق الصليب الأحمر سيجلسون إلى طاولاتنا هذا المساء. من الجيّد أن نسمع بعض الأخبار من الخارج، أضاف والدي وهو ينهي غسل الأطباق ويجفّف يديه.

– بما أنّ المدير يسمح لنا باختيار طاولاتنا هذا المساء، سأجلس مع عائشة وبعض الرفاق الآخرين.

– هذا رائع يا عزيزتي، قالت أمّي وهي تربّت شعري، أنا مسرورة جدًّا لأنّك وجدت لك أصدقاء هنا. من الجيّد أن يحسن المرء الاستفادة من أيّ وضع.

لا أريد الاستفادة من الوضع. وأكره أن يكون عليّ وعلى والديّ التمثيل في هذه المقطورة، وهو مكان يُفترض به أن يكون خاصًّا. ما يجري يشبه أحد برامج تلفزيون الواقع، مُعَدّ لإسعاد المدير. لكنّ بعضنا سيخرج عن السيناريو هذا المساء.

خرجت ووالديّ من المقطورة واتّجهنا كسائر المعتقلين إلى قاعة الطعام. حين دخلنا، رأيت بعض مراقبي الصليب الأحمر يدردشون مع مجموعات صغيرة من المعتقلين، والبعض الآخر مع المدير. رأيت أنّ سهيل ونديم قد جلسا وعائشة إلى الطاولة الأولى، فقبّلت كلًّا من والديّ على خدّه، وانضممت إلى أصدقائي.

شدّت عائشة على يدي تحت الطاولة حين جلست بجانبها، وسألتني:

– أنت مستعدّة؟

– على الأرجح لا، لكنّنا سنقوم بهذا الأمر، قلت وأنا أشدّ بدوري على يدها.

ما هي إلّا دقائق حتّى امتلأت الطاولات، وسار المدير بخطواته الثقيلة إلى صدر القاعة بالبزّة الغامقة اللون عينها التي ارتداها في الاجتماع التوجيهيّ. تساءلت عمّا إن كانت تلك الابتسامة التي لم يمحُها

منذ الصباح تُشعره بألم في وجهه. لعلّ الابتسامة مزيّفة، لكنّ عينيه لا تشيان إلّا بالاعتداد بالنفس وبأنّه يصدّق أنّ وحشيّته مبرّرة. لبث المدير منتظرًا الصمت التامّ، كعادته دائمًا، قبل أن يبدأ بكلمته:

– باسم مخيّم موبيوس، أريد أن أشكر فريق الصليب الأحمر والصحافيّين الذين انضمّوا إلينا في هذه الزيارة الرائعة اليوم. لقد استطاعوا أن يروا أنّنا بنينا هنا مجتمعًا مسالمًا يضجّ بالحياة. نحن نجسّد الوحدة، والأمن، والازدهار. والآن، أدعوكم إلى الاستمتاع بعشائكم، أنتم بين أصدقائكم. سينادي المشرفون على الطاولات بأرقامها.

انتظرنا بصبر أن نسمع رقم طاولتنا. انتظم الآخرون في صفٍّ وساروا إلى موائد الطعام، يملأون أطباقهم، ويدردشون مع أفراد الصليب الأحمر الذين يشاركونهم طاولاتهم. حين نادى أحد المشرفين على الجالسين إلى الطاولة 1 ليتّجهوا إلى صفّ الطعام، لم يتحرّك أيّ منّا. كان فمي جافًّا كنشارة الخشب، حتّى إنّني أحسستُ بمذاقها أيضًا، وبدأت أفرك مؤخّرة عنقي.

مدّ المشرف عنقه الهزيل باتّجاهنا وحملق بنا ثمّ نادى «الطاولة 1» من جديد، بصوت أعلى. وحين لم يتحرّك أيّ منّا، سار بسرعة نحونا، ومال باتّجاهنا وقال هامسًا بغضب:

– ناديت طاولتكم. قفوا وتوجّهوا لأخذ طعامكم.

تبادلنا نظرات عدم الارتياح، لكنّنا لبثنا في أماكننا، ولم نبالِ به. وساورتني مشاعر قويّة من الفخر والذعر في الوقت عينه.

مضى المشرف إلى المدير، الذي كان يتكلّم مع رئيس فريق الصليب الأحمر. استأذنه المدير واقترب من طاولتنا. لم تفارق الابتسامة وجهه، لكنّ بقع الغضب الحمراء انتقلت من عنقه إلى وجهه، وخاطبنا ببطء، متوقّفًا بعد كلّ كلمة:

– الطاولة 1، خذوا وجبات طعامكم.

آنذاك كان الجميع قد توقّفوا عن الطعام لينظروا إلى ما يجري. شعرتُ بالسرور لأنّني لا أجلس قبالة والديّ، ومع ذلك، وبرغم أنّني كنت أدير ظهري نحوهما، تخيّلت الهلع الذي يصيب قلبيهما في تلك اللحظة. شعرت بالأسف، ولكن ليس بالقدر الكافي لأتوقّف عمّا أفعله.

التفت المدير بعيدًا لبرهة وابتسم، لكنّها لم تكن تلك الابتسامة الزائفة التي لم تفارق وجهه منذ الصباح. سبق لي أن رأيت هذه النظرة، حين واجهَنا، دايفيد وأنا، إنّها تلك الابتسامة الباهتة التي تسبق سورة غضبه. كان يظنّ نفسه مسيطرًا، لكنّه لا يملك من الذكاء والوعي ما يكفي ليمنع نفسه من الانفجار. ثمّ استدار غاضبًا وضرب الطاولة بقبضتيه الضخمتين وزعق:

– قلت لكم انهضوا حالًا!

ارتجّت الطاولة، وارتجّ معها دماغي. دوّت صرخته في قاعة الطعام، وسُمعت بعض الشهقات. نهض البعض عن كراسيّهم، ورأيت الصحافيّين يقفان بجانب الجدار وقد أخرجا هاتفيهما وبدآ التسجيل.

تكلّم سهيل بصوت مرتفع وواضح، متوجّهًا إلى الصحافيّين لإسماع تعليقاته:

– نحن نعترض على الوجود غير القانونيّ لمخيّم موبيوس، وعلى انتهاك الحقوق المدنيّة للمسلمين. نريد أن يعرف العالم أنّ في هذا المخيّم معتقلين تعرّضوا للتعذيب وهم الآن مفقودون. هنا، على أرض أميركيّة، نحن محتجزون بدون سبب أو محاكمة.

التمع العرق المتصبّب على وجه المدير، وتكوّرت شفتاه فوق أسنانه، ورأيته يقاوم انفعاله، ويحاول جاهدًا أن يضبط نفسه أمام الصحافيّين وفريق الصليب الأحمر. لكنّ الأوان فات على ذلك، وفقد أعصابه تمامًا.

ضمّ قبضته اليمنى وسدّد لكمة عنيفة إلى وجه سهيل. سمعت صوت تحطّم، وانفجر الدم من أنف سهيل وفمه وسقط أرضًا محدثًا صوت ارتطام شديد. سمعت صرخة حادّة، لم أعرف مصدرها، تلاها صخب شديد. صرخت عائشة وهرعنا، هي وأنا، إلى سهيل وبدأنا ننتزع المناديل لمسح الدم الذي يسيل. قفز الصحافيان ووقفا أمام الجمع الذي تحلّق حول سهيل، يصوّران هذه الفوضى بهاتفيهما.

رفعت بصري ورأيت أفراد فريق الصليب الأحمر يقفون بيننا وبين المدير الذي كان يزعق بهم، بوجه يكاد لونه يصبح قرمزيًا. حاول مرافقوه الشخصيّون إبعاده عن أفراد الفريق فيما كان يزعق. كذلك ارتفع صياح رئيس فريق الصليب الأحمر، وهو رجل في متوسّط العمر، خطّت التجاعيد جبينه. كان يحاول إسماع صوته وسط هذه الجلبة. لكنّني لم أسمع منه سوى عبارتين: «انتهاك لاتفاقية جنيف» و«أسرى حرب».

شقّ الدكتور ماهر العامل في عيادة المخيّم طريقه وسط الجمع. كنّا قد ساعدنا سهيل على النهوض وأجلسناه أرضًا، وحشرنا في أنفه مناديل لوقف سيل الدم الدافق. انحنى الدكتور ماهر لمعاينته، فيما بقيت عائشة بجانب سهيل، تمسك بيده وتهمس له. وقفت وجلت ببصري على القاعة. كان المشرفون يعملون مع الحرّاس على إخلاء القاعة من الناس، ووقعت عيناي على والديّ اللذين كانا ينظران إليّ نظرات ارتباك وعجز عن التصديق. مدّت أمّي يدها نحوي، لكنّ الحشد المتدافع للخروج جرفها بطريقه.

كان المدير يقف في إحدى الزوايا محادثًا بعض مرافقيه، ورئيس فريق الصليب الأحمر يتحدّث بالهاتف. وفجأة انفتح الباب بقوّة ودخل إلى القاعة ما يشبه جيشًا بكامله من حرّاس هيئة الإبعاد، واخترقوا الحشد، وراحوا يقذفون بهذا أرضًا ويدفعون ذاك بعنف، غير آبهين بصراخنا. ثمّ سار مرافقو المدير إلى الصحافيّين وانتزعوا منهما هاتفيهما.

اعترض المراسلان على ذلك بصوت مرتفع، وأشار أحدهما إلى المادّة 79 ووجوب حماية الصحافيّين خلال الحروب. لكنّ أحدًا لم يبالِ بذلك، ولبثنا عاجزين نشاهد هاتفيهما يسقطان أرضًا، فيما قام أحد المرافقين بتحطيمهما بعقب بندقيّته.

كنت أشعر بالخوف، لكنّني حين رأيت الحرّاس يبعدون أفراد فريق الصليب الأحمر الواقفين أمامنا، شُلّت حركتي تمامًا. اعترض رئيس الفريق أمام المدير الذي أبعده، وزعق بالحرّاس مصدرًا أوامره. قام الدكتور ماهر ورجل آخر بمساعدة سهيل على الوقوف وسارا نحو رئيس الفريق، الذي مدّ ذراعه في اتّجاههما فيما واصل صراخه واحتجاجه بالهاتف. انطلق جرس إنذار الحريق واشتغلت مرشّات الماء مبلّلة الجميع. وفيما اندفع الحشد إلى الأمام، بحثت عن والديّ لكنّني لم أعثر عليهما. ثمّ شعرت بالدوار والغثيان، ولم أعلم إلى أين أذهب.

– تعالي.

أخذتني عائشة بيدي وأخرجتني من الحشد، وسحبتني بعكس تيّار الأشخاص المتّجهين إلى المخرج الرئيسيّ، حتّى وصلنا إلى باب جانبيّ. فتحته بقوّة، وإذا بجايك يمسك بها من كتفيها ويقول صائحًا:

– عليكم العودة إلى مقطوراتكم في الحال! اتبعوني!

فرّ نديم وبعض الآخرين نحو مربّعاتهم السكنيّة، وأسرعت وعائشة الخطى نتبع جايك في اتّجاه المربّع الثاني. سلك طريقًا مواربًا حول المركز، مبتعدًا عن جموع الحرّاس والمعتقلين الذين لا يزالون يخرجون من قاعة الطعام ويسيرون نحو ميدواي. لدى مرورنا بالمركز شاهدت الأضواء ساطعة خارج المخيّم. كان معتقلون آخرون يركضون ويصرخون. ووقف المحتجّون يحاولون النظر من خلال أفراد الشرطة المنتشرين، ومعرفة سبب الجلبة. اندفع أفراد طواقم التصوير التلفزيونية نحو السياج فأوقفهم رجال الشرطة، لكنّهم واصلوا التصوير. ارتفع الغبار حولنا، وراح

يدور في دوّامات، ثمّ سمعنا صوت دوران شفرات مروحيّة تطير فوقنا. أظنّنا نجحنا في لفت بعض الانتباه إلينا.

أضاءت كشّافات أبراج المراقبة المخيّم. وأسرع الناس عائدين إلى مقطوراتهم السكنيّة. تجمّدت مكاني وأنا أشاهد رجلًا يدفعه حارس أرضًا ثمّ يركله في معدته ورأسه. صرخت لكنّ صوتي لم يكن سوى واحد من مئات الأصوات التي راحت تصرخ وسط هذا الجنون.

وسط هذه الفوضى العارمة لاحظت أنّني لم أعد أمسك بيد عائشة. كذلك لم يكن جايك قريبًا منّي. فقدتهما وسط الغبار والصراخ. ركضت نحو السياج آملة أن ألمح دايفيد. اندفعت عربات الطوارئ مسرعة على الطريق المؤدّي إلى موبيوس، فغطّى المحتجّون أفواههم وأنوفهم بالمناديل أو رفعوا قمصانهم يغطّون بها وجوههم تجنّبًا لسحابات الغبار المرتفعة. راح أحد أفراد الشرطة يوجّه الأوامر عبر مكبّر للصوت للمحتشدين بالابتعاد عن السياج. أسرع بعض المحتجّين إلى سيّاراتهم. بلغت أقرب نقطة من السياج يمكنني الوصول إليها، ورحت أركض بمحاذاته وأنادي دايفيد، لكنّ أصوات شفرات المروحيّة وصفّارات الإنذار علت على صيحاتي وسط دوّامة الغبار.

عدت مسرعة إلى المربّع الثاني، راجية أن أجد والديّ وقد عادا إلى مقطورتنا. ثمّ ظهرت مروحيّتان أخريان، وملأتا الهواء بمزيد من الغبار، وتقلّصت إمكانيّة الرؤية على الأرض إلى مسافة نحو قدم أو اثنتين على الأكثر. أحسست باحتراق في عينيّ وسالت الدموع على خديّ واختلطت بالغبار الذي يغطّيهما، فصارت أصابعي تتوحّل كلّما حاولت مسح دموعي. كما رحت أسعل، وأقذف من فمي اللعاب المختلط بالغبار، وشعرت بضيق تنفّس.

كنت أسمع حولي صراخ المعتقلين المسرعين إلى مقطوراتهم، باحثين عن شيء من الهواء النقيّ يتنفّسونه. كان الناس يتصادمون، حاملين أطفالهم، وهم يغطّون أفواههم، ويحمون عيونهم من الغبار.

حين اقتربت من مربّعنا، رأيت جايك يساعد جيراني على دخول مقطوراتهم. عندما رآني، ركض نحوي وسحبني إلى مقطورتنا. ثمّ أوصد الباب ودخل المطبخ، وأخذ منشفة أطباق عن حافة المجلى، وملأ كوبًا بالماء، وسار إلى غرفتي. تبعته وأغلقت الباب خلفنا. بلّل المنشفة بالماء ومسح بها جفوني وخدّيّ وأنفي وشفتيّ، وراح يزيل الغبار برقّة عن وجهي. توقّف ونظر في عينيّ، ثمّ أعطاني المنشفة وكوب الماء، وقال لي:

– اشربي.

أخذت بعض جرعات صغيرة في البداية، ثمّ أتيت على الكوب بكامله جرعة واحدة. كانت تلك المرّة الأولى التي أدرك فيها أهمّية وجود الماء البارد والنظيف. أعدت الكوب الفارغ إليه، وسألته:

– عائشة؟

– إنّها بخير. عاد والداها وشقيقها معها إلى مقطورتهم.

مدّ جايك يده ليلامس خدّي، لكنّه ما لبث أن سحبها.

نظرت إلى عينيه اللتين بدا فيهما القلق، وسألته:

– والـداي؟ هل رأيتهما؟ حاولت أن أجدهما لكنّني لم أستطع بسبب الغبار.

– لا شكّ في أنّهما بخير. حالما يعودان، عليكم البقاء هادئين وعدم مغادرة هذه المقطورة، أتسمعينني؟ الفوضى عارمة في الخارج. ولا شكّ عندي في أنّه سيتمّ إغلاق المخيّم تمامًا.

– إغلاق تامّ؟

– أعتقد أنّ تحرّكات المعتقلين ستخضع لمزيد من المراقبة. ولن يُسمح لأحد بالدخول أو الخروج. سيكون على المدير أن يجد وسيلة ليقنع رؤساءه بأنّه غير مسؤول عمّا حدث، وأنّ كلّ شيء لا يزال تحت سيطرته.

أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ سألته:

– وسهيل؟ ماذا سيحدث له برأيك؟ الدكتور ماهر قال إنّ المدير كسر له أنفه.

– يجب أن تكوني مسرورة لأنّ هذا كلّ ما حدث. من حسن حظّه أنّ فريق الصليب الأحمر كان يزورنا، وسيخرجونه من هنا. لقد تجاوز المدير حدوده كثيرًا بضربه سهيل أمام الصحافة. هذا الأمر سيصيب الرئيس بسكتة دماغية. بعدما كان يحاول إخفاء كلّ ما يقوم به، ها هو الآن يواجه صحافيّين حُطّمت آلات تصويرهما، وشابًّا كاريزميًّا أتقن توجيه رسالته، وسيخرج بحماية الصليب الأحمر، وهو مستعدّ لأن يروي قصّته لوسائل الإعلام المتعطّشة لها.

– إذن فقد نجحت خطّتنا.

– أظنّ ذلك. ثمّ تريّث جايك ووضع يده على كتفي قبل أن يتابع: الآن سيشتدّ الخطر عليك وعلى أصدقائك. لقد نشرت مدوّنة «احتلال موبيوس» الإلكترونية مقالتك قبيل ما جرى في قاعة الطعام. بين هذا، وكلّ التغطية الإعلاميّة التي ستنالها حادثة هذا المساء، حزتم أخيرًا اهتمام العالم، لكنّكم أصبحتم هدفًا للمدير.

– وماذا عنك؟ رأوك تدخل إلى هنا معي، هل ستكون بخير؟ سألته.

– الفوضى في الخارج عارمة. لا أعلم، لي صديق بين مَن يتولّون المراقبة، لذلك...

– صديق؟

– تذكّري، قلت لك إنّني لست الوحيد الذي يقف بجانبكم. إنّه الجانب المهمّ الوحيد، قال لي جايك بابتسامة صغيرة.

– لا تقلق لأمري، قلت له، سأكون بخير، لكنّ عليّ الخروج للبحث عن والديّ.

خرجنا إلى الغرفة المشتركة في المقطورة. وفي تلك اللحظة انفتح الباب، ودخل والداي وكأنّهما شبحان من الغبار، لكنّهما تجمّدا حين رأيا جايك واقفًا في مطبخنا.

تنهّدت بعمق. لو أنّ والديّ رأيا جايك يخرج من غرفتي، فلربّما أصيب كلاهما بنوبة قلبيّة.

– سيّدتي، سيّدي، قال جايك وهو يحرّك رأسه بالتحيّة، كنت أتأكّد من وصول ليلى بأمان إلى المقطورة. قلت لها إنّ من الأفضل لكم ألّا تغادروا مقطورتكم. لا شكّ في أنّ التعليمات لن تلبث أن تصلكم.

لكنّ الصدمة التي أصابت والديّ شلّت لديهما القدرة على الردّ أو الحركة.

– نفهم ذلك، سيّدي العريف رينولدز، قلت وأنا أتقدّم لأفتح له الباب، سنحرص على البقاء في الداخل.

حين خرج جايك تمتمت له بكلمة «شكرًا»، فقابلني بابتسامة امتنان حزينة ثمّ سار مبتعدًا وتوارى في الهواء المشبع بالغبار الأصفر.

– ماذا كان يفعل هنا؟ أنتِ بخير؟ سألني أبي.

– أنا بخير، تعثّرت وأنا هاربة، وساعدني على العودة.

التفتت أمّي إلى الكاميرا وكتمت ما أرادت أن تقوله. شعرت وأنا أرى التردّد في عينيها بأنّني أريد أن أطمئنها، لكن لم أظنّني أستطيع التفسير بأيّ طريقة ترضي والديّ.

اتّجها إلى المجلى وبدآ بمسح الغبار والقذارة عن وجهيهما.

– ماذا دهاكم؟ انظروا إلى ما فعلتم، قالت أمّي التي لم تستطع لجم نفسها أكثر. لقد تعرّض أشخاص للأذى. كان ممكنًا أن يتعرّض سهيل

لما هو أسوأ بكثير. للأعمال عواقب، وكلّنا الآن سنواجه العواقب، بسبب مجازفتكم الحمقاء، أنت وأصدقائك.

أردت أن أصدّق أنّها تقوم بذلك أمام الكاميرا، وتمثّل الغضب أمامهم، أيًّا كان أولئك الـ«هم»، تخيّلت أنّ الكاميرات قد جرى تدريبها لتراقبنا كعين سورون في أفلام «سيّد الخواتم». لعلّها تعتقد أنّ تمثيل دور الأمّ الغاضبة سيخفّف من وطأة العواقب عليّ، ويُظهر أنّ تصرّفي كان طفوليًّا سخيفًا وأنّني لا أشكّل تهديدًا. ولكن بالنسبة إلى المدير لا فرق بين طفلٍ وبالغ، فأقلّ إشارة عصيان، مهما كانت الجهة التي أتت منها، تُعرّض سلطته المطلقة في المخيّم للخطر بحسب مفهومه. أردتها أن تكون فخورة بي لأنّني أخذت موقفًا. لكنّ الخوف قضى على كلّ ما لديها من كرامة.

– أمّك على حقّ يا ليلى. تصرّفكم كان أحمق بالفعل. قال أبي.

كالعادة، حافظ أبي على هدوئه، لكنّه كان يشعر بالغضب أيضًا. رأيت ذلك في وقفته المتصلّبة وسمعته في نبرة صوته العميقة والمجرّدة.

فتحت فمي، ولكن قبل أن أستطيع أن أجيب، وقبل أن أصوغ ردًّا مناسبًا، أدار إليّ والداي ظهريهما ودخلا غرفتهما وأغلقا الباب.

لقد لجأ إلى إظهار أكبر قدر من الجفاء. كنت أفضّل أن تصرخ بي أمّي، أو يرفع أبي صوته. الحقيقة أنّ هذا ما أردته. أردتنا أن نتصارح، أن نستطيع التعبير عن مشاعرنا بحريّة. ولكن لا وجود للحرّية هنا، لا شيء سوى الشريط الشائك، والسياجات المكهربة، التي تحتجز خلفها كلّ حقائقنا. دخلت غرفتي، وأوصدت الباب خلفي بقوّة، وأنا أحسّ بوخز في عينيّ سببه الغبار والشعور بالمرارة. خلعت ملابسي ورميتها في زاوية الغرفة، فارتفعت جزيئات الغبار في الهواء قبل أن تعود لتستقرّ أرضًا بصمت. كان الخارج يناديني. أردت أن أركض إلى سفوح الهضاب وأصرخ في الأودية، وأن يتردّد صدى صوتي ويشقّق الأرض تحت قدميّ.

سمعت صوت موقّت ماء الحمّام ينطلق. أظنّ أنّ أمّي تحاول أن تغسل عنها خوفها وخيبتها. تخيّلتني أدخل حمّامًا دافئًا ومليئًا بالرغوة، إحساسي بالماء على بشرتي، وترف دخوله إلى كلّ مسامّها لتنظيفي من جديد. وسخ الأظافر بات رفيقي هنا، مثله مثل الشعور بالرعب. مضيت إلى المجلى وفركت يديّ تحت الماء حتّى بات لونهما ورديًا تمامًا. سمعت صوت باب غرفة والديّ يُفتح ويُغلق بضع مرّات. حين تأكّدت من أنّهما رقدا، دخلت الحمّام على رؤوس أصابعي، لكنّ الماء الشديد البرودة كان في انتظاري. لقد نفد منّا الماء الساخن. إنّها صفعة أخرى أتلقّاها. خرجت من الحمّام ولففت جسدي المرتجف بمنشفة وعدت إلى غرفتي. بأصابع مرتعشة أخذت ثياب النوم الأكثر دفئًا لألبسها، وأضفت فوقها كنزة. لففت شعري المبلّل بمنشفة ودخلت سريري. كنت أحسّ بالألم في كلّ عضلة من عضلات جسدي، لدرجة أنّ فرشة سريري القاسية بدت لي مريحة آنذاك.

تمنّيت لو أنّ بوسعي جعل والديّ يفهمان، لو أنّ بوسعي إقناعهما برفع صوتهما، والقيام بشيء ما. لكنّهما كانا غاضبين منّي جدًّا لأنّني جازفت. يريدان أن ينتظرا حتّى نخرج من هنا بسحر ساحر في عهد رئيس ليس فاشيًا متعصّبًا. لكنّ ذلك لن يحدث أبدًا.

لا أريد أن أمضي حياتي في هذا المكان. لا أريد أن أموت هنا. لكن ربّما ثمّة أمور أسوأ من الموت.

الفصل 23

في تمام السادسة صباحًا انطلقت صفّارة الإنذار في المخيّم. خرجت من سريري ودخلت الغرفة المشتركة. يبدو أنّ والديّ لم يناما أو ربّما نهضا من فترة طويلة، لأنّني رأيتهما جالسين بكامل ملابسهما يشربان الشاي.

– ماذا يجري؟ سألتهما.

اكتفت أمّي برفع كتفيها. أمّا أبي فسار إلى النافذة ونظر إلى الخارج وهو يهزّ برأسه. ثمّ أضيئت شاشة التلفزيون، ليظهر عبرها المدير بعينيه المحتقنتين دمًا واللتين كانتا ترميانا بالخناجر، ويقول:

– بعد عصيان الليلة الماضية، سنطبّق قواعد جديدة في موبيوس. ستخرجون للتعداد عند السادسة والنصف من كلّ صباح، ليسجّل المشرفون عليكم حضوركم. وعند السابعة تمضون إلى أعمالكم أو صفوفكم. والذين لا عمل لديهم ولا صفوف ملزمون بالحجر في مربّعاتهم. موعد العشاء في قاعة الطعام سيبقى عند تمام السادسة. وعند التاسعة مساءً يُطبّق منع التجوال تطبيقًا صارمًا. وعليكم ملازمة مقطوراتكم السكنيّة حتّى تُدعَون إلى التعداد في الصباح التالي. كلّ مَن يخالف هذه الأنظمة سيجري التعامل معه بالطريقة المناسبة. إيّاكم

أن تخطئوا، فالعواقب ستكون سريعة وقاسية. كذلك سيتشرّف مخيّم موبيوس بزيارات مفاجئة تقوم بها منظّمة الصليب الأحمر.

قال الجملة الأخيرة بكثير من الاشمئزاز، من دون أن يحاول حتّى أن يخفي قرفه من مراقبي الصليب الأحمر. هؤلاء المراقبون هم حمايتنا الوحيدة من العنف الكامن خلف تحذيراته. كانت حماية واهية، لكنّها كلّ ما لدينا.

– لا شكّ عندي، تابع المدير يقول، في أنّني لست بحاجة إلى التأكيد على أهمية تعاونكم في كلّ هذه المسائل. وحدة. أمن. ازدهار. ثمّ تحوّلت شفتاه المتورّمتان إلى ابتسامة تهديد، وأضاف: اخرجوا حالًا للتعداد.

وانطفأت شاشة التلفزيون.

لم نتلفّظ، والداي وأنا، بكلمة واحدة. لم أكن واثقة حتّى من جدوى الكلام. خرجنا بصمت، ورأينا عائلات أخرى من مربّعنا تغادر مقطوراتها. كان أفراد تلك العائلات ينظرون حولهم، بعضهم أطلق نظرات حيرة، والبعض نظرات غضب واضح. سمعت اسمي ورأيت عائشة تلوّح لي قبل أن تتدخّل أمّها وتطلب منها خفض يديها. فرفعت كتفيها في إشارة اعتذار.

أشار سليم وفوزيّة، المشرفان علينا، أو الخائنان كما أدعوهما تحبّبًا، إلى عائلات المعتقلين الستّ عشرة في المربّع الثاني لكي تقف صفًّا واحدًا في وسط المسلك الضيّق الذي يفصل بين المقطورات الثماني في كلّ جهة. وقفنا في الصفّ بهدوء، وبدون طرح أسئلة، عاجزين بفعل التعب والصدمة عن أن نفعل شيئًا سوى إطاعة الأوامر. هذا هو تمامًا ما يريدونه، الإرهاق والإذعان.

– سمعتم المدير، صاح سليم، هذا ما سيحدث كلّ يوم من الآن حتّى إشعار آخر. مدّوا معاصمكم حتّى تستطيع فوزية مسح هويّاتكم الإلكترونيّة.

تنقّلت فوزيّة بيننا نحن الواقفين في الصفّ حاملة ماسحة صغيرة بحجم الهاتف، تقرأ الرمز المطبوع بالأشعّة فوق البنفسجيّة بداخل معاصمنا، وتسجّل حضور كلّ معتقل، فتظهر على شاشة الماسحة لبرهة صورنا الملتقطة لنا عندما أُدخلنا المخيّم. تذمّر البعض أثناء مرورها، لكنّها كانت تقابل الجميع بابتسامة واهية، وعادت بعدما أنهت لتقف بجانب زوجها.

– لا تتخلّفوا عن التعداد اليوميّ، قال سليم بصوت مبحوح، وكأنّه لم ينم منذ أيّام.

جيّد، تمنّيت ألّا ينام طوال ما بقي من حياته. أمنية تنمّ عن الحقد لكنّني لا أبالي. يمكنهم أن يأخذوا منّي حرّيتي، لكن لا يمكنهم أن يأخذوا قدرتي الهائلة على الحقد.

– لا تخالفوا أيًّا من التعليمات الجديدة، تابع سليم، لا تذهبوا إلى حيث لا يُفترض بكم أن تذهبوا. لا تقوموا بأيّ عمل غير مسموح. أنتم تحت المراقبة، جميعكم تحت المراقبة. لا نريد أن يُدرج مربّعنا على لائحة أعداء المدير. ثمّ تريّث قليلًا لينظر مباشرة إليّ ويواصل: ... أكثر ممّا نحن أصلًا، بفضل أفعال البعض في هذا المربّع.

لم يفاجئني أن يتوجّه إليّ دون غيري. فتأنيب الضمير يغيب تمامًا لدى من يخون أبناء جلدته ويقف متفرّجًا عليهم وهم يتعرّضون للضرب والإخفاء. عمل المشرف التبليغ عمّا يقوم به المسلمون الآخرون في هذا المخيّم. وقد أوضح سليم أنّه سيواصل القيام بواجباته مهما فعل بنا المدير. علا همس بين الواقفين، وأشار إليّ رجل في متوسّط العمر يرتدي قرطقًا أبيض وقبّعة رماديّة، وقال:

– هي التي تستحقّ العقاب، لا نحن.

– صمتًا يا عادل، صاح أبي بالرجل.

فاجأتني مسارعة أبي إلى الدفاع عنّي، فمن عادته أن يتجنّب المجابهات. لكنّ كلماته أثلجت قليلًا صدري المشتعل.

– نعم، أنا أيضًا كنت هناك، قالت عائشة بدورها.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة حتّى شعرت بالدموع تترقرق في عينيّ. عائشة ترمي بنفسها في عرين الأسد معي، لكنّ امرأة شابّة تلفّ ضفائر شعرها بوشاح ورديّ صاحت:

– عادل على حقّ. هؤلاء الفتيان المتهوّرون هم مَن ارتكبوا تلك الحماقة، ورفضوا تناول الطعام وكأنّهم غاندي. ماذا دهاهم؟ وتابعت تقول لي وهي تهزّ إصبعها بوجهي: انظروا إلى ما فعلتم. ذاك الفتى نال ما يستحقّه.

هزّ بعض الآخرين رؤوسهم موافقين، وأحسست بطعم المرارة في فمي. لكنّ امرأة عجوزًا، لها من العمر ثمانون عامًا على الأقلّ، نظرت إليّ ورفعت قبضتها إلى كتفها، وهزّت برأسها تشجيعًا. حين وصلنا إلى موبيوس، عرّفت بنفسها باسم الخالة خديجة. شعرها الأشيب معقود على شكل كعكة وهي تقيم بمفردها، وفي عينيها تلمع شرارة. مدّتني حركتها تلك بما أحتاج إليه لأشدّ من عزمي، فأجبت:

– ننظر إلى ما فعلنا؟ بل انظروا إلى ما فعلتم أنتم. لا شيء. وقفتم متفرّجين في خلال الانتخابات، ظانّين أنّ شيئًا من هذا لن يحدث، وأنّ العنصريّة وكره الأجانب اللذين انتشرا خلال الحملة الانتخابيّة كانا مجرّد كلام فارغ. ثمّ بقيتم ساكتين وأنتم تُجرَّدون من حقوقكم، ثمّ وضّبتم حقائبكم بصمت وتركتم أنفسكم تقادون إلى الأسر. كلّكم. كلّنا. قدّمنا أنفسنا كالأضاحي كما فعل النبيّ إبراهيم بابنه، لكنّنا لن نُفتدى بأيّ كبش، وأعناقنا تنتظر السكّين. يجب أن نكون نحن المعجزة التي ستنقذنا...

لكنّ أمّي أغلقت فمي بيدها لتُسكتني، فيما جحظت عينا سليم، واقترب منّي وغرز إصبعه في كتفي قائلًا بغضب:

– اخرسي واحذري. إيّاك أن تظنّي أنّني لن أبلّغ عنك، وحينها لن تذهبي إلى الثكنة، بل سيرسلك المدير إلى...

– سليم، صاحت فوزيّة مقاطِعة زوجها، كفى. يجب أن نعطيهم بقيّة التعليمات.

أقنعت فوزية زوجها بالابتعاد عنّي، فيما طوّقت أمّي كتفيّ بذراعها، ووقف أبي بيني وبين سليم الذي ترك زوجته تقوده بعيدًا، قبل أن يعود ليخاطبنا:

– كلّ منكم سيجد برنامجًا جديدًا في ملفّ العمل الخاصّ به على شاشات مقطوراتكم. توجّهوا إلى العمل في المواعيد المعيّنة لكم. إن كان أولادكم يذهبون إلى صفوف الدراسة، يمكنكم مرافقتهم وانتظارهم في المركز. بعضكم كُلّف بأعمال جديدة في قاعة الطعام، أو غرفة غسل الملابس، أو في الحدائق. تجدون التعليمات في ملفّات العمل أيضًا. ثمّ تابع سليم وقد تحوّلت نبرته الغاضبة إلى توسّل: افعلوا جميعًا ما يُطلب منكم. رجاءً. لا تثوروا أو تتظاهروا بعد اليوم. تعاونوا كي ينتهي كلّ شيء على ما يُرام. تذكّروا: وحدة. أمن. ازدهار. انصراف.

تفرّق الناس، وسمعت البعض يتهامسون باسمي. اقتربت منّا عائشة ووالداها. عانقتني بحرارة فيما كان ذوونا يتحادثون، وقالت لي:

– لا أصدّق أولئك الأشخاص الكريهين. وكأنّهم لم يلاحظوا أنّني ثائرة صاحبة قضيّة أيضًا.

وارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة. هذه الفتاة صاحبة قلب ذهبيّ.

– هل عرفت شيئًا عن سهيل؟

تراخت قسماتها ورفّت جفونها بسرعة بضع مرّات وقالت:

– أخذه فريق الصليب الأحمر إلى خارج المخيّم، إلى عيادة قريبة من هنا كما قال لي العريف رينولدز. أنا خائفة يا ليلى. ماذا لو أعادوه إلى موبيوس؟ سيكون على رأس قائمة مَن يريد المدير النيل منهم.

أجبتها وأنا أشدّ على كتفها:

– ربّما يسمحون له بملازمة العيادة حتّى يُشفى تمامًا، وبعد ذلك يتدبّر له الصليب الأحمر حماية خاصّة.

تمنّيت لو أنّ بإمكاني أن أجد كلمات تطمئنها على نحو أفضل، لكنّني لم أجد، لأنّها ربّما كانت على حقّ. حالما يعود سهيل إلى المخيّم، سيصبح هدفًا للانتقام.

– أتظنّين أنّ قرار صيامنا عن الطعام كان خطأ؟ ماذا سيحدث الآن؟ سألتني عائشة وهي تعضّ شفتها السفلى.

– لست متأكّدة، أجبتها بصدق، أظنّ أنّ علينا أن نعيد تجميع أنفسنا و... آخ.

أحسست بضربة في ظهري، فاستدرت لأرى على الأرض كتلة تراب متحجّرة.

– ماذا حدث؟ أنتِ بخير؟

نظرتُ وعائشة حولنا. رأيت سليم يجلس ببلادة على درج باب مقطورته، وعلى وجهه ابتسامة تعجرف. غير أنّه كان يقف أمامي، فيما كتلة التراب أصابتني من الخلف. جلت ببصري على المكان فرأيت رجلًا ذا أسنان تركت عليها مضغات التنبول لطخات واضحة، يقف على مسافة قصيرة منّا ويحملق بنا بنظرة جليديّة، ثمّ بصق أرضًا. وظهرت عند قدميه بقعة صغيرة بلون الدم الجافّ.

الفصل 24

سالت قطرات العرق على عنقي ووصلت إلى قميصي. وقفت بقرب برّاد الماء وشربت جرعات كبيرة من قنّينتي ثمّ بلّلت منديلي ومسحت به الملح والعرق عن وجهي الوسخ. ثمّ طويت المنديل طوليًّا مرّات عدّة، وبلّلته مجدّدًا بالماء وربطته حول عنقي، وعقدته من الأمام. إنّها أناقة الاعتقال. خفضت قبّعة البايسبول التي أعتمرها والتي بهت لونها، فوق عينيّ، ودهنت شفتيّ المشقّقتين بالبلسم. في البدء، بدا تكليفي العمل في الحديقة صباحًا بمثابة حظوة، وأفضل بلا شكّ من العمل في غرفة غسل الملابس أو قاعة الطعام، ولكن حين انتهت نوبتي الأولى التي دامت ثلاث ساعات، جررت قدميّ جرًّا إلى المنزل وارتميت في السرير.

على الأقلّ كانت عائشة ونادية ونديم يشاركونني العمل عينه. ظننت أنّ المدير سيفرّق بيننا، لكنّ الحرّاس كانوا ينظرون إلينا شزرًا كلّما حاولنا أن نتبادل أكثر من مجرّد كلمات عابرة. لعلّه بهذه الطريقة ظنّنا سنبقى في الجهة الخلفيّة من المخيّم بعيدًا عن المحتجّين. لعلّ المدير يتمنّى أن نحاول القيام بأمر آخر، فيجد الذريعة للانقضاض علينا. مهما كان دافعه، كان المدير يذكّرنا يوميًّا في إعلاناته بأنّه لن يسمح بأيّ شكل

من أشكال «التجمّع بدون إذن» أو «التخالط غير الملائم». وطبعًا، كلّما تحدّث، كان يتقيّأ شعار المخيّم على مسامعنا: وحدة. أمن. ازدهار. وكأنّ التكرار سيجعلنا نصدّق أنّ هذا المكان ليس سجنًا.

كانت بعض الفتيات في مجموعتي يضعن الحجاب، حتّى في هذا القيظ الشديد. لا يمكنني أن أتخيّل الشجاعة المطلوبة للمحافظة على هذا الجانب من هويتهنّ المسلمة في وجه كلّ هذه الصعوبات. الحجاب خيار شخصيّ، ولكن لو كنت اخترته لنفسي، فأنا حقًّا لا أعلم إن كنت سأمتلك القوّة أو الإيمان الكافيين لأضعه في المخيّم.

شهد المخيّم هدوءًا في الأيّام الخمسة التي تلت الحادث، كما بات الجميع يسمّون المجابهة التي وقعت في قاعة الطعام. لكنّ أعداد المحتجّين كانت تزداد خارج السياج المكهرب، فقد أتى المئات منهم لينضمّوا إلى مَن سبقهم، وأقاموا مخيّمًا يشبه قرى المهرجانات. أخبرني جايك أنّ ملياديرًا يساريًّا يرأس مؤسّسة تدعو إلى تحقيق الديمقراطيّة تبرّع بمراحيض نقّالة وآلاف قناني الماء وألواح الطاقة والخيم. ورافقت المحتجّين وسائل الإعلام التي راحت تسلّط الضوء أكثر على المدير وعلى موبيوس. حين يأتي رجال ببزّات سوداء تحت جنح الظلام لاقتياد المرء، يتغلغل الخوف في عظامه، الخوف من أن يُفقد إلى الأبد. لكنّ مجرّد وجود المحتجّين في الخارج كان يطمئنني إلى أنّ قضيّتنا لم تُنسَ. المستقبل لم يكن مؤكّدًا أبدًا، ولكن للمرّة الأولى منذ اعتقالنا، أتيقّن من أنّنا لن نسقط بدون معركة. للمرّة الأولى أتيقّن أنّ أصواتنا لن يتمّ إسكاتها.

لم يتسنّ لي الاقتراب من المركز لأنّ عملي في الحديقة كان يلزمني بالبقاء بعيدة عنه، فاكتفيت بنظرات خاطفة إلى مخيّم «احتلال موبيوس». لم أستطع رؤية دايفيد، لكنّ معرفتي بأنّه هناك كانت تريحني. كُلّف جايك بمهمّة لحفظ أمن السياج، فلم أستطع أن أراه

كثيرًا أيضًا في الأيّام الأخيرة، لكنّه كان يحمل إليّ أخبارًا كلّما استطاع الابتعاد عن مركزه بدون أن يثير الريبة. هكذا علمت أنّ الاحتجاجات تتزايد، وأنّ المحتجّين يتظاهرون أمام البيت الأبيض أيضًا، وأنّ موضوع موبيوس يتكرّر في نشرات الأخبار الليليّة، وأنّ عشرات الآلاف قرأوا رسائلي. تمكّنت بمساعدة جايك من إرسال مقالتين جديدتين عمّا حدث في أعقاب الحادث، وعن الأنظمة الجديدة والقاسية التي فُرضت في المخيّم. ولكن، بعد قيام أنونيموس بنشر المقالة الأخيرة، استشاط المدير غضبًا لنصف ساعة على شاشات مقطوراتنا، وأمر بتفتيش كلّ فريق العمل والحرّاس قبل مغادرتهم المخيّم، فبات خطرًا على جايك أن يغادره حاملًا رسالة. تساءلت إن كان بإمكاني إقناعه بكتابة مقالاته الخاصّة حين يكون في الخارج.

– نحن معك، همس لي صوت رقيق من خلفي.

استدرت لأرى ثريّا، وهي واحدة من ثلاث فتيات سوداوات يرتدين الحجاب ويعملن معي في الحديقة. سبق أن تبادلنا الابتسامات وبعض الكلمات بين الحين والآخر، لكنّنا لم نقضِ الوقت معًا قطّ. فثريّا تقطن في المربّع الثامن.

– شكرًا.

– أعني ما أقول. أعرف ما يقوله بعض الآباء والأمّهات، وهم على خطأ. ما فعلتِه، بل ما فعلتموه كلّكم كان عملًا شجاعًا. ونحن نرغب في المشاركة في المرّة المقبلة. هل ستكون ثمّة مرّة مقبلة؟

– «نحن؟» ساعديني على اقتلاع الأعشاب البريّة، قلت لها حين رأيت حارسًا ينظر إلينا، وأشرت إليها أن تنضمّ إليّ.

ركعت ثريّا في التراب بقربي وبدأت باقتلاع الأعشاب الصغيرة التي نبتت حول شتول الباميا. التمع خيط من حُبيبات العرق حول أطراف حجابها الذي يحمل رسم العلم الأميركيّ. ذكّرني حجابها بنور، حفظها

الله. وحين التفت الحارس بعيدًا تظاهرت بأنّني أواصل اقتلاع العشب لكنّني سألتها من جديد:

– ماذا تعنين بـ«نحن»؟

رفعت ثريّا إصبعها وأشارت إلى فتاتين محجّبتين أخريين، لكنّني سارعت إلى الإمساك بيدها وخفضها، وهززت رأسي أحذّرها.

– صحيح، آسفة. أعني رَشْما وأَنْجُم وأنا، قالت ثريّا، نحن مستعدّات للمشاركة في الاحتجاج المقبل أو الصيام المقبل أو أيّ شيء. كذلك ثمّة أخريات من صفّ العلوم القرآنيّة، وهنّ مستعدّات.

مِلتُ بوزني من إحدى ركبتيّ إلى الأخرى، وقلت لها:

– سمعت أنّ هناك مَن يرتادون تلك الصفوف. لكنّني لم أذهب للصلاة منذ أتينا إلى هنا.

– ليس عليك أن تعترفي لي، قالت ثريّا ضاحكة، إيمانك، دينك، يبقيان بينك وبين الله. لا أنا أدينك ولا أنت تدينينني، بكلّ بساطة.

أدهشتني قدرتها على الابتسام، فضلًا عن الضحك. لا بدّ من أنّ هذا العام كان شديد الصعوبة بالنسبة إليها، خصوصًا أنّها لا تُخفي إسلامها، كما أنّها سوداء البشرة. كانت النساء المحجّبات، وخصوصًا السوداوات منهنّ، الهدف الأوّل للاعتداءات وأعمال العنف التي ارتكبها مناهضو الإسلام. محال أن تكون ثريّا قد نجت من العنصريّة المقيتة المقترنة بكره الإسلام. منذ أن انطلقت خلال الانتخابات موجة انتزاع حجاب النساء بالقوّة في الأماكن العامّة، دعا بعض المسلمين النساء إلى السفور لحمايتهنّ من الاستهداف. لكنّني لا أعرف أيّ محجّبة فعلت ذلك. لذلك، لا شكّ في أنّ ثريّا وبعض الفتيات المحجّبات الأخريات على استعداد للمشاركة في الاحتجاجات، فاتّخاذ المواقف الشجاعة بات أمرًا مألوفًا بالنسبة إليهنّ. لقد اخترن المحافظة على الحجاب، وهو خيار جريء للغاية في أوقات كهذه. شعرت بالإحراج، بل بالغضب من نفسي، لأنّني

لم أتقرّب منهنّ قبل الآن، لافتراضي الخاطئ أنّهن ربّما غير مستعدّات للوقوف في وجه المدير.

هززت رأسي علامة الموافقة وقلت لها:

– أظنّنا نعرف تمامًا مَن هو العدوّ هنا، كما أنّك على حقّ: علينا أن نحمي بعضنا بعضًا.

– بعض الأهالي خائفون جدًّا. لكنّ هذا لا يشمل كلّ البالغين. أعرف آخرين سوف يقاومون. علينا أن نتجاهل مَن يكرهوننا وألّا نقلق بشأن ما سيفكّرون فيه.

– هناك دائمًا أشخاص مستعدّون للإذعان. انظري إلى المشرفين.

– مَن لا قضيّة له يرضَ بكلّ شيء، قالت ثريّا وعيناها البنّيتان الدافئتان تبتسمان.

كانت مربّيتي تخبرني عن مَثَل النور، وهو يرد في إحدى آيات القرآن، ويعني في ما يعنيه أنّ بعض البشر يمسسهم نور الله المضيء وأنّ ذلك يظهر على وجوههم. وجه ثريّا كان من تلك الوجوه. هكذا بدا وهي تتكلّم.

– تمامًا، أجبتها باسمة، يجب القيام بكلّ ما هو مطلوب.

– بكلّ ما هو مطلوب لكي نخرج من هذا السجن.

– أنا مستعدّة لسماع الأفكار. لكن أظنّ أنّ علينا أن نفعل شيئًا أمام الكاميرات عند مدخل المخيّم. الشرطة تمنع المحتجّين من الاقتراب من السياج، لكنّ الكاميرات تستطيع تقريب الصورة.

– ربّما نقوم بنوع من الاحتجاج الصامت. في الأساس، لا يُفترض بنا أن نكون هناك، لذلك فإنّ مجرّد التجمّع سيكون نوعًا من التحدّي. لكنّ المدير يراقب الجميع، وعدد الحرّاس بات أكبر، وهم يتشدّدون في المراقبة.

– نحتاج إلى عمليّة تضليل، ربّما بعد العشاء توًّا، حين نجتمع في قاعة الطعام. سنكون آنذاك قريبين جدًّا من المدخل الرئيسيّ.

– كلّي آذان مصغية. قالت ثريّا.

وصمتت بانتظار أن أشرح لها، لكنّ تركيزي تشتّت، فقد لمحت في البعيد مشية جايك الحازمة وهو يقترب منّا. سألتني ثريّا:

– ما الأمر؟

– لست واثقة. أرجو ألّا تكون هناك مشكلة، لكنّني لا أستبشر خيرًا.

تابعت بنظري جايك وهو يسلّم ورقة إلى أحد الحرّاس الذي أشار إليّ بيده. نهضتُ وأعطيت ثريّا قفّازيّ اللذين أستخدمهما في الحديقة، وسرت خلف جايك بصمت. استدرت للنظر إلى الحديقة فرأيت ثريّا وعائشة والآخرين ينظرون إليّ، وعلى وجوههم مزيج من الارتباك والخوف. رفعت كتفيّ وتابعت سيري.

حين ابتعدنا عن الحديقة مسافة كافية، سألت جايك أين نذهب، فأجاب:

– المدير يريد أن يراك، وتابع همسًا: آسف.

بدا أنّه يريد أن يقول المزيد، لكنّه لم يقل شيئًا. كذلك لم ينظر في عينيّ. وفيما كنّا نسير بصمت، لمحت يديه مشدودتين كقبضتين على جانبيه.

توقّعت أن يرسل المدير بطلبي بعد الحادث، ثمّ افترضت بعد مرور أيّام قليلة، حين لم يفعل، أنّه فقد الاهتمام بي. لكنّني كنت مخطئة.

– لن تبقي بمفردك معه. سيحضر اللقاء مراقبون من الصليب الأحمر. لا يملكون أيّ سلطة، لكنّك لا تزالين دون الثامنة عشرة، وهذا سيمنحك شيئًا من الحماية على الأقلّ، ولا سيّما أنّ المدير يخشى أن تتعرّض له الصحافة بمزيد من الانتقاد. سأكون خارج الباب، أضاف جايك بفكّ منقبض، وسيبقى مرافقو المدير بجانبه.

– ماذا يريد منّي؟ ماذا سيفعل؟ سألته بصوت متهدّج، وأنا أشعر بالظمأ.

أخذ جايك نفسًا وهزّ رأسه، وأجابني:

– سيستجوبك. لن يلحق بك أذى لأنّ في الداخل مراقبين. ولكن احذري: لا تتهوّري في الكلام، ولا تمنحيه ذريعة للنيل منك واستهدافك أكثر ممّا فعل. أعرف أنّ من غير العادل تحميلك كلّ المسؤوليّة، لكن لا أحد يستطيع مساءلة المدير. آسف لأنّني لا أستطيع أن أرافقك إلى الداخل. يجب أن أطيع الأوامر لكي أحافظ على ثقته بي. يمكنه أن يأمر بنقلي من المخيّم، وأنا لا أريد تركك وحيدة هنا.

– أفهم، لديك أوامرك، وأنت تتمتّع بثقته أيضًا، ولا يمكننا المجازفة بخسارة ذلك.

كنت أحاول أن أتكلّم بحزم، أقلّه لأقنع نفسي بأنّني سأكون بخير، لكنّني شعرت بأنّني على وشك أن أواجه تنّينًا وأنا لا أحمل سيفًا.

وقف جايك ونظر في عينيّ وقال لي:

– لستُ وحدي مَن إلى جانبك. أنتِ شجاعة، حافظي على شجاعتك ولا تسمحي له بالتنمّر عليك.

– سأبذل كلّ ما بوسعي.

– لا شكّ عندي في ذلك.

حين فتح جايك باب مكتب المدير، استقبلتني عصفة هواء بارد. داخل المكتب كالثلّاجة فيما الخارج كالأتون. لقد قرأنا «الجحيم» لدانتي في صفّ اللغة الإنكليزيّة، ولطالما استغربت أن تكون حفرة الجحيم مكوّنة من الجليد، بما يعنيه ذلك من غياب الأمل والنور والحبّ. من البديهيّ أن يكون مكتب المدير كالثلّاجة طبعًا.

كان المدير جالسًا إلى مكتبه، وأشار إليّ بالجلوس على كرسيّ قبالته. ثمّ صرف جايك، الذي رمقني بنظرة تعاسة واضحة وخرج.

جلست متهالكة على الكرسيّ، وأخذت أنفاسًا عميقة قبل أن أقوّم كتفيّ وأجلس مستقيمة. كان اثنان من مرافقي الحارس يقفون في زاويتَي الغرفة المستطيلة، خلف المكتب الخشبيّ الكبير. كذلك رأيت رجلًا وامرأة بسروال كاكيّ وقميص يحمل شعار الصليب الأحمر، جالسين على كرسيّين أُسندا إلى الجدار، وبيدهما دفتران. تقع غرفة مكتب المدير في مبنى الإدارة، وهو جناح تابع للمركز ويتّصل به بواسطة ممرّ ضيق خالٍ من النوافذ. والإدارة كناية عن مبنى جاهز من طابق واحد، مصنوع من ألواح رماديّة عريضة وسقف أبيض مسطّح. تسمح نافذة زجاجيّة كبيرة للمدير برؤية المدخل الرئيسيّ للمخيّم، وعبرها شاهدتُ كتلة المحتجّين وشاحنات الأخبار، فابتسمت ابتسامة خفيفة.

– هل ترين شيئًا طريفًا، آنسة أمين؟ سألني المدير محوّلًا انتباهي عن النافذة.

– لا، سيّدي، أبدًا.

– لعلّك تستمتعين بالعرض الذي يقدّمه للصحافة هؤلاء المحتجّون الهيبّيون الذين لا يزالون يعيشون في أواخر القرن الماضي. في النهاية، هذا كان الهدف من الحادث الذي وقع في قاعة الطعام، أليس كذلك؟ ومن الفيديو القصير الذي صُوِّر؟

– لا، سيّدي.

– «لا، سّيدي؟» أهذا كلّ ما لديك لتقوليه دفاعًا عن نفسك؟ بعدما أخلّت مغامرتك الصغيرة بالسلام في مخيّمنا؟ بسبب أفعالك تعرّض أشخاص للأذى.

– نعم، سيّدي.

احمرّ وجه المدير. إن كان يحاول المحافظة على هدوء أعصابه، فقد فشل في ذلك فشلًا ذريعًا.

– آنسة أمين، بدأت تستنفدين صبري. ماذا تعنين بـ«نعم، سَيدي؟».

– نعم، سيّدي، لقد تعرّض أشخاص للأذى، لكنّ ذلك كان بسبب أفعالك لا أفعالي. لستُ أنا مَن لكمت سهيل.

حالما خرجت تلك الكلمات من فمي، خشيت أن أكون اقترفت خطأ جسيمًا، مميتًا. كان يجب أن أغربل أفكاري، لكنّ غضبي تغلّب على خوفي. لعلّ ما قمت به ليس ذكيًا، لكنّه أسلوبي الوحيد في التصرّف.

ضرب المدير بقبضته سطح مكتبه وهبّ واقفًا، وصاح:

– كيف تجرئين؟ أتعرفين مَن أنا وما أنا قادر عليه؟

مال المدير فوقي، فانكمشت قليلًا في الكرسيّ، وأغمضت عينيّ لثانية. أردت أن أتنفّس، وأن أستعدّ، لكنّ تلك دعابة. محال أن أستطيع الاستعداد لما قد يحدث.

– نعم، سيّدي. أنت مدير مخيّم اعتقال يُحتجز فيه مواطنون أميركيّون بصورة غير شرعيّة.

سمعت قلمَي المراقبين يخطّان شيئًا على الأوراق أمامهما، فنظرت إليهما بطرف عيني.

– أتظنّين هذين المراقبين سيخلّصانك؟ سألني المدير وهو يشير إليهما. إنّهما غير قادرين على ذلك. يستطيع مراقبو الصليب الأحمر المراقبة وتسجيل ما يشاؤون من الملاحظات، لكنّهم لا يستطيعون التدخّل في قوانين هذه الأمّة. موبيوس وكلّ أنظمته مطابقة للقانون الفدراليّ. إلّا أنّني متأكد من أنّهم على أتمّ الاستعداد لتضميدك إذا ما جرحت بعض الأوراق يدك.

سمعت صوت تململ المراقبين في كرسيّيهما، وهمس أحدهما بشيء لم أسمعه، لكنّني لم ألتفت إلى الخلف فقد منعني الخوف من أن أميل ببصري عن المدير.

عاد هذا الأخير للجلوس، ورفع إصبعًا في الهواء وهزّه وكأنّه على وشك الإدلاء بملاحظة لامعة، وقال:

– اسمعي. سأمنحك الفرصة لتنقذي نفسك وبعض أصدقائك المتورّطين في محاولة الاحتجاج المتهوّرة والطفوليّة خلال العشاء. مَن نظّم تلك المحاولة؟ ما الذي يخطّطون له أيضًا؟ مَن متورّط أيضًا؟ إذا تعاونت معنا، يمكنني الحرص على أن تتمّ العناية بك وبعائلتك.

– رأيتنا جميعًا. كنّا كلّنا جالسين إلى الطاولة أمامك. لم يكن أحد آخر متورّطًا.

– لستُ غبيًّا يا فتاة. أعرف أنّه كان هناك آخرون. مَن هم الأشخاص البالغون المتورّطون؟ ما الذي يخطّطون له أيضًا أو يطلبون منك القيام به؟ لا تحميهم. إنّهم يستغلّونكم. لو كانوا شجعانًا لتقدّموا للمواجهة، لكنّهم يستخدمونكم دروعًا بشريّة، ويتّكلون على أطفال لتنفيذ مشاريعهم القذرة. هم الأعداء الحقيقيّون هنا.

– حقًّا لم يكن هناك سوانا. لا أحد يخطّط لشيء آخر يا سيّدي، صدّقني.

– أصدّقك؟ نعم، طبعًا، قال المدير ضاحكًا، والمقالات المنشورة على المدوّنات الإلكترونيّة. مَن يكتبها؟ أعرف أنّ أحدًا ما يهرّبها إلى خارج المخيّم. ظننتُك أنت وحبيبك اليهوديّ الشابّ تفعلان ذلك، لكن يبدو أنّ شخصًا آخر يهتمّ بذلك حاليًّا. أخبريني. أخبريني، فأجعل حياتك وحياة والديك هنا أسهل بكثير.

– كيف ستجعل حياتنا أسهل؟

– سمعت أنّ أحد أبناء شعبك قذفك بالتراب، قال المدير.

– كيف...

لكنّني لجمت نفسي وسكتُّ. لا شكّ في أنّه يعرف. سليم رأى العجوز يرميني بالتراب، واكتفى بالضحك. من الواضح أنّه قام بما يمليه

عليه واجبه وأبلغ قائده المحبوب بما جرى. عضضت شفتي السفلي وحملقت بالأرض. لم أُرد أن أرى ابتسامة المدير المتعجرفة. واصل هذا الأخير كلامه فقال:

– وأظنّك على علم برسائل التهديد التي تلقّاها والداك في عملهما.

شحب لوني ورفعت رأسي كمن مسّته الكهرباء. لا. لم أكن أعلم، لأنّ والديّ لم يخبراني. لعلّهما يظنّان أنّهما يحميانني، ولا يريدانني أن أقلق. انقبض صدري، ورأيت أنّ المدير يستطيع قراءة تعابيري جيّدًا، لقد فضحت نفسي.

– لا؟ هل قرّرا إخفاء الأمر عنك؟ من حسن حظّك أنّ لديّ عيونًا في كلّ مكان. هل يجب أن أعطيك التفاصيل؟ هل أخبرك بما قالوا إنّهم سيفعلونه بوالدتك إن لم تتوقّفي؟ وما سيفعلونه بك؟ يمكنني جعل المعتقلين يدركون أنّك تحت حمايتي. أستطيع الوصول إلى بعض وسائل الترف هنا وتوفيرها لك، كهذا الجوّ المكيَّف والمنعش الذي تستمتعين به الآن. لا شكّ في أنّ والديك سيقدّران ذلك. يجب أن تساعديني لكي أساعدك.

لففت ذراعيّ حول معدتي. أحسست بأنّني على وشك أن أتقيأ. لا يمكنني أن أعرف إن كانت قصّة تلك الرسائل، وما فيها من تهديدات، حقيقيّة، أو إن كانت من تدبير المدير لزرع الخوف فيّ. إن كانت هذه هي الحال، فقد نجح، لكن لا يمكنني أن أتركه يلاحظ ذلك. لا يمكنني أن أدعه يعرف. فبمقدار ما أبدو ضعيفة، سيشعر بأنّه أقوى.

– مكيّف الهواء سيكون أمرًا رائعًا، سيّدي المدير، لكنّني لا أملك معلومات أقدّمها لك. لا أعرف شيئًا عن المقالات، ولم أرَها حتّى. نحن لا نستطيع الحصول على الإنترنت في موبيوس كما تعرف.

كوّرت يديّ لتصبحا كالقبضتين كي أوقف ارتجافهما، وركّزت ذهني على تجمّع «احتلال موبيوس»، وعلى صيحات أفراده ولافتاتهم

وقبضاتهم المرفوعة. وسمعت صوت ثريّا في عقلي: «نحن معك»، فتعاظم فيّ الشعور بالثقة.

نظر المدير إلى مراقبَي الصليب الأحمر اللذين كانا يوثّقان محادثتنا، ثمّ قال لي:

– آنسة أمين، دعيني أكُنْ واضحًا. كاميرات الأخبار في الخارج، والمحتجّون لن يلبثوا أن يرحلوا قريبًا. أمّا المراقبان خلفك، فليسا سوى مراقبين. وعمّا قريب سنعود لنكون وحدنا، في مخيّم موبيوس الصغير. أليس من الأفضل أن نكون كلّنا أصدقاء؟ وتابع يقول وهو يبتسم ابتسامة تهديد: حاولي أن تتذكّري هذا يا آنسة أمين. أيّها العريف رينولدز!

فتح جايك الباب عند سماع زعيق المدير باسمه، وقال له الأخير:

– أيّها العريف، رافق الآنسة أمين إلى مقطورتها السكنيّة. ثمّ توجّه إليّ مجدّدًا: انتهينا في الوقت الراهن. كنت سأقول لك ألّا تذهبي إلى أيّ مكان يا آنسة أمين، لكنّ كلينا يعلم أنّه لن يكون بمقدورك الابتعاد كثيرًا، وذلك لفترة طويلة مقبلة، أليس كذلك؟

وقفت والتفتّ إلى المراقبين وحيّيتهما بحركة من رأسي. عضّت المرأة على شفتها فيما نظر الرجل في الاتّجاه الآخر. لعلّي فزت بتعاطفهما، لكنّ التعاطف لن يحرّرني.

الفصل 25

في الصباح التالي، سرت وعائشة إلى عملنا في الحديقة. وخلال سيرنا كان ذهني يعصف بالمعلومات التي أطلعني عليها المدير أمس. لماذا لم يخبرني والداي عن الرسائل؟ هل هي حقيقيّة حتّى؟ هل اختلق المدير الأمر كلّه؟ هل كان امتحانًا غريبًا من جانبه ليرى إن كنت سأقول لهما شيئًا أو سأخفي ما أعرفه؟ كانت أفكاري مشوّشة جدًّا، ولا أرى شيئًا بوضوح. حين رفعت بصري لأنظر إلى ما بعد السياج، لم أرَ سوى أمواج من السراب تغيّر مواقع نباتات الصحراء والجبال في البعيد. لا شيء كان في مكانه الصحيح.

كان الحرّ يجعل كلّ شيء أكثر بطئًا، بما في ذلك الخطوات والأفكار.

– لماذا استدعاك العريف رينولدز أمس وذهب بك؟ سألتني عائشة ونحن نجرجر خطواتنا. كنّا كالعادة قد تقابلنا خلال العشاء، لكنّنا، بوجود العدد الكبير من الحرّاس الجدد، اتّفقنا على ألّا نتحدّث حين نجتمع سوى بالأمور التافهة.

– أراد المدير أن يعرف إن كنت سأتعاون.

– فيمَ؟

– يريدني أن أكون مخبرة.

– مخبرة؟ لكنّه يعرف مَن شارك في الحادث، قالت عائشة راسمة بأصابعها مزدوجين للإشارة إلى الحادث، ولم يأخذنا للتحقيق.

– الأمر يتعلّق بالمقالات المسرّبة. يظنّني على علم بأمرها.

– هذا يدلّنا على أنّه ليس مغفّلًا.

– يريدني أن أبوح له بأسماء المنظّمين، وأبلغه عمّا إن كان ثمّة ما يُخطّط له. يبدو أنّه يظنّ أنّ بعض البالغين يستغلّوننا لتنفيذ أجندة الحرّية الراديكاليّة التي يعتنقونها.

– يا للإهانة. ألا يظنّنا قادرين على التخطيط لأمر بمفردنا؟

– يعجبني شعورك بالإهانة لأنّه يستخفّ بنا، قلت لها ضاحكة. هو يريد إلقاء اللوم على بالغين لأنّ من الأسهل إرسال شخص بالغ إلى مواقع العمليّات السريّة، حيث يمكنه تعذيبه. في التحقيق مع الأطفال مجازفة أكبر. كما لا أظنّ أنّ كبرياءه تسمح له بتحمّل أن تبصق عليه مجموعة من المراهقين، بالمعنى المجازيّ للتعبير.

– أرجوك أخبريني أنّ ما تخطّطين للقيام به يشتمل على أن نبصق عليه، حرفيًّا. رجاءً. رجاءً.

– ما أدراك أنّني أخطّط لشيء؟

– رأيتك تكلّمين ثريّا أمس.

– تريد مساعدتنا، وكذلك رشما وأنجم.

– يا للهول! مافيا المحجّبات تريد المشاركة. الأمر يصبح جديًّا.

– سبق أن جابهن تحدّي العنصريّين وكارهي الإسلام، فلماذا لا يشاركن؟

– لم أفكّر في الأمر على هذا النحو، قالت عائشة.

– ولا أنا، وتلك حماقة منّي، نظرًا إلى جرأتهنّ في إصرارهنّ بعد الانتخابات على ارتداء الحجاب خارج المنزل. الأساس هو أنّنا متّحدات

في الأمر بصرف النظر عن مدى تديّننا. ألسنا هنا لأنّنا كلّنا مسلمون؟ علينا أن نقوم بشيء ما بسرعة. في الغد مثلًا، فوسائل الإعلام لن تبقى في الخارج إلى الأبد. مضى على آخر مقالة عمّا يجري داخل موبيوس نحو يومين، وتعرفين أنّ اهتمام الناس هذه الأيّام لا يدوم أكثر من خمس عشرة ثانية. يجب أن نفعل شيئًا غدًا بعد العشاء.

– ماذا سنفعل؟

– سنقوم بتظاهرة إلى البوّابة الأماميّة ونقف وقفة احتجاج صامتة.

– هذا الأمر يبدو مملًا، ومستحيلًا أيضًا. كيف سنصل إلى هناك؟ لن يسمح لنا الحرّاس بالسير بذاك الاتّجاه بعد العشاء. علينا العودة توًّا إلى مربّعاتنا، أتتذكّرين؟

توقّفت عائشة ووضعت يدها على ساعدي، وسألتني: هل من الخطأ أن أتمنّى لو أنّ سهيل هنا؟ لا أعني أنّني أريده مسجونًا هنا، بل أريده أن يكون معنا. معي. كان سيتحمّس كثيرًا لهذا الأمر، لكنّني مسرورة أنّه بأمان الآن.

لاحظتُ للمرّة الأولى أنّ وجه عائشة يبدو عليه التعب والإرهاق. كانت تحاول جاهدة المحافظة على حماستها، لكنّ موبيوس يستنزفنا جميعًا.

– أعرف ما تعنينه. ولا شكّ في أنّ سهيل يتمنّى أن يكون هنا أيضًا، قلت لعائشة ثمّ عانقتها، قبل أن أشير إليها لنواصل السير. وحين اقتربنا من الحديقة، قلت لها: سنعالج التفاصيل، كلّي ثقة بنا.

رفعت عائشة إبهامها بكلّ حماسة، ثمّ ذهبت لتلقي التحيّة على ناديا التي كانت ونديم قد بدآ باقتلاع الأعشاب الضارّة.

كان عليّ التفكير في التفاصيل. سيتعرّض مزيد من الأشخاص للأذى، أعرف ذلك، هذا أمر محتوم. علينا تقليل المخاطر، ووضع خطّة كاملة. ولكن بصراحة، كانت تلك تجربتي الأولى في التخطيط، وأفتقر إلى الخبرة اللازمة.

قمت بمسح بصريّ لمحيطي وأنا أحمي عينيّ من الشمس الساطعة بيديّ. كان المخيّم هادئًا في الأيّام الأخيرة. حتّى ضحكات الأطفال الصغار بدت جوفاء. وقع بصري على جايك الذي كان يتولّى وحارسًا آخر الحراسة عند كوخ العدّة. سرت إليهما للحصول على قفّازات ورفش صغير.

– ليلى، أقدّم إليك صديقي المجنّد فريد أدامز.

سبق لي أن رأيت فريد مع جايك، كما أنّ هذا الأخير ذكر اسمه أمامي، لكنّه الحارس الأوّل الذي يقدّمه جايك إليّ، وتابع يقول لي:

– إنّه صديق، لكلينا.

رفع فريد رؤوس أصابعه إلى طرف قبّعته، ثمّ ابتسم لي، فظهر لي صفّان من الأسنان السليمة البيضاء وغمّازة في خدّه الأيسر.

رددتُ له التحيّة بحركة من رأسي وسألتهما:

– كيف حظيتما بهذه المهمّة؟

– تطوّعنا للخدمة في هذه النوبة بدلًا من الحارسين الآخرين، وهي ليست نوبتنا أصلًا.

– يظنّانه مفتونًا بك، قال فريد، لذلك يستغلّ الأمر لمصلحته. أمّا هما فقد سُرّا بالاستراحة.

تنحنح جايك ثمّ قال:

– أفعل كلّ ما هو مطلوب لإنجاح الأمر.

– صحيح، قلت له، كلّ ما هو مطلوب، أشكر لكما تبديل النوبات. يجب أن أكلّم الآخرين، لكنّ الحرّاس ينصتون إلينا دائمًا.

– حسنًا، ستعود الطائرة المسيّرة إلى هنا بعد أقلّ من عشر دقائق، استغلّي هذا الوقت ولكن أسرعي.

لم يكن لديّ وقت طويل للتفكير، وبدا أنّ جسدي يسبق عقلي. أخذت عددًا من القفّازات وبعض المجارف من مختلف الأحجام، وأشرت إلى مجموعة العاملين في الحديقة لينضموا إليّ. أتت ثريّا وعائشة وناديا

ونديم، وتبعهم الآخرون، وبينهم فتيان وفتيات جدد في المجموعة. كنت حذرة بشأن الوثوق بأيّ شخص جديد، لكنّني لم أملك خيارًا واسعًا.

تحلّقنا في نصف دائرة بالقرب من البقعة المخصّصة لنا في الحديقة. أعطيت ثريّا القفّازات، كما أعطيت عائشة المجارف، وقلت لهما:

– وزّعا هذه الأدوات على الجميع ببطء كبير. لعلّ الطائرات المسيّرة ليست فوقنا الآن، لكنّنا في مكان مكشوف، ويجب أن نتصرّف بطريقة طبيعيّة، بالقدر الممكن.

سار جايك والمجنّد فريد أدامز إلى بركة المياه بحيث نصبح بعيدين عن مسامعهما، وقلت للمجموعة:

– لا تقلقوا، لن يعودا بسرعة.

– هل تثقين بهما؟ سألني فتى يدعى عبدل.

– لا نملك وقتًا كثيرًا يا عبدل، ردّت ثريّا على سؤاله. إذا قالت ليلى إنّ كلّ شيء جيّد، فهذا يعني أنّ كلّ شيء جيّد.

– أعرف أنّ ثريّا كلّمت بعضكم. خطّتنا هي أن نخرج من قاعة الطعام غدًا ونسير توًّا إلى المنطقة الواقعة أمام المدخل الرئيسيّ للمخيّم، لكي يستطيع المحتجّون، ولا سيّما وسائل الإعلام، أن يرونا. وبعد ذلك نقف في خطّ واحد.

– أهذا كلّ ما سنفعله؟ أنكتفي بالوقوف هناك؟ سألني عبدل.

– مجرّد القيام بذلك سيكون صعبًا جدًّا، قالت عائشة، لا نعرف حتّى إن كنّا نستطيع الوصول إلى هناك وتنفيذ وقفتنا الاحتجاجيّة قبل أن يطردنا الحرّاس.

– نحتاج إلى عمليّة تضليل، إلى ما يسمح لنا بمغادرة قاعة الطعام بدون أن يُقبض علينا، أقلّه ليس بسرعة، قلتُ شارحة.

– كلّمت بعض القاطنين في مربّعنا، قالت ثريّا، وأحدهم يعمل في قاعة الطعام، وبعدما رأت كلّ العيون مصوّبة نحوها تابعت: قال لي إنّ بإمكانه الدخول إلى علبة الكهرباء في المخزن وقطع التيّار.

– إلامَ يؤدّي ذلك؟

– إلى انطفاء الأنوار، قلت بابتسامة صغيرة. قد تكون تلك فرصة مثاليّة، أو ربّما فرصتنا الوحيدة، حقًّا. لحظة تنطفئ الأنوار، يمكننا الخروج والتوجّه إلى المركز. سنلتقي عند سارية العلم، ومن هناك نسير الخطوات القليلة الأخيرة نحو المدخل الرئيسيّ معًا. قد لا يكون لدينا متّسع من الوقت قبل أن يدفعونا إلى الخلف، ولكن يجب أن نبقى ما يكفي من الوقت ليرانا الصحافيّون.

– ما رأيكم بأن يرفع كلّ منّا قبضته عاليًا؟ اقترحت ناديا.

– لكنّنا لسنا كلّنا سود البشرة، قال عبدل.

– حقًّا؟ قالت ثريّا وهي تقلّب عينيها تأفّفًا، لم نلاحظ ذلك أبدًا، شكرًا على التوضيح! القبضة المرفوعة تعني الوقوف في وجه القمع والعنصريّة، وهي ليست خاصّة بعرق معيّن أو ثقافة معيّنة. إنّها ملكنا جميعًا، والأمر سهل. سنقف الكتف إلى الكتف، ونرفع قبضاتنا اليمنى فوق رؤوسنا. هذا كلّ شيء. الجميع يعرف ما هي تلك الحركة وماذا تعني.

تذكّرت الخالة خديجة، المرأة العجوز في مربّعنا، التي رفعت قبضتها لدعمي حين كان البعض ينتقدني بسبب قرار الصيام. ابتسمت. الفكرة كانت مثاليّة. لكن، قبل أن أستطيع الإجابة، سارع عبدل بالقول:

– وكيف لفتاة محجّبة أن تعرف شيئًا عن الوقوف في وجه القمع؟

– هل أنت جادّ في ما تقول؟ سألته ثريّا وهي تقترب منه في تحدٍّ، إن كنت كذلك فجهلك صارخ. ربّما عليك أن تثقّف نفسك. أنا لست مقموعة، ولست بحاجة إلى مَن ينقذني. أنت مَن هو بحاجة إلى الإنقاذ.

– أنت حقًّا تتكلّم كواحد منهم يا عبدل، أضفتُ، أتعرف شيئًا واحدًا عن تاريخ النساء المسلمات ذوات المواقف المشرّفة؟

– أو عن المسلمات المعاصرات، قالت عائشة، أطلق أفراد من طالبان النار في وجه مالالا، ولم يمنعها ذلك من النضال لأجل حقوق النساء. هذه فتاة محجّبة تملك في خنصرها فقط شجاعة تفوق شجاعة كلّ مَن عرفتهم من الرجال.

– كلام فارغ، قال عبدل وهو يركل التراب.

– اسمع، قلت له بحدّة، دعني أوضح الأمر: في هذا المكان عدوّ واحد فقط، وهو يتمنّى أن ينقلب واحدنا على الآخر. يريدوننا أن ننقسم فرقًا. لهذا السبب فرّقوا بيننا أصلًا. لا تقدّم للمدير هذه الفرصة ليشعر بالرضى. إن لم تُرد المشاركة في ما نفعله، فلا أحد يرغمك على ذلك. ولكنّك إذا شاركت، فإيّاك أن تنتقد أحدًا، أو تتصرّف بحقارة، أتفهمني؟

– نعم، أضافت ثريّا، «في الاتّحاد قوّة، وفي الانقسام سقوط»، وما إلى ذلك من الشعارات الوطنيّة الأميركيّة.

نظرت إلى المجموعة، فرأيت معظمهم يهزّون رؤوسهم موافقين. أمّا عبدل فكان ينظر بعيدًا حانقًا كمَن أُنزل به العقاب.

صفّر جايك. نظرت في اتّجاهه ثمّ قلت:

– الطائرات المسيّرة قادمة. هيّا إلى العمل والزموا الصمت. سنتحرّك غدًا بعد انطفاء الأنوار في قاعة الطعام.

سارت ثريّا معي إلى إحدى زوايا الحديقة، وركعت متظاهرة بالعمل فيما حلّقت فوقنا إحدى الطائرات المسيّرة، ثمّ قالت لي:

– كلّمت ناديا ونديم، ونظنّنا نستطيع إقناع بعض الآخرين بالانضمام إلينا.

– حسنًا، توخّيا الحذر، ولا تقولا شيئًا لمَن لا تثقان به. احرصا على أن يدرك الجميع المخاطر، فلا أظنّ المدير سيتساهل هذه المرّة.

- إنّهم يدركون ذلك. كلّنا ندركه، لكنّ الخيار غير متاح، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

فحتى لو جلسنا بهدوء، مكتوفي الأيدي، بإمكانهم أن يقتلونا إذا أرادوا ذلك.

الفصل 26

قضيت تلك الليلة وأنا أتقلّب في سريري، باحثةً عن طريقة لأشعر بالارتياح، وبالاسترخاء. أزحت غطاء السرير عنّي ثمّ أعدته. وحملقت في فرشة السرير فوقي وكأنّني أتوقّع منها أن تبوح لي بأسرار الوجود.

لا أظنّني نمت ملء جفوني ليلة واحدة في موبيوس. لم أستطع أن أتخيّل كيف كانت حياة معتقلي مانزانار. لم يكن بوسعنا أن نرى المخيّم القديم من حيث نحن، لكنّنا كنّا نعرف أنّه هناك، بمثابة تذكير لنا، أو تحذير. لقد أقامت عائلات كثيرة بداخل ثكنة، بل بداخل عنابر وخيم متداعية.

لكنّ السجن هو السجن، برأيي، وإذا أضفنا إلى ذلك اعتبار المرء عدوًّا لبلده، وشعوره بأنّه محلّ كراهية... لعلّ هذا ما شعر به أيضًا معتقلو مانزانار. تساءلت عمّا إن كان أثر ذلك يمكنه أن يزول يومًا. حتّى إن خرجنا من هنا، فهل سيصبح الخوف جزءًا من الحياة اليوميّة، كالتنفس؟ حتّى إنّه لا وجود لحرب حقيقيّة، كالحرب العالميّة الثانية، ولا يعدو الأمر كونه هجمات إرهابيّة وانتقامًا، وأعداءً بلا حدود. لا يمكن

وجود نهاية لذلك. خشيتُ أن نتعفّن هنا ونموت، ونُمحى من الذاكرة، ونُنسى تمامًا.

هل ستتألّف حياتي من جزءين فقط؟ ما قبل موبيوس وما بعده؟

أيقظتني صفّارة إنذار المخيّم من نومي بعنف. جررت قدميّ خارج السرير، وغسلت وجهي بالماء، ثمّ ارتديت ملابسي وخرجت من غرفتي. رأيت والديّ جالسين كالعادة إلى طاولة الطعام الصغيرة يشربان الشاي، تمتما لي بتحيّة الصباح بدون أن ينظرا إليّ حتّى.

منذ حادث قاعة الطعام، ومنذ أن سمعا بخبر الفيديو الذي بُثّ مباشرة عبر إنستغرام، وهما بالكاد يكلّمانني. يعرفان أنّ الآخرين يلقون عليّ باللوم بسبب التدابير الجديدة. صحيح أنّهما لم يكونا يسمحان لأحد بأن يتناولني بالسوء بكلامه، لكنّ ذلك لا يعني أنّهما وافقا على ما فعلته. طلبا منّي أن أعدهما بألّا أقوم بأيّ «حماقة،» لكنّني رفضت فظلّت البرودة سائدة في مقطورتنا. أفهم أنّهما قلقان ويحاولان الاعتناء بي، لكنّني لا أستطيع الإذعان لتوسّلاتهما أو تسكين مخاوفهما. لم أحدّثهما عن التهديدات التي قال المدير إنّهما تعرّضا لها، ولكنّني سمعتهما من خلال باب غرفة نومي يتحادثان مساء أمس، بعدما ظنّاني غفوت. كانا يحاولان الوصول إلى قرار حول ما إن كان عليهما أن يخبراني. وقرّرا ألّا يفعلا وأن يخفيا عنّي التهديدات لأنّهما يريدان حمايتي. ولكنّ كلًّا منهما يعتقد في أعماقه، وعلى طريقته الخاصّة، أنّني خارج دائرة حمايتهما، وهذا الأمر يرعبهما. لعلّ إخفاء التهديدات يمنحهما قدرًا من العزاء، ويجعلهما يعتقدان أنّهما لا يزالان يستطيعان حمايتي من بعض أهوال العالم. لن أخبرهما أنّني على علم بالأمر، فلأدعهما هكذا. هذا آخر ما بقي لي لأمنحهما إيّاه.

حين غـادرت المقطورة مع والـديّ، شاهدتُ دوّامـات صغيرة من الغبار ترتفع حول مربّعنا، ورأيـت آخرين من المربّع الثاني يجرجرون أجسادهم المتعبة ليقفوا في الصفّ بانتظار التعداد، ويحاولون حماية عيونهم من الغبار ونور الشمس. خرج المشرفون بابتساماتهم البهيجة المثيرة للاشمئزاز، وكأنّهم ليسوا خونة، أو كأنّ تلك الابتسامات تحبّب الناس إليهم أو تجعلهم يتقبّلونهم. أكاد لا أطيق النظر في وجوههم، بسبب ما وافقوا على القيام به، وما يشاركون فيه، وما يسمحون بحدوثه لبشر آخرين لكي يشعروا بأنّهم يملكون وَهْم السلطة، أو أثرًا من القدرة على التحكّم بالآخرين. لا أنفكّ أتذكّر رواية للكاتبة أورسولا لوغوان قرأناها العام الماضي عن مدينة فاضلة يعيش أهلها في حال من النعمة، لكنّ تلك النعمة لم تظهر إلى الوجود إلّا كردّ فعل على قباحة مروّعة. هكذا هم المشرفون علينا، إنّهم البالغون في مدينة أوميلاس كما تصوّرهم الرواية، أي الذين يبتسمون ويتابعون نهارهم ويمرحون، وهم يعيشون وهم الحرّية الزائف فيما أرواحهم ذاوية وعقيمة ومحطّمة.

لكنّ أكثر ما أجده مقزّزًا هنا هو ردّ الفعل التلقائيّ على كلّ ما يحدث، ففي التعداد الصباحيّ يمدّ الجميع معاصمهم لمسح رمزهم الإلكترونيّ، وكأنّنا خضروات في متجر بقالة، فضلًا عن أنّنا بتنا جميعًا نحمل رمزًا إلكترونيًا. فركت موقع الحبر الخفيّ بإصبعي. صحيح أنّه لا يظهر إلّا للأشعّة فوق البنفسجيّة، لكنّه مطبوع في داخل جلدي، كوصمة ستلازمني إلى الأبد.

حتّى مجرّد معرفة وجود هذه العلامة يبعث على الخوف، خوف كافٍ لجعل الناس ينسون جوهر هويّتهم. لكنّه سبب إضافيّ لئلّا نتخاذل أو نستسلم، سبب إضافيّ لكي نقاوم.

حين وصلت فوزيّة إليّ محت عن وجهها ابتسامتها الباردة، وعبست، ومسحت الرمز الإلكترونيّ على معصمي. هذا جيّد، ففي أيّ

حال، أنا أفضّل تكشيرتها على ابتساماتها الزائفة. نظرتُ إلى الواقفين خلفي في الصفّ وأومأتُ إلى عائشة أحيّيها بحركةِ تَمَوُّجٍ بأصابعي. كان والدا هذه الأخيرة يحاولان إبعادها عنّي، خشية تأثيري السيّئ عليها، لكنّها كانت تتجاهلهما، لأنّها فتاة رائعة. ردّت بحركة إيمائيّة تُقلّد عمل البستنة، ونقرت بسبّابتها على ساعة يد وهمية في معصمها. ابتسمتُ ووافقتها بحركة من رأسي. الوحدة قاتلة، وصداقة عائشة نعمة حقيقيّة.

أطلت البقاء عند مدخل مقطورتنا فيما اتّجه والداي إلى المركز قبل موعد بدء الدوام بقليل. كانا يستمتعان بقضاء لحظات الوحدة معًا وبصمت. نظرت إليهما يبتعدان عنّي وكلّ منهما يمسك يد الآخر، فأحسست بانقباض في حلقي. ليتهما يفهمان، أو يكونان أقلّ نزوعًا إلى حمايتي أو أقلّ خوفًا. ولكنّني عرفت في تلك اللحظة أنّ المسافة المتزايدة هي نوع من الحاجز الذي أقمتُه بيننا. ليس لأنّ والديّ هما العدوّ، فهما نقيض ذلك تمامًا، وأكثر مَن أحبّهما في العالم، وأريد حمايتهما، ولو بالقدر البسيط. أرجو أن أصلح الحال معهما يومًا ما. ولكن إذا عجزت عن إصلاح العلاقة بيننا، فتلك تضحية أنا مستعدّة للقيام بها، لأنّ كذبي عليهما يبقيهما بمأمن. ولا أشكّ في أنّهما قاما بالحسابات عينها.

تذكّرت أوقاتًا أفضل قضيناها معًا: ليالي مشاهدة الأفلام في قبو بيتنا، وأكل الفوشار معًا، وولع أمّي الجدّي بأفلام الثمانينيّات من بطولة مولي رينغوولد. كان دايفيد ينضمّ إلينا أحيانًا لمشاهدة الأفلام. دايفيد. شعرت بيد خفيّة تقبض على صدري. أحاول دفن ذكرياتي عنه، وعنّا، في أعماق ذهني، في المكان الذي لا يمكن بلوغه إلّا بالأحلام. يجب أن أضبط عاطفتي، وإلّا فلن أستطيع الاستمرار. سيسحقني ثقل ذاكرتي. ضغطت عينيّ بكفيّ، في محاولة للجم الدموع التي كانت على وشك تشويش صفاء رؤيتي.

– أنتِ بخير؟

عند سماعي صوت جايك رفعت رأسي نحوه. كانت كتفاه العريضتان تحجبان الشمس.

– إنّه الغبار، أجبته وعيناي ترفّان.

كان المربّع خاليًا، فابتعدت قليلًا لأفسح له مجالًا للجلوس على الدرجات المعدنيّة أمام مقطورتي، لكنّه تردّد في القبول وقال لي:

– لا بأس، الجميع بات يرتاب بي.

ثمّ صفر لصديقه فريد الذي كان يشاركه نوبة الحراسة في مربّعنا، ورفع في اتّجاهه خمس أصابع. ثمّ جلس متردّدًا بالقرب منيّ. كانت الدرجة صغيرة، وفجأة أدركت أنّنا قريبان جدًّا لدرجة أنّني استطعت أن أشمّ الرائحة الحلوة للبنّ المدخّن والمطحون التي تنبعث منه. فسألته:

– هذه ليست رائحة القهوة التي تُقدَّم في قاعة الطعام. أهي مهرّبة؟

– أطحن البنّ الخاصّ بي، قال ضاحكًا، إنّه أحد الدروس التي علّمني إيّاها أبي للحياة العسكريّة. كان أبي عسكريًّا حتّى النخاع. وحين غادرت المنزل للخضوع للتدريب الأساسيّ، قال لي: اطحن البنّ الخاصّ بك دائمًا.

– أهي استعارة ما؟ سألته.

– لا، كان يقصد أن أطحن البنّ الخاصّ بي حرفيًّا. فالقهوة التي تُقدَّم في مخيّمات التدريب الأساسيّ رديئة جدًّا.

وضحكنا معًا.

سمح ابتعاد بعض السحابات الرقيقة في السماء لشمس الصباح بأن تشعّ على وجهينا. منحنا ذلك إحساسًا جميلًا ودافئًا دام لبعض الوقت، قبل أن يتحوّل الدفء إلى حرّ شديد. رفع جايك كمّيه فظهر لي الوشم على شكل بوصلة الذي رأيته على ساعده الأيمن حين كنّا على متن القطار. كان وشمًا صغيرًا وبسيطًا، وعلى صورة سهمين متصالبين وبينهما كلمة «شمال» بالحبر الأسود.

قرّبت سبابتي لملامسة ذراعه، لكنّني ما كدت ألمسها حتّى انقبضت عضلاته، فسحبت يدي بسرعة. إلّا أنّ فضولي دفعني للسؤال:

– ما قصّة وشم البوصلة هذا؟

فرك جايك الوشم بإبهامه، ثمّ التفت إليّ بابتسامة حزينة أحسست بأنّها كخنجر ينغرز في قلبي، وسألني:

– هل ذهبت يومًا إلى بحيرة كاسل لايك؟

– بالقرب من جبل شاستا؟

وحين هزّ جايك رأسه علامة الإيجاب، تابعت أقول:

– يستأجر أبي كوخًا هناك أحيانًا للكتابة. قصدته ووالدتي قبل نحو عامين لنشاركه خلوته تلك لنهاية أسبوع طويلة. سرنا قليلًا في جبال تلك المنطقة، حتّى إنّ أبي ألّف قصيدة يصفها. لعلّه لم يصف تلك البحيرة بالتحديد، بل وصف بحيرة جليديّة تشعّ فوقها نجوم هادئة وفضّية.

– يبدو من كلامك أنّها قصيدة جيّدة، قال لي جايك بنصف ابتسامة، كانت أمّي من عشّاق رياضة السير في الجبال. وحين كنت في عامي الحادي عشر سرنا، نحن الاثنين فقط، من بحيرة كاسل لايك إلى بحيرة هارت لايك. وأعطتني حينذاك بوصلة، وطلبت منّي السير في المقدّمة عبر جون أوتلت كريك، حتّى وصلنا إلى درب ضيّق ومجهول تمامًا. كانت تلك الرحلة قصيرة، ولا تتجاوز ميلين أو ثلاثة أميال، وتخلو من الارتفاعات الحادّة، وغير وعرة. لكنّني شعرت بتوتّر شديد حينذاك، لأنّني، عند سرجٍ جبليّ، كان عليّ اختيار طريقي، ورفضت أمّي أن تساعدني، بل اكتفت بالإشارة إلى بوصلتي.

– سرج؟

– إنّه مكان مرتفع بين قمّتَين، يشبه سرج الحصان، قال جايك، لكنّني في أيّ حال وجدت الطريق إلى بحيرة هارت لايك. وتلك البحيرة لها فعلًا شكل القلب (هارت بالإنكليزيّة). عانقتني أمّي وقالت لي أن أثق

بنفسي، وإنّ لي قلبًا طيّبًا. ثمّ قالت لي كلمات لن أنساها أبدًا: البوصلة لا تخبرك أين أنت، ولا تخبرك أين يجب أن تذهب. إنّها فقط تشير إلى الشمال. لكنّ عليك أنت أن تجد شمال البوصلة الخاصّ بك، أي وجهتك الحقيقيّة. كانت تلك الرحلة الأخيرة التي قمنا بها معًا.

أخذ جايك نفسًا عميقًا ونظر إلى الجبال. بدون تفكير، اقتربت منه وأمسكت بيده. لم أكترث لاحتمال أن يرانا الناس، فهذا المخيّم كلّه جرح ضخم مفتوح. إنّنا ندفن مشاعرنا في أعماق أعماقنا، وكأنّنا لم نعد بشرًا، ونخفيها عن أفراد عائلاتنا وأصدقائنا، وكلّ مَن يمكننا أن نحبّهم. أمّا الحقيقة الوحيدة التي نتبادلها فهي الخوف في عيوننا، الذي لا يمكننا إخفاؤه. وقد سئمت ذلك كله. شدّ جايك على يدي لكنّه سارع إلى إفلاتها، فمِلت برأسي لأنظر إليه وعلى شفتيّ ابتسامة حزينة، ثمّ تنهّدت بصوت مرتفع وقلت له:

– اشتقتُ إلى أن أتنفس.

– أعرف، أجابني، لا أوكسجين في هذا المكان. ليتني أستطيع أن أهرب بك إلى بحيرة هارت لايك. ذهبت إلى هناك كثيرًا بعد رحلتي تلك مع أمّي. حين تغيب الشمس في أيّام الصيف، تبدو السماء فوق جبل شاستا برتقاليّة اللون وذهبيّة. إنّه مشهد رائع. يمكنني أن أقف هناك أيّامًا، ولا أظنّ عينيّ تملّان ذلك المشهد أبدًا. يمكنك أن تحسّي بالهواء نقيًّا هناك، وأن تتنفّسي.

لم أعلم ما أقول، لم أجد كلمات أقولها. لعلّ من الأفضل ترك بعض اللحظات على بساطتها. جلسنا بهدوء لدقيقة، وكلّ منّا يلتفت إلى البعيد، بدون أن تتلاقى نظراتنا. ثمّ تنحنح جايك وقال لي:

– أرسلتُ مقالة أخرى إلى مدوّنة «احتلال موبيوس»، ومن هناك ستنتشر في كلّ مكان.

– أصبحتَ رسميًّا أحد الخارجين عن القانون.

– هذا أقلّ ما يمكنني عمله.

– يجب أن تتوخّى الحذر، فبإمكانهم تعقّب عنوان مزوّد الإنترنت الذي تستخدمه.

– لا تقلقي، أستخدم متصفّحًا يخفي الهويّة الإلكترونية، ولعلّهم يفعلون ذلك هم أيضًا. لعلّهم يستخدمون للنشر خوادم في عشرة بلدان مختلفة، أو تكنولوجيا كتلك التي نراها في أفلام جايسون بورن. سأكون بخير، كما أنّ كلّ ما أفعله لا يُقارن بالمجازفات التي قمتِ أنت وستقومين بها.

– أنا؟ أشعر بنفسي كطفلة صغيرة تتقاذفها الأمواج العاتية.

– أنت أكثر من ذلك. أنت شجاعة، بل أكثر شجاعةً من جميع مَن التقيتُهم.

– حسنًا، تلك الشجاعة، أو الحماقة كما يحلو لي أن أسمّيها، على وشك أن تخضع للاختبار هذا المساء.

– سأكون موجودًا. الصحافيّون والمحتجّون سيعلمون أيضًا. أرسلت إلى دايفيد رسالة نصيّة بما ستفعلونه هذا المساء، وسينقل ذلك إلى وسائل الإعلام ومجموعة «احتلال موبيوس». سينتقل الخبر من شخص إلى آخر، لا عبر الإنترنت، لئلّا يعرف به المدير قبل مساء اليوم. لا تقلقي، نستخدم هواتف ببطاقات لمرّة واحدة، واتّفقنا على شيفرة خاصّة بنا للتواصل. كما أنّني لا أستعمل الهاتف إلّا خارج المخيّم.

– أكنت على اتّصال بدايفيد؟

– معظم ما نتبادله يتعلّق بتفاصيل ما يجري، كما أنّني أطمئنه أنّك بخير، فهو قلق عليك. أتعلمين أنّه يحبّك حقًّا؟ إنّه شابّ صالح.

– أنا محظوظة، أجبته همسًا.

– هو المحظوظ، قال جايك ثمّ نظر إلى الجبال وصمت قليلًا قبل أن يستأنف: حين قلت لك أن تتوخّي الحذر، كنت أعني ما أقول، فليس دايفيد وحده مَن يقلق عليك.

فتحت فمي لأردّ بتعليق ساخر، لكنّ جايك قاطعني قبل أن أتفوّه بكلمة واحدة وقال:

– أرجوك. عليك أن تأخذي تحذيري على محمل الجدّ، فالمدير يستهدفك. كان مراقبو الصليب الأحمر هنا، ولك من العمر سبعة عشر عامًا، وهذان العاملان أسهما إلى حدّ ما في حمايتك. لكنّ مراقبي الصليب الأحمر سيرحلون، وهو يعرف أنّ عيد مولدك بعد أسابيع قليلة. أخشى أن يأمر بنقلك إلى موقع للعمليّات السريّة بدون أيّ سبب. يجب أن نخرجك من المخيّم قبل ذلك الحين.

– أتظنّه سيأتيني بهديّة؟ سألته بسخرية لأنجو من موجة الرعب الهائلة التي اجتاحت جسدي في تلك اللحظة.

– هذه ليست دعابة. دايفيد يخشى الأمر عينه، ووالده يبحث عن وسيلة لإخراجك من هنا قبل أن تبلغي عامك الثامن عشر.

– والده؟ إنّه نذل، فقد وقف متفرّجًا على حدوث هذا كلّه ولم يحرّك ساكنًا. ربّما كان عليه الاستفادة من معارفه في وزارة الخارجيّة قبل أن يتمّ اقتيادنا كلّنا. كانت كلماتي تخرج من فمي كالمسامير، وتابعت أقول: لا يمكنني الرحيل من هنا بدون والديّ وأصدقائي، فالمدير سيسعى للانتقام منهم، ولا يمكنني السماح بحدوث ذلك. لن أستطيع تحمّل الأمر إذا ما حدث.

– وما سيكون شعورنا برأيك إذا ما حدث لك شيء ما؟

– لا يمكنني التفكير في هذا حاليًا. آسفة، إنّها الطريقة الوحيدة التي يمكنني التعامل بها مع الأمر. لن أغادر هذا المكان إلّا إذا غادره الجميع معي.

الفصل 27

أمضيت النهار كلّه أفكّر في القصّة التي أخبرني إيّاها جايك في الصباح، عن ضرورة عثور الشخص على وجهته الحقيقيّة، واختيار الطريق الذي عليه سلوكه. وفيما سرت مع عائشة إلى قاعة الطعام لتناول العشاء، أدركت أنّني اخترت طريقي.

– أتظنّين الأمر سينجح؟ سألتني عائشة ونحن نحثّ الخطى للوصول إلى قاعة الطعام.

– هذا الأمر رهن بصديق ثريّا الذي يعمل في المطبخ، أجبتها، وتفكيري في مكان آخر.

– أنت بخير؟ تبدين مشتّتة الأفكار. صحيح أنّني أفهم السبب، ولكن لماذا؟

ابتسمت لها نصف ابتسامة لأنّها دائمًا ما تصيب في إدراك جوهر الأمور، وقلت لها:

– أظنّني قلقة، أكثر من المألوف. أخبرني جايك أنّ هناك نوعًا من الحماية يحول دون اقتياد المعتقلين الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة إلى خارج المخيّم للتحقيق معهم. لكنّ هذا لا يحمي ذوينا، كما أنّ كثيرين

منّا سيبلغون الثامنة عشرة عمّا قريب. وبعضنا قد بلغوها، وإذا ما قُبض عليهم فالمدير يستطيع...

– إخفاءهم؟ سألتني عائشة مستكملة عبارتي.

– نعم.

– لنأمل ألّا يحدث هذا الأمر.

– تراودني أخيرًا فكرةُ أنّ الأمل شعور واهٍ ولا يمكن التشبّث به، اعترفتُ لها.

التعبير عن الفكرة التي تؤرّقني لم يشعرني بالارتياح. لا بل شعرتُ بأنّ ما أقوله خيانة وخطأ ويعبّر عن الانهزاميّة.

فيما واصلنا السير، شدّت عائشة على مرفقي وقالت لي:

– أعرف ما تعنينه. الأمل هو إيمان في الأساس، أليس كذلك؟ وهو غير ملموس، لا يمكن الإمساك به بالمعنى الحرفيّ للتعبير. ولهذا الشكّ أسهل من الإيمان، والاستسلام أسهل من المثابرة. تحادثت وسهيل في الأمر ذات مرّة، وفي أنّ أساس الإيمان هو تصديق ما لا يُرى وما لا يُعرف، وفي أنّ من المهمّ التساؤل، لأنّ البحث عن الإجابة يفيد في شدّ عزيمتنا. لكنّ التشبّث بالأمل ليس سهلًا، بل يتطلّب مجهودًا، ولكنّه ضروريّ، ولهذا السبب...

– هل أنتِ على وشك القول إنّ الثورات مبنيّة على الأمل؟ سألت عائشة وأنا أغمزها.

– اللعنة! لا أصدّق أنّني لم أفكّر في الأمر، قالت عائشة ضاحكة، لكنّ ذلك صحيح، فلسنا نملك الآن سوى الأمل. الأمل وزمرة من المراهقين المسلمين. خذ حذرك منّا أيّها العالم، فالمسلمون قادمون، أضافت وهي تضرب الهواء بقبضتها.

– لقد وصلنا فعلًا.

– ولن نذهب إلى أيّ مكان.

دخلنا قاعة الطعام وأومأنا برؤوسنا إلى شركائنا في المؤامرة. حتّى حَمْل السرّ يبعث على الشعور بالخطر. أتساءل إن كان هذا ما شعر به طلّاب الوردة البيضاء، وكأنّهم يشربون الأدرنالين السائل عبر خرطوم إطفائيّة. وبالخوف، الخوف الدائم، على الجميع.

كانت ثريّا ورشما جالستين مع بعض الفتيان والفتيات من مربّعهم. وكان عبدُل معهم، لكنّه لم يكترث حين التقت عيوننا، بل أوحت لي نظرته وكأنّني غير موجودة أساسًا. شعور غريب، لكنّ أمورًا كثيرة بشأنه ظلّت مبهمة بالنسبة إليّ. أخذنا طعامنا وجلسنا للأكل إلى طاولة خاصّة بالمربّع الثاني. عشاء الليلة يتألف من البيتزا، وكوب فاكهة، ولوبياء غير ناضجة، وحليب. لعلّها المرّة الأولى في تاريخ العالم التي تُذكر فيها، بكثير من الحنين، ساعات الطعام في المدارس الرسميّة. لا أعني أنّني اشتقت إلى ذلك الطعام. لا، على الإطلاق، فقد كان مثيرًا للقرف، لكنّني اشتقت إلى الأمور العاديّة كالوقوف في الصفّ، ومحادثة الأصدقاء، والحصول على طعام رديء بدون الشعور بالرعب الذي يوقف القلب، والناتج عن النظر إلى رجل مسلّح مسموح له بقتلنا.

بدأ الناس ينهضون لإعادة صواني الطعام الفارغة، والحصول على الشاي أو القهوة، وفجأة انطفأت الأنوار في القاعة. شمعت جلبة صحون وصوانٍ كبيرة من جهة المطبخ، وصوت سقوط الشوك والملاعق، واصطدام الناس بالطاولات وبعضهم ببعض وسط الظلمة الحالكة. صرخت إحداهنّ، بسبب سقوط الشاي الساخن عليها كما يبدو، وتحوّل الضجيج إلى فوضى. لكنّ الأضواء لم تنطفئ في قاعة الطعام فقط، فقد نظرت من النافذة ورأيت نوافذ مكاتب الإدارة والمركز معتمة تمامًا أيضًا. لا أعرف ما فعله صديق ثريّا على وجه التحديد، لأنّ المولّدات البديلة ظلّت ساكتة. لكنّني شعرت ببهجة كبيرة، وبأنّني كنت سأقبّله لو كان أمامي.

أمسكت بيد عائشة وأسرعنا نحو مخرج جانبيّ. كان الحرّاس أيضًا مرتبكين وانشغلوا بحلّ مشكلة التيّار الكهربائيّ، ومساعدة الناس، فلم يلاحظوا أنّ نحو عشرين منّا خرجوا من الباب.

كان الظلام في الخارج حالكًا ومخيفًا، وغاب الأزيز المألوف والناتج عن الأضواء الفلوريّة التي تنير الممرّات بين الأبنية. وبدا أنّ الكشّافات الوحيدة التي ظلّت تعمل كانت في مؤخّر المخيّم. شعرت مع حركتها بأنّها تقترب منّي وتحاول القبض عليّ بمجسّاتها المضيئة وكشف وجهي. لكنّني في تلك اللحظة كنت بعيدة عن أن تطالني. التقيتُ وعائشة بالآخرين وأسرعنا إلى الباحة الواقعة بين المركز وبوّابة الدخول. اقتربنا بمحاذاة الجدران، لكنّ الجنون الذي سبّبه انقطاع الكهرباء كان قد أرغم الحرّاس على ترك مواقعهم لحماية قاعة الطعام والمركز. صاح القادة يوزّعون الأوامر، ثمّ دوّى خبط مئات الجزمات بالأرض الجافّة وتردّد دويّها في جسدي. ظلمة المخيّم والفوضى التي عمّت فيه كانتا على نقيض تامّ مع الخارج، فموقع تجمّع «احتلال موبيوس» كان مضاءً بمصابيح السيّارات، والأضواء النقّالة التي شغّلتها المولّدات. اصطفّ المحتجّون بمحاذاة السياج خلف الجدار الذي شكّلته الشرطة، وكانوا جاهزين، ينتظرون. لقد أحسن دايفيد القيام بعمله.

أخذنا مواقعنا عند أقرب نقطة ممكنة من السياج. كان عددنا ثلاثة وثلاثين، وهو ليس بالعدد الضخم، لكنّه يشكّل مقاومة. وكذلك انضمّ إلى المجموعة بعض العجائز. غمزتني ثريّا حين رأتني أحصي المشاركين الجدد. وقفنا بمواجهة الحشد القريب من السياج ورفعنا قبضاتنا، كما رأيت في الصور القديمة للألعاب الأولمبيّة في عام 1968، وصور الاحتجاجات ضدّ مدّ خطّ نفط في داكوتا، المستمرّة منذ سنوات، وكذلك صور نضال النساء في الهند لتحقيق العدالة لضحايا الاغتصاب، وصور المراهقين أمثالي في تظاهرات الطلبة ضدّ العنف. إنّها بادرة بسيطة

وجميلة، تتناقلها صفحات التاريخ منذ القدم، وتردّد صدى أصوات الرجال والنساء الذين أستقي تجربتهم، أولئك الذين تعرّضوا للرشّ بالماء بدون أن ينسحبوا، وللضرب بدون أن يتخاذلوا، أولئك الذين حُبست أصواتهم خلف الأسوار لكنّ أرواحهم لم تنكسر قطّ. الشعب المتّحد لا يُهزَم أبدًا.

لبرهة، ظلّ كلّ شيء ساكنًا، وبدا العالم في حال جمود. ومن ذلك الصمت سمعت أحدهم يناديني باسمي، كمن يسمع أعذب الألحان: «ليلى! ليلى! أحبّك!» إنّه دايفيد، لم أستطع أن أراه لكنّه كان هناك. ضحكتُ بصوت مرتفع، وضحك الآخرون معي. ثمّ رفع محتجّو «احتلال موبيوس» قبضاتهم، وبدأوا يصيحون ويهتفون ويصفّقون. وسالت الدموع على وجهي.

التفت أفراد الشرطة الواقفون خارج السياج إلينا، إلى هذه المجموعة الصغيرة التي تثير كلّ هذا الصخب. كذلك رآنا معتقلون آخرون وهم يخرجون من قاعة الطعام، فانضمّوا إلينا وحيّاني بعضهم بحركة من رؤوسهم، وابتسم آخرون. جلت ببصري على الصفّ الذي شكّلناه من عجائز وشبّان، ومن سود وبيض وسُمر. كنّا كلّنا هنا. ثمّ نظرت إلى بحر البشر خلف السياج. ظننتُ أنّني ضعت في هذا المكان، لكنّ العالم وجدني، فسرى الأمل في عروقي من جديد.

حمل أحد المحتجّين في الخارج مكبّرًا للصوت وراح يهتف «حرّروهم! حرّروهم!» وانضمّ إليه آخرون، وتردّد صوتهم في الصحراء وعبر الوادي. عشرات، ثمّ مئات الأصوات. آنذاك كان الناس يتدفّقون خارجين من قاعة الطعام، والحرّاس يركضون نحونا، صاح أحدهم «عودوا إلى مربّعاتكم في الحال!» لكنّ أصوات المحتجّين والمعتقلين كانت أعلى من أوامره.

أُطلقت رصاصة في الهواء، فتردّد صوتها في أرجاء المخيّم، وعلا الصراخ من كلّ جانب. سمعت صوتًا من الخارج يصيح «إنّهم يطلقون عليهم النار!» تلاه مزيد من الصراخ، واندفع الحشد الواقف في الخارج إلى الأمام، إلى السياج.

السياج.

تجمّدتُ تمامًا.

حاول أفراد الشرطة الواقفون في الخارج ردّ المحتجّين إلى الوراء، وركض حرّاس هيئة الإبعاد نحونا، ورأيت حارسًا آخر يهرع إلى كشك الأمن وهو يصيح «اقطعوها! اقطعوها!».

إنّه يقصد قطع الكهرباء عن السياج. كنتُ قد افترضت أنّ الكهرباء انقطعت عن السياج مع انقطاع التيّار، ولا بدّ من أنّ المحتجّين فكّروا في الأمر عينه. اللعنة! إنّهم يندفعون نحو السياج.

أرغمت نفسي على الخروج من حالة الذهول، وركضت نحو السياج وأنا أصرخ: «لا! لا! ابتعدوا!» لكنّني بالكاد كنت أسمع صوتي وسط كلّ ذلك الضجيج.

التفتّ نحو المعتقلين فرأيت الحرّاس يمسكون ببعضهم ويسحبونهم، ويدفعون البعض الآخر. انسلّ بعضنا هاربين، لكنّ أحد الحرّاس أمسك بعائشة من ذراعها، فجريت نحوها صائحة «إليك عنها! اتركها!» وشاهدت فريد، صديق جايك، يطلب من الحارس الذي أمسك بعائشة الذهاب إلى مكان آخر، ثمّ أمسك بعائشة من مرفقها وسار بها مبتعدًا. لقد أصبحتْ بأمان، أقلّه حينذاك.

لكنّ حارسًا آخر انتزع حجاب ثريّا ودفعها أرضًا، فيما لكم آخر أحد العجائز الذين انضمّوا إلينا. تجمّدت في مكاني، ولم أعد أشعر بأنّني أتنفّس حتّى. كنت خارج جسدي أشاهد تلك الفوضى وكأنّني لست في

وسطها. سقطتُ على ركبتيّ، ورحت أجهش بالبكاء بصوت مرتفع، بدون أن أستطيع التوقف، بدون أن أستطيع التقاط أنفاسي. ماذا فعلتُ؟

– ليلى. ليلى.

رفعت بصري أبحث عمّن يناديني.

– دايفيد؟

تقدّم جايك نحوي وسط عاصفة من الغبار، وقال لي وهو يرفعني عن الأرض وكأنّني دمية لا وزن لها:

– ليلى، علينا إخراجك من هنا.

وفيما كان يساعدني لئلّا أفقد توازني، عادت كلّ الأضواء لتسطع بقوّة فبهرت الجميع. أدار وجهي نحو مربّعنا، وأمرني:

– اذهبي الآن. هيّا.

وافقته بحركة من رأسي، وعيناي لا تزالان ترمشان من سطوع الضوء. ثمّ استدرت لبرهة لأنظر إلى دايفيد، لكنّه كان قد اختفى وسط الحشد.

وآنذاك رأيت أحد المحتجّين وسط الضوء الساطع على الناحية الأخرى من السياج.

تبًّا.

ليس أحد المحتجّين وحسب، إنّه سهيل.

لا. لا. لا.

لا شكّ في أنّه كان بين المحتجّين، فهو لن يرحل ويتركنا وحدنا هنا. رحت أصرخ له بكلّ قوّتي، لكنّه لم يسمعني.

إنّه يعرف ما عليه أن يفعل، وسيتوقّف.

توقّف يا سهيل. أرجوك.

شقّ طريقه متجاوزًا أحد رجال الشرطة، ولبرهة عابرة التقت عيوننا.

تجاوز الحاجز البلاستيكيّ البرتقاليّ ثمّ قفز نحو السياج وكأنّه سيتسلّقه، أو كأنّه قادر على إسقاطه بقوّة قفزته. بدا كأنّه توقّف

في الهواء كراقص باليه يتحدّى الجاذبيّة، أو يحلّق نحو الخلود، كتلك القصيدة التي تقول: «الأمل عصفور». نظرت إلى أصابعه تمتدّ إلى شريط السياج المعدنيّ، ثمّ جرى الأمر أمامي بالحركة البطيئة، وتشوّشت قدرتي على التركيز.

سمعتُ طنينًا تلته طقطقة، ثمّ صوت أزيز يثير الغثيان، وصراخًا يمزّق الأحشاء. وامتلأ الهواء بصرخات تشبه الخناجر.

ترك الحرّاس مهمّة تفريق المحتجّين بداخل المخيّم وأسرعوا نحو السياج، ثمّ توقّف الطنين، لكن بعد فوات الأوان.

سقط سهيل أرضًا، وانتفض جسده بضع مرّات قبل أن يهمد. قفز البعض لمساعدته، فيما بقي الآخرون يصارعون الشرطة.

– هيّا! هيّا! هيّا! صاح أحدهم.

تدفّق الحرّاس خارجين من البوّابة ليساعدوا رجال الشرطة على السيطرة على المحتجّين في الخارج، الذين باتوا أقلّ عددًا وفقدوا السيطرة. سادت الفوضى، وكان الناس من حولي يُدفعون بعنف، ويسقطون أرضًا.

لكنّني لم أرَ إلّا سهيل وجسده الجميل المحطّم.

ارتطم بي أحدهم بقوّة من الخلف، فركضت مسرعة باتّجاه مقطورتنا، والدموع تشوّش بصري فيما كان صوت سهيل وصورته الرهيبة على السياج تنحفر في دماغي وفي قلبي. كان الغبار المتطاير يعلق على خدّيّ المبلّلين. رأيت مئات الأشخاص يملأون طريق ميدواي هاربين نحو الأمان النسبيّ الذي تشكّله مربّعاتهم السكنيّة. تهت وسط الحشود، وأحسست بأنّ ذهني كالدوّامة. دايفيد. والداي. جايك. عائشة. مسكينة عائشة. لا أتذكّر حتّى إن كانت هناك أو إن رأت ما جرى. رجوت أن يكون الجميع بمأمن حتّى وأنا أدرك أنّه لا أحد بمأمن. لم يعد أحد بمأمن.

سهيل.

ربّاه. لماذا؟

وماذا عن الآخرين؟ لعلّهم عادوا إلى مقطوراتهم. كان الحرّاس يفرّقون التظاهرة في الظلام، ولعلّ معظم الأشخاص عادوا إلى مقطوراتهم بدون أن يتعرّف إليهم أحد. هل سيكونون بخير؟ دار أمام عينيّ خليط من الصور والأصوات: أشخاص يضربهم الحرّاس ويركلونهم، حُجُب وقبّعات تُنزع، وسهيل، وذلك الصوت، وصراخه، وتلك اللحظة التي شاهدته فيها قبل حدوث ما حدث. شعرت بالمرارة في حلقي.

أنا بحاجة إلى الذهاب إلى المنزل. أريد منزلي. أريد أن أنام في سريري وأستيقظ من هذا الكابوس. لكن لا منزل لي هنا. وأنا بكامل يقظتي.

انعطفت من طريق ميدواي في اتجاه مربّعنا وسقطتُ على ركبتي، ثمّ أمسكت بمعدتي وتقيّأتُ على التراب، مرّة بعد مرّة. ولم تفارقني اختلاجات التقيّؤ حتّى حين خلت معدتي.

– ليلى!

انحنت أمّي بجانبي، ثمّ رفعت شعري عن وجهي وأبقته مشدودًا إلى الخلف، وساعدتني فيما كنت أحاول أن أستعيد توازني على ركبتيَ.

– أمّي! أمّي! سهيل... ثمّ غصصتُ وخانتني الكلمات.

نظرت أمّي إليّ بعينيها البندقيّتي اللون، نظرة مفعمة باللطف والحبّ. وبطرف قميصها مسحت وجهي. ثمّ شدّتني إليها وعانقتني قائلة:

– ششششش. كلّ شيء على ما يُرام يا بيتا، أنا هنا.

– لا يا أمّي. لن يكون شيء على ما يُرام بعد اليوم. أبعدتُ وجهي عن كتفها ونظرت إليها وتابعت أقول: لقد قُتل أحد المحتجّين بعد أن حاول تسلّق السياج، وكان... سهيل. كانت الكهرباء موصولة بالسياج يا أمّي. سهيل... مات.

شحب لون أمّي، وغطّت فمها بيدها وهي تقاوم دموعها. ثمّ ضمّت يديها ونظرتُ إليهما، وحذوتُ حذوها، وقالت:

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون. رحم الله سهيل وأسكنه فسيح جنانه.

– آمين، قلت بصوت مرتجف.

كانت يداي ترتجفان أيضًا. ساعدتني أمّي على النهوض، وسرنا نحو المقطورة. ومع كلّ خطوة، كنت أشعر بأنّني سأتحطّم كتمثال زجاجيّ يُقذف به على أرض حجريّة. وفجأة لاحظت أنّ أبي ليس معنا، فسألت أمّي:

– أين أبي؟

– إنّه بخير، أجابتني، ذهب للبحث عنك في الحديقة.

ساعدتني أمّي على صعود درجات المقطورة، فوجدنا الباب مفتوحًا وأبي سبقنا للدخول. كان وجهه متشنّجًا من شدّة القلق. لم أقل شيئًا، بل توجّهت مترنّحة إلى المغسلة خشية أن أتقيّأ من جديد، فيما بلّلت أمّي منشفة ومسحت بها وجهي ويديّ، ثمّ ساعدتني للوصول إلى كرسيّ. أحضر لي أبي كوب ماء وحثّني على أن أشرب جرعة صغيرة.

نظر أبي إلى أمّي مرتبكًا. سمعتها تخبره همسًا ما حدث وما رأيته. ركع أبي بجانب كرسيّي وطوّقني بذراعه. لم يطرح عليّ أيّ سؤال، وكذلك لم تفعل أمّي. بل جلسا معي وكلّ منهما يمسك بإحدى يديّ، ويمنحني الهدوء الذي كنت بحاجة إليه.

– أحتاج إلى أن أستحمّ، قلت لهما وأنا أقف.

وافقت أمّي بحركة من رأسها، وتركتني أتّكئ عليها فيما أرشدتني مسافة الخطوات الصغيرة التي تفصلني عن الحمّام.

دخلتُ وشغّلت جهاز التوقيت، راجية أن يكون الماء ساخنًا. أردته أن يدخل إلى مسامّي لأشعر بأنّني نظيفة وحرّة. لكنّني لم أكن واثقة من أنّني سأحظى يومًا ما مجدّدًا بهذا الشعور، فقد لا أغادر هذا المكان أبدًا.

ارتديت ملابسي وعدت إلى البهو لأجد والديّ ينتظرانني جالسين إلى الطاولة الصغيرة، وقد أعدّا لي فنجان شاي وبعض البسكويت المالح. جلست متهالكة في كرسيّ.

– اشربيه ببطء.

ذكّرني قول أمّي بصوتها الرقيق حين كنت أعود من المدرسة مريضة. ابتسمتُ ابتسامة واهية. لقد كان واضحًا لي أنّ والديّ يمتنعان عن سؤالي عمّا حدث، وأين كنت. قرأت على وجهيهما الذعر والإرهاق، وكذلك الحبّ. طوّقت بأصابعي فنجان الشاي فسرى الدفء في يديّ.

– شكرًا، قلت هامسة بصوت مبحوح.

رفعت الفنجان إلى شفتيّ بيدين مرتجفتين. طوّقت أمّي كتفي بذراعها وربّت أبي ركبتي.

لم أكن أستطيع أن أمحو من بالي وجه سهيل ولا صرخته. يجب أن أبحث عن عائشة. لا أريد أن أخبرها. كيف أخبرها؟ لكنّني أريد أن أكون...

فجأة انفتح الباب بقوّة. هبّ أبي عن كرسيّه فحجب عنّي الرؤية. دخل المقطورة أربعة من مرافقي المدير، وقال أحدهم:

– ليلى أمين، المدير يطلب حضورك إلى مكتبه.

الفصل 28

خرج الناس من مقطوراتهم بعد سماعهم صراخ أمّي. نزلتُ درجات مقطورتنا بمواكبة مرافقي المدير، وسار والداي في أثري. مدّ والدي يده محاولًا الإمساك بذراعي، لكنّ أحد المرافقين ضربه في صدره بعقب بندقيّته، فسقط وارتطم رأسه وكتفه بالأرض بقسوة. سمعت صوت أنينه ورأيته يغطّي وجهه بيده.

لا. لا. لا.

حاولت التخلّص من المرافقين، لكنّ أحدهم لوى ذراعي فعجزتُ عن الإفلات.

– علي! صرخت أمّي.

ثمّ أسرعت تمسك بيد أبي، الذي استدار على جانبه، وكان وجهه مغطّى بالدم. فواصلت أمّي صراخها:

– أيّها الوحوش! أبعدوا أيديكم عن ابنتي!

– أبي! أمّي! صرخت فيما كان رجال المدير يجرّونني بعيدًا.

أحسست بانقباض في صدري وارتخاء في ركبتيّ، لكنّ أحد الرجال شدّني بعنف ليرغمني على الوقوف. لويتُ عنقي لأرى بعض الأشخاص يحاولون مساعدة والديّ.

ثمّ رأيت عائشة التي أتت راكضة وهي تناديني باسمي. لم أرَها منذ أن افترقنا في الجمع. هل علمت بأمر سهيل؟ هل أخبرها أحد بما جرى؟ أحسست بأنّ قلبي يخفق بشدّة، وتشوّش ذهني حتّى فقدت القدرة على التفكير الصائب. كلّ ما رغبت فيه هو ألّا يتعرّض أحد آخر للأذى بسببي.

– عودي! صحت بها وأنا أقاوم دموعي، لا بأس.

أمسك والد عائشة بها من ذراعها وسحبها نحوه، فراحت تصرخ وتقاومه، إلّا أنّه تمسّك بها. هذا جيّد.

راح أشخاص آخرون يصيحون بالرجال الذين كانوا يجرّونني. خرج المشرفون وحاولوا إعادة الناس إلى مقطوراتهم، لكنّ الضجيج اشتدّ مع ارتداد غضب الناس على المشرفين. فيما انعطفنا نحو طريق ميدواي، مرّت بي مجموعة من الحرّاس مسرعة في الطريق إلى مربّعنا.

– ماذا سيفعلون؟ سألت بهمس مبحوح.

كان كلّ شيء مشوّشًا حولي، وأبقيت نظري خفيضًا لئلّا أصاب بالدوار.

نظر أحد المرافقين إليّ من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

– إلى أين تأخذونني؟ سألتُ مجدّدًا.

لكنّهم تجاهلوا أسئلتي وكأنّهم لا يرونني. ثمّ تراخى جسدي، فرفعني أحد رجال المدير وجرّني جرًّا تقريبًا إلى الأمام. مع ابتعادنا عن مربّعنا خفت الضجيج، ووقف الناس يتفرّجون على المرافقين يجرّونني عبر طريق ميدواي. سمعت بعض الهمس لكنّ الأصوات كانت تتراجع مع اقترابي من مبنى الإدارة حتّى لم أعد أسمع سوى صوت حذائي يخدش التراب وهم يقودونني، كما سمعت صوت أنفاس المرافقين اللاهثة

وهي تخرج من أفواههم بصعوبة. لا، هذه ليست أنفاسهم، بل أنفاسي أنا. هززت رأسي وحاولت التركيز، لكنّني تذكّرت نور وأسماء وبلقيس، حين جرّهنّ الحرّاس عبر طريق ميدواي، ولم يعدن قطّ.

كنّا كلّنا نعرف أنّ في موبيوس سجنًا لكنّني لم أدرك مكانه. أدخلني المرافقون إلى مبنى الإدارة عبر ممرّ ضعيف الإنـارة، ومررنا بمكتب المدير الخالي، ثمّ عبرنا بابًا لم يسبق لي أن رأيته أبدًا. رأيت خلف الباب حجرة صغيرة لا نوافذ فيها تؤدّي إلى رواق فيه أربعة أبواب لكلّ منها نافذة مستطيلة صغيرة على ارتفاع نحو متر ونصف المتر عن الأرض. أمام الباب الأوّل، سلّمني مرافقو المدير إلى أحد حرّاس هيئة الإبعاد ثمّ استداروا على أعقابهم وابتعدوا.

وقفت في الرواق، وأنا أمسح جبيني بيد مرتجفة، وأتعجّب من أنّ ركبتيّ المتراخيتين لا تزالان قادرتين على حملي. لبث الحارس منتظرًا، ولاحظت كيف كان فكّه الحادّ الزوايا يبرز إلى الأمام وهو يصرّ بأسنانه. ذلك كان الجزء الوحيد الذي يتحرّك في جسده. كان في جموده الشبيه بوحش متحجّر ما يأسر الناظر إليه.

انغلق الباب الخارجيّ للمبنى بقوّة، ولم أعد أسمع صدى الخطوات. يبدو أنّ مرافقي المدير غادروا المكان.

وضع الحارس في يدي قنّينة ماء، ثمّ فتح باب الزنزانة. فدخلت إليها، وانغلق الباب خلفي بصوت صاخب. رأيت بجانب الجدار سريرًا عسكريًّا يتّسع لشخص واحد، عليه فرشة مقلّمة فوقها غطاء قطنيّ رقيق حتّى كاد يكون شفّافًا. وعلى رأس السرير غطاء قطنيّ أخضر كالأغطية العسكريّة، مطويّ تحت وسادة وحيدة. وفي الزاوية مغسلة وكرسيّ مرحاض معدنيّان. إنّه سجن بداخل سجن.

جلست على السرير وأنا أتمسّك بقنّينة الماء وكأنّها طوق نجاة وسط محيط أغرق فيه. لكنّها ليست سوى قطعة بلاستيكيّة صغيرة لا

تستطيع إبقائي عائمة. نظرت عبر كوّة الباب الصغيرة فرأيت مؤخّرة رأس الحارس. سرت إلى السرير ورقدت عليه ووجهي إلى الجدار، ثمّ رفعت ركبتيّ حتّى صدري.

حاولت أن أتنفّس، وجلت ببصري على الجدران العارية لا أعرف أين عليّ أن أنظر. أحسست بقرع في رأسي، وبأنّ عضلاتي مشدودة وكأنّها على وشك أن تتمزّق. سرت إلى المغسلة الصغيرة وفتحت الماء على يديّ لأغسل التراب الدائم على أصابعي، ونظرت إلى السواقي الصغيرة الموحلة في أرض المغسلة وكأنّها تحمل معها كلّ هـذا المكان إلى المجارير. تركت الماء مفتوحًا حتّى صفا لونه، ثمّ أخذت منديلًا مسحت به وجهي وتمخّطت. شعرت بارتعاش، الحرّ شديد في الخارج، أمّا هنا فكنت أتجمّد بردًا.

عدت إلى السرير الضيّق كجسد بلا حياة، وارتميت على الوسادة.

فكّرت في النوم، لكنّني كنت شديدة التوتّر. شعرت كأنّ جسدي مكسوّ بزجاج محطّم، على وشك أن يمزّقني إلى أشلاء إذا ما تجرّأت على إغماض عينيّ وتخلّيت عن يقظتي. حارسي. الحارس. رجال المدير. هل عادوا إلى مقطورتي؟ هل قبض المدير على والـديّ؟ ابقي قويّة. أبقى قويّة؟ أتنفّس؟ كيف؟ أكاد لا أملك حتّى القوّة لأجلس في هذا السرير. ربّاه، كم أتمنّى ألّا يكون عليّ تذكير ذاتي بأن أتنفّس. ليتني أتخيّل شيئًا آخر غير الدم على وجه أبي، ليت أمّي تحظى بدقيقة ارتياح وهدوء واحدة، غير أنّني سلبتها ذلك كلّه. لكنّ القدرة على التمنّي زالت، وكذلك التخيّل، والتظاهر، وغابت النجوم كلّها ولم يبق سوى الظلام.

انفتح باب زنزانتي. لم أكن أعلم كم الساعة، ولا إن نمت، أو كم من الوقت نمت، أو حتّى إن كنّا في الليل أم في النهار. دخل جايك

عبر الباب وأسرع إلى جانب سريري، وسألني بصوت خافت ومتوتّر كسلك مشدود:

– ليلى، هل أنت بخير؟

أجبته بالإيجاب بحركة من رأسي وجلست في السرير وفركت عينيّ محاوِلة أن أزيل عنّي الشعور بالإرهاق. أحسست بالألم في جسدي كلّه، ثمّ سألته هامسة:

– جايك، ماذا يحدث؟ هل والداي بخير؟

نظر جايك في عينيّ وأجابني:

– أنا في غاية الأسف يا ليلى، قال لي، ليست لدينا سوى دقيقة واحدة. المدير يريدك في مكتبه. ثمّ تريّث وأخذ نفسًا عميقًا وغطّى يدي بيده، واستأنف يقول: اسمعي، أنا آسف لأنّ عليّ أن أطلب منك أن تتحمّلي هذا الأمر. لا يمكنني إخراجك الآن، فالفوضى شديدة في الخارج ولا أحد يدرك ما سيحدث. كوني شجاعة، هل يمكنك ذلك؟

فتحت فمي لأتكلّم. كانت كلمات جايك ترنّ في أذنيّ، لكنّها لم تبدُ لي منطقيّة. عليّ أن أبقى هنا؟ أن أتحمّل؟ أن أكون شجاعة؟ لم أدرِ ما أقول. هززت رأسي مرّة واحدة. هل كنت أملك أيّ خيار آخر؟

– آسف، عليّ الذهاب، قال لي وهو يسحب يده من يدي ويقف.

سمعت خطوات في الخارج، وصوتًا يقول:

– أنا سآخذها.

تنحّى جايك جانبًا لأرى الباب ثمّ ظهر فريد.

حيّاني جايك بحركة من رأسه وخرج مسرعًا، من دون أن يخبرني ما إن كان والداي بخير.

نهضت من السرير القاسي، واقترب فريد منّي وأعطاني موزة وقال لي:

– يقول المدير إنّه يريد أن يراك في تمام السادسة صباحًا. سأتركك دقيقتين لتغتسلي وتستعدّي. ليلى، أعرف أنّك خائفة، لكنّك لست وحيدة.

ابتسم لي ابتسامة بدت نابعة من القلب، لكنّ كلّ شيء كان يبدو أجوف آنذاك: الكلمات، والإشارات، والأفكار.

خرج فريد من الباب وصفقه خلفه. التهمت الموزة. يبدو أنّ جسدي كان جائعًا حتّى لو لم أنتبه لذلك. اغتسلت وأرغمت نفسي على التبوّل، وأنا أشعر بالامتنان في سرّي لوقوف فريد مديرًا ظهره لكوّة المراقبة الصغيرة بباب زنزانتي.

ثمّ فُتح الباب مجدّدًا، وقال لي:

– علينا أن نذهب.

سار أمامي عبر الرواق الضيّق. مع دخولنا مبنى الإدارة، كان الباب يخفي لبرهة وجيزة وجهينا عن الكاميرا المركّبة في الزاوية، فهمس لي فريد:

– كوني شجاعة.

تمامًا كما قال لي جايك. أيُفترض بي أن أكون شجاعة الآن، وأنا أشعر بكلّ هذا الرعب؟

فُتح باب مكتب المدير، وكانت شمس الصباح الباكر تضيء الغرفة. رأيت المدير ينظر من النافذة، وقال من دون أن يلتفت نحونا:

– شكرًا أيّها المجنّد، يمكنك الانصراف الآن.

تردّد فريد لبرهة وجيزة، ثمّ خرج.

لم يكن في الغرفة سوانا. كنّا وحدنا. سيجري معي تحقيقًا انفراديًا.

– تفضّلي بالجلوس آنسة أمين، قال المدير وهو يواصل النظر عبر النافذة، مديرًا لي ظهره.

جلست وانتظرت. انتظرت طويلًا، بدون أن يستدير المدير نحوي. كان الصمت يسود الغرفة ما خلا صوت تنفسّه المرتفع وتنحنحه بين الحين والآخر. كان ينقر النافذة بأصابعه. بدا الصمت مشحونًا، وكنت واثقة من أنّه يريد بذلك أن يخيفني، وقد نجح. أردت أن أصرخ لأضع حدًّا لهذا الصمت، لكنّني لم أشأ أن أمنحه هذا الشعور بالرضى.

أمسكت بذراعي الكرسيّ، وأحسست بأنّ يديّ تنزلقان عنهما بسبب العرق المتصبّب منّي، لكنّني تشبّثت بهما وكأنّ حياتي رهن بذلك. أغمضت عينيّ وحاولت أن أتنفّس برغم الخوف. تنشّقت الهواء وركّزت على أنفاسي وهي تعبر جسدي قبل أن أعود وأزفرها. أحسست بصداها يتردّد في عظامي. كما نجحت في تجاهل صوت تنفّس المدير ونقره على النافذة، حتّى لم أعد أسمعه بتاتًا.

ساد السكون في داخلي، وسمعت وسط الصمت أصواتًا: لستِ وحيدة. دايفيد. جايك. عائشة. أمّي. أبي. لستِ وحيدة. لستِ وحيدة. لستِ وحيدة.

أصغيتُ، ومن السكون المظلم والمرعب، اكتشفت أنّ الحبّ يعيش في الصمت الأعمق.

لم يفارق المدير النافذة، متظاهرًا بأنّه يراقب المخيّم. كان ينوي إبقائي منتظرة حتّى ينهكني بالانتظار. لكنّني لاحظت توتّر كتفيه، وانتفاخ الأوردة في عنقه، وسمعت الشخير الخارج من منخريه. كان يسعل، ويتنحنح، وبدا واضحًا أنّه يلجم نفسه في انتظار اللحظة المناسبة. كان يحاول الوصول إلى الصمت الذي يسعى إليه دائمًا قبل أن يتكلّم.

لكنّني سئمت تركه يحصل دائمًا على مبتغاه، فسألته:

– هل أنت بخير يا سيّدي؟

لم أجد صعوبة في التظاهر بالجدّ. فزمجر المدير، واستدار وضرب بقبضته سطح مكتبه الذي ارتجّ، وشعرتُ بتلك القوّة وكأنّها عصفة زمهرير أغرقتني في الكرسيّ. وتأجّج الغضب في عينيه المحتقنتين بالدم.

- اصمتي. أغلقي فمك اللعين! قال لي ورذاذ البصاق يتطاير من بين شفتيه القرمزيّتين المنتفختين، وشمعت من حلقه زمجرة كزمجرة الوحوش.

شددت على يديّ وكأنّ ذلك سيساعدني على أن أبقى متماسكة.

كانت رغبته في الاعتقاد بأنّه يسيطر على تلك اللحظة شديدة، لدرجة أنّ فقدانه هدوء أعصابه زاد من سخطه. في مثل تلك الأوقات يرتكب الأخطاء. كانت مجازفة أن أثير حنقه، ولكنّه إن كان يركّز عليّ في تلك اللحظة، فهذا يعني أنّه لا يستطيع التركيز على أيّ شيء أو أيّ شخص آخر.

استدار المدير حول مكتبه حتّى وقف أمامي، ووضع يديه على الكرسيّ ومال نحوي حتى بات وجهه على مسافة سنتمترات قليلة من وجهي. تقزّزتُ من رائحة الويسكي في لهاثه والعرق المتصبّب من أطراف شعره، وأحسست بالغثيان.

أمسك بذقني بين أصابعه الغليظة والخشنة، وشدّ عليها. لويت عنقي محاولة تحرير ذقني من قبضته، لكنّه تشبّث بي بقوّة أكبر حتّى انغرز باطن أصابعه في جلدي. حاولت أن أتكلّم، أو أن أصرخ.

- اخرسي، صرخ بي، ثمّ سألني: هل يؤلمك هذا؟

لم أتحرّك، بل توقّفت عن المقاومة ولم أجبه. لم أمنحه شعور الرضى بالحصول على إجابة. لعلّي في وضع لا أملك فيه أيّ سيطرة تقريبًا، ولكنّي لا أزال أملك الخيار.

- والآن؟ سألني المدير وهو يحكم قبضته على ذقني، وأفلتت من شفتيه البنفسجيّتين ابتسامة صغيرة.

غرزت عقبَي حذائي في أرض الغرفة وأمسكتُ بساعدَي المدير. أحسست بأنّه يكاد يمزّق بشرتي عن جمجمتي. ثمّ بدأ يضغط على وجهي، وكأنّه يحاول أن يقتلع رأسي عن عنقي.

– والآن؟

كان زعيقه صاخبًا لدرجة أنّني أحسست به بداخل جسدي. سالت الدموع على خدّيّ. سحب يده إلى الخلف وكوّرها لتصبح قبضة. رفعت يدي لحماية وجهي، فيما بقيت يده معلّقة في الهواء.

انفتح الباب، وظهر فريد. إنّها إشارة رحمة صغيرة. قال فريد:

– سيّدي، زوّارك من القيادة العليا يمرّون الآن عبر نقطة الأمن، ولن يلبثوا أن يصلوا. وتابع بعدما أصبح في وسط الغرفة: يمكنني أن أعيد المعتقلة إلى زنزانتها، سيّدي.

ضحك المدير ضحكة وحشيّة قصيرة. إن كان الشيطان موجودًا فعلًا فهذا هو صوته.

– ها هو الحظّ يحالفك مجدّدًا، آنسة أمين، لكنّني لن ألبث أن أجعله ينفد منك. صدّقيني.

أخذ فريد يدي، وساعدني بلطف على النهوض، وأسرع بإخراجي من الغرفة، ثمّ أغلق الباب خلفنا. سرنا بصمت عبر الرواق الضيّق والفارغ، عائدين إلى غرفة احتجازي. توقّف فريد عند خزانة صغيرة وأخذ كيسَي ثلج. ثمّ فتح باب الزنزانة، وساعدني للوصول إلى السرير. وحالما جلست، كسّر قطع الثلج في الكيسين، وهزّهما ثمّ أعطاني إيّاهما. فوضعت كلًّا منهما على جانب من ذقني.

– يبدو أنّك ستعانين بعض الكدمات. آسف، ليتني استطعت التدخّل في وقت أبكر. أنا... ما يجري هنا خطأ كبير. جايك على حقّ. علينا تسريع وتيرة الأمور، وهو يحاول ذلك.

رفعتُ بصري إلى فريد. كنت أشعر بالامتنان الشديد لوجوده هنا، وسألته:

– هل عاد جايك؟ أين ذهب؟

كنت أتساءل ما هي الأمور التي يريد تسريع وتيرتها، لكنّي شعرت بأنّ جسدي وذهني يوشكان على الانهيار، وبالكاد خرجت منّي بعض الكلمات.

هزّ فريد رأسه وأجابني:

– ذهب إلى القيادة العليا، ولن يلبث أن يعود. أعرف أنّه قلق عليك.

كنت أعرف أنّ جايك ينفّذ الأوامر، لكنّني شعرت بالحزن لأنّه لم يعد. ألا يريد على الأقلّ الاطمئنان عليّ؟ كان ذقني ينتفض، كما أحسست بالألم في جسدي كلّه، وقلت لفريد:

– إذا رأيته، قل له... قل له إنّني... لم أعلم ماذا أريد أن أقول له. ربّما شعرت بأنّني محطّمة وتائهة وعاجزة. أضفت: قل له إنّني حاولت البقاء قويّة.

هزّ فريد برأسه علامة الموافقة وقال لي:

– سيُجنّ جنونه حين يعرف ما فعل المدير. الأمور تخرج عن السيطرة، ولهذا السبب أتى أفراد من القيادة العليا إلى هنا. مع كلّ هذه الإحاطة الإعلاميّة، وهؤلاء المحتجّين، لم يعد بوسعهم ارتكاب مزيد من الأخطاء. كان الجمهور مستعدًّا لتقبّل ما يجري كفكرة مجرّدة، لكنّه بات أمرًا حقيقيًّا، وهذا ما جعل الناس يتحرّكون رافضين.

– حتّامَ سيبقيني المدير في السجن؟ هل يمكنني رؤية والديّ؟ هل هما بخير؟

– أجهل إلى متى ينوي إبقاءك هنا، وقد منع عنك كلّ الزيارات.

أحسست بوخز الدموع في عينيّ. كنت أشعر بالتعب الشديد وتمنّيت لو أنّني أستطيع النوم. تمنّيت بشدّة لو أنّني أستطيع رؤية

والديّ. ما زلت أحتفظ بقدر من الوعي يسمح لي بأن أدرك أنّ كلًا من فريد وجايك تجاهل أسئلتي بشأن والديّ. أرجو أن يكونا بخير.

– سأجد لك ما تأكلينه، قال لي فريد واتّجه نحو الباب.

– فريد؟ ألست خائفًا؟ أعني بسبب وجود الكاميرات هنا.

– مسؤول تكنولوجيا المعلومات المشرف على الكاميرات الآن هو بجانبنا. كلّ فيلم يمكنه أن يسبّب المتاعب سيتعرّض لعطل. قد لا يبدو ذلك جليًا، لكنّ هناك أشخاصًا كثيرين يقاومون ما يجري.

ابتسمت ابتسامة واهية. ثمّ خرج فريد، وعدت لأبقى وحدي.

شددتُ قبضتيّ. كنت أريد أن ألكم هذا الجدار الغبيّ، لكن بالكاد كان بوسعي أن أرفع ذراعي. تهالكت على السرير، واستسلمت لنحيب مرير كان جسدي كلّه يتشنّج معه.

الفصل 29

أيقظاني بعنف من نومي قبل أن أستطيع أن أصرخ أو حتّى أن أتذكّر أين أنا. مسحت عينيّ بظاهر يديّ. ما يجري حقيقيّ: هذه الزنزانة، وهذان الرجلان من فريق المرافقة الأمنية الخاصّ بالمدير، وهذا الألم في فكّي، وهذا الشعور الرهيب بالغرق وبأنّني أُقاد بعيدًا، وإلى الأبد.

شعرتُ بتوق إلى دقيقة من الشعور الرقيق الذي يتأرجح بين النوم واليقظة، ولكن حتّى ذلك الشعور لم يكن متاحًا لي في هذا المكان، ولا في هذا الزمان. كانت أعصابي متوتّرة، وحلقي جافًا، وكأنّني أمضيت الليل بكامله أتنفّس من فمي. وكان قلبي يخفق كمحرّكٍ بالٍ في سيّارة لعبة.

لم يقل أيّ من الرجلين شيئًا، بل أخذ أحدهما يدي وشدّني لأقف ثمّ قيّد يديّ خلف ظهري. حاولت مقاومة الأصفاد، لكنّه كان يفوقني حجمًا بمرّتين، ويحمل مسدّسًا.

– اخرسي، قال شريكه.

كان هذا الأخير أطول قامة وذا حاجبين أشقرين كثّين ويشبه الدودة. ثمّ قصّ قطعة من لفافة ورق لاصق كبيرة. ملت برأسي إلى الناحية الثانية، فقال لي بدون اكتراث:

– يمكنك أن تسهّلي الأمر على نفسك أو أن تصعّبيه. سيّان عندي.

كان العرق يتصبّب من راحتيّ، وقلبي يخفق بجنون، كما شعرت بالغثيان وأصابني الذعر. وفي حالات الذعر يصيبني الشرود عادة، لكنّني بحاجة إلى التركيز. يجب أن أعيد نفسي إلى اللحظة الراهنة.

– لن أصرخ، لستَ مضطرًا إلى أن تفعل هذا، قلت له بصوت واهٍ كخيط من الدخان.

– إنّها الأوامر.

زممتُ شفتيّ فيما كان يكمّمني بالشريط اللاصق، ثمّ دفعني الرجل الآخر، ذلك الذي قيّدني، للسير إلى الأمام.

هذان الرجلان هما من مرافقي المدير الأمنيين. أين حرّاس هيئة الإبعاد؟ لم أرَ فريد في أيّ مكان. هل جايك على علم بما يجري حتّى؟ حين خرجت من الباب، رأيت رجلًا آخر من رجال المدير ينتظر في الرواق، غطّى رأسي بكيس قماشيّ بنيّ، وشدّه حول عنقي بما يشبه العقدة. بدأت أتلوّى وحاولت المقاومة، لكنّ ذلك كلّه لم يؤدّ إلّا إلى تضييق أنفاسي أكثر. تساءلت عمّا إن كان هذا هو الإحساس بالاختناق. أهذا ما حلّ بالأخريات اللواتي اختفين؟

– كفّي عن المقاومة، همس في أذني صوت عميق ومجهول، يعود للرجل الثالث، وأضاف: لن تسيري إلّا مسافة قصيرة.

حاولت إبطاء سرعة تنفّسي، وتهدئة جسدي. كانت غريزتي تملي عليّ أن أغمض عينيّ، لكنّني أرغمت نفسي على إبقائهما مفتوحتين. كنت وسط ظلمة غير حالكة تمامًا، فألياف قماش الكيس كانت تسمح بوصول الضوء من مصابيح السقف الفلوريّة. قادني الرجال عبر الرواق إلى باب أحد المخارج. لا. لا يمكنني الخروج. إذا أخرجوني من المخيّم، فقد أختفي إلى الأبد، ولن يعثر عليّ أحد، ولن يعرف أحد أين أنا. جرجرت قدميّ، لكنّ الرجال سحبوني رغمًا عن إرادتي.

تدفّق الأدرنالين في جسدي، ووعيتُ فجأة أنّني أتنفّس بسرعة وأنّ قلبي يخفق بقوّة.

اصرخي.

اهربي.

قاومي.

ولكن لا مكان أهرب إليه، ولا يمكن لمقاومتي أن تنجح.

دفعني مرافقو المدير الأمنيّون إلى الأمام، ثمّ فتح أحدهم الباب. أحسست بمذاق الغبار في الهواء، وبجزيئاته الصغيرة تدور وتلتصق بي كبشرة ثانية. ملأ الغبار منخريّ برغم الكيس على رأسي.

كان السكون يخيّم على المكان. إنّه منتصف الليل. تتميّز ليالي موبيوس بشيء من الرهبة، وبجمال وكأنّه من عالم آخر، يخلو تمامًا من الأصوات ما عدا عواء مفاجئ أو صوت حوافر حيوان يسير في البعيد. كنت أتسلّل خارج غرفتي أحيانًا وأجلس على درجات مقطورتنا، لأصغي إلى أصوات الليل، وأرمق النجوم، وأحلم. الليل ملاذ، وهو كمزار ذهنيّ مقدّس يمكنني الذهاب إليه. لكنّ وجودي في الخارج في تلك اللحظة تحت عباءة الظلام يمثّل نقيض ذلك تمامًا. فقد سيطرت مخاوفي على تفكيري تمامًا، وظننتُني أُنقل إلى موقع للعمليات السريّة، يقع في مكان مجهول بعيدًا عن موبيوس، حيث لن يستطيع أحد العثور عليّ. قال المرافق إنّني لن أسير إلّا مسافة قصيرة، ولكن لعلّه كان يقصد السير إلى شاحنة مقفلة قد تقودني إلى أيّ مكان. ونقلي مقيّدة بالأصفاد إلى أيّ مكان يعني الذهاب إلى تلك المواقع السريّة المخفيّة في المجهول، حيث يستطيعون أن يمحوا وجود الإنسان نهائيًا. حذّرني جايك، لكنّني لم أعتقد أنّ ذلك ممكن. ظننتُ أنّ سنّي أو وجود فريق الصليب الأحمر يشكّلان حصانة لي من الأهوال التي كنت أعلم أنّها موجودة في المخيّم.

لعلّي ظننت أنّ أحدًا ما سيوقف ذلك، أو أنّ ذلك لا يمكن حدوثه هنا.

ناقشنا في صفّ الأدب الأميركيّ ذات مرّة أميركا بصفتها استعارة بلاغيّة مرتبطة بالصورة التي تنقلها عنها الكتب والأفلام والأغاني. أميركا هي بوتقة انصهار مكوّنات عدّة. هي سلَطة مكوّنة من خضار مختلفة. أميركا هي مدينة متألّقة على هضبة، وهي البلد حيث يستطيع طفل هزيل، اسمه يثير الضحك، أن يُسقط كلّ الاحتمالات ويصبح رئيسًا للجمهورّية. لكن يبدو أنّ أميركا لم تعد شيئًا من ذلك، أو لعلّها لم تكن كذلك قطّ.

سرنا نحو مئتي متر، ثمّ توقّفنا، وأدخلوني بابًا آخر، كان بابًا لمبنى لا لسيّارة، ثمّ إلى غرفة تنبعث منها رائحة سائل للتنظيف، كالمبيّض برائحة الليمون. سمعت صوت كرسيّ معدنيّ يُجرّ على الأرض، أجلسوني فيه بالقوّة، قبل أن يدفعوه إلى الخلف. فكّ شخصٌ ما أحد قيدي، وسحب يدي اليمنى التي بقي القيد فيها إلى طاولة كانت أمامي، وسمعتُ صوت القيد يطبق على شيء معدنيّ. رحت أحرّك معصمي الحرّ لأتخلّص من الإحساس الوهميّ بالقيد، فيما رفع أحد المرافقين الكيس عن رأسي.

رمشت عيناي بسبب ضوء المصابيح الفلورية في الغرفة، التي كان ينبعث منها أزيز خافت ذكّرني بالأضواء في مكتبة المدرسة. كانت الغرفة خالية إلّا من طاولة معدنيّة مستطيلة صغيرة أمامي، وفي وسطها قضيب معدنيّ قُيّدت إليه يدي. قرّبوا كرسيّي الأزرق من الطاولة، ما سمح لي على الأقلّ بأن ألقي ذراعي المقيدة عليها. أحسست ببرودة الطاولة تحت جلدي الذي كان يؤلمني. وكان في الغرفة كرسيّ أزرق آخر فارغ على نحو ينذر بالشؤم. ملأت أنفي رائحة المبيّض الكيميائيّ، وتساءلت عمّا أريق في تلك الغرفة وتطلّب تنظيفه استخدام ذلك السائل المبيّض.

لا نوافذ في الغرفة.

لا سرير.

لا أمل.

مدّ أحد الرجال يده وسلخ الشريط اللاصق عن فمي، فصرخت، ورفعت يدي الحرّة لأغطّي فمي. امتلأت عيناي بالدمع من شدّة الألم، لكنّ أحدًا لم يلاحظ أو يبالِ.

فُتح الباب، وخرج المرافقون من الغرفة ليدخلها شخص آخر. إنّه هو. لقد كان خلفي، عرفته من صوت تنفّسه المرتفع. حاولت أن أحافظ على رباطة جأشي، فأغمضت عينيّ وتذكّرت كلمات جايك. كوني شجاعة. كوني شجاعة. لستِ وحيدة. لكنّ صورة المرأة العجوز التي صعقوها بالكهرباء في الاجتماع التوجيهيّ قفزت إلى ذهني، وكذلك صور اقتياد نور بعيدًا، والاعتداء على بلقيس وأسماء، وضرب أبي بعقب البندقيّة، والدم في أرض قاعة الطعام، والدم الذي اختلط بتراب الصحراء، والسياج المكهرب، وتلك الصرخة الرهيبة. سهيل. سهيل. سهيل. كان قلبي يخفق بقوّة بين أضلعي. رحت أفرك يدي الحرّة بسروالي الجينز في محاولة غبيّة لإزالة الإحساس بلزوجة العرق المتصبّب، وبالخوف.

– نحن نلتقي من جديد. هل اشتقتِ إليّ؟

بدا صوت المدير مختلفًا عمّا كان عليه منذ... ثماني عشرة ساعة؟ عشرين ساعة؟ لاحظت أنّني لا أعرف كم الساعة أو في أيّ يوم نحن. كان في صوته هدوء مصطنع وناتج عن جهد مبذول. هدوء بارد جدًّا ومثير للرعب، عضضتُ شفتي. حافظي على هدوئك. رحت أردّد هذه العبارة في ذهني آملة أن تتحقّق بطريقة ما.

صفق المدير الباب فأغلقه. مع اقترابه منّي من الخلف، اهتزّ كرسيّي لوقع نعليه على الأرض الإسمنتيّة. أخذ المدير وقتًا للسير إلى الجهة المقابلة من الطاولة، ثمّ سحب الكرسيّ وجلس عليه، وضمّ رؤوس أصابع كلتا يديه بشكل خيمة أمام ذقنه المائل ناحية الأسفل، في حركة اعتداد بالنفس تمرّن عليها طويلًا، وكأنّ هذه الغرفة هي مسرحه. فطنت

إلى أنّ هذا، تحديدًا، هو استعراضه. إنّه يؤدّي دور الرجل القويّ. أليس هذا ما يفعله المتنمّرون؟ يمثّلون دورًا لإخفاء ضعفهم.

تلك هي الثغرة الصغيرة، ولعلّها الثغرة الوحيدة المتاحة لي. فالمتنمّرون هم في أعماقهم جبناء. إنّه ما كان عليه دائمًا. ما زال بوسعه إلحاق الأذى بي، وحتّى قتلي، لكنّه لن ينتصر أبدًا.

تذكّري مَن هو العدوّ. حتّى الآن كنت أخوض عراكًا مع نفسي، مع خوفي وإخفاقاتي. لكنّه كان العراك الخطأ. العراك الحقيقيّ هو ذاك الذي أمامي.

– سأبسّط لك الأمر، بدأ المدير يقول، إذا تعاونت، تحمين نفسك من التعرّض لمزيد من الأذى.

حملقت به وأنا أفكّر في الطريقة الأفضل لأتصرّف. أمّا هو فقد ضحك وأضاف:

– أهكذا ستتصرفين؟ أليس لديك ما تقولينه؟ لعلّك لم تسمعيني. تعاوني وأنقذي نفسك.

– أتعاون مع ماذا؟

– لنقُل إنّ بإمكاني استخدام شخص مثلك. يمكنك في البداية أن تبوحي لي بأسماء مثيري المتاعب، وتخبريني مَن يكتب تلك المقالات الكاذبة، ويثير هذا القدر من المشاكل. كيف يستطيع إرسال المعلومات إلى الخارج؟ مَن هو صلته؟ في صفوفي خائن، ويجب أن أعرف مَن هو. أنا لا أسألك الشيء الكثير، أليس كذلك؟

جايك.

لم أرَه إلّا دقائق قليلة حين جيء بي إلى هنا لأوّل مرة، فخامرتني الشكوك. هل المدير يعرف؟ هل جايك معتقل؟ ألهذا السبب لم أعد أراه؟ هل يتلاعب بي المدير، ويحاول استدراجي بكذبة؟ عبرت جسدي ووجهي قشعريرة خوف، رآها المدير.

– إذن، أنت تعرفين. أخبريني، الأمر سهل. فكّري في كلّ الأشخاص الذين ستنقذينهم بكلمات قليلة. فقط بوحي بالأسماء. ثمّ حاول المدير ملاطفتي، فقال بصوت رقيق وكأنّه يؤدّي دور الشرطيّ الجيّد: لا ضرورة لأن يكون الأمر مؤلمًا.

– وما مكسبي من ذلك؟ سألته.

كوّرت يدي الحرّة على شكل قبضة وضربت بها فخذي الأيسر. كنت أسعى لمواصلة الكلام والمماطلة لأجد طريقة أنجو بها من هذا الأمر. ابتسم المدير وأجاب:

– عرفت أنّ بوسعك أن تتعقّلي. ستجدين أنّ من مصلحتك أن تكوني صديقتي. أظنّني ذكرت لك بعض الفوائد التي قد تنالينها ووالديك، كالماء الساخن المفتوح مثلًا، أو ربّما أسهّل لك زيارة حبيبك. أنا في غاية السخاء كما تعلمين.

– يكفي أن أبوح بأسماء و...

– وتتولّين التخفيف من حماسة الأولاد الذين حرّضتِهم، وتعيدينهم إلى البستنة وإلى المغازلة، فتهدأ الأمور. كما تخبرينني إذا ما حاول أحدهم إثارة المتاعب. إنّها صفقة رابحة لكلينا.

– أتريدني أن أخبرك إن كان هناك ما يُخطَّط له؟

– لديّ شخص يقوم بذلك. أحد أصدقائك الصغار كان مسرورًا جدًّا بعقد صفقة معنا وإنقاذ نفسه من عواقب ما يُسمّى الاحتجاج الذي قمتِ به قبل ليالٍ. تلك العواقب ستنزل كالمطرقة على رؤوسكم كلّكم، ولكنّك تملكين القدرة على التخفيف من وقع تلك الضربات.

عبدُل. لا شكّ في أنّه يقصده.

تابع المدير كلامه:

– أريدك أن تكوني ذكيّة. يبدو أنّ مقاومتك الصغيرة قد أوحت للبعض بأفكار الخيانة. أريد أن تهمد تلك الأفكار، وأن تسحقي تلك الخطط لئلّا يتعرّض أحد للأذى، أو يتعذّب أحد بسببك.

أبي. ولكن، هل ألحق المدير الأذى بأحد آخر؟ أمّي؟ عائشة؟ إنّه يريدني أن أقلق، وأن أسأله، لكنّني لن أسأله. كان الغضب متّقدًا بداخلي، وكذلك الخوف، لكنّني لن أسأله.

نظر إليّ بعينين تتوقّعان شيئًا. كان ينتظر إجابة، وسأعطيه واحدة.

– لا، قلت له همسًا.

نهض المدير عن كرسيّه، ظننته سيبتعد، لكنّه استدار وصفعني على وجهي بقوّة هائلة دفعت رأسي بالاتّجاه الآخر، وكدت أحسّ بمذاق الدم في فمي. أحسست بوخز في وجهي وحريق في خدّيّ. قضيت حياتي كلّها وأنا بمنأى عن العنف الحقيقيّ، وأنا غير مهيّأة لمقاومة العنف. كيف يقاوم الناس العنف؟ كيف أقاومه؟

ابتعد المدير خطوات قليلة، ثمّ قال لي من دون أن يلتفت إليّ:

– أترين ما جعلتِني أفعله؟ أنا لست شخصًا عنيفًا، ولا أحبّ أن أعامل النساء، ولا سيّما الفتيات، بهذه الطريقة. سأمنحك فرصة أخرى.

اختلط ملح دموعي بالدم على شفتيّ، فبصقت على الأرض ثمّ سألته:

– لستَ عنيفًا؟

– لا. أنا إنسان عاقل، وأدير هذا المكان بكثير من اللطف والرأفة، وحاولت أن أبني فيه مجتمعًا، ثمّ التفت بسرعة نحوي وأضاف: لكنّك لم تسبّبي سوى الاضطرابات والعنف.

أحقًّا يعتقد بصحّة ما يقول؟ أحقًا يظنّ أنّه في جانب الحقّ؟ وأنّه مُخلّص أرسل لفاقدي الرجاء؟

تابع يقول:

– أتتذكّرين صديقك؟ ذلك الأحمق الذي ألقى بنفسه على السياج؟ لقد مات، وهذا ذنبك أنت وتصرّفاتك الطفوليّة. أم هل نسيته؟ هل استخدمتِه كبيدق من أجل ثورتك التافهة؟ ثمّ أضاف هازئًا: وتظنّينني أنا الوحش.

ارتخى فمي، وأحسست بأنّ دمائي جفّت تمامًا.

– لم أنسَه، أجبته هامسة. لكنّني ابتلعت بقيّة كلماتي.

لن أنسى أبدًا سهيل ولا أزيز السياج المكهرب ولا صرخته ولا مشهد جثّته.

– أنت لم تفكّري أبدًا في ذلك المسكين، أليس كذلك؟ هل أوهمك التظاهر بأنّك شجاعة وثوريّة؟ قلت لك من اليوم الأوّل إنّ للأعمال عواقب. أخبريني الآن مَن يكتب المقالات ويهرّبها إلى خارج المخيّم.

– لا أستطيع. لا أستطيع، قلت له.

سالت الدموع على وجهي، وكان خدّاي ساخنين وشفتاي تنبضان ألمًا.

عاد المدير إلى كرسيّي، وأمسك بيده طرف شعري المربوط كذيل حصان وشدّ رأسي إلى الخلف، وقال لي:

– أيّتها الساقطة الحمقاء الصغيرة. ثمّ قرّب وجهه من وجهي وتابع يقول وبصاقه يتناثر من شفتيه على جلدي: أتعلمين ما يمكنني فعله بك؟ أتعلمين ما كان بوسعي أن أفعله بك؟

عجزت عن التنفّس. رسالة التهديد التي تلقّاها والداي؟ هو مَن أرسلها. والداي، عائشة، عائلتها، كلّ مَن في هذا المكان. نحن كالسمك العالق في الشبكة، نصارع الخيوط التي تحتجزنا، ونتلوّى محاولين أن نتحرّر، ولا ندرك أنّنا أصبحنا في عداد الأموات.

– فرصة واحدة، آنسة أمين، أتفهمين؟ من حسن حظّك أنّني رجل صبور. لكنّ لصبري حدودًا.

نظرت إلى الأرض وهززت رأسي. سمعت صوت أشخاص آخرين يدخلون الغرفة، والمدير يصيح قبل أن يخرج:

– نظّفوها وأعيدوها إلى السجن.

فكّ حارس قيدي، وسحبني بعنف لأقف. أحسست بسخونة في وجهي، لكنّ رؤوس أصابعي كانت باردة فوضعتها على شفتي لتخفيف ألمها قليلًا. أغمضت عينيّ وأحسست بالارتجاف، وسرت قشعريرة في ذراعي. ثمّ دخل شخص آخر الغرفة. إنّه فريد.

– يمكنني أن آخذها من هنا.

انتظرت وفريد انصراف الحارس الآخر، ثمّ قال لي:

– ربّاه يا ليلى. هل أنت بخير؟

– لا، أجبته همسًا. ثمّ مسحت الدم المتخثّر على شفتي بطرف قميصي، وقلت: أظنّني عضضتُ خدّي.

– أنا في غاية الأسف، قال فريد، وأمسك بمرفقي ما جعلني أجفل، ثمّ تابع: ستؤلمك شفتك لوقت طويل.

– ستتناسب مع الكدمات التي تعرّضتُ لها من قبل.

– لنعُد. سأجد لك كيس ثلج ومنشفة تمسحين بها جروحك.

هززتُ برأسي موافقة، وسرت. غير أنّني كنت أترنّح وكأنّني أنتعل حذاءً عالي الكعب.

– اتّكئي عليّ، لا بأس، قال لي فريد وهو يمدّ ذراعه.

ثمّ خرجنا إلى الليل البارد.

– خلت أنّ مرافقي المدير سيأخذونني إلى موقع العمليّات السرّية. وإلّا فلماذا وضعوا الكيس على رأسي؟

– إنّه يحاول إخافتك.

– هو ينجح في ذلك.

– لا، أنتِ مَن تنجحين.

– أنا؟ سهيل مات بسبب ما فعلناه، بسببي.

– لا، سهيل مات بسبب ما فعله المدير، وبسبب ما فعله الرئيس، وبسبب ما تفعله هذه البلاد. لكنّ هذا لن يدوم. ذلك الاحتجاج، وموت سهيل، هما أكثر ممّا يستطيع الجمهور تحمّله. وما يفعله بك... لستُ وجايك وحدنا مَن نقف إلى جانبك. كثيرون منّا إلى جانبك. ليس هذا ما تطوّعنا للقيام به. نحن من الحرس الوطنيّ، وقد تمّ تشكيلنا إلى هيئة الإبعاد من دون أن يكون لنا الخيار في ذلك.

– أين جايك؟ سألته من دون أن أخفي نبرة الألم واليأس في صوتي.

هزّ فريد رأسه وأجاب:

– لا يـزال جايك موضع ثقة المدير، وهـو يحاول استغلال ذلك لمصلحته، فيتبع الأوامـر. اصمدي بعض الوقت. لديك حلفاء هنا. لا يستطيع المدير إخراجك من المخيّم، ولا سيّما بوجود كلّ أولئك المراسلين والمحتجّين خلف السياج. وإذا عبرت البوّابة عربة إسعاف، فستحدث حالة اضطراب شديد في الخارج. ثمّة تيّار محسوس يتحرّك من تحتنا. نحن جالسون على برميل من البارود. سيكون خطرًا كبيرًا أن يرتكب أمرًا بهذه الحماقة، وهو يدرك ذلك.

– بالنسبة إليه؟ لأنّني في الوقت الراهن أشعر بأنّ الخطر كبير بالنسبة إليّ.

– إنّه تحت المراقبة. القيادة العليا تتعرّض للضغط من جانب وزارة الحرب والرئيس.

هززت رأسي، لكنّني لم أجد أيّ عزاء في محاولات فريد لطمأنتي.

كنّا في الليل، وقد خيّم الظلام والسكون حولنا، في تناقض كبير مع الألم الصارخ في أحشائي. أغمضت عينيّ لبرهة، تاركة لفريد أن يعيدني إلى السجن، إلى زنزانتي، وإلى الوحدة الرهيبة التي تنتظرني. في السكون، سمعت صوت أمّي تتلو الدعاء، وشعرت بأنفاسها وهي

تصلّي فوق رأسي. فتحت عينيّ ورفعتهما لأنظر إلى غطاء مخمليّ من النجوم المتألّقة، وتذكّرت كلمات كتبها أبي: «يكفي أن ينظر المرء إلى السماء الواسعة وما فيها من النجوم التي لا تُحصى حتّى يدرك عمق الحبّ اللامتناهي في داخله».

الفصل 30

– انهضي!

ردّدت جدران زنزانتي الصغيرة صوت المدير. وحين لم أنهض حالًا ركل السرير وزعق:

– قلتُ لك انهضي!

جلست ببطء ودفعت ظهري نحو الجدار، وقرّبت ساقيّ من صدري، ثمّ ألقيت ذقني على ركبتيّ. لم يكن الإحساس اللاسع في فكّي قد فارقني ولا الألم في خدّي المتورّم والمتلوّن بلون الكدمات الأزرق بكلّ أطيافه. أحسست بمزيج من طعم الدم والمعدن في فمي. نظرت إلى الباب، ثمّ عادت عيناي إلى وجه المدير. لا مهرب لي من هذا المكان. قرّبت ساقيّ من صدري أكثر، ورحت أنسج حول جسدي شرنقة وهميّة.

أخذ المدير يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا، رحلة لا تتجاوز الخطوات الخمس. كانت قطرات العرق تلتمع على جبينه، وراح يفرك مؤخّرة عنقه، ووجهه يزداد احمرارًا مع كلّ خطوة حتّى كاد يصبح قرمزيًا، وقال:

– بسببك وبسبب حماقاتك، أنا الآن في مأزق.

رفعت بصري إليه من دون أن أتكلّم، فتابع يقول:

– حين أدّت مجازفتك الصغيرة إلى موت صديقك الغبيّ، السيد سعيد، قامت الصحافة الكاذبة والملتوية الأساليب بتحريف الواقع وصوّرت ذلك على أنّه خطئي، وكأنّني أنا مَن دفعت ذلك المتهوّر نحو السياج، فيما ندرك كلّنا أنّ يدك الخفيّة هي التي قادته إلى حتفه.

ارتجفتُ حين نطق باسم سهيل. كيف يجرؤ؟ أردت أن أصفع الكلمات الخارجة من فمه، لكنّني لم أكن أملك القوّة لأقوم بذلك. أمّا فهو فلم يلاحظ نظرة الاشمئزاز على وجهي أو لم يبالِ بها، فتابع يقول:

– والآن، بدلًا من الاحتفال بنجاة العالم من حشرة سامّة، يشدّد وزير الحرب الخناق عليّ لأنّ الرئيس يضغط عليه بدوره. يُفترض بموبيوس أن يكون نموذجًا. أتسمعينني؟ أتفهمين؟ أن يكون مخيّمًا نموذجيًّا، مخيّمي أنا.

واصلت النظر إليه بصمت وهو يسترسل:

– أمّا الآن فإنّ أولئك الصحافيّين ناقلي الأخبار الكاذبة قد رفعوك إلى مرتبة الأبطال، ويعتبرونك من محاربي الحريّة. ثمّ أخذ ورقة مطويّة من جيبه لوّح بها أمام وجهي وبدأ يقرأ: «الآنسة أمين منحت الأمل لكلّ مسلمي أميركا، بل لكلّ محبّي الديمقراطيّة الأميركيّين. كما أنّ جرأتها من داخل مخيّم الاعتقال قد نفخت في محتجّي «احتلال موبيوس» الشجاعة لإكمال احتجاجهم حتّى بوجه الموت المروّع الذي راح ضحيّته سهيل سعيد، مصعوقًا على السياج المكهرب المحيط بالمخيّم، والذي لم يقطع عنه المدير الكهرباء خلال تجمّع قانونيّ». وأضاف: أترين كيف يحرّفون الحقيقة ويكذبون؟ يتحدّثون عن الأمل والشجاعة، فيما أنتِ لم تأتي بغير الفوضى والموت. أتظنّين أنّ أعمالك منحت الناس أملًا؟ إنّهم أغبياء، لا يعرفون ما يفعلون بالأمل. هم لا يريدون الشجاعة، هم حتّى لا يريدون الحريّة، بل يظنّون أنفسهم يريدونها. اسمعي يا آنسة

أمين: الناس يريدون أن يتلقّوا الأوامر، إنّهم يشعرون بسعادة كبيرة حين يتلقّون الأوامر. دعيهم لأملهم وحريّتهم خمس دقائق، وسيعودون راكضين بحثًا عن النظام والقواعد. الناس يريدون أن يكونوا سعداء في جهلهم. امنحيهم رفوفًا من الأطعمة المعالَجة والملأى بالدهون، ومئة قناة تلفزيونيّة، وازرعي خوف الله في نفوسهم، وأعطيهم أحدًا آخر يكرهونه، وسيفعلون ما يؤمَرون بفعله. هذا ما يحافظ على سلامة أمّتنا. القوّة والأمان.

كانت عيناي تتبعان سير المدير الجنونيّ من طرف إلى طرف في الغرفة، وكدت أرى ذهنه يدور، وأفكاره تخرج عن المنطق، وبدا أنّ الصمت هو خياري الأسلم. أمّا هو فقد واصل يقول: لكنّك نلت ما تريدينه، بشكل من الأشكال، أليس كذلك؟ الجماهير تثغو مطالبة بحرّيتكم. وماذا الآن؟ هل نفتح البوّابات ونطلق سراح جميع المسلمين؟ سيقوم إرهابيّ آخر بعمليّة تفجير في مكان ما، ولن يلبث الناس أن يعودوا للمطالبة بالاقتصاص منكم. وستعودون إلى هنا فيما الرئيس يحاول تهدئة أعصاب الجماهير المتوتّرة والراضية بمقايضة الحريّة بالأمن. لقد تمّ الأمر، ونحن نعرف كلّ شيء، نعرف أيّة كتب تبحثون عنها، ومَن تبعثون إليهم بالرسائل النصّية، ومَن تمارسون الجنس معهم. نعرفكم أكثر ممّا تعرفون أنفسكم. وهذا ما أبقانا بمأمن منكم ومن قنابلكم ومن شريعتكم التي تتمدّد. منذ تفجيرات 11 أيلول/سبتمبر، سمح لنا خوف أمّة بكاملها بإقرار قوانين أدخلتنا إلى منازلكم وغرف نومكم وأفكاركم. ما لا تعرفونه، ما يمنعكم غباؤكم من أن تفهموه، هو أنّه حين نتمكّن من إرضاء ضمير إنسان، يمكننا أن نسلبه حريّته، وسيشعر بالامتنان نحونا. أتظنّين أنّ بوسعك أن تنتصري في هذا الأمر؟ أتظنّين أنّ بوسعك أن تتغلّبي عليّ؟ يمكنني أن أمنحك الشهادة. أنا قادر على أن أحرقك إلى عمود في وسط الصحراء أمام عدسات الكاميرات، وبعد يومين تصبحين

خبرًا قديمًا، ويعود كلّ شيء كما هو الآن. وسيكون موتك كموت أيّ إنسان آخر. الصراخ والغضب لا يعنيان شيئًا.

توقف المدير في وسط الغرفة والتفت إليّ. كان صمتي ثقيل الوطأة عليه. رأيت ذلك في وجهه، رأيت كيف أن غضبه يشتدّ كلّما نظر إلى عينيّ. ثمّ سألني:

– والآن ماذا؟ ألا تجدين الإلهام لتتكلّمي؟

أخذت نفسًا مرتجفًا وسألته:

– ماذا تريدني أن أقول؟

– توسّلي لكي أحافظ على حياتك، قال المدير وهو يسير إلى سريري ويقف بقامته الضخمة فوقي.

أن أتوسّل للمحافظة على حياتي.

أن أتوسّل.

أن أقبل بالطغيان.

أن أسجد أمام إله زائف.

– لا، قلت هامسة.

كنت أعلم ما ينتظرني. أدرت وجهي، ولكن بعد فوات الأوان. صفعني المدير، فشقّ خاتمه الذهبيّ الثقيل شفتي، وتدفّق الدم على ذقني. صرخت، فردّدت الجدران صدى صرختي. مسحت الدم عن وجهي وسمعت صدى صرخاتي يعود إلى أذنيّ.

لستِ وحيدة.

كوني قويّة.

عيشي.

قاومي.

أخذ المدير ذراعي وشدّني بعنف من السرير فسقطت أرضًا، وارتطم مرفقي بالإسمنت القاسي، ومزّقت صرخة مدوّية جسدي.

فُتح باب غرفتي، ودخل جايك جاحظ العينين. عبرت وجهه موجة رعب حين رآني أرضًا، فتنحنح وقوّم كتفيه، ثمّ التفت ليواجه المدير وقال له:

– عليك أن ترحل في الحال.

– مَن تظنّ نفسك حتّى تكلّمني بهذا الشكل؟

– أنا العريف جايك رينولدز، من الحرس الوطنيّ للولايات المتّحدة الأميركيّة. وأنت تجاوزت النظام، لذلك أقترح أن تتنحّى.

شهر جايك مسدّسه ووقف بين المدير وبيني، فيما كنت أنزف وأنتحب وأكاد أفقد القدرة على التنفّس. طوال حياتي لم أشعر قطّ بالامتنان لرؤية إنسان كما شعرت لرؤيتي جايك في تلك اللحظة.

– يمكنني أن آمر بمحاكمتك عسكريًّا أيّها العريف. إنّها سجينة، وفي هذه المنشأة أنا أمثّل القانون.

– ما زلنا على أرض الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولا أحد فوق القانون. إساءة معاملة السجناء تُعدّ جريمة في القانون الدوليّ كما في القانون العسكريّ الأميركيّ. وأنت تنتهك كلا القانونين انتهاكًا صارخًا.

كان جايك يتكلّم بصوت عميق وواثق، لكنّني رأيت ارتعاشة خفيفة في أصابعه، كما لم يكن ينظر إلى وجه المدير وهو يخاطبه.

سوّى المدير شعره وقميصه وضحك، لكنّ ضحكته كانت عصبيّة وتنمّ عن الخوف. أمسك بقبضة الباب، ولكنّه قبل الخروج التفت إليّ بعينين تقدحان شررًا، وقال:

– أنت ملاك الموت اللعين.

الفصل 31

كنت مذهولة وعاجزة عن الحراك، فجلست أرضًا ويداي مطويّتان في حضني. وضع جايك ذراعه حولي بحذر وساعدني لأعود إلى السرير. ثمّ ابتعد وراح يتكلّم عبر جهاز لاسلكيّ، وكنت أسمع كلماته لكنّها بدت لي مشوّشة وغير مترابطة. ضغطتُ بكيس ثلج على وجهي المصاب بالرضوض، ولم أستطع التوقّف عن الارتجاف. كما لعقت شفتي المشقوقة، فأحسست بطعم الملح والدم والدموع.

عاد جايك نحوي، وأمسك بغطاء السرير ووضعه حول كتفيّ، وقال لي برفق:

– أنت في حال صدمة. آسف لأنّني لم أعد قبل الآن، ما كان عليّ أن أتركك أبدًا.

رفعت بصري نحوه وقلت له هامسة:

– جايك...

لكنّني عجزت عن الكلام، كان صوتي كصوت معدن يُخدش. شربت جرعة ماء من قنينة أعطاني إيّاها، فارتاح حلقي الجافّ لبرودة الماء.

– سيدفع ثمن ما فعله، أقسم لك أنّني سأجعله يدفع الثمن. لقد انتهى أمره.

أجبته بحركة من رأسي، لكنّ ما قاله لم يكن بالعزاء الكافي.

للمرّة الثانية انفتح الباب بقوّة، وأسرع فريد إلى الداخل ليتوقّف فجأة حالما رآني، ويقول:

– ليلى، تبًّا، ثمّ نظر إلى جايك وقال: كان علينا أن نوقفه.

– أعرف، أجاب جايك، لن أسامح نفسي أبدًا. اللعنة على الأوامر، كان يجب أن أحميك يا ليلى.

ثمّ طوّقني بذراعه. شعرت بالارتباك وكأنّني في دوّامة، كان العالم يدور حولي وأنا لا أرى شيئًا ولا أفهم شيئًا. ثمّ ضمّني جايك، فتمسّكت به بقوّة، ولفترة لا أعرف كم طالت، لدقائق أو لساعات، لليل أو لنهار كاملين.

خرج فريد ليستدعي طبيبًا، ولم ألاحظ حتّى أنّه خرج، ليعود بعد قليل ومعه امرأة لم يسبق لي أن رأيتها قطّ. كانت ترتدي ملابس عسكريّة كسائر الحرّاس، لكنّها أكبر منهم سنًّا، وخيوط الشيب الرماديّة تلوّن شعرها البنيّ الغامق الملفوف حول وجهها الشبيه بشكل القلب. كانت تحمل حقيبة جلديّة، وركعت أمامي، ثمّ قالت لي بصوت رقيق:

– اسمي الدكتورة هان، وأنا عسكريّة مثل العريف رينولدز، وطبيبة. أودّ إلقاء نظرة على شفتك وخدّك إذا سمحتِ.

هززتُ رأسي موافِقة، ففتحت الدكتور هان حقيبتها وتناولت منها قفّازين من اللاتكس. ثمّ أخذت مصباحًا صغيرًا وطلبت من جايك أن يحمله فوق وجهي، وراحت تمسح الدم الجافّ برفق. كما تلمّست بأصابعها الكدمة على خدّي، وأدارت ذقني في اتّجاه الضوء. لكنّني أجفلت من شدّة الألم.

– أنت مصابة بكدمات شديدة، لكن لا عظام مكسورة. شفتك ستؤلمك لبعض الوقت لكنّ نزفها قد توقّف. ثمّ وجّهت خنصرها نحو فمي ورسمت إطارًا حول شفتيّ في الهواء، وقالت:

– لا حاجة بنا إلى خياطة الجرح، لكنّ عليك إبقاءه نظيفًا. أمّا الآن فأريدك أن تعودي إلى مقطورتك وتستريحي، وتُبقي كيس ثلج على وجهك وشفتك لمحاولة تخفيف الورم. سأعطيك بعض مسكّنات الألم.

– حسنًا، أجبتها وأنا أرفع أصابعي بتردّد إلى عظمة خدّي.

– أنتِ شابّة شجاعة، قالت لي الدكتورة هان وهي تبتسم ابتسامة دافئة. أيمكنك أن تخبريني ماذا حدث حين دخل المدير زنزانتك؟ بمقدار ما تزوّدينني بالتفاصيل، يكون ذلك أفضل. وسوف أسجّل ما تقولينه، اتّفقنا؟

– أفهم ذلك.

أخبرتها بكلّ ما حدث، وكيف حاول المدير حملي على التعاون معه، وكم مرّة ضربني وهدّدني. كان جايك يمسك بيدي على الدوام، وشاهدت فكّه ينقبض وعنقه يتوتّر وأنا أتحدّث. لا شكّ عندي في أنّه كان يشعر بالذنب، ولكنّني بصراحة لم أملك الطاقة لأفكّر في الأمر، أو لأتخيّل أمرًا آخر غير ذلك الكابوس الذي سيطر على حياتي.

– أظنّ هذا كلّ ما أحتاج إليه، قالت الدكتورة هان وأطفأت مسجّلتها الرقميّة.

دخل فريد الغرفة حاملًا ذاكرة إلكترونية صغيرة، وقال لجايك والدكتورة هان:

– التسجيلات معي.

– التسجيلات؟ سألته.

– أفلام الكاميرات، أجاب جايك. سيُوجّه إليه الاتّهام. القيادة العليا لا تستطيع حمايته، لن ترغب في حمايته أصلًا.

– لِنُعد ليلى إلى مقطورتها، قالت الدكتورة هان وهي تقف. أيّها المجنّد أدامز، سأرافقك في خلال قيامك بنقل هذه الأفلام إلى خارج المخيّم. وعليك ألّا تتفوّه بكلمة واحدة بشأنها لأيّ مسؤول في المخيّم، ففي الوقت الراهن سنتكتّم على الأمر حتّى نتمكّن من توجيه التهم إلى المدير. أيّها العريف رينولدز، أعيّنك لحراسة مقطورة ليلى. وهذا الأمر يلغي كلّ الأوامر الأخرى، هل هذا مفهوم؟

– نعم، سيدتي.

أراد جايك الوقوف لأداء التحيّة لها، لكنّها أشارت إليه للبقاء بجانبي، وقالت له:

– استرح. ثمّ ناولتني ظرفًا أبيض فيه ستّ حبوب زرقاء، وقالت لي: عليك أن تأخذي حبّة كلّ اثنتي عشرة ساعة مع الطعام. ستخفّف الألم وتسمح لك بالنوم هذا المساء. وإذا احتجت إلى شيء ما، اطلبيه من العريف رينولدز. نحن إلى جانبك، وكان يجب أن نكون إلى جانبك قبل الآن. أنا آسفة جدًّا لأنّ هذا حدث لك، وآسفة جدًّا على كلّ ما أصبحنا عليه.

ثمّ انصرفت الدكتورة هان يرافقها فريد، وتركتني وجايك وحدنا في الغرفة.

– أودّ العودة الآن، قلتُ محاوِلة الوقوف، لكنّني ترنّحت.

– ضعي ذراعيك حول عنقي، همس لي جايك برقّة وكأنّه خشي أن يحطّمني صوته.

فعلت ما طلبه منّي، فحملني بين ذراعيه، وألقيت رأسي على صدره وأغمضت عينيّ. حملني إلى خارج الحجرة، ثمّ عبر الباب الخلفيّ للسجن.

كنّا في الصباح الباكر، قبل ساعة التعداد الصباحيّ، لكنّ الشمس كانت مشرقة وغمر نورها أعالي الهضاب لينسكب في أرجاء المخيّم

النائم. يبدو الأمر مستحيلًا، أليس كذلك؟ لا يمكن لهذا الجمال أن يكون موجودًا وسط كلّ هذه الوحشيّة. ولكن لعلّ هذا سبب وجود الجمال هنا. لعلّ على الشمس أن تشرق لتذكّرنا بالحقيقة.

غرق جسدي أكثر بين ذراعي جايك. كنت أحسّ بالإنهاك، وكأنّني نزفت دمي كلّه، ولم يبقَ فيّ سوى اللحم وأثر من العظام. شعرت بأنّني قادرة على النوم أيّامًا، لكنّ الصور كانت تومض خلف جفنيّ المغمضين: وجه المدير الأحمر الذي يوحي بالدناءة، قطرة من دمي تسقط على الأرض، ابتسامة دايفيد، قاعة الطعام، طقطقة السياج حين قبض عليه سهيل، جايك، والداي. والداي. لا يمكنني أن أتخيّل ما يعانيانه.

مع اقترابنا من مربّعي رفعت رأسي ونظرت إلى جايك وقلت له وأنا أحاول الابتسام:

– أظنني أستطيع السير من هنا، ثمّ تابعت وهو ينزلني شيئًا فشيئًا من بين ذراعيه: سيصاب والداي بهلع أكبر إذا ما رأياك تحملني وتدخل بي. لعلّ أمّي ستفقد الوعي حين ترى وجهي، أمّا أبي...

وبدأت أسير نحو مقطورتي السكنيّة.

– ليلى، توقّفي، أرجوكِ.

استدرتُ ونظرت إلى جايك. لم أكن قادرة على سماع ما ينوي قوله لي. لم أكن قادرة، لا يمكنني تحمّل أيّ شيء آخر. لكنّ جايك تابع:

– ليلى، يجب أن أخبرك أمرًا. لم أرد قوله لك في زنزانتك من قبل، بشأن المدير وما فعله أيضًا. أنا آسف. أنا آسف جدًّا.

– ما الأمر؟ والداي؟ ربّاه!

ركضت نحو مقطورتنا، وفتحت الباب بقوّة ودخلت مسرعة.

– أمّي؟ أبي؟

مضيت إلى غرفتَي النوم، لكنّ المقطورة كانت خالية. عدت أدراجي نحو الباب ونحو جايك الذي لحق بي. نظرت إلى طاولة المطبخ الصغيرة،

فرأيت تحتها فنجانًا لا بدّ من أنّه قُذف أرضًا، وبقع شاي على الكرسيّ والأرض بين شظايا الزجاج المحطّمة.

– لا. لا. لا. رجاءً. لا، قلتُ وأنا أهوي نحو الأرض.

– أنا في غاية الأسف يا ليلى، قال لي جايك وهو يركع بجانبي. أمر المدير بالقبض عليهما واقتيادهما.

تقوّس جسدي إلى الأمام، وأمسكت بركبتيّ، ثمّ جلست وألقيت رأسي على الأرض وأنا أنتحب وأشهق. اقترب جايك وأخذ يفرك لي ظهري وقال:

– لم أعلم بالأمر إلّا بعد حدوثه. لقد أمر فريقه الأمنيّ الخاصّ باقتيادهما. أنا في غاية الأسف، لم أستطع منع الأمر. ليتني استطعت أن أفعل شيئًا، أيّ شيء، لكنّني وصلت متأخّرًا.

نهضت، وجثوت على ركبتيّ لبرهة قبل أن أقف مستندة إلى نضد المطبخ، وسألت جايك:

– لكنّهما حيّان، أليس كذلك؟ سيكونان بخير؟ هل يمكنك إخراجهما؟

اقترب جايك منّي بدون أن يقول شيئًا.

– أخبرني يا جايك. أخبرني وحسب.

– لا أعلم يا ليلى، لا أعلم أين هما.

هززت رأسي يأسًا، وفركت جبهتي، وأحسست بصدري ينقبض ويغور، كما ضاقت أنفاسي، وقلت:

– حسنًا، حسنًا. عليّ أن أعرف أين هما وكيف أخرجهما وإذا... إذا كان بوسعي فعل ذلك ومتى... مَن...

ابتعدت عن نضد المطبخ، لكنّي أحسست بوهن في ساقيّ، ودارت بي الغرفة، ثمّ تراخت ركبتاي.

– ليلى!

تناهى إليّ صوت جايك كالصدى قبل أن يلفّ السواد كلّ شيء.

الفصل 32

أيقظتني انتفاضة جسدي من النوم. حاولت أن أعـوّد عينيّ الظلام والصمت الشبيهين بظلام القبور وصمتها. تقلّبت في السرير وأنا أرتجف تحت الغطاء الرقيق. لقد عدت إلى غرفتي في مقطورتنا. هذا ليس منزلنا، ولكنّها ليست الزنزانة كذلك. مـرّرت سبابتي على حلية عقدي الشبيهة بعلامة اللانهاية، فبرّدت الفضّة جلدي. أحسست بأنّ دماغي جامد تمامًا، ككتلة صمّاء وملساء من الطين، لا شكل محدّدًا لها ولا ندوب ولا ذاكرة. مددت يدي وأخذت الكنزة الصوفيّة التي كانت تتدلّى عن ظهر كرسيّي، وارتديتها قبل أن أعود لأتكوّم كالكرة وأرفع غطاء السرير حتّى أذنيّ. وفي صمت الغرفة، رحت أصغي، آملة أن أسمع شيئًا، أيّ شيء ينبئني بأنّ والديّ عادا، كصفير إبريق الشاي الكهربائيّ، أو صوت فناجين الشاي، أو الصوت المكتوم لانغلاق باب الثلّاجة، أو دندنة أبي، أو قرقعة ملعقة أمّي وهي تحرّك السكّر في فنجان الشاي. لكنّني لم أسمع إلّا أنفاسي وما أيقنت أنّه صوت عضلة قلبي التي تكاد تنفجر. كان صدى هدير الحقيقة يتردّد في جسدي. المدير يريد أن يدفنني، ويريدني أن أتحطّم، وهو ينجح في ذلك، لأنّني لم أشعر قطّ

بأنّني محطّمة بقدر ما أشعر به الآن. كما أحس بالتّعب الشديد، وهذا الإحساس بالتعب ترف ليس متاحًا لي.

سمعت طرقًا على الباب، ثمّ سمعت عبره صوت جايك:

– ليلى، أنت بخير؟

فركت عينيّ بقبضتيّ، ومضيت لأفتح الباب وأرى جايك بحاجبين معقودين وعينين محتقنتين بالدم. قلت له:

– شاهدتُ كابوسًا، حيث رأيتُني في مخيّم اعتقال، والمدير يعتدي عليّ، ووالداي يُقتادان بعيدًا، وهناك أشخاص يموتون، وذلك كلّه بسببي.

اقترب جايك منّي، وبرفق، أمسك بيديه ذراعيّ وقال لي:

– لست السبب في شيء، أتفهمين؟ لست السبب في أيّ شيء على الإطلاق.

نظرت إلى الأرض وهززت رأسي. هذا ما يقوله لي الجميع، وقد أصدّقه في أحد الأيّام. تابع جايك يقول:

– أرجوكِ اسمعيني، لا لوم عليكِ في شيء، لا بشأن هذا المخيّم، ولا بشأن والديك، ولا بشأن سهيل. إن كان هناك مَن يجب لومه، فهو أنا، فالكثير ممّا حدث قد حدث بسببي. أرجوك قولي لي إنّك تفهمين هذا. أنتِ وقفت في مواجهة وحش، وتلك شجاعة.

وفيما عانقني جايك قلت له:

– شكرًا لأنّك بجانبي.

– دائمًا.

حاولت عدم التفكير في معنى أن يكون جايك هو مَن يخفّف عنّي، لأنّني بحاجة إلى ذلك الآن. أنا بحاجة إلى أمّي وأبي ودايفيد. لكنّ جايك هو الموجود هنا. في الأمر نوع من الخيمياء، حيث يصبح شعور الإنسان بالوحدة أقلّ إثارة للرعب بمجرّد أن يلمس إنسانًا آخر.

دخلت المطبخ، وجلست إلى الطاولة الصغيرة. كان جايك قد نظّف بقع الشاي، وأعطاني كوب ماء وموزة وجلس بجانبي.

- آخ.

أجفلت وأنا أقضم الموزة، فقشرة جرح شفتي لم تستطع أن تتحمّل حتّى تلك الثمرة الطريّة.

- قد يؤلمك هذا الجرح لبعض الوقت، والكدمات أيضًا.

- رائع. لم أتخيّلني يومًا بوجه يحمل ندوب معركة، لكن أظنّني لا أملك الخيار الآن.

حاولت أن أبتسم ابتسامة صادقة، لكنّني أحسست بالألم أيضًا. شعرت بأنّ ذهني بليد، وبأنّني بدأت أخيرًا أفهم قليلًا معنى محادثتي وجايك مساء أمس، وما قاله لي. سألته:

- ماذا عنيت بقولك إنّك أنت مَن يجب لومه؟

نظر جايك أرضًا متجنّبًا أن تتلاقى عيوننا، ثمّ تنهّد وفرك جبينه وقال:

- كانت أوامري تقضي بترك الأمور تتطوّر.

- تتطوّر؟

- حين قبض عليك المدير، بلّغت رئيسي المسؤول، أعني القيادة العليا. طُلب منّي عدم التدخّل، وأمروني بتركه يستجوبك. كانوا بحاجة إلى أدلّة تدينه، إلى ما لا يمكن إنكاره، وذلك من أجل القضاء على المدير، وربّما على هذا المكان كلّه.

ارتخى فكّي الأسفل واغرورقت عيناي بالدموع. شعرت بأنّني تلقّيت لكمة جديدة، لقد استُخدمت طعمًا في فخّ، بدون أن أعرف.

- أنا في غاية الأسف يا ليلى. كنت أنفّذ الأوامر، وأحاول رؤية الصورة الكبيرة. تركتُ عقلي يتغلّب على مشاعري. ربّما كان بإمكاني - لا بل كان يجب عليّ - منع الأمر. أعرف أنّ ما فعلته لا يُغتفر، لكنّي أقسم أنّني لن أسمح للمدير أو لأيّ إنسان آخر بأن يُلحق بك الأذى بعد اليوم.

كنت أسمع كلمات جايك بدون أن أجد في عقلي أيّ تبرير يجعلها أقلّ إيلامًا. أوامر. إقفال موبيوس. هذا هو الأمر المهمّ. ولكن كيف أتابع طريقي بعد اليوم؟ همست لجايك:

– لا تعدني بما لا يمكنك الوفاء به يا جايك.

– كلمتي ميثاق. لن يمسّك بسوء بعد اليوم، قال جايك وهو ينظر إليّ.

أشحت بنظري بعيدًا، عاجزة عن تحمّل هذا الأمر، أو عن الحديث فيه، أو عن مواجهة جايك. كان هذا الأخير يقوم بما هو ضروريّ، لكنّ هوّة انفتحت بيننا الآن. الناس يقدّمون تضحيات لتغيير العالم. وفي الصورة الكبيرة، لعلّ استعمالي طعمًا سيصنع فرقًا ما، لكنّه لا يلغي فظاعة تعليقي بطرف صنّارة لالتقاط سمكة كبيرة. سيكون عليّ في أحد الأيّام أن أتقبّل الأمر، لكنّني لا أستطيع ذلك الآن. عليّ الآن أن أبعد عنّي هذا الشعور وأحتجزه في مكان ما حيث لا يعود قادرًا على إيلامي.

– كم الساعة في أيّ حال؟ سألته لتغيير الحديث. كم مضى عليّ نائمة؟

نظر جايك إلى ساعته وقال:

– الواحدة صباحًا. أخذت المسكّنات عند الثامنة من صباح الأمس.

– ماذا؟ هل نمت يومًا بكامله تقريبًا؟ هذا غير ممكن.

– استيقظتِ مرّة لكنّك عدت للنوم. الدكتورة هان قالت إنّ المسكّنات ستخدّرك تمامًا، وأظنّها فعلت فعلها.

– لكنّني أشعر بالتعب الشديد.

– مررتِ بالجحيم، قال لي جايك وهو يضع يده فوق يدي، أريد...

لكنّني أبعدت يدي.

سمعنا طرقًا على الباب، فتوقّف جايك عن الكلام، ووضع إصبعه على شفتيه وأشار إليّ بالذهاب إلى غرفة نومي. ثمّ أخذ مسدّسه عن ظهر الثلّاجة، وأرخى مغلاق الأمان. وسار إلى الباب ووقف بجانبه وسأل:

– مَن؟

– أنا فريد، أتيت وحيدًا.

كنت عند عتبة غرفة نومي، لكنّني لدى سماعي صوت فريد عدت إلى البهو. أعاد جايك مسدّسه إلى قرابه وفتح الباب لصديقه، قبل أن يعاجل بإعادة إغلاقه.

– ما الأمر؟

– أتيت لأقول لك...

ثمّ رآني فريد، ففغر فمه دهشة. من الواضح أنّ كدماتي وشفتيّ المتورّمتين كانت أسوأ منظرًا من البارحة. فسألني:

– ليلى، أنت بخير؟

مرّرت لساني على جرح شفتي، وأجبته:

– لا أزال هنا، شكرًا.

– لا أصدّق ما فعله ذلك الوغد بك.

– فريد، ماذا أردت أن تقول لي؟ سأله جايك بنبرة عسكريّة جافّة.

– لقد ذاع الأمر. الدكتورة هان تجاوزت التراتبيّة وأخذت الفيلم مباشرة إلى قائد الحرس الوطنيّ والمدّعي العامّ، ثمّ سرّبته إلى الإعلام.

– ماذا؟ لا! صرختُ.

العالم كلّه سيراه الآن، وسيكون عليّ أن أشاهد نفسي مرارًا وأنا أتعرّض للضرب. تلك الفكرة وحدها جعلتني أشعر بالغثيان، كما سالت دمعة على خدّي.

– ليلى، قال فريد بصوت رقيق، أنا آسف جدًّا. صورة وجهك تمّ تشويشها في الفيديو. أنت قاصر، لذلك لا يمكنهم الكشف عن اسمك

أو وجهك. لكن لم تكن ثمّة طريقة أخرى، فقد خشيت الدكتورة هان أن يخفي المدّعي العامّ الحقيقة، وأرادت إرغامه على التصرّف.

نظر جايك إليّ بنصف ابتسامة حزينة وتمتم لي:

– آسف.

مسحت دموعي بيديّ. في هذا المكان لم يُترك لي أيّ قرار تقريبًا، ماذا يمكنني عمله سوى إضافة هذا الأمر إلى لائحة الإهانات التي تعرّضت لها، وقلت:

– إن كان هذا سيساعدنا على الخروج من موبيوس، إن كان سيساعدني على العثور على والديّ...

– الفوضى تعمّ واشنطن. وزير الحرب كان التابع الأمين للرئيس منذ البداية، لكنّ هذا الأخير قد يضحّي به. الرئيس يكره النتائج السيّئة لاستطلاعات الرأي، ومن المحال أن يستطيع تغطية هذا الموضوع أو تجميله، ولا سيّما بعد موت ذلك المحتجّ.

– سهيل، قلت، كان اسمه سهيل.

هزّ فريد رأسه.

– ماذا سيحدث الآن؟ سألته، متى يمكننا مغادرة موبيوس؟

كنت أتلفّظ بالكلمات غير مقتنعة بأنّ شيئًا ما سيتغيّر. كنت أخشى أن آمل، لكنّ عليّ أن أخرج وأعثر على والديّ. أخذ فريد نفسًا ثمّ أجاب:

– لن يكون ذلك في هذه الدقيقة، ولكن ربّما قريبًا. هذه القصّة لقيت انتشارًا واسعًا جدًّا وهي موضوع التغطية الوحيد على كلّ القنوات والمواقع الأخباريّة، والناس نزلوا إلى الشوارع. سيكون عليهم أن يتصرّفوا بسرعة. موبيوس يخضع للإغلاق التامّ في الوقت الراهن.

– وماذا عن المدير؟ سألته بصوت هادئ.

– مختبئ في مكتبه مع مرافقيه حاليًّا.

– جبان، تمتم جايك. أيظنّ نفسه وجد ملجأً يحميه؟ وأنّه سينجو بعدما ألحق الأذى بليلى؟ محال، لن أسمح له بذلك.

– رويدًا يا راعي البقر، قال فريد لجايك، ماذا تظنّ أنّك ستفعل؟ هل ستهاجم مكتبه بالسلاح؟ مرافقوه سيقتلونك في الحال.

نظرتُ إلى جايك فاغرة فمي، وقلت له:

– لا تفعل ذلك، لن أتحمّل أن يتعرّض أحد آخر للأذى.

– إنّها محقّة، قال له فريد، لا تتحامق.

حملق جايك في صديقه، وكان فمه منقبضًا، ثمّ قال:

– حسنًا، سألازم ليلى. أفِدني بأيّ جديد، وتوخَّ الحذر.

– هذا ما أفعله دائمًا، قال فريد.

رافق جايك فريد إلى الباب وربّت ظهره فيما كان الأخير يسير مبتعدًا في الظلام. ثمّ استدار ليواجهني، لكنّني عدت إلى غرفتي وأغلقت بابها بهدوء، بدون أن أقول كلمة واحدة.

الفصل 33

في الصباح، وجدت المقطورة فارغة. كنت وحدي.

فيما كنت أخلع عنّي الملابس التي مضت عليّ أيّام وأنا أرتديها، انتبهتُ بكثير من الألم، إلى الكدمات التي غطّت جسدي، حتّى فيما كنت أحاول عدم التفكير في الجروح الأشدّ عمقًا والتي لا يسعني وصفها بكلمات. لم أجد في الحمّام سوى ماء بارد. وقفت فيه طوال الدقائق الخمس المسموح بها. وحين توقّف الماء، كنت أرتجف، لكنّ الشعور بالتخدير ناسبني.

كان خفقان قلبي يتردّد في الغرفة وأنا أرتدي ملابسي. أليس من المفترض بي وأنا ابنة وحيدة أن أكون معتادة الصمت، حيث لا إخوة أو أخوات يملؤونه؟ لم يكن الصمت يزعجني عمومًا، لكنّ صمت المقطورة اليوم كان ثقيلًا بغياب الشخصين اللذين أفتقدهما.

رأيت أنّ جايك ترك لي على طاولة المطبخ رسالة تقول:

«ذهبت لتغيير ملابسي. لا تذهبي إلى أيّ مكان. الحرّاس الآخرون يتلقّون التعليمات في المركز. المشرفون سيعلنون خلال التعداد الصباحي الإغلاق التامّ للمخيّم».

كان خطّه واضحًا وثابتًا ومستقيمًا، تمامًا كجنديّ متأهّب يؤدّي واجبه. تمامًا كجايك.

كنت أشرب فنجان الشاي الذي أعددته لنفسي، وأنا أنفخ الهواء عليه لتبريده، وأتفرّج على موجات السطح تبتعد عنّي. لامست خدّي المغطّى بالكدمات وقشرة الجرح الخشنة في شفتي. لقد ساعدتني مسكّنات الألم غير أنّها لم تُزل الوجع العميق الدائم في صدري.

لا، ذلك لم يكن وجعًا، بل ثقب، ولم أكن واثقة من أنّ بإمكان شيء أن يملأه. كانت عيناي تخزانني من شدّة البكاء، فقلت للمقطورة الفارغة بصوت مرتفع:

– كيف يُشفى أحد من هذا؟

سمعت طرقًا على الباب، وصوتًا يصيح:

– ليلى!

فتحتُ الباب لأرى عائشة تدخل بسرعة. كان شعرها ملفوفًا على هيئة كعكة غير مرتّبة، وتحت عينيها المحتقنتين بالدم جيوب سوداء. توقّفت فجأة حين رأت وجهي، ثمّ سألتني:

– ماذا حدث؟

لم أكن قد رأيتها منذ ليلة القبض عليّ، ليلة مات سهيل، حين قتله المدير وكلّ مَن أقاموا هذا المخيّم. تساءلتُ عمّا إن ذاقت عائشة طعم النوم، فقلت لها هامسة:

– عائشة، أنا في غاية الأسف.

تعانقنا، لكنّنا لم نبكِ، فألمنا كان أعمق من أن يسيل دموعًا.

– هل رأيتهم يقبضون على والديّ؟ سألتها ونحن نجلس إلى الطاولة.

هزّت عائشة رأسها علامة الإيجاب وقالت لي:

– كانوا نحو عشرة حرّاس أو أكثر. الحقيقة أنّني لم أرهم يُخرجون والديك، فبعدما شتمتهم الخالة خديجة وقالت لهم أن يذهبوا إلى

الجحيم، أرغمونا كلّنا على العودة إلى مقطوراتنا، ولم أستطع أن أفعل شيئًا.

– لو حاولتِ أن تفعلي لألحقوا بك الأذى أيضًا.

– أتعرفين ما يحدث؟ لم تنطلق صفّارة الإنذار هذا الصباح.

– قال جايك إنّهم فرضوا الإغلاق التامّ على المخيّم، يبدو أنّ هناك وضعًا عسكريًا ما، والفوضى تعمّ الأوساط الحكوميّة. لا أعلم.

هزّت عائشة رأسها وقالت:

– أخيرًا طفح الكيل، أليس كذلك؟ مؤسف أنّهم لم يستطيعوا وقف هذه الكارثة قبل موت سهيل.

ثمّ أخذت نفسًا عميقًا وضغطت بيدها على صدرها وكأنّها تحاول التخفيف عن قلبها.

– أعلم، أعلم، قلت لها.

– لنأمل أن تتحسّن الأمور، لا أن تسوء، قالت وهي تعضّ شفتها.

– هل أعدّ لك فنجان الشاي؟

ونهضتُ لأملأ إبريق الشاي، لكنّ صفّارة الإنذار دوّت في كلّ أنحاء المخيّم، وتردّد زعيقها بداخل المقطورة. فأسرعنا إلى الخارج.

كانت الريح تدور والغبار يملأ الهواء. لم أرَ حرّاسًا، لعلّهم كانوا كلّهم في المركز، لكنّ المشرفين كانوا يوقفون الناس في الصفوف، ويمسحون الرموز الإلكترونية للجميع. لم أستطع إخفاء كدمات وجهي أو جرح شفتي، كما أنّني لم أشأ ذلك. أردت أن يرى الناس ما فعله المدير. توقّعت أن أرى الناس يحملقون بي وأن أسمع همساتهم، لكنّني لم أتوقّع أن تأتي إليّ الخالة خديجة متّكئة على عصاها، وتشدّني بذراع واحدة إلى صدرها لتعانقني. ثمّ أتى أفراد عائلة المقطورة 23، والشقيقتان من المقطورة 27. وراح الناس واحدًا واحدًا يصلّون لوالديّ ويتمنّون لهما

سلامة العودة. بذل المشرفون جهدًا لفرض النظام، ولكنّهم عدلوا بعد عدّة محاولات فاشلة، ووقفوا جانبًا في انتظار عودة الجميع إلى صفوفهم.

شددت على يد عائشة وأنا أقترب لأقف في الصفّ خلفها وخلف أفراد عائلتها. كانت الأرض تدور حولي، وكأنّها على وشك أن تنهار، وتنشقّ، وتبتلعني. أغمضت عينيّ ورأيت والديّ يعدّان العشاء في المطبخ، ويضحكان وهما يقطّعان البصل وينكّهانه بخليط توابل الغارام ماسالا والكركمّ والزنجبيل والثوم، في محاولة لطهو الكيما على طريقة مربّيتي. ومع ذلك فهما لم يضاهياها قطّ، برغم كلّ الحماسة والحبّ في محاولاتهما. وتخيّلتُني للحظة هناء واحدة، هناك، في ذلك المطبخ، في مطبخي، في منزلي، مع والديّ، أشعر بالأمان والسعادة.

لكنّ أحدهم أمسك بيدي بخشونة، فعدت إلى موبيوس، إلى اللحظة الراهنة.

– قلت لك أريني معصمك، قال سليم بغضب.

– أخ. أنت تؤلمني.

– ألا تستحقّين ذلك؟

– اخرس! صاحت به عائشة، ودعها وشأنها. إن كان هناك مَن يستحقّ الألم فهو أنت وزوجتك. أنتما مشرفان؟ يا لهذه الدعابة. الجميع يعرف حقيقتكما.

– اصمتي يا عائشة، قالت لها أمّها موبّخة، والخوف بادٍ على وجهها.

– لا يا أمّي، سئمت الصمت، وعليكم كلّكم أن تسأموه. ليلى تقاتل من أجلنا، بالمعنى الحرفيّ للتعبير. انظروا إلى وجهها. ماذا فعل أيّ منكم؟ لا شيء سوى الجبن والخوف.

قبل أن أقول شيئًا أو أفعل شيئًا، ترك سليم يدي وقبض على ذراع عائشة وسحبها بالقوّة من الصفّ ورمى بها أرضًا. ورفع يده ليضربها بالماسحة الإلكترونية. فصرخت أمّها:

- لا!

أمّا أنا فقد قفزت وارتميت فوق عائشة، فيما اندفعت فوزيّة لتمسك بيد سليم.

أبعد سليم يده بعنف، والتفت نحونا ونحن ننهض من التراب بمساعدة والدَي عائشة. ثمّ أشار بإصبعه نحوي ونحو عائشة وقال:

- لستما سوى طفلتين غبيّتين تلعبان لعبة الكبار، وتجهلان كم قد تسوء الأمور بالنسبة إلينا جميعًا.

- جميعًا؟ سألته صارخة، أنتم تخونون قومكم، ولا تقلّون سوءًا عن المدير، بل أنتم أسوأ منه.

- أغلقي فمك القذر، صاح سليم والبصاق يتطاير من فمه، وقد احمرّ وجهه غضبًا.

ثمّ اقترب منّي، لكنّ الخالة خديجة أتت من خلفه، وضربته بعصاها على ظهره، فاستدار ونار الحنق تخرج من منخريه وعينيه، وصاح:

- ابتعدي أيّها العجوز، وإلّا فأنتِ التالية.

لكنّ فوزيّة أمسكت بيدي زوجها وأبعدته وهي تقول له:

- توقّف يا سليم، هذا غير لائق.

- «بيشارام»، يجب أن تخجل من نفسك، تابعت الخالة خديجة تقول له بازدراء ظاهر في صوتها، وكان جليًا أنّ تهديده لم يردعها ولم يؤثّر في صلابتها الفولاذيّة البتّة، أتهاجم هاتين الفتاتين؟ إنّهما الوحيدتان اللتان تحلّتا بالشجاعة لمساعدتنا، والوقوف بوجه هذا الطغيان. أتعامل إخوانك في الإسلام بوحشية، وتفتخر بما تفعل؟ أنت عار على عائلتك وعلى قومك.

دفع سليم زوجته فسقطت أرضًا، وسار نحو الخالة خديجة. شاهدت الأمر يجري بالحركة البطيئة. لا أظنني رأيت يومًا شخصًا بحُسن تلك المرأة الثمانينية الواقفة كالرمح، وعصاها إلى جانبها، والنار تتوهّج من

وجهها. هرعت وعائشة لمنع سليم من إيذائها، وتقدّم آخرون للوقوف أمامه. ووسط الصراخ وحركة الأجساد والغبار المتصاعد، دفعه أحدهم فسقط أرضًا.

نظر المشرف حوله، وعيناه ترفّان بشراسة في وجه الآخرين، الذي تجمّعوا في نصف دائرة حوله. دفع بنفسه إلى الخلف في التراب ثمّ وقف وأخذ ينفض الغبار عن ملابسه، قائلًا:

– ستندمون على هذا، كلّكم.

ثمّ مضى نحو المركز راكضًا.

بقينا واقفين هناك، وكلّ منّا ينظر إلى الآخر. كنّا خائفين. أقلّه هذا ما شعرت به، لكنّني شعرت أيضًا بالبهجة لأنّنا حقّقنا انتصارًا ولو ضئيلًا جدًّا.

اقتربت منّي الخالة خديجة، وأمسكت بيدي ثمّ تكلّمت بصوت رقيق وواضح:

– أتتذكّرين كلمات أبيك؟

هززت رأسي بالنفي، غير واثقة ممّا تعنيه كلماتها.

– لا بأس يا بيتا.

ثمّ ربّتت يدي، وتابعت تقول:

سوف نكون شهودًا في ليلة القدر.

حين يهبط الصمت وترتفع الصلاة.

وآنذاك لا يبقى لنا سوى الإصغاء إلى قلب الأرض الخافق،

ووميض الصواعق في ليل السماء العاصف.

كانت تلك إحدى قصائد أبي. أحسست بانقباض في حلقي، وسألتها هامسة:

– لماذا تتلين عليّ هذه القصيدة الآن؟

ابتسمت الخالة خديجة، وهزّت برأسها ثمّ شدّت على يدي، وقالت:

– والدك يتحدّث إلينا، وإليك. أنت خفقان القلب. والآن اصنعي لنا صاعقة.

هزّ سكّان مربّعنا رؤوسهم، واغرورقت عيناي بالدموع. تذكّرت أبي حين كان يقرأ قصائده لي ولأمّي، وعاد إليّ صوته الآن كأغنية تحمل طعم المرارة والحلاوة في آن واحد.

كنت صغيرة آنذاك، ورأيت الدموع تترقرق في عينَي أمّي، لكنّني لم أفهم تمامًا، فقال أبي:

– حتّى لو لم تعرفي معاني كلّ الكلمات، أرجو أنّك قادرة على إغماض عينيك والشعور بنبض القصيدة في دمك.

أمّي، أبي، سأعثر عليكما، ولن أستسلم.

– شكرًا، قلت هامسة للخالة خديجة وعانقتها.

ثمّ خطوت إلى الخلف وقلت للجمع:

– خفقة قلب واحدة لا تكفي لإثارة عاصفة، بل قوّة أصواتنا كلّها مجتمعة، للمطالبة بالعدالة. إنّه دويّ الرعد الذي يُحدثه وقع خطواتنا ونحن نسير نحو حرّيتنا.

نظرت إلى عشرات العيون الناظرة إليّ. وكانت الخالة خديجة واقفة بجانبي، دون أن تفلت يدي. قلت:

– المدير يختبئ في مكتبه، محاطًا بمرافقيه الأمنيين. أظنّ أنّ كبار المسؤولين سيأتون اليوم من واشنطن، ولهذا السبب فُرض الإغلاق التامّ على المخيّم. وسائل الإعلام ومجموعة «احتلال موبيوس» في الخارج. أظنّ أنّ علينا أن نسير إلى البوّابة الأماميّة ونطالب بإطلاق سراحنا. الناس في الخارج ينتفضون ضدّ قوانين الإبعاد، وخصوصًا بعدما تعرّض سهيل... وتهدّج صوتي، لكنني تابعت بعدما أخذت نفسًا: خصوصًا بعدما تعرّض سهيل للتيّار الكهربائيّ وقُتل.

– هذا انتحار، صاح صوت من الحشد يقول. لعلّ السياج لا يزال مكهربًا، وقد يطلقون علينا النار.

– يمكنك البقاء هنا إن لم ترد الانضمام إلينا. على الأطفال ألّا يقتربوا كذلك، أضافت عائشة.

– اسمعوا. أعرف أنّ في الأمر مجازفة، وأنّكم خائفون. أنا أيضًا خائفة، تابعت أقول. أجهل مكان والديّ، وأعرف أنّ المدير وهيئة الإبعاد قادرون على أن يرتكبوا فظائع بحقّنا. لكنّني أعتقد أيضًا أنّ بعض حرّاس هيئة الإبعاد لن يقبلوا بالمزيد من هذا الظلم. لن أطلب من أحد أن يقوم بما لا يريد القيام به. إن لم تريدوا الذهاب، فسأتفهّم ذلك، لكنّ هذه هي فرصتنا، بل لعلّها فرصتنا الوحيدة لإسماع صوتنا.

– نحن معك، قال لي شخصان وهما يقتربان منّي، ثمّ تلاهما آخرون.

التفتّ إلى عائشة وقلت لها:

– أيمكنك الذهاب بسرعة إلى المربّع الثامن، والبحث عن ثريّا؟ أحضري معك كلّ مَن يرغب في القدوم.

قابلتني عائشة بابتسامة كبيرة مطمئنة، قبل أن تقترب أمّها منها وتقول لها:

– عائشة، مهلًا. لا.

لكنّ والد عائشة وضع يده برفق على ذراع زوجته وقال لها:

– جاآن، الأطفال على حقّ. أنا سأرافقها وأحميها.

ثمّ مضى وابنته بسرعة باتّجاه المربّع الثامن.

شددت على يد الخالة خديجة ونظرت إليها وقلت:

– أرجو منك البقاء بعيدة والانتباه إلى الأطفال، لا أريد أن يصيبك مكروه. ما فعلتِه حتّى الآن كافٍ.

– بيتا، أنا وحيدة في هذا العالم، وقد سلّمت أمري لله تمامًا. وحين يدنو أجلي، فلا أنت ولا أنا قادران على منعه. أنا معك.

كنت على وشك أن أبكي فرحًا وارتياحًا وامتنانًا، لكن لم يكن لدينا وقت لذلك، فعانقتها وهمست في أذنها كلمة شكر.

– ماذا علينا أن نفعل؟ سأل صوت آخر.

تريّثت قليلًا ولعقتُ شفتيّ المشقّقتين والمجروحتين، ثمّ قلت:

– علينا أن نثير بعض الضجيج.

– لكنّ المدير سيسمعنا ونحن نقترب.

– أريد من العالم كلّه أن يسمعنا. عودوا كلّكم إلى مقطوراتكم وأحضروا أيّ شيء يثير ضجيجًا: طناجر، مقالٍ، ملاعق، أيّ شيء. قد لا نملك أسلحة، لكنّنا نملك أصواتًا. لنرفع أصواتنا.

سمعت آنذاك تصفيقًا وهتافات فيما اندفع الناس لإحضار أدوات الاحتجاج. نظرت إلى الجميع، ثمّ رفعت بصري إلى السماء وصلّيت من كلّ قلبي قائلة: «يا ربّ، رجاءً، أبقِنا في ظلّ حمايتك. رجاءً، احفظ والديّ. رجاءً، ساعدنا لننجح في ما نفعل».

تدفّقت إلى دماغي أفكار وصور كثيرة جدًّا، لكنّني حاولت إبعادها من بالي والتركيز. هذه خطّة مرتجلة وغير معدّة بدقّة، لكنّنا نحن المقاومة هنا، وهذا كلّ ما بوسعنا فعله الآن.

حين خرج الناس من مقطوراتهم، أرجعت كتفيّ إلى الوراء وحاولت الوقوف مستقيمة، وتنفّست ملء رئتيّ، ثمّ طلبت إلى كلّ الذين بقوا مع الأطفال أن ينقسموا إلى مجموعتين وأن تحتمي كلّ مجموعة في مقطورة. كان الناس يروحون ويجيئون في انهماك. نظرت إليهم فرأيت البعض يتصافحون، ورأيت أيضًا ابتسامات متوتّرة ووجوهًا كالحة، كذلك رأيت مجموعة من الأشخاص راكعين للصلاة، رافعين أيديهم أمام وجوههم، وسمعتُهم يختمون صلواتهم بعبارة «آمين»، فتمتمت بها بدوري. ثمّ مسحت يديّ المتعرّقتين بسروالي الجينز، وتنحنحت.

سمعت خبط أقدام تسير على التراب، آتية من الزاوية، فخفق قلبي بقوّة. إنّهم الحرّاس. شددت قبضتيّ وحاولت أن أستجمع رباطة جأشي.

لكنّ من أتوا لم يكونوا حرّاسًا يحملون صواعق ومسدّسات، وقلوبهم ملأى بالكراهية. لم يكونوا «هم»، بل «نحن». رأيت عائشة وثريّا وناديا ونديم، وفتيات محجّبات، وفتيات يتطاير شعرهنّ على وجوههنّ، وفتيات حليقات الرؤوس. رأيت آباءً وأمّهات وأجدادًا وجدّات. رأيت شبّانًا يلبسون قمصان الداشيكي الملوّنة، والقرطُق القطنيّ الأبيض، وقمصان تي شيرت تحمل أسماء الفرق الموسيقية الغربيّة. رأيت أزواجًا وزوجات، وأصدقاء، وغرباء، وأفراد عائلات، جمعتهم رابطة الدم أو الظروف. كنّا كلّنا هناك، سمرًا وسودًا وبيضًا، كنّا خمسين شخصًا على الأقلّ. كان ذلك أجمل مشهد رأيته. اختلطت المجموعات من المربّعات المختلفة، وكان الجميع يبتسمون، ويشبك بعضهم أيديهم بأيدي بعض، ويتبادلون التربيت على الظهر. أحسست بقلبي يمتلئ سعادة.

بعد أن كنّا كثيرين، بتنا شخصًا واحدًا.

تمنّيت لو أنّ سهيل هنا ليرى هذا. ولكن لعلّه كان هنا بشكل من الأشكال.

كان وجها عائشة وثريّا يبتسمان ويشعّان مع اقترابهما منّي.

– سمعنا أنّك تخططين لثورة، قالت لي ثريّا وهي تعانقني، ها نحن هنا.

– أعلم، قلت لها هامسة.

ثمّ قوّمت كتفيّ ووقفت على درجات باب أقرب مقطورة إليّ.

– لعلّك تحتاجين إلى هذا، قالت لي فوزيّة وهي تعطيني مكبّرًا صغيرًا للصوت، اضغطي على الزرّ الأحمر حين تريدين أن تتكلّمي.

لم أكن أملك الوقت لأشعر بالصدمة ممّا فعلَتْه فوزيّة، لكن لا شكّ عندي في أنّ الصدمة ارتسمت على وجهي. فحيّيت المشرفة بحركة من رأسي، ثمّ رفعت مكبّر الصوت وأنا أنظر إلى الوجوه القلقة والمشرقة أمامي. تردّدت، ثمّ تنحنحت وقلت:

– لم يسبق لي أن ألقيت كلمات تشجيعيّة أو خطبًا من النوع الذي يلهب مشاعر الجنود للقتال.

ونظرت إلى عائشة وثريّا اللتين ابتسمتا لي ورفعتا قبضتيهما تشجيعًا. صمتُّ قليلًا وتذكّرت ابتسامة تميّزت بها أمّي، ابتسامة تبثّ الدفء في عينيها، وكانت تخصّني بها دون غيري، لا سيّما في المدرسة المتوسّطة، كلّما شعرتُ بأنّني تائهة قليلًا أو مُحبطة، فكنت أجدها دائمًا بجانبي، عالمة بما أحتاج إليه من دون أن يكون عليّ قول شيء.

ثمّ استأنفتُ كلامي:

– لكنّني أعرف أنّ أميركا مبنيّة على الحياة، والحرّية، والسعي إلى السعادة. لقد حُرمنا كلّ ذلك، وأعتقد أنّ كلّ أميركيّ أتى قبلنا، وتحدّى القمع، وناضل ليضمن حقّنا في الحريّة الدينيّة، ينظر إلينا من السماء ويطلب منّا أن ننهض ونرفع صوتنا ونصرخ بأسمائنا ليسمعها العالم. نحن نستمدّ قوّتنا من عمالقة سبقونا. نحن أميركيّون. نحن نجعل من أميركا عظيمة. هذه بلادنا، وسوف نستعيدها.

دوّى تصفيق الناس وهتافهم. ثمّ نزلت وسرت إلى الجهة الأمامية للمربّع خافقة القلب، وانضمّ إليّ للسير في الصفّ الأماميّ كلّ من عائشة ووالدها وثريّا والخالة خديجة، ثمّ تبعنا الآخرون. انعطفنا نحو طريق ميدواي ونحن نقرع الطناجر والمقالي والملاعق، ولفتنا انتباه بعض المعتقلين الآخرين الذين كانوا في مربّعاتهم. وقد اكتفى البعض بالتفرّج علينا، فيما سارع آخرون للانضمام إلينا.

استدرت لأواجه الحشد الذي كان يزداد عددًا. ثمّ رحت أسير القهقهرى ورفعت مكبّر الصوت إلى فمي، وتذكّرت كلّ المحتجّين الذين سبقونا، وصحت:

– الشعب المتّحد لا يُهزَم أبدًا!

وعلت الأصوات تردّد كلماتي.

الفصل 34

فيما كنّا نسير نحو البوّابة الأماميّة للمركز، انضمّ إلى مجموعتنا معتقلون آخرون، كما راح محتجّو «احتلال موبيوس» يثيرون الضجيج لمشاركتنا مسيرتنا. هرع المصوّرون التلفزيونيون نحو السياج، متجاوزين الحواجز البلاستيكية البرتقالية اللون، وتبعهم الآخرون. ولكنّ الشرطة لم تمنع المحتجّين من التقدّم هذه المرّة. لا بدّ من أنّ الكهرباء مقطوعة. إنّها انتصارات صغيرة.

سرنا باتّجاه السياج لكي يستطيع محتجّو «احتلال موبيوس» رؤيتنا. ثمّ استدرنا جميعًا وواجهنا المركز، فيما واصل الناس قرع الطناجر والصراخ لإسماع صوتهم. رفعت قبضتي في الهواء لتهدئتهم. ثمّ خرج نفر من مرافقي المدير ووقفوا أمام أبواب المركز.

هرع عشرات من حرّاس هيئة الإبعاد في اتّجاهنا، لكنّ ارتباكًا كبيرًا وقع. فبعضهم انضمّ إلى مرافقي المدير، لكنّ جايك وستّة أو سبعة حرّاس وقفوا بجانبنا، بمواجهة رفاقهم الجنود. بعد انقشاع غبار كلّ هذه الجلبة خيّم الصمت على الصحراء. شعرت بأنّ الكاميرات مصوّبة عليّ، كما شعرت بالأمل الأخير الذي يخامر صدور كلّ الواقفين معي يومذاك.

كان لتلك اللحظة ثقل كافٍ لسحقنا جميعًا. تمنّيت لو أنّ والديّ كانا إلى جانبي. علينا أن نفعل ما نفعله لأجل ذواتنا، لكنّني، في قلبي، كنت أعرف أنّني أقوم بذلك من أجلهما. أحسست بأنّ تنفّسي يرتعش. وقف جايك بجانبي، وضغط بذراعه على ذراعي فزاد من عزيمتي. شددت قبضتي اليسرى، ورفعت مكبّر الصوت إلى فمي وقلت:

– نطالب بفتح بوّابات موبيوس.

ثمّ رحت أحرّك قدميّ من شدّة الاضطراب، وأحسست بارتجاف معدتي، ورجوت ألّا أتقيّأ. بطرف عيني اليسرى رأيت عائشة وثريّا والخالة خديجة. كما عرفت أنّ عيني دايفيد تريانني برغم أنّني لم أكن أراه. مجدّدًا، تنحنحتُ، وأخذت نفسًا، وقلت:

– نحن أميركيّون!

علت هتافات المعتقلين، فكرّرت عبارتي، ثمّ شاركنا محتجّو «احتلال موبيوس» الهتاف. كان الجميع يردّدون «نطالب بإطلاق سراحنا! نطالب بحرّيتنا!»، أو يقرعون الطناجر، أو يرفعون قبضاتهم في الهواء.

صمتُّ منتظرة عودة الهدوء، لأستأنف قائلة:

– نعرف أنّك تختبئ في الداخل أيّها المدير، وأنّك تخشانا.

كنت أستفزّه. لم أكن واثقة تمامًا من صواب ما أفعله، لكنّ ذاكرتي كانت تضجّ بصوته المرعب وهو يصرخ في أذني، وبصفعته اللاسعة التي شقّت شفتي، وبتكشيرة وجهه الوحشية. شددت قبضة يدي اليسرى بقوّة أكبر حتى انغرزت أظافري في جلدي. تسارع نبضي وانفجرت صارخة:

– اخرج وواجهنا أيّها الجبان!

ظلّ كلّ شيء ساكنًا لبرهة، وردّد المخيّم والأودية صدى صيحتي. وفجأة انفتح باب المركز على مصراعيه، ودُفع والداي خارجه.

كان اثنان من مرافقي المدير يسيران خلفهما وهما يصوّبان مسدّسين إلى مؤخّرة رأسيهما.

توقّف قلبي عن الخفقان، وانفتح فمي، لكنّني كنت عاجزة عن الكلام. وسمعت صيحات وشهقات تنبعث من الحشد الواقف خلفي.

كان شعر أمّي أشعث، وعيناها يغشاهما الخوف. أمّا وجه أبي فكان مغطّى بالكدمات. بدا متقوّس الكتفين قليلًا، وقد رفع ذراعه اليمنى قليلًا بزاوية غريبة.

مددت يدي في اتجاه والديّ، فردّت أمّي بمدّ يدها نحوي، لكنّنا كنّا عاجزتين عن ردم المسافة بيننا.

ظهر المدير خلفهم، وهو يحملق بي بغضب. كانت بزّته متجعّدة، ووجهه قرمزيًا، وقال لي:

– أهذا سبب كلّ هذه الجلبة يا آنسة أمين؟ والداك الثمينان؟ ها هما، وبخير. سيكون مؤسفًا جدًّا أن تسبّب لهما أفعالك اليوم أيّ أذى. ولكن، إذا قمتِ بتفريق هذه التظاهرة الصغيرة، وتوسّلت إليّ طالبة المغفرة، فقد يستطيع الجميع الخروج من هذا الجنون على قيد الحياة. الخيار لك.

خطا المدير خطوة إلى الخلف ووقف بجانب الرجلين اللذين يصوّبان مسدّسيهما إلى رأسَي والديّ، وكشّر عن أسنانه كحيوان صغير غاضب.

ابتلعت ريقي، وأغمضت عينيّ وبحثت يائسة عن كلمات أقولها. كانت أحشائي تتلوّى وتتوتّر. يظنّ نفسه انتصر، لكنّني لن أدعه ينتصر. رفعت رأسي وأومأت نحو السياج ومحتجّي «احتلال موبيوس» ووسائل الإعلام، راجية أن تنجح خطّتي.

– لن نذهب إلى أيّ مكان، قلت عبر مكبّر الصوت.

– إذن فأنتِ المسؤولة عن دمهما، صاح بي المدير الذي كان يعرف أين يوجّه طعنته.

– وبعد ذلك؟ لا يمكنك أن تقتلنا. هل نسيت الكاميرات؟ العالم يشاهدك أيّها المدير.

خطا المدير خطوة إلى الخلف لينظر إلى الصحافيين ومئات المحتجّين المتجمّعين خلف السياج. ثمّ فرك مؤخّرة عنقه وفتح فمه ليتكلّم، لكنّه لم يقل شيئًا، بل اقترب ببطء من والديّ، وأشار إلى المرافقين اللذين يحملان المسدّسين بالابتعاد.

حبست أنفاسي.

دفع المدير والديّ على الدرج، فتعثّرا وسقطا في التراب. هممت بالمسارعة إليهما، لكنّ جايك منعني وأشار إلى حارسين يقفان في صفّنا لمساعدتهما على الوقوف. أظنّ أنّ الجنود المسلّحين يوفّرون حماية أفضل ممّا قد أوفّرها أنا. سارع والداي نحوي، وعانقتني أمّي، فيما طوّق أبي كلتينا بإحدى ذراعيه.

– أنتما بخير؟

خرج صوتي من فمي مبحوحًا. كنت أحاول منع نفسي من الارتجاف، وأستجمع قواي لئلّا تخونني ركبتاي. هزّت أمّي رأسها مؤكّدة لي أنّها بخير وقبّلت خدّي، لكنّ ذراع أبي بدت في حال سيّئة. خرجت عائشة وثريّا من الحشد، وساعدتا والديّ على الوقوف خلفي، وتجمّع حولهما بعض الأشخاص.

كان المدير يقيّم الوضع في تلك اللحظة، وهو يتّجه للوقوف خلف مرافقيه، ثمّ أشار إليّ بإصبعه السمين، وبعينين جاحظتين ضغينةً قال لي:

– حسنًا، لقد قمتِ باستعراضك الصغير، وسمحتُ بلمّ شمل عائلتك. والآن عودوا كلّكم إلى جحور الجرذان حيث تنتمون، وإلّا فستكونون مسؤولين عن تعرّض أشخاص آخرين للأذى.

سقطت عليّ كلماته كسندان ثقيل. كنت أنقّل وزني بين رجل وأخرى وأحاول ابتلاع ريقي. نظرت إلى والديّ، فبدَوا محطّمين، لكنّ ألقًا من الفخر كان يلتمع في عينيهما. أمسك جايك بمرفقي ليثبّتني في وقفتي، ثمّ أخذت نفسًا عميقًا وصحت عبر مكبّر الصوت:

– لن نرحل حتّى تُفتح بوّابات المخيّم ونرحل كلّنا من هنا، معًا.

– أقترح عليكم أن تنظروا حولكم، صاح المدير مخاطبًا المعتقلين، وهو يدلّ بيده إلى المخيّم، السياج المكهرب، والشريط الشائك، والرجال المسلّحون، إنّهم هنا ليبقوكم بداخل المخيّم، ولحماية أميركا منكم. أنتم أعداء للدولة في أقوى بلد في العالم، وتظنّون أنّكم ستسيطرون على هذا المخيّم بالطناجر والمقالي، وبقيادة طفلة؟ أنتم مغفّلون. تفرّقوا حالًا. وتريّث برهة ليتابع قائلًا: وإلّا فستواجهون العواقب. لرحمتي حدود.

سرى الهمس كالموج وسط الحشد، لكنّ أحدًا لم يتزحزح من مكانه.

ثمّ صاح صوت رنّان من وسط الجمع:

– الشعب المتّحد لا يُهزم أبدًا!

كان ذلك كلّ ما أحتاج إليه، فصحت عبر مكبّر الصوت:

– انتهى أمرك أيّها المدير. انتهى أمرك، وسندفنك.

اقتربت أمّي منّي ولامست ظهري برؤوس أصابعها.

خطا المدير إلى الأمام، مشدود القبضتين، والعرق يلتمع على جبينه، وكان صدره يعلو ويهبط ومنخراه يبدوان وكأنّه ينفث نارًا.

خيّم الصمت على المخيّم كلّه، وعلى المحتجّين. وحتّى الريح سكنت. سمعت من خلف السياج صوت عدسات الكاميرات وهي تلتقط المشهد. أحسست بجفاف في حلقي، ووصل صوت خفقان قلبي إلى أذنيّ. نظرت إلى السماء راجية هبوب عاصفة، أو هطل المطر ليغسل الكراهية والغبار والألم، أو حدوث فيضان هائل يزيل موبيوس

من الوجود، ويسمح لنا ببناء العالم من جديد. شعرت بنفسي صغيرة جدًّا، وخائفة.

أغمضت جفنيّ لثانية لحماية عينيّ من ضوء الشمس الحارق. وفي تلك الثانية بالذات، سمعت صوت دايفيد، وشعرت بيده تسحبني إلى بوّابة خياليّة عدنا منها عبر الزمن إلى غرفة حوض السباحة، قبل أن يأتي رجال هيئة الإبعاد ليشعلوا النار في العالم. في تلك اللحظة الخاطفة بين زمنين، رأيتني مع دايفيد في الضوء الخافت والمرتجف المنبعث من الشمعة وحشرات سراج الليل. كان كلّ شيء كعهده دائمًا قبل حدوث ما حدث. ربّما إذا أبقيت عينيّ مغمضتين، فقد تزول هذه النسخة من العالم، ويتلاشى موبيوس وقوانين الإبعاد وسط ضباب كوابيسي المرتحل. فكّرت في كلّ الذين، عبر التاريخ، وجدوا أنفسهم في مكان كهذا، فخرجوا من الظلمات ورفعوا أصواتهم، ووجدوا شجاعتهم، وواجهوا خوفهم لكي يكونوا أحرارًا. لقد خسرنا الكثيرين من الذين سُجنوا أو قُتلوا بسبب لون بشرتهم أو ديانتهم أو بسبب مَن كانوا يحبّون.

كلّ ما أرادوه كان أن يحيوا.

فتحت عينيّ.

أنا أيضًا أريد أن أحيا.

أخذت نفسًا عميقًا وخرجت من الصفّ، ووقفت أمام جايك والآخرين. وقف المدير في مواجهتي، عريض الكتفين، كمقاتل يتأهّب للقتال، مشدود العنق، وعيناه لا ترمشان. كان يظنّ أنّه يستطيع إذلالي، لكنّني نويت أن أريه أنّني محاربة أيضًا. أنزلت مكبّر الصوت، وقلت للمدير بصوت حاولت جعله ثابتًا قدر الإمكان:

– تنحَّ، فقد انتهى الأمر.

ظهرت ابتسامة متوتّرة على وجهه القرمزيّ، وكانت قبضتاه ترتجفان على جانبيه. نظر إليّ بحنق هائل شعرتُ بأنّه يشعل نارًا في المسافة القصيرة الفاصلة بيننا.

– اقتلوها، قال بصوت خفيض، ولكنّ الجميع سمعوه.

شعرت بأنّ كلّ حركة حولي قد تباطأت، وتجمّد الهواء. فجأة شعرت بأنّ الموت قريب على نحو يثير الرعب. سمعت أمّي تصرخ، وأبي يصيح بشيء ما، لكنّ صوتيهما بدوَا بعيدين ومخنوقين.

لم يتحرّك أيّ من الحرّاس أو من مرافقي المدير، وساد جوّ من الذعر والارتباك.

– ابتعدوا! جأر جايك وهو يتقدّم للوقوف بجانبي.

حذا الحرّاس الذين انضمّوا إلينا حذو جايك وتقدّموا بدورهم.

التفت أحد الحرّاس الذين كانوا واقفين بجانب المدير نحو هذا الأخير وقال:

– لم أتطوّع في الحرس الوطنيّ لأقتل أميركيّين أبرياء، بل لأدافع عن بلادي.

وواحدًا بعد الآخر، بدأ الحرّاس يبتعدون، ولم يبق بين المدير وبقيّة موبيوس سوى مرافقيه الأمنيين. فزعق المدير بهؤلاء:

– اقتلوها! اللعنة! قلت لكم اقتلوها. هذا أمر!

نظر أحد المرافقين إلى الحشد وإلى الحرّاس الواقفين معنا، ثمّ التفت إلى المدير وهزّ رأسه ببطء وقال:

– إنّها طفلة يا سيّدي.

أدار المدير ظهره نحونا، ووقف بكتفيه العريضتين، ويداه على وركيه.

آنذاك لم أدر إن كنت أتنفّس، ولم أحسّ بجسدي. لامس جايك ذراعي، وتمكّنت أخيرًا من أن آخذ نفسًا، وقلت للمدير الذي يدير ظهره إليّ:

– أصبحتَ وحيدًا. لقد خسرتَ.

استدار المدير وتقدّم بسرعة بين من بقي من مرافقيه، وأخذ من حزامه مسدّسًا.

ودوّت في الهواء طلقة رصاص واحدة.

الفصل 35

كمفرقعة ناريّة. صوت الرصاصة كان شبيهًا بمفرقعة ناريّة.

وانتهى كلّ شيء.

ففي اللحظة التالية، راح الوقت يتقدّم وكأنّه في سائل لزج يكتم كلّ الأصوات: الصراخ، ووقع الأقدام الراكضة فوق التراب القاسي، والعويل، وارتطام جسد المدير بالأرض بعدما دفعه مرافقوه أرضًا، وصيحات «هيّا! هيّا! هيّا!» فيما كان حرّاس هيئة الإبعاد ينقضّون على المدير ومرافقيه، شاهرين أسلحتهم.

حاولت أن أتحرّك، فلاحظت أنّني راقدة أرضًا ووجهي إلى التراب. كان الصراخ يأتي من كلّ اتّجاه، ورأيت دمًا. وقفت ورأيت الدم على قميصي وذراعيّ.

لكنّه ليس دمي.

استدرت بسرعة لأرى والديّ. رأيت أبي أرضًا وهو يمسك بذراعه ويتأوّه ألمًا، وأمّي منحنية فوقه. اقتربت منهما وصحت:

– أبي! أبي!

– إنّه بخير، إنّه بخير، قالت أمّي قبل أن تتوقّف فجأة، وتنظر خلفي بوجه شاحب.

خشيت أن أستدير لأنظر. كانت الفوضى في كلّ مكان حولي، وملأ الغبار الهواء. ثمّ استدرت ببطء.

خرجت منّي صرخة مزّقت أحشائي.

كان جايك راقدًا أرضًا، ممسكًا بمعدته، والدم يئزّ من بين أصابعه.

– جايك! لا! لا! لا!

ركعت بجانبه، ووضعت يديّ فوق يده وبدأت أضغط كما كنت أرى في الأفلام. لكنّ ما جرى حينذاك لم يكن فيلمًا، ولم يتوقّف الدم. لم يتوقّف. ربّاه! كان النزف شديدًا. كيف أوقفه؟

نظر جايك إليّ، وانفرجت شفتاه. ثمّ سعل وتدفّق الدم من فمه.

أسرع فريد نحونا، وحين رأى جايك شحب لونه وابتلع ريقه، وقال:

– اصمد يا جايك. ستصل سيّارة إسعاف حالًا.

ثمّ مزّق قميصه وكوّمه ودفع به فوق الجرح. ظهر الألم بقوّة على وجه جايك، وخرجت من حلقه بقبقة عميقة ومروّعة. قال لي فريد:

– ليلى، واصلي الضغط على الجرح، أتسمعين؟ عليّ تأمين الطريق لوصول المسعفين إلى هنا. كلّمي جايك. أبقيه مستيقظًا.

بدأ جفنا جايك يتثاقلان. حاولت أن أكلّمه لكنّ صوتي لم يكد يخرج من حلقي.

– جايك؟ جايك؟ جايك؟ ابقَ مستيقظًا.

كان جفناه المتثاقلان يرتجفان، وانفرجت شفتاه. بدا واضحًا لي أنّه يحاول الكلام، لكنّه عجز عن ذلك. بحركة مضطربة، قرّب يده من معدته، ولامست رؤوس أصابعه أصابعي. شعرت بملزمة تخنق قلبي، ورحت أضغط بقوة أكبر على قميص فريد، لكنّه كان مبلّلًا بالدم، فلم يكن بوسعي وقف النزف.

أغمضت عينيّ، وسالت الدموع على خدّيّ المتّسخين بالغبار، وهمست له بصوت واهٍ:

– جايك، أنا آسفة. آسفة على كلّ شيء.

هل كان يستطيع سماعي؟ هل كان يفهمني؟ لقد وقف أمامي لحمايتي. لماذا وقفت أمامي يا جايك؟ أعرف أنّك ظننت نفسك خذلتني، ولكن... ما كان يجب أن تفعل هذا لتكفّر عن خطئك يا جايك.

– ليلى، أنا... أنت... وتلاشى صوته.

– لا تتكلّم يا جايك، وفّر طاقتك. أنا أسمع صوت سيّارة الإسعاف. أبقِ عينيك مفتوحتين. أنا هنا. ابقَ معي. ابقَ مستيقظًا.

رفعت عينيّ إلى السماء وبدأت أصلّي. تلاشى العالم كلّه من حولي، حتّى لم يبق سوى صوت أنفاسي المنتظمة وصوت حشرجته المتقطّعة. تنشّقت الدمع الذي سال عبر أنفي، وحاولت أن أمسحه بظاهر يدي، فأحسست بالدم الذي تركته أصابعي على خدّي.

لا يمكن أن تكون هذه نهاية جايك. لا يمكنه أن ينتهي هنا، في هذا المكان الرهيب. أردت أن أُبعد تلك اللحظة المروّعة، أن أتلاعب بالزمان والمكان لأمنح جايك شيئًا أفضل من هذا. وددت لو أعيد إليه تلك الساعة السحرية التي قضاها طفلًا مع والدته في كاسل لايك. وددت لو أعطيه هواءً باردًا يتنفّسه. وددت لو أعطيه بوصلة تعيده إلى دياره.

ضغطت على معدته بقوّة أكبر، خفقت جفونه قليلًا. لا تغمض عينيك يا جايك. رجاءً. رجاءً. نظرت إليه. يداي أصغر من يديه، ولكن بدا لي كأنّ جسده يتقلّص، أو كأنّ كتلته العضليّة تزول. حاول أن يلفّ أصابعه حول يدي، لكنّه لم يستطع. كان جسمه باردًا جدًّا، وباطن أصابعه شبه أزرق، وكانت عيناه مفتوحتين ولكن كأنّهما من زجاج، ولم أعد أعلم إن كان يراني.

شعرت بأنّ حياته تنتهي. رجاءً يا ربّ. سبق لنا أن خسرنا سهيل وآخرين كثيرين. رجاءً لا تأخذ جايك أيضًا. هل هناك ما يمكنني عمله؟ هل من عهد أقطعه على نفسي فأنقذ جايك؟ ولكن لا مساومة مع الموت، وهو حين يأتي لا يُمهل، ولا يبالي بفضائل المرء.

سمعت صوت أمّي وأصواتًا أخرى. رفعت بصري فرأيت والديّ وأشخاصًا من مربّعات مختلفة ساجدين في نصف حلقة حولنا، وأيديهم مرفوعة أمام وجوههم، وجباههم محنيّة، يتلون صلاة: «اللهم اغفر له وارحمه وعافِهِ واعفُ عنه وأكرِم نُزُله ووَسِّع مدخله، وأدخِله الجنّة».

– آمين، تمتمت.

رأيت عيني جايك المتعبتين تغمضان. وعرفت أنّها إغماضته الأخيرة.

الفصل 36

لقد تلطّخت رمال الصحراء بدمائهم.

سهيل. نور. أسماء. بلقيس. جايك. وآخرون لا أعرف أسماءهم، ولكنّني سأكتشفها وسأحفرها في قلبي إلى الأبد. حين أجتاز هذا السياج ذا الشريط الشائك، سأحرص على أن يعرفهم العالم ويعرف ما ضحّوا به. لن أدعهم للنسيان.

تسلّل ضوء الصباح عبر نافذة غرفة نومي في المقطورة. جلست على حافة السرير السفليّ في هذه الغرفة الصغيرة والرهيبة. الملابس التي كنت أرتديها ليلة أمس، والملطّخة بدماء جايك، كانت مكوّمة في الزاوية. قبل أن آوي إلى سريري، فركت وجهي ويديّ حتّى كدت أكشط جلدي، لكنّ دمه بقي مختلطًا بالغبار تحت أظافري.

إنّها لحظة سرياليّة. هذه اللحظة التي تقت إليها كانت باهظة الكلفة.

لا أتذكّر كثيرًا ما حدث بعدما فتحوا البوّابات أمس وأخذوا جايك. رفعوه في البداية كدمية على النقّالة، ثمّ وضعوه في صندوق سيّارة الإسعاف المعقّمة والباردة. لكنّه لم يكن جايك. أليس كذلك؟ في الواقع لا. الشخص هو أكثر من مجرّد جسد، أكثر من لحم ودم وعظام. أكثر من.

مجموع تلك العناصر. جايك كان لطيفًا وشجاعًا، كما كانت له عيوبه. كان إنسانًا مثلنا كلّنا، يحاول أن يجد طريقه في هذه الرحلة حيث تقاطع دربانا لفترة وجيزة جدًّا.

سمعت طرقًا لطيفًا على الباب.

– بيتا، هل أنت بخير؟ أتحتاجين إلى المساعدة؟

كان صوت أمّي رقيقًا جدًّا، وكأنّها خشيت أن تجرحني الكلمات إذا قيلت بصوت مرتفع. ثمّ انفتح الباب، ودخلت وأبي.

كان أبي يضع حول عنقه قميصًا جعل منه حمّالة مرتجلة لتثبيت ذراعه وإبقائها قريبة من جذعه. جحظت عيناي قلقًا لرؤيته.

– لا أظنّه أكثر من مجرّد كسر شعريّ، قال أبي. سأكون بخير.

جلست أمّي بجانبي، وطوّقتني بذراعيها. لم أبكِ. لم أكن أكيدة من أنّه بقيت لي دموع. أكثر ما أشعر به هو أنّني فارغة، كقوقعة إنسان.

– يمكننا الذهاب الآن. بتنا أحرارًا.

أحرار؟ ما معنى هذه الكلمة حتّى؟ في الوقت الراهن، كلّ ما تعنيه هو أنّ لنا حريّة الخروج من هذا المخيّم. وهذا كافٍ.

أخبرني والداي عمّا فاتتني ملاحظته وسط ضباب اليأس الذي أحاط بي، وخلال نومي. أمرت الحكومة بالإقفال الفوريّ لمخيّم موبيوس، وإطلاق سراح كلّ المعتقلين. ووصل عشرات حرّاس الإبعاد في الليلة الماضية لمساعدتنا على توضيب أمتعتنا، وإعدادنا للعودة إلى منازلنا. المنزل.

لم أستطع التركيز على فكرة الدخول بباب منزلنا، والنوم في سريري، ورؤية دايفيد.

الـ«ما قبل»، أو حياتي السابقة زالت إلى الأبد. حين أخرج من هذه البوّابة، فسيكون ذلك إلى عالم يحمل ندوبًا. عالم الـ«ما بعد». وبصراحة، أجهل كيف سأتابع طريقي من هنا. وكيف أترك موبيوس خلفي حقًّا.

ولكنّ عليّ أن أفعل ذلك. قصّة جايك انتهت هنا، وكذلك قصّة سهيل. لكنّ قصّتي لم تنتهِ، برغم أنّني أشعر كأنّني الآن مجبولة فقط من غبار.

ساعدتني أمّي على الوقوف، وسألتني:

- أتريدينني أن أساعدك على توضيب أمتعتك؟

- لا، أجبتها همسًا.

لم أرد أن آخذ معي شيئًا، لا أريد أيّ ذكرى من هذا المكان. لكنّني أعلم أنّه سيبقى مطبوعًا في ذهني إلى الأبد.

- كدت أنسى، قالت لي أمّي وهي تعطيني رسالة، إنّها من عائشة. أتت وكنتِ نائمة، فلم تشأ إيقاظك. عائلتها رحلت باكرًا، لكنّ عائشة قالت إنّها ستراك قريبًا.

شددت الرسالة على صدري. لقد رحلت عائشة. غادروا المخيّم. أغمضت عينيّ، وشعرت بأنّ ذلك أثلَج قلبي قليلًا. ما كنت لأستطيع تحمّل الحياة هنا بدونها. وأشعر بالارتياح الكبير لأنّها بخير، وبقيت على قيد الحياة. بالكاد استطعنا أن نتكلّم عن سهيل، وكان قلبي يتألّم لأجلها.

- سأقابلكما في الخارج. أحتاج إلى البقاء بمفردي لثانية، قلت لأمّي.

دخلت أمّي بهو المقطورة وأخذت كيسًا صغيرًا وضعت فيه حاجاتها وحاجات أبي.

- سنكون في الخارج يا بيتا، قال لي أبي وهو يقبّلني في أعلى رأسي.

اقترب من أمّي وأمسك بيدها الحرّة، ثمّ خرجا معًا، وأغلقا الباب خلفهما.

جلت ببصري على المكان الصغير الذي شغلته ووالديّ لفترة شعرتُ كأنّها دهر. سمعت قرقعة فنجانَي الشاي اللذين كانا يشربانهما، وهما يكابدان لعيش شيءٍ من الحياة الطبيعيّة هنا، لاستحضار شيء من الشعور بالمنزل. سمعت ضحكة عائشة ونحن نتحادث في غرفة نومي. رأيت سهيل من نافذتي الصغيرة يلعب كرة القدم، وذرّات الغبار تتطاير

في ضوء الشَّفق. مرّرت أصابعي على الرمز الإلكترونيّ الخفيّ بداخل معصمي. لن يستطيع أحد غيري أن يراه، لكنّني سأعرف أنّه هناك، وإلى الأبد.

ألقيت نظرة أخيرة على المكان قبل أن أخرج إلى الحرّ والشمس والغبار.

كان موبيوس يشهد ازدحام سوقٍ شعبي في الهواء الطلق. كان الناس الذين لم يرحلوا بعد في طريقهم نحو المركز والبوّابة التي احتُجِزنا خلفها ذات يوم. لوّح بعضهم لي، فحيّيتهم بإشارة من رأسي وبابتسامة. كلمة «سعيدة» ليست الكلمة المناسبة الآن، لكنّني كنت مسرورة بمعرفة أنّ ناديا ونديم وثريّا والآخرين كلّهم يخرجون من هنا عائدين إلى منازلهم.

في موبيوس أشباح. كنت أسمع همساتها كأوراق يابسة تطير في دوائر فوق الأرض القاسية، وأشعر بها في كلّ خطوة أخطوها فوق هذا التراب اليابس والمتشقّق.

أخبرني جايك ذات مرّة عن صديق له كان يعمل منقذًا في سلاح الجوّ. وكان شعار أولئك المنقذين «لأجل أن يحيا الآخرون». كلّ الأمور التي قد تحدث بعد الآن، والتي يجب أن تحدث، أي إلغاء قوانين الإبعاد، وإغلاق مواقع العمليات السرّية، وعزل الرئيس، هي أمورٌ مات أشخاص من أجلها.

ماتوا لأجل أن يحيا الآخرون.

وقفت بين والديّ، ممسكة بيد كلّ منهما. وسرنا في طريق ميدواي للمرّة الأخيرة، متمسّكين بكلّ جزءٍ من ذواتنا لم يُسلب منّا. تجاوزنا المركز ومررنا عبر البوابة المفتوحة، ونحن ننتظر ونتفرّج، فيما كان الآخرون يدخلون صفوفًا إلى الحافلات التي ستقلّهم إلى محطّة القطار، فالمطارات، فإلى ديارهم.

رأيت الخالة خديجة تسير بخطى واثقة، وعصاها بيدها. رأتني أنظر إليها فرفعت قبضتها إلى مستوى كتفها، وحيّتني بابتسامة صغيرة ورقيقة قبل أن تركب حافلة متّجهة إلى حيث الحياة تنتظرها.

همست أمّي في أذني:

– سيأخذوننا إلى إندبندنس، وسيكون دايفيد هناك في انتظارنا. في انتظارك.

خرجت، وأنا غير واثقة ممّا ينتظرني، ومن كيفيّة التعافي من هذا المخيّم الذي بات وشمًا في جسدي. دم وغبار وشريط شائك. كيف يمكن أن تعود الحياة طبيعية من جديد؟ لست متأكّدة حتّى من أنّ جسدي يتذكّر كيف يأخذ نفسًا حقيقيًا، ومن أنّني قد أتوقّف عن النظر ورائي خوفًا، ومن أنّني قد أشعر يومًا بأنّني حرّة.

حملقت في طريق الصحراء.

قد لا أعرف تمامًا إلى أين سأذهب من هنا، لكنّني سأجد وجهتي الحقيقيّة.

خطوت إلى الأمام خطوة صغيرة، بعدها لم أنظر إلى الوراء...

كلمة المؤلّفة

حين تأتي الفاشية إلى أميركا، ستتستّر بالعلم الأميركيّ.

ليس على المرء أن يكون ضليعًا في التاريخ ليرى كيف أنّ التعصّب القوميّ المقنّع بقناع الوطنيّة، يمكنه أن يسيطر على بلد بكامله، مبرّرًا ارتكاب أفظع الأعمال وأكثرها وحشيّة. يكفيه لذلك أن يشاهد نشرة أخبار.

فسياسة «صفر تسامح» التي طبّقتها الحكومة الأميركية على حدودها، سلخت، بالمعنى الحرفيّ للتعبير، الأطفال من أحضان ذويهم وهم يحاولون العبور إلى أميركا سعيًا لحياة أفضل، وكثيرون منهم كانوا ينشدون اللجوء هربًا من الخطر المحدق بهم. ففي الوقت الذي تُكتب فيه هذه السطور، تحتجز الحكومة الأميركيّة، غالبًا في سجون، نحو ثلاثة عشر ألف طفل، من بينهم رُضّع وصغار، أُبعِدوا بالقوّة عن ذويهم، تمهيدًا لنقلهم إلى مراكز إيواء. في أيلول/سبتمبر 2018، نُقل تحت جنح الظلام نحو 1600 طفل مهاجر من تلك المراكز إلى مخيّم في تورنيلو، تكساس، حيث ينامون في أسرّة ضيّقة في خيم تضمّ كلّ منها عشرين طفلًا، ولا يرتادون المدارس. إنّ ذلك المخيّم غير مرخّص

ولا يخضع لمراقبة سلطات رعاية الأطفال. وإضافة إلى ذلك، فقد تلقّى سلاح البحريّة أوامر بإنشاء مراكز اعتقال غير مجهّزة إلّا بالحدّ الأدنى من وسائل الراحة، في مواقع المطارات المهجورة في ولايات كاليفورنيا وأريزونا وألاباما، لاحتجاز ما يقارب 120 ألف مهاجر.

لا يخطئنّ أحد التفسير: إنّها مخيّمات اعتقال. هذا يُسمّى اعتقالًا.

لاحِظوا ما يترافق وهذه السياسة من خطاب ديماغوجيّ عنصريّ، وبحث عن كبش فداء لإلقاء اللوم عليه: فالمهاجرون واللاجئون هم «حيوانات تغزو بلدنا وتصيبه بالأمراض»، كما أنّهم «مغتصبون» و«مجرمون» يستنزفون اقتصادنا. ثمّ عودوا إلى كتب تاريخنا لتفهموا خطاب الإبادة الذي لطالما استخدمه الحكّام المتسلّطون في العالم كلّه.

لاحِظوا أيضًا أنّ نصف الممثّلين الذين ينحدرون من أميركا اللاتينيّة تُسند إليهم أدوار المجرمين في البرامج التلفزيونيّة. هذه الطريقة في تصوير المسؤولين عن الجريمة بالغة الأهمّية. فالقوالب النمطيّة العنصريّة تتفشّى بسهولة في ثقافتنا وسياساتنا، وتؤمّن تغطية ممتازة للسياسيّين العنصريّين، الذين يجرّدون مجموعات بكاملها من الصفة الإنسانيّة، قبل أن يُقرّوا سياسات تنتزع من تلك الجماعات سُبل العيش، وحياتها حتّى، في كثير من الأحيان.

ليست هناك فترة واحدة في التاريخ الأميركيّ قامت وسط فراغ. فالقوميّة والفاشيّة ليستا جديدتين، لا بل إنّهما جزء من التراب الأميركيّ. إنّها الحقيقة التي جعلت هذه الرواية تبصر النور. فأحداث رواية «المُعتقل»، برغم أنّها تدور في مستقبل أميركا، متجذّرة بعمق في تاريخنا. وأنتم تشهدون عليها الآن، في حاضرنا.

في عام 1924، وبتأثير موجة من المشاعر المناهِضة للآسيويين، منعت الحكومة الأميركيّة دخول المهاجرين من آسيا، بشكل شبه تامّ.

وبعد أعوام قليلة، حظرت كاليفورنيا وعدد من الولايات الأخرى الزواج بين البيض والمنحدرين من أصول آسيويّة.

مع انـدلاع الحـرب العالميّة الثانية، وضع مكتب التحقيقات الفدراليّ لائحة الاحتجاز الاحتياطيّ، وهي لائحة تستند إلى البيانات الديمغرافية لتحديد «الغرباء الأعداء» الذين قد يشكّلون تهديدًا للأمن القوميّ. ولكنّها تضمّنت أيضًا أسماء مواطنين أميركيّين من أصل يابانيّ من الجيلين الثاني والثالث. وقد استُخدمت تلك اللائحة في ما بعد لتسهيل عملية اعتقال الأميركيين من أصل يابانيّ.

في عام 1940، وقّع الرئيس فرانكلين د. روزفلت قانون تسجيل الغرباء، الذي أرغم المهاجرين اليابانيّين الذين تجاوزوا عامهم الرابع عشر على تقديم أسمائهم وبصماتهم لحفظها في سجلّات حكوميّة خاصّة، وَقَسَمِ يمين الولاء للحكومة الأميركية. كما خضع الأميركيون من أصل يابانيّ لحظر التجوال، ولتجميد حساباتهم المصرفيّة في كثير من الأحيان، ولإلغاء عقود التأمين الخاصّة بهم.

في 7 كانون الأول/ديسمبر 1941 هاجم اليابانيون قاعدة عسكرية أميركية في بيرل هاربور، هاواي، فقُتل في ذلك الهجوم أكثر من 2400 أميركيّ. وفي اليوم التالي أعلنت أميركا الحرب على اليابان.

في 19 شباط/فبراير 1942، وقّع الرئيس روزفلت الأمر التنفيذيّ رقم 9066 الذي يسمح لوزير الحرب الأميركيّ وللقادة العسكريّين «بتحديد مناطق عسكريّة» على الأراضي الأميركيّة لإبعاد أيّ شخص إليها. هذا القرار مهّد الطريق للاعتقال القسريّ لنحو 120 ألف أميركيّ من أصل يابانيّ، بدون محاكمة وبدون سبب. «مراكز إعادة الإيواء» العشرة تلك أقيمت كلها في مناطق صحراويّة نائية يكاد يستحيل العيش فيها. كان معتقلوها يعيشون في ظروف مروّعة وغير صحيّة، من ضمنها الأشغال الشاقّة.

في 17 كانون الأول/ديسمبر 1944، أعلن الرئيس روزفلت إنهاء اعتقال الأميركيين من أصل يابانيّ. لكنّ معتقلين كثيرين كانوا قد فقدوا منازلهم وأملاكهم وسبل عيشهم. وأُعطي كلّ معتقَل خمسة وعشرين دولارًا وتذكرة قطار للعودة إلى حيث كان يقيم.

لم تثبت تهمة الخيانة أو التحريض على الفتنة على أيّ أميركيّ من أصل يابانيّ خلال الحرب العالمية الثانية. وحتى اليوم، لا يزال فوج المشاة 422 في الجيش الأميركيّ، الذي يتألف بكامله تقريبًا من جنود من أصل يابانيّ من الجيل الثاني، صاحب الأوسمة الأكثر عددًا في التاريخ الأميركيّ.

لكنّ الدعاية الحربيّة صوّرت الأميركيّين من أصل يابانيّ على أنّهم أعداء لأميركا، ووحوش، ومجرمون، وعاجزون عن الانصهار في الثقافة الأميركية.

وها هو التاريخ يعيد نفسه: لاجئون يُرسلون بالقوّة إلى مخيّمات الاعتقال، حظر على المسلمين، جدران على طول الحدود، وحشيّة أفراد الشرطة، احترام لحقوق حائزي الأسلحة يفوق احترام حياة أطفالنا، العنصريّة، رهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا)، التمييز بحقّ ذوي الإعاقات، رهاب المثلية الجنسية، معاداة الساميّة، إلقاء اللوم على المهاجرين وتحويلهم إلى كبش فداء، سياسات الإبعاد، بروز القوميّة والشعور بتفوّق العرق الأبيض بدون قناع بين أميركيّين يحملون العلم الأميركيّ.

أشعر بغضب هائل.

لكنّني أؤمن بالأمل. أؤمن بأنّ مساوئ أميركا قابلة للإصلاح على أيدي الأميركيّين. أؤمن بأنّ الطيبة قادرة على أن تجعلنا عظماء. أؤمن بكم.

حين أرى عشرات آلاف الشبّان والشابّات يتظاهرون في الشوارع للدفاع عن حياتهم، حين أرى أمثالي من الأميركيّين ينزلون إلى الشوارع احتجاجًا على تفريق العائلات عند الحدود، حين أرى لاعبي الفوتبول

يركعون في الملاعب احترامًا، حين أرى تلك الصورة الجميلة والمعبّرة لإيشا إيفانز تقف بصمت بمواجهة أفراد الشرطة في باتون روج، وحين أرى ملصقًا يرتفع في المهرجانات لمسلمة تعتمر حجابًا منسوجًا على صورة العلم الأميركيّ، تغلي في عروقي مشاعر الوطنية، وأشعر بقوّة تدفعني للتصرّف. وأتذكّر لماذا أؤمن بشدّة بهذه الأمّة – أمّة الشعب، من الشعب، ولأجل الشعب.

الفاشية لن تظهر في أميركا ذات يوم. الفاشيّة موجودة فعلًا هنا. ولكنّنا نحن أيضًا موجودون هنا.

لا مكان هنا للتعادل الأخلاقيّ، ولا سيّما من النوع الذي يسمع صراخ طفلة تُسلخ عن والديها فيبرّر ذلك باقتباسٍ من الكتاب المقدّس، ولا طبعًا من النوع الذي يرى في بعض النازيّين الجدد «أشخاصًا ممتازين».

لهذا الصراع وجهان.

وعليكم أن تختاروا

أعرف أنّه ليس بالأمر السهل. رفع الصوت والوقوف يتطلّبان شجاعة.

لكنّ حولكم أشخاصًا سيساعدونكم في وقفتكم، ويمسكون بأيديكم، ويسيرون بجانبكم، كتفًا إلى كتف. قول الحقيقة التي تعرفونها والمجاهرة بحقيقتكم كمقاومين قد يتحقّقان بالطرق الهادئة أيضًا. أرجو أن تجدوا الطريقة التي تناسبكم.

أميركا هي أمّة، نعم، ولكنّها أيضًا فكرة تستند إلى عقيدة. إنّها حقائق أعتبرها بديهيّة، وأعتبر أنّ مفهوم أمّتنا ليس باليًا ولا جامدًا، بل هو مفهوم مرن، وأنّنا قادرون كلّ يوم على تعديله لنصنع منه وحدة أكثر كمالًا وشمولًا. أميركا هي نحن. أميركا هي لنا. وهي تستحقّ النضال من أجلها.

الشعب المتّحد لا يُهزم أبدًا.

قاوموا.

كلمة شكر

نشر رواية «المعتقَل» كان فعل شجاعة ومقاومة. أريد التعبير عن امتناني الكبير للّامعة كيرين كالندر على تحرير هذه الرواية. فإيمانها الراسخ بها، ونظرتها الثاقبة في التحرير قدّما لهذا الكتاب جناحين يحلّق بهما. كذلك أوجّه شكري الصادق إلى ألفينا لينغ، وسيينا كونكسول، وكلّ فريق ليتل، براون بوكس فور يونغ ريدرز (Little, Brown Books for Young Readers) لدعمهم هذه القصّة وثقتهم بقدرتي على أن أرويها. كما سأبقى إلى الأبد مأخوذة بغلاف الرواية الجميل الذي صمّمته دانا ليدل، والذي كان موفّقًا جدًّا في التعبير عن جوهر الرحلة التي قامت بها ليلى.

كذلك أخصّ بمحبّة كبيرة وكيل أعمالي، إريك سميث، الذي جعل هذا الكتاب ممكنًا بفضل تشجيعه ومثابرته واستعداده الدائم للاستجابة لرسائلي الخاصّة العشوائية والهذيانية. الشكر الجزيل أيضًا لكورتيس راسل، وبي أس ليتراسي إيجنسي (P.S. Literacy Agency) لوقوفهما إلى جانبي.

كذلك تعجز كلماتي عن التعبير عن امتناني لكلّ أصدقائي وأفراد عائلتي، القريبين منهم والبعيدين، الذين قرأوا وانتقدوا المسوّدات الأولى لرواية «المعتقَل»، وبادلوني العصف الذهنيّ في شأن فكرة الرواية، وخاضوا معي نقاشات طويلة حول كتابة بعض الكلمات بصيغتها الأصلية في اللغة الأمّ، وشجّعوني في كلّ خطوة. وأودّ أيضًا التعبير عن تقديري العميق لكلّ من: هيتومي ساساموتو، لين ساساموتو، سانغو ماندانا، دونييل كلايتون، كاتي غاردنر، رشما رازفي، دانيال إرينافت، ليزي كوك، غلوريا تشاو، فراني بيلنغسلي، روني دايفس سلزر، راشيل سترول، آنا فاغينر، رينا بارون، كات تشو، كلاريبل أورتيغا، إيمي أدامس، جونيت ستابس، بيتر فرومان، جو أرمسترونغ، كريم مصطفى، جهاد شوشارا.

إلى والديّ، حميد ومزهر، وشقيقتيّ إسراء وساره، شكرًا على دعمكم الدائم وحماستكم لعملي ولخوضكم دائمًا المعركة الصحيحة.

لينا ونوا، أنتما أقوى إشعاعًا من كلّ النجوم: أنا أحبّكما، وأؤمن بكما، ومسرورة جدًّا بأنّني أعيش هذه الحياة معكما. وإلى توماس: شكرًا على حبّك ودعمك غير المشروط، وعلى كونك منارة لي. أنت تجعل هذه الحياة ممكنة. لك منّي كلّ الحبّ.

وفي النهاية، أريد التعبير عن امتناني واحترامي العميقين لكلّ الذين بقوا أحياءً بعد تعرّضهم للاعتقال، في الماضي والحاضر. برواية قصصكم الشخصية، أنتم تذكّروننا بالقيمة الكبيرة لحرّياتنا، وبأهمّية النضال من أجل ديمقراطيّتنا. أنتم تلهموننا للمقاومة. شكرًا لكم على شجاعتكم.

الثورات تُبنى على الأمل.

عامٌ مضى على الاستفتاء الذي أدّى إلى إدراج أسماء ليلى أمين، ابنة السبعة عشر عامًا، ووالديها في سجلّ الحظر؛ وخمسة أشهر على إقرار المدّعي العامّ بشرعيّة إجبار المواطنين على تغيير أماكن سكنهم في زمن الحرب، استنادًا إلى سابقة اعتقال الأميركيّين من أصل يابانيّ خلال الحرب العالميّة الثانية؛ وشهر على إعلان الرئيس الأميركيّ الذي قال فيه: «المسلمون يشكّلون تهديدًا لأميركا»...

على هذه الخلفيات، اقتيدت ليلى، الأميركية المسلمة من أصول هندية، ذات مساء، مع والديها إلى مُعتقَل خُصّص للأميركيّين المسلمين.

بمساعدة أصدقائها الجدد في ذلك المعتقَل، ورفيقها الذي بقي خارجه، وبمساندة قيّمة من حليف غير متوقّع، تبدأ ليلى رحلة نضال من أجل الحريّة، وتقود ثورة ضدّ مدير المخيّم وحرّاسه.

هذه الرواية التي تدور أحداثها في نسخة خياليّة عن الولايات المتّحدة الأميركيّة، وتتسلسل بوتيرة مشوّقة تحبس الأنفاس، هي دعوة للأمل وللنهوض، ونداء صامت للعبور اليوم نحو مجتمعات أفضل.

© Erielle Bakkum Photography

سميرة أحمد - من مواليد بومباي، الهند، عاشت في نيويورك وشيكاغو وكواي.

مؤلّفة «Love, Hate, and Other Filters» التي صنّفتها نيويورك تايمز في فئة الروايات الأكثر رواجًا.

ISBN 978-614-469-764-1
9 786144 697641

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان